مانويـل روخاس سبولبيدا

ابن لص

ترجمة : رفعت عطفة

ليـة (٣)

الاشراف الفني : زهير الحمو

ابن لعبى

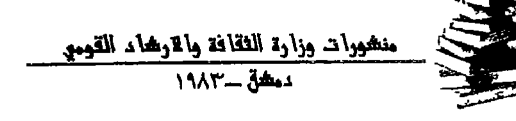


مانويل روخاس سبوليبدا

روايات عالمية «٣٠»



ترجمة : رفعت عطفة



العنوان الاصلي للكتاب :

Manuel Rojas

Hijo de ladrón

Circulo de Lectores

هـــذا الكتاب

ولد مانويل روخاس سيبوليبدا ، في بونوس أيرس عام ١٨٩٦ من أبوين تشيليين وعاش هناك حتى سن الرابعة عشر وتنقل بين بلدان امريكا الجنوبية ، تارة بحثاً عن عمل يقيه الفاقة ، واخرى متشرداً هائماً على وجهه ، يكون ثقافته ويبنيها بنفسه .

وعلى الرغم من انه نشأ في اجواء كانت فيها الرواية المحلية او مايسمى برواية الأرض والعادات في اوجها فانه قد خط لنفسه طريقاً مختلفة تمام الاختلاف ، ينطلق الكاتب من فكرة أن مهمة الرواية والقصة عامة هي التعبير عن ان الا نسان يفكر ويشعر وبالتالي فهو موجود ، ولوجوده حضور لا يمكن للطبيعة ان تلغيه ، فالانسان قيمة بذاته ، وليس على الطبيعة الا ان تخدم مكانته على الأرض . من هذا المنطلق يمكن اعتبار رواياته احدى الركائز الاساسية التي استندت اليها رواية الستينات في امريكا اللاتينية .

ان شخصياته الروائية لا تخرج عن كونها كائنات من الوسط العامي ، فهو لا يبحث عن الشخصية — النموذج ، وانما عن الانسان في وسط اجتماعي يؤثر ويتأثر ، يجوع ويعرى ، ينتزع لقمة عيشه بشق النفس .

ان الزمن في روايات مانويل روخاس ، ليس منطقياً ، أي ان التتالي فيه غير موجود ، فالزمن عنده هو زمن الفكرة ، وورود المادة المروية يكون حسب اهميتها في نفس الكاتب ، وهو مايمكن ان نسميه بالزمن الفالقي ، نسبة إلى الفوالق الجيولوجية ، فما يروى هنا يخنقه آخر يبرز ويأخذ مكانه ، لكنه لا يلبث ان يعود ويظهر من جديد في مكان آخر .

ان رواية « ابن لص » التي بين ايدينا والتي كتبت عام « ١٩٥١ » تتناول أحد جوانب الحياة في امريكا اللاتينية . انها حياة ابن لص وعائلته ، حيث يروى لنا أنيشيتوآبيا ، ابن اللص ، حياة والده ، لص المجوهرات في بونوس أيرس و حياة اصدقائه الذين عرفهم من خلاله . انها حياة البؤس والفقر والملاحقة والترصد والهرب ، حياة الانسان الذي دفعه نظام الاستغلال القائم ليعيش على هامش المجتمع مثل ملايين الناس الذين نبذهم المجتمع الرأسمالي ، وهمشهم ودفعهم للبحث عن لقمة العيش بطرق يسميها هذا المجتمع غير شرعية . لكن ماذا يفعل ابناء صغار تموت امهم ويسجن ابوهم لزمن غير معلوم ! ! يبيعون اثاث البيت ! ! هذا مافعلوه ، ولكن ماذا بعد ! ! كيف يدفعون ايجار البيت ! ! الام ينتهون ! ! تلك هي الرواية .

للكاتب روايات ومجموعات قصصية أخرى مهمة منها المجموعة القصصية: رجال من الجنوب (١٩٢٦) والروايات التالية : مراكب في الخليج (١٩٣٢) أفضل من النبيذ (١٩٥٨) وظلال على الجدار (١٩٦٢) .

القسم الأول



- ١ -

.. كيف ولماذا وصلت إلى هناك : لاريب أنها الأسباب نفسها التي أوصلتني إلى أماكن أخرى كثيرة . إنها قصة طويلة وأدهى من ذلك أنها غامضة . تلك هي خطيئتي ، فأنا لم أستطع قط أن أفكر بالطريقة التي يفكر بها المتر . خطاً وراء خط وسنتيمتراً وراء سنتيمتر حتى يصل العدد إلى مئة أو ألف . وكذلك ذاكرتي فهي ليست أحسن حالاً بكثير : إنها تقفز من حدث إلى آخر متناولة أول الأحداث التي تظهر أمامها ولاتعود القهقرى إلا إذا انبثقت الأحداث الأكثر كسلاً أو كثافة من أعماق الحياة الماضية . أعتقد أنني في البداية أو فيما بعد كنت سجيناً ، ليس لشيء هام بالطبع : السطو على دكان مجوهرات ، كنت ولازلت أجهل وجودها وموقعها . كان لي ، كما يبدو ، شركاء أجهلهم أيضاً ، لكنني عرفت أسماءهم وألقابهم تماماً كما عرفوا أسمائي وألقابي . الشيء الوحيد الذي عرفته إلى حد ما كان للشرطة ، مع أنني لست متأكداً من ذلك تماماً . كثيرة هي الأيام التي قضيتها في السجن والليالي التي نمتها على الأرض الاسمنتية ، دون بطانية ، مما جعلني أصاب بذات

الرئة التي أعقبها سعال ، ذلك السعال الذي كان يصدر عن مكان ما في الرئة المجروحة . وعندما أطلق سراحي وخرجت ناجياً من الموت والعدالة ، كانت ثيابي المجعّدة والملطخة بالدهان تبدو عليّ وكأنها علقت إلى مسمار . ماذا أفعل ؟ قليلة كانت الأشياء التي كان باستطاعتي القيام بها ، على الأغلب أموت ، لكن الموت ليس سهلاً ، لم يكن باستطاعتي أن أفكر بالعمل ، فقد أقع عن السلم ، ولا حتى بالسرقة : فالرئة المجروحة كانت تمنعني من التنفس بعمق ، ولم يكن العيش سهلاً .

بهذه الحال وبهذه التوقعات خرجت إلى الشارع .

— أنت طليق . وقع هنا . عريف الحرس !

شمس وريح ، بحر وسماء .

— ٢ —

كان عندي في ذلك الوقت صديق ، وهو كلّ ماكنت أملكه لعدة أيام ، لكنني فقدته ، تماماً كما يفقد المرء شيئاً عزيزاً عليه في شارع مزدحم أو على شاطىء مقفر . لم يمت ، لم نتشاجر ، كل مافي الأمر أنه رحل . وصلنا إلى بالبارايسو تدفعنا الرغبة في الابحار على أية باخرة ، قد تقلع نحو الشمال ، لكننا لم نتمكّن من ذلك ، على الأقل

أنا لم أستطع . مئات الناس ورجال الشرطة ، سائقو القطارات وأرباب العمل ، وكلاء الشحن والقناصلة ، رؤساء المرافىء أو مدراؤها وآخرون كثيرون وغيرهم من الكائنات المخيفة دنا وهناك وفي كل مكان يمنعون المرء من التحرك إلى حيث . أو كما يريد .

— أريد تذكرة ابحار .

— ماجنسيتك ؟

— أرجنتيني .

— أين بيان الولادة ؟

— ليس عندي .

— وهل طلبته ؟

— لم يسبق أن حصلت عليه .

— وكيف دخلت إلى تشيلي ؟

— في عربة قطار محمّلة بالحيوانات .

(لم أكذب . الحقّ على سائق القطار ، الذي أثارت حالتنا غيظه بدل أن تدغدغ عواطفه . ولم يبال بتوسّلاتنا إليه — أين الضرر الذي قد يحل بمصالحه لو سمح ، لنا ، نحن الشياطين الخمسة ، بالسفر متعلقين إلى عربات الشحن ؟ — لم يجد نفعاً أن واحداً منا انفجر بالبكاء بعد أن

أراه حذاءه الممزّق ، وأكد له أنه يمشي منذ عشرين يوماً وأن قدميه قد تقرّحتا وأنه سيموت برداً وجوعاً في وادي أوسبايّاتا المقفر إن لم يسمح له بالسفر في القطار ، لكنه لم يخرج بفائدة ، رغم أنه استخدم أفضل ما عنده من نحيب . لأن سائق القطار الذي كان يتسلّى به أكثر مما يرثي لحالته ، كشّر عن أسنانه للمرّة الأخيرة وأطلق صفرة تحثّه صفرات القاطرة واختفى في الظلام يهتدي بفانوسه . انطلق القطار . وما أن انطلق حتّى مسح صاحبُ الحذاء الممزّق دموعه ومخاطه وحرّك ذراعه بامتعاض باتجاه سائق القطار الذي اختفى وراح يركض خلف العربات ، إلى حيث اتجهنا جميعاً . كانت الساعة الثانية أو الثالثة والريح تسلخ الآذان ونحن على مسافة عدة كيلو مترات من الحدود التشيلية . لم تكن تهديدات السائق لتخيف غير الكسيح . بدأ القطار سيره المعتاد فوراً وبقيت برهة واقفاً على درجة السلم أمسك به بيد وأسند متاعي باليد الأخرى . بعد فترة بدأت أشعر أنني غير قادر على الاستمرار بهذه الوضعية طوال الليل فقد راح التعب الشديد والنعاس العميق يتملّكانني رغم أنني كنت أعلم أن النعاس أو الكبو يعني بالنسبة لي السقوط والموت على الخط الحديدي . شعرت لمرتين أو لثلاث ، أن عضلاتي ، بدءاً من عضلات العينين وانتهاء بعضلات القدمين ، كانت تهجرني إلى النعاس . ظهر القطار ، بينما كنا نجثو ، مثل الحجارة ،

على الأرض ، ننام بعد أن قطعنا أربعين كيلو متراً ونيّف ، خطوة بخطوة ، دون أن نأكل ، لأن التعب لم يسمح لنا . جمعنا ثيابنا باللمس ، اصطدمت رؤوسنا ببعضها في الظلام . لأننا نمنا سوية وركضنا نحو العربات ، كنت الأخير . أنا السعيد صاحب الحقيبة الملعونة ، التي كان عليّ أن أفتح أقفالها وأغلقها في كل مرّة أريد أن أضع فيها أو أخرج منها شيئاً .

بالنظر إلى الأعلى كان باستطاعتي أن أرى السماء وجانب الجبال . على الجوانب كانت الظلمة وبعض بقع الثلج. وفي الأعلى وفي الأسفل وفي كل مكان كانت الريح . بدايات الربيع الجبلية القارسة تنفذ إلينا من خلال السراويل والأكمام والقبات ، وتجمّد أيدينا وتملأ عيوننا بالتراب وذرات الفحم وتهزّنا كالخرق . كان عليّ أن أختار بين الموت أو البقاء يقظاً . لكنني لم أكن أملك الوعي الذي يساعدني على ذلك . بدا وكأن ضجيج القطار يسحقني . حتى إذا نظرت لعدة ثوان بعينيّ شبه المغمضتين إلى الخطين الحديديين اللذين كانا يلمعان هناك في الأسفل ، شعرت بهما يدفعانني أيضاً بانسيابهما الناعم إلى النوم والموت . تصوّرت لدقيقة أنني سأقع وأموت : كأن الأرض كانت تناديني ، انها قاسية لكنني أستطيع الاستراحة عليها . انفجرتُ مجدفاً ، فما كان من رجل الحذاء الممزّق ، الذي تعلّق إلى السلم الأمامي

للعربة الملاصقة وكان يحتك ظهره بظهري كلما خفّف القطار من سرعته واصطدمت صدمات العربات ببعضها ، إلا أن سألني : ماذا بك ؟ لم أرد عليه ، بل تسلّقت السلم وصعدت إلى السطح ، ومن هناك ، حيث كانت الحقيبة تضايقني دلفت عبر النافذة إلى داخل العربة . لم يعد عليّ أن أتعلّق بشيء ، إضافة إلى أنني تخلّصت من خطر مواجهة جديدة مع السائق القاسي القلب . لم يخطر لي ماكان ينتظرني : حين سقطت بين الحيوانات . حدثت رعشة وراحت الحيوانات تدور وسط جلبة أظلافها الخرساء وفارقني النعاس والبرد والجوع . اضطررت فجأة أن أجري معها . مستفيداً من الفراغ الذي تتيحه لي ، حتى إذا فاجأتني بحركتها التراجعية ثبّت ظهري إلى جدار العربة ومددت ذراعيّ أدفع بيديّ وحتى بمرفقيّ قفا فدّان من الفدّادين ، أوقفه وأمنعه من سحقي . دارت الحيوانات عدّة دورات وسكنت واستطعت أن أتنفس الصعداء لكن العطفة الثانية أثارتها من جديد وراح رجل النحيب ، الذي انتقل إلى السلّم الذي غادرته ، يبكي من جديد لكن بكاءه هذه المرة كان من الضحك : فأرض العربة المغطاة بالروث الطريّ كانت مثل أرض صالة تزلّج وكنت أحمل في يدي تلك الحقيبة التي عليّ ألا أفلتها إن كنت لاأريد أن أراها تتحوّل إلى عجينة وكنت وأنا أرقص بين الفدادين صورة طبق الأصل عن الروح المتواضعة التائهة . على هذه الحال دخلت تشيلي . إذن ماحاجتي إلى بيان الولادة ؟) .

- ٣ -

- ياسيّد ، أنا بحاجة إلى وثيقة تثبت أني أرجنتيني .

- هاها ! ومن يثبت لي أنك كذلك ؟ هل لديك بيان ولادة ؟

- لا ، ياسيد .

- ودفتر خدمة العلم ؟

- لا ، ياسيّد .

- إذن ؟

- إنني محتاج لهذه الوثيقة ، لأنني بلا عمل ومضطر الابحار .

- اكتب واطلب أوراقك . أليس عندك أقارب في الأرجنتين ؟

- بلى ، ولكن . . .

- إنها الطريقة الوحيدة : تأتيني بالأوراق فأعطيك الوثيقة التي تحتاج . وثيقة بوثيقة .

أين ولدت ؟

(حسناً . ولدت في بونوس أيرس ، لكن لاقيمة لذلك . المهم هو الوثيقة . لم يجدني نفعاً أنني قلت هذا لأن الأشخاص الموظفين ، الذين

قلت لهم ذلك لم يظهر على وجوههم أي حماس أو تعاطف فقد كانت تنقصني الوثيقة ، وأسوأهم كانوا أبناء وطني : فهم إضافة إلى أنهم لم يعيروا كوني من بونوس أيرس أهمية . لم يصدّقوني ولكي يصدقونني كانوا يطلبون مني الوثيقة ! ما أغرب أمرهم ! لايصدقونني ، لكنهم يصدقون ورقة يمكن أن تكون مزوّرة بينما ولادتي لايمكن إلا أن تكون حقيقية . ليس من الصعب أن يعمل المرء وثيقة بطوابع وأختام تؤكد أنه تركي ، ومع ذلك فليس من السهل أن يولد المرء في تركيا . كانت لهجتي لاتقبل الجدل ، لأتكلم كما أريد ، بصوت عال أو منخفض ، فأنا أرجنتينيّ بل ومن بونوس أيرس ولايمكن الخلط بيني وبين البيروي أو الكوبيّ ولا مع أحد من ريف بونوس أيرس ، رغم أن نبرتي كانت ناعمة ، فقد كنت سليل أناس ، لغتهم الأصلية هي الاسبانية ، وخالية مثلاً من شوائب الرجل ذي «الأصل الإيطالي». ورغم ذلك لم يلق هذا أية أهمية ، لذا أصبح سيّان عندي أن أكون قد ولدت هناك أو في جبال التيبت ، وإذا كنت أصرّ بسذاجة على مواطنيّتي البونوس أيرسيّة ، فذلك لأنه أسهل عندي من التأكيد على أنني ولدت في ماتو غروس أو في بلاد الرجال الحمر الوجوه . . . طبعاً هذا لايحدث إلا مع تلك النوعية من الناس ، أما مع النوع الآخر ، مع الذين لهم ظروفي نفسها ، هؤلاء الذين نادراً مايملكون الوثيقة أو يملكون جنسيات عديدة فيحدث

العكس : يكفي أن أقول لهم أنني من بونوس أيرس حتّى يقبلونه كمسلّمة . هؤلاء يثقون بالأشخاص وأولئك بالأوراق . مازلت أذكر دهشتي يوم التقيت رجلاً طويلاً هزيلاً بأنف معقوف وعينين رماديّتين وحنجرة متناسقة مع أنفه ــ كانت نسخة طبق الأصل عنه ــ وجدته يتأمل بغرابة الأسماك الصغيرة في بركة إحدى الساحات العامة في مدينة مندوثا ، روى لي ، بعد أن التهم عدة عناقيد من العنب قطفت من أحد الكروم ، والذي فتحت له صدري تقريباً ، إنه باسكيّ . باسكيّ ! لو أن ذلك الرجل أخرج من جيبه فرخ تمساح أو فرخ نعامة أمريكية بدل أن يقول لي هذا لما كانت دهشتي ولا فرحي بهذا العمق . باسكيّ ! عرفت كثيرين في بونوس أيرس البعيدة ، لكنهم ، وكانوا جميعاً بائعي حليب ، بسراويل فضفاضة ومناديل مربوطة إلى أعناقهم ، لكنهم اختفوا مع اختفاء طفولتي ولاعلاقة لهم بهذا الذي وجدته في إحدى الساحات العامة : هذا كان لي ، سألته ، بعد أن شجعته على تناول عنقودين آخرين وكنت أكثر هدوءاً ، سألته كل مايمكن لرجل أنقذ حياة رجل آخر ، أن يملك من حقّ في السؤال . وبينا كنّا ندخن بعض السجائر الموبوءة ، التي قدمها لنا أحد الصعاليك الذين عرفتهم في مندوثا وجاء مثلنا ليبرهن عن جودة العنب ، رجوته أن ينطق لي بعض الكلمات بلغته الأصلية ، لكنه ، لاريب أراد أن يبهرني ، إذ فعل

أكثر مما طلبت منه ، لقد غنّى ، نعم غنّى ، طبعاً لم أفهم شيئاً ، ولا كلمة واحدة : دون ــ دون ــ غا ــ سي ــ بانيوليه . ومع ذلك ورغم أنني لم أفهم شيئاً وأن الأغنية وكلماتها يمكن أن تكون ، بشكل أو بآخر ، باسكية أو تشيكية أو لابونية لم أشكّ واو لثانية واحدة ، أنها ليست كذلك . لماذا كان سيخدعني ؟ . . . واختفى ذلك الباسكي ، كما اختفى الباسكيون الآخرون ، في عزّ أيام شبابي . كان قبطاناً بحرياً . ماذا كان يفعل في مندوثا وعلى بعد آلاف الكيلومترات من البحر . أجابني بحركة يمكن أن تعني الغرق أو السير في طريق التهريب . لم أره بعدها ، ومع ذلك فلو جاءني شخص بعد يومين وقال لي أن ذلك الرجل لم يكن باسكياً وإنما قطلانياً وأن ماغناه كان ساردانا وليس تورتيكو ، لمرّ ذلك الشخص ، دون أدنى شك ، بلحظات عصيبة) .

ـ ٤ ـ

أكتب ؟ لمن ؟ ليس أقلّ استحالة أن يطلبوا مني أن أجد جملاً يمّر من خرم الابرة من أن أجد أحد أقربائي في إحدى مدن الاطلسي الجنوبية المحببة اليهم . فقد كان أقربائي بدواً ، لكنهم ليسوا بدو بوادٍ ، رعاة ابل وحمير ، وانما بدو مدن ، يتشردون من مدينة إلى أخرى ومن جمهورية إلى جمهورية . كانوا ينتسبون إلى قبائل تفضل القطعان

على البقول والبحر على المقاعد الفاخرة ومازال أفرادها حتى الآن ، بحظوظ متفاوتة ، يرفضون أن يعملوا ثماني ساعات في اليوم ، كما يرفضون عقلنة العمل وقوانين السير الدولية ، ليختاروا أعمالاً ، بعضها بسيط وبعضها الآخر معقّد أو خطير ، تسمح لهم بمتابعة عادة التشرد على امتداد تدرجات الودرة الثلاثمئة والستين ، أناس رُحّل ، عامة مايكونون محتقَرين ، بل وأكثر الأحيان مكروهين ، راح العالم يسد عليهم الدروب شيئاً فشيئاً حاسدين لهم حريتهم . ومع ذلك فقد عاش آباؤنا ، في فترات نمو أبنائهم ، حياة استقرار ، هذا اذا استطعنا أن نسمي حياة الناس الذين يبدلون خلال فترة طفولة ابنهم ومراهقته أماكن اقامتهم بقدر مايبدلون من أحذية . كانوا مثل الطيور المهاجرة يفضلون الاستقرار في المكان الواحد إلى أن يصبح باستطاعة أفراخهم الاعتماد على أنفسهم ، لكن استراتيجية الاسرة الاقتصادية من جهة والمؤسسات التشريعية من جهة أخرى وقفت في وجههم : كانت مهنة والدي معقدة وخطيرة . لم نعرف ، لاأنا ولا أخوتي ، في طفولتنا المبكرة ، المهنة التي كان يمارسها والدي ، كما لم تستطع والدتنا ذلك في الشهور الأولى لزواجها : والدي كان يؤكد انه تاجر تبغ ، رغم انه لم يبرهن على ذلك إلا بالتدخين ، وربما قالت له والدتي بعد الزواج بوقت قصير ، بين الساخرة والفضولية ، انها

لم تعرف تاجراً ، مثله ، لايخرج نهاراً من البيت ، في حين يخرج كل ليلة ، ليعود عند الفجر فقال لها والدي ذاهلاً ومبتسماً تحت شاربه الكستنائي ، انه لم يكن في الحقيقة تاجراً ، وانما هو مقامر ومرّ كمقامر ، لكن ليس لوقت طويل ، فقد خرج ذات ليلة ، بعد شهر أو شهرين دون أن يرجع ، كعادته ، لينام ، ومر اليوم الثاني والثالث دون أن يعود ؛ كادت والدتي تهيم على وجهها في شوارع ريوده جانيرو المجهولة عندما برز أمامها رجل . كما يبرز الساحر ، يتسلّل أكثر مما يمشي ، ينساب عبر الأبواب ، أكثر مما يدخلها . عرفت والدتي من خلال الكلمات البرتغالية ، والأخرى الاسبانية أن زوجها يطلبها . انساقت والدتي بذهول مع ذلك الشبح الذي اذا مرّ بشرطي تحوّل إلى متسلّل ، حتى وصلت إلى بناء داكن ، حيث طلب منها الشبح ، الذي يدلّ لونه وشكله على أنه ولد خلف تلك الجدران ، مادّاً اصبعه الطويلة قائلاً :

— اسألي هناك عن إلغاييغو (١) .

— ومن يكون إلغاييغو ؟

---

(١) El Gallego : الغاييغو هو الشخص أو الشيء المنتسب في الأصل إلى اقليم غليسيا في اسبانية ، لكنه يطلق في أمريكا اللاتينية على المهاجرين الاسبان بشكل عام . (المترجم) .

ـ انه زوجك ـ همس لها الرجل الهفهاف ، وقد ذهل بدوره .
وما ان لفظ هذا ، حتى اختفى في هواء ريوده جانيرو الرائق والحار .
إنه السجن الذي كان زوجها يقبع خلف إحدى نوافذه الحديدية .
لم يعد ذاك الكوبي النظيف الوديع خوسيه دل رئال إي أنتيكيرا ، الذي كانت تعرفه منذ يومين وقال لها انه يدعى بهذا الاسم ، وإنما الأسباني القذر والأحمق أنيثيتو ايبيا ، الملقب بالغاييغو ، اللص الشهير . أمسكت والدتي بقضبان الشبك الذي لم تكد يداها تستطيعان الاحاطة بها ، وانفجرت بالبكاء ، بينما أخرج الحليقي أصابعه الملطخة بشيء أصفر .وقال لها وهو يداعب يديها : « لاتبكي ، ياروساليا ، فهذا لن يطول . أحضري لي ثياباً وسجائر » . حملت له الثياب والسجائر فعاد زوجها نظيفاً وبشكله السابق تماماً لكنه هذه المرة خلف القضبان . ونفدت النقود ذات يوم ، الا أن مالكة البيت هرعت منفعلة وأخبرت والدتي انه يوجد سيد كولونيل يسأل عنها . تساءلت والدتي : « تراه . . . » وتذكرت الرجل عديم الوزن تقريباً ، الذي لم يبدُ لها انه يمكن أن يكون كولونيلاً ولاحتى عريفاً . لم يكن هو . بدا هذا وكأنه يتشعشع وذاك الذي عرف والدتي بنفسه بدا جديداً ببشرته المتوردة وشاربه الأشقر وعينيه الزرقاوين ، بثيابه وحذائه . قال لها بصوت كأنه يُدَشَّنُ لأول مرة : « أنا من بلدكم وأدعى نيكولاس ، صديق زوجك ورفيقه في مرحلة من المراحل ،

لاتحزني ، سيخرج قريباً» . ثم غادر بعد أن ترك على الطاولة ربطة من الأوراق النقدية النظيفة وكانت مثله غير مجعدة ،وجديدة . انبهرت والدتي من ذلك الشخص . ورغم انها لم تره بعد ذلك سوى خلف حاجز عال من القضبان وشبك من الشريط قوي.فقد عاشت مبهورة لذكراه . فظهوره غير المنتظر في تلك اللحظة وموقفه وتظافته ونعومته وكرمه جعله يتحول في عينيها إلى مايشبه الملاك ، لذلك كان صوتها ينم عن استعدادها للذهاب إلى أي مكان في العالم عندما أخبرها والدي بعد عدة سنوات ان نيكولاس يحتاج للمساعدة ، وهي تسأل : « أين هو ؟ » وأجابها والدي ، الذي نفث الدخان من بين شاربيه اللذين دبّ الشيب فيهما وترك قالب الشمع الذي يعمل فيه ان الملاك لم يكن بعيداً « انه في السجن . . هل تذكرين الأوراق النقدية التي كان يهديها في البرازيل ، منذ خمس وعشرين سنة في أوشوايا . » حلمتني والدتي معها : كان نيكولاس ، هناك ، جديداً ، ببشرته الوردية وشاربه الأشقر وعينيه الزرقاوين وقبعته ولباس السجن وحتّى رقمه ، الذي يتميز به ، كان يبدو حديث الصلك في السبيكة الخشنة . تحدثا بصوت منخفض لكن بحرارة بينما رحت أنظر إلى الناس من حولنا ممسكاً بتنورة والدتي : سجناء ، حراس ، نساء تبكي ، رجال يجدفون أو يلزمون الصمت كأن عقولهم شاردة طليقة . وأطفال يمصون السكاكر بكآبة ،

أو يبكون مع أمهاتهم . مرر نيكولاس ، بواسطة سلك طويل ، قطعة نقدية ، من خلال القضبان والشبك السلكي ، لكنها لم تكن نظيفة ولا كانت خالية من التجاعيد مثل أوراق ريوده جانيرو وانما مهصورة ، مهترئة ، ومترّهلة وكأن أحداً حملها مطوية في عدة أماكن مخفية في نعل حذائه ورغم ذلك ، لا الورقة النقدية ولاجهود والدتي عادت عليه بالفائدة : فبعد محاولتي هرب ، اضطر زملاؤه في إحداهما ، إلى إخراجه من داخل أحد المجارير شدّاً بعد أن كاد يختنق . ونقل على أثرها إلى أحد السجون الجنائية في الجنوب كما نقل على أثر محاولة هروب أخرى ، فشلت بسبب صرخة الألم التي أطلقها عندما سقط على قدميه ، إلى « تييرا ده فوغو » ، حيث قضى نحبه في محاولة هروب عبر الغابات الماطرة ، لاشك انه مات جديداً مثلما عاش . رغم كل تأكيداته لم يطلق سراح والدي بسرعة : فقد احتاج القضاة ، هؤلاء الذين لاخيال عندهم ، لأيام طويلة كي يقتنعوا ، رغم انها كانت قناعة ناقصة ، ان أنيثيو ايبيا لم يكن مجرماً ، كما كانوا يرون ، شرعياً وانما كان رجلاً صالحاً في المجتمع ، لأنه تاجر ، كما أكد المحامي بدوره من خلال الشرع : لأن زيارته إلى باتي في الجناح الذي كانت تشغله في الفندق كانت بهدف إطلاعها على بعض المجوهرات التي كان يريد أن يبيعها لها . مجوهرات : نعم ، ياسيدي القاضي مجوهرات .

زوّده أحدُ الصاغة الألمان ، زبون لصوص ريوده جانيرو ، بصندوق مليء بالخواتم والمشابك والأشياء الرخيصة الأخرى . ولماذا اختار تلك الساعة ؟ وفي أية ساعة يستطيع مقابلة ممثلات المسرح ؟ وكيف دخل ؟ كان الباب مفتوحاً . يعلم السيد القاضي جيداً ان المسرحيين فوضويون ، جميع الفنانين كذلك ، وموكلي وبعد أن نادى عدة مرات . . . »
حمل المحامي والدتي التي كانت على وشك الولادة ، إلى حضرة المحكمة فأكدت هناك ، ليس فقط ماطلبه منها رجل القانون بل وبكت أيضاً أكثر بكثير مما كان قد لقنها . عاد الجليقي إلى بيته بعد أيام من ذلك وكانت قد حدثت ولادة خواو ، ابنه البكر . لكنه لم يأت وحيداً ، كان يرافقه شرطي مزّود بأوامر تقضي ألا يتركه وحيداً لافي الشمس ولافي الظل وأن يسفره في أول باخرة تبحر نحو الجنوب أو نحو الشمال . أيّام وانطلق والدي نحو الجنوب برفقة زوجته التي حملت بين ذراعيها طفلها البكر . وذهب المحامي بمحفظته المليئة بالأوراق النقدية ، التي كان يوزّعها نيكولاس ، إلى الميناء . كان هناك أيضاً الرجل المفهاف ، الذي راح ينظر إلى والدي بعين وإلى الشرطي بالعين الأخرى . . . واستمرت الحياة على هذا المنوال ، من مدينة إلى أخرى ومن جمهورية إلى جمهورية ، أولاد يولدون وآخرون يكبرون ووالدي يختفي فترات تطول وتقصر ، يسافر ويتخفى أو

يقبع في زنزانة ثم يعود ويظهر بلحية جميلة . وهو الحاذق دائماً ، يصنع قوالبه الشمعية ومفاتيحه وأقفاله — . عندما كنت أفكر به ، كنت أتساءل : لماذا ؟ أكثر من مرة ، ولنحكم من خلال الاسباب التي كان رجال الشرطة يبحثون عنه ، كان يملك بين يديه مبالغ كبيرة من الأموال ؛ كان رشيداً ، هادئاً ، اقتصادياً وجدياً في أموره — . لولم يكن لصاً لاختير من بين الكثيرين كأفضل عامل يحلم به البرجوازيون والماركسيون في العالم كله ، رغم ان هذا سيكون لمقاصد متباينة ودوافع مختلفة . كانت أقفال البيوت وأحياناً الغرف التي كنا نسكنها ، تعمل ، كأدوات غاية في الدقة فهي لاتصر ، ولا تبدي أية مقاومة أمام المفاتيح وتكاد تنفتح لمجرد اقتراب اليد منها ، وكأن بينها بين المعدن البارد والأصابع الدافئة عشقاً خفياً . كان يكره الأقفال المفككة أو العنيدة أما المفتاح المرتبك أو القفل المتمرد فقد كان عنده مثل مشبك الملاوي المستنفذ في القيثارة عند عازف الكونشرتو . كان ينتزع الأقفال يتأملها بفضول وحنو وكأنه يسألها لماذا هي منزعجة ، ثم يتحسسها هنا ويتركها هناك ، يضغط هذا ويبرد ذاك بمهارة فائقة ليعيدها بعد ذلك إلى ماكانت عليه ويدرّج ضغط البراغي ويدخل المفتاح فاذا بالقفل يعود ليقفل ويفتح دون احتكاك ، دون ضجة .

وبفضل هذه المهارة لم يكن عندي من أكتب له .

— ٥ —

صحيح انني مررت بلحظات حرجة ، لكن بدا لي أن من الطبيعي والمنطقي أن أمر بها ، ربما كانت ضريبة علي أن أدفعها مابين حين وآخر ، لأحد ما مجهول لكنه ملحاح ، ولم يكن من العدل أن يدفع شخص واحد ، والدي، عن الجميع دائماً . كنا قد كبرنا ، نحن الاخوة الأربعة ، وكان علينا أن نبدأ بدفع حصتنا ، لكن وبما انه لم يكن باستطاعتنا أن ندفع ما كان يدفعه آخرون ، سواء كان عملاً أو مالاً فقد دفعنا الشيء الوحيد الذي كنا نملكه آنذاك ، كأبناء لص : الحرية والدموع . كنت دائماً أحب الخبز المدهون بالزبدة والمرشوش بالسكر ، وعندما عدت في ذلك المساء من المدرسة ، وقررت أن أتناول قطعة منه وأن أشرب كأساً من الحليب ، دوت طرقات ثلاث على باب الدار الخارجي فرفعت والدتي ، التي كانت تخيط إلى جانبي ، رأسها ونظرت إلي : كانت الطرقات غريبة لأن جرس الباب كان على مرأى من الجميع . اذن فالطارق لم يكن من أهل البيت ويريد من الآخرين أن يسمعوه حتماً . ترى من يكون ؟ لم يكن قد حان وقت وصول أخوتي ، اضافة إلى أنه كان بمقدورهم أن يجدوا زر الجرس وعيونهم مغمضة . أما والدي فلم يحدث أن قرع الباب ولا الزر ولم نحس ولو مرة واحدة بوصوله ، فجأة كان يظهر أمامنا ، كساحر ينبثق من الليل أو الهواء .

ستتذكر ، نحن أبناؤه ، طيلة حياتنا . تلك الليلة التي ظهر فيها في باب غرفة الطعام ، حين كنا على وشك الانتهاء من العشاء الصامت . كان قد مضى علينا وقت لم نره فيه – ربما كان سجيناً – عندما رأيناه ينبثق بلحيته النامية التي دب فيها الشيب ، انفجرنا بالبكاء معاً ، وكأننا على اتفاق مسبق ، ربما فرحاً وربما خوفاً . . . ومع ذلك فقد بدا لي أن والدتي كانت على علم بالأمر . اذ قالت لي وهي تنهض :

– هيا اشرب هذا الحليب بسرعة .

شربته بجرعة واحدة ووضعت قرابة نصف الرغيف في فمي . شعرت بارتباك وبأن شيئاً مجهولاً سيحدث لي . خبّأت والدتي الخيوط والإبرة والكشتبان والثوب الذي كانت ترفؤه ونظرت إلى أثاث غرفة الطعام وكأنها تريد أن تتأكّد من نظافتها أو ترتيبها وسوّت وزرّتها ونظرت إليّ أيضاً ، نظرة تختلف عن سابقتها ، كأنها تُعِدُّني لما حدث فيما بعد . كنت على وشك الإنتهاء من تناول الرغيف الذي لم آكل ألذّ منه في حياتي : كانت الزبدة طرية والسكر الذي يتلألأ فوقها تمنحني إحساساً باللذة عندما كنت أتلقّفها بلساني من الشفتين . وحين خرجت والدتي إلى فناء الدار اهتزّ الباب تحت الطرقات الثلاث الجديدة ، التي كانت أقوى وأسرع ، وفي نهاية الطرقة الأخيرة – يبدو أنهم كانوا اثنين أو ثلاثة – رنّ الجرس رنيناً طويلاً ومتواصلاً وكاد الذي

يقرع الباب أن يطيح به . أكلت الرغيف ورفعت الكأس والصحن ووضعتهما على الصوان ثمّ أتيت على فتات الخبز المتبقي على الطاولة .

بين هذه الحركة وتلك سمعت والدتي تفتح الباب وصوت رجل قاس ، فظّ لكنه ينطوي على شيء من الحزم ينطق بما يشبه السؤال وصوت والدتي الذي كان عند الاجابة ناعماً بشكل مذهل ويكاد يكون باكياً ، أما الجملة التي لفظها الرجل في الحال فقد بدت وكأنها تحرق البرعم المرهف . جرى حوار وصرّ الباب ، كما لو كانوا يدفعونه بوحشية ثمّ سمعت خطوات رجل يتقدم على بلاط الممر . أصخت السمع . كانت المسافة بين الباب الخارجي وغرفة الطعام خمس عشرة خطوة ، خمس عشرة خطوة عددتها مرّات كثيرة حين كنت أقطع المسافة بأشكال مختلفة : مشياً إلى الأمام وإلى الخلف ، من هذا الجانب مفتوح العينين ومن ذاك مغمضهما ، دون أن أجد فارقاً ، لا كبيراً ولا صغيراً . كانت خطوات والدتي المستعجلة ترنّ خلف خطوات الرجل . كان عدد الخطوات بالنسبة لها ثماني عشرة أو تسع عشرة ، نظراً لقصر قامتها . . .

وعندما ظهر الرجل المجهول — الذي لم ينتابني أدنى شكّ بأنه كذلك — أمام باب غرفة الطعام كنت أقف وراء الطاولة ، أحدق

بالنقطة التي كان سيظهر فيها . ألحس شفتيّ . لم يخطر لي أن أجلس أو أن أتزحزح من المكان الذي كنت فيه في اللحظة التي مددت فيها يدي إلى الفتات . ربما كان الحوار أو الخطوات هي التي أوقفتني . وصل الرجل ووقف في النقطة المحددة ونظر إلى الداخل ، حيث كنت أقف بأعوامي الإثني عشر دون أن أعرف بأي وجه أقابل نظرته ، التي بدا أنها تقيس قامتي وتقدر جسامتي ونموّي العضلي وتنفذ إلى مقاصدي . كان رجلاً طويلاً ممشوق القامة منفتحاً . دخل وألقى نظرة حوله فرأى ، دون شك . كلّ شيء : الأثاث . الأبواب . كيس دفاتري فوق الكرسيّ . الكؤوس والألوان وخطوط ورق الجدران . بل ربما فتات الخبز أيضاً . اقترب مني :

— ماأسمك ؟

بذلت جهداً وقلت له اسمي . انفجر صوت والدتي ، الذي كان أكثر صرامة هذه المرة :

— الصغير لايعرف شيئاً . قلت لك أن أنيثيتو غير موجود في البيت .

ظهر في الباب رجلان آخران . عندما دار واحد منهما بدا كأن ظهره من الخشب .

— أين والدك ؟

اقتربت والدتي ، فنظر إليها الرجل رعدّل من موقفه ، لقد خفض صوته :

ـ أعرف كل شيء ، ولا أريد ازعاجك ، أيتها السيدة ، لكنني بحاجة لأن أعرف مكان الغاييغو .

عاد صوت والدتي إلى نعومته وكأنها بذلك تريد أن تقنعه .

ـ قلت لك أنني لا أعرف مكانه ، فهو لم يأت إلى البيت منذالبارحة .

إذا كنت أرغب في ذلك الوقت ، بمعرفة شيء ، فهو المكان الذي يوجد فيه والدي بشكل دائم .

ـ إلى أين أنت ذاهب ، يا والدي ؟

ـ إلى الشمال ، قد أصل إلى البرازيل أو إلى البيرو .

ـ وماهو طريقك ؟

ـ من روساليو . . . ثم أصعد النهر .

كنت أحدد طريقه على خرائط كتبي المدرسية وأحاول أن أحزر المكان الذي سيذكره في رسالته المقبلة . يذكر أسماء بلاد وأنهار وأماكن مجهولة وغابات وجبال ، ثم تنهال علينا رسائله من مكان آخر ، دون أي إشعار مسبق ، فأشعر كأنني ضائع ، كما أشعر به ضائعاً ، بعض الشيء ، بالنسبة لنا ، بل وله أيضاً . كان يقطع بخطواته الخرساء

والثابتة ضفاف أنهار شمال شرقي الأرجنتين ومدن هضاب بونيميا والبيرو وقرى شاطىء الباسيفيك الاستوائي في الشرق وقرى جنوب تشيلي الماطرة : كونكورديا ،تاريخا، باسوده لوس ليبرس أريكيبا ، باريلوتشه وتيموكو ، التي كانت مألوفة بالنسبة لنا ، في وقت من الأوقات .

ـ إنه هنا .

كان يذهب إلى الشمال ويدور نحو الشرق ثم يعود إلى الجنوب وكانت خطواته تتبع الشمس أو تدخل في الليل ، يختفي ويعود فيظهر فجأة . لكن في تلك المرّة ، ورغم أنني رأيته في الليلة السابقة ، لم أعرف مكانه .

ـ لا أدري .

تدخل أحد الشرطة :

ـ هل نفتش عنه البيت ؟

رفض الرجل الاقتراح :

ـ لا ، فلو كان موجوداً لخرج .

مرّت لحظة تردد : والدتي تنظر إلى الأرض متشابكة اليدين فوق بطنها تحت الإزار و الرجل الحازم الصوت يبدو أنه يفكر متردداً

بالاجراءات التي يجب أن يتخذها ، بينما مايزال الشرطيان الآخران في فناء الدار ، ينظران بلا ملل إلى العناقيد المتدلية من الدالية . اتخذ الرجل قراره :

ـ أنا آسف ، لكن يجب أن ترافقيني .

ـ إلى أين ؟ سألته والدتي وقد قسا صوتها بشكل غير متوقّع .

ـ إلى قسم الشرطة .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه ضروري .

سكتت والدتي ثمّ سألت :

ـ والصغير ؟

نظر الرجل إليّ ، ثم عاد ونظر إلى كيس كتبي وتردد لحظة ، لأن الأمر لم يتضح ، كما بدا في ذهنه ، لكنه اختار ، كرجل تتطلّب مهنته القيام بالواجب مهما كانت الظروف ، اختار أسوأ الحلول :

ـ والصغير أيضاً .

ـ ولماذا الصغير ؟

تردد الرجل من جديد : كان الواجب يدفعه ، لكنه لايوجّهه ثم قال أخيراً وكأنه يتخلّص من شيء يزعجه :

— إنه موجود وعليه أن يذهب .

خرجنا إلى الشارع ، بعد أن ارتدت والدتي ثيابها وأوصت إحدى الجارات بالبيت . لكننا لم نذهب إلى قسم الشرطة فقد قضينا ذلك المساء والليلة التي تلته ، وكانت طويلة ، جلوساً على مقعد في أحد المخافر : تركنا رجال الشرطة الثلاثة هناك واختفوا دون أية توضيحات . انقضت اثنتا عشر ساعة أو ثلاث عشرة دون أن تتكلّم والدتي فيها إلا عندما طلبت من أحد رجال الشرطة أن يشتري لنا مانأكله : لم تبك ولم تتنهّد فقلدتها . طوال وجودي إلى جانبها كان سيّان عندي أن أتكلّم أو أن أصمت ، فالمهم أنها كانت إلى جانبي . أخرجونا من هناك في الساعة السابعة أو الثامنة ، متيبسين . كان على والدتي أن تذهب إلى قسم الشرطة ، الجناح النسائي أما أنا فقد اعتبروني رجلاً قادوه إلى الجناح المناسب . بقيت والدتي صامتة عندما نزلت من سيارة الشرطة أمام القسم ، حيث فصلوا بيننا ، رافقها شرطي ورافقني آخر . ماذا كانت تستطيع أن تقول ؟ لاشكّ كانت محزونة القلب ويمكن لأية جملة ، مهما قلّ شأنها ، أن توتّر الجو ، ثم كيف يمكنها أن تتكلّم أمام الشرطة ؟ عندما دخلت الزنزانة المشتركة ، تدفعني يد الحارس ،

لاحظت أن الموقوفين ينظرون إليّ بفضول غريب: لم يكن المكان مناسباً لطفل في الثانية عشر من عمره ومايزال يرتدي سروالاً قصيراً وثياباً نظيفة إلى حدّ ما وله هيئة رجل . من يكون ؟ وما الجرم الذي يمكن أن يكون قد ارتكبه ؟ فلا يوجد من يدخل قسم الشرطة هكذا ودون أي سبب فهو مكان مخصّص للأشخاص الذين ارتكبوا ، أو يفترض أنهم ارتكبوا أو يعزى إليهم أنهم ارتكبوا عملاً يستوجب العقاب . أن يصل المرء إلى هناك لا لسبب إلا مخالفة المرور أو كسر زجاج أو التعلّق إلى حافلة يعني بلبلة الجهاز القضائي المعقد كلّه . لابدّ أنني ، في هذا العمر ، نشال صغير ، صغير ولكن عجيب . إذا كانوا لايعرفونني فأنا بدوري لا أستطيع أن أكلمهم بالموضوع . ما أن دخلت الزنزانة حتّى شعرت أن قواي كلها ، وشجاعتي كذلك . التي كنت أتمتع بها حتّى تلك اللحظة ، والتي ليست إلا انعكاساً لوجود والدتي إلى جانبي ، قد خارت . بحثت حولي عن مكان أجلس فيه فلم أجد سوى درجات الطوب التي مررت عليها للوصول إلى أرض الزنزانة المختلفة في المستوى عن أرض الفناء . جلست هناك ، طأطأت رأسي ورحت أبحث بسرعة في جيوبي أريد منديلاً ، ثم انفجرت في بكاء مريع ، تبعه سيل من الدموع . فتوقف السجناء الذين كانوا يسيرون وصمت الذين كانوا يتكلّمون . بكيت الكفاية حتّى إذا هدأت أعصابي

وجفّفت دموعي ونظفت أنفي شعرت بالخجل يغزوني فنظرت حولي : كان أمامي رجل ، لم أحسّ به عندما اقترب مني ، ينتعل حذاء من القنّب ، كان ينتظر على بعد خطوتين مني حتى أنتهي من البكاء ليكلّمني . ابتسم ، كمن يطلب عذراً أو يودّ كسب ثقتي ثم قال بينما راح يقترب أكثر ليجلس القرفصاء أمامي .

– لماذا جاؤوا بك ؟

بدا لي صوته حنوناً ، حتى كدت أنفجر بالبكاء مجدداً ، لكنني كبحت نفسي ، وهززت كتفيّ ، ربما لأنني لم أعلم بم أجيب .

– هل جئت للمحاكمة ؟

لم أفهم ماكان يعنيه فلزمت الصمت وتضايق الرجل الفتيّ ونظر إلى بقية السجناء ، يطلب مساعدتهم. اقترب شخص قارب سن الشيخوخة وكان أصلع ، رثّ الثياب ، طويل اللحية ، كأنّ وجهه متسخ . لكن السجناء الآخرين انتظروا .

– لماذا أنت سجين ؟ ماذا فعلت ؟

كان صوته أقل نعومة من صوت الشاب ، لكنه أكثر وضوحاً واستعجالاً . هل كان ذلك فضولاً أم تعاطفاً ؟ أجبته :

– لم أفعل شيئاً .

ـ لماذا جاؤوا بك إذن ؟

ـ كانوا يبحثون عن والدي ، ولما لم يجدوه جاؤوا بنا .

ـ ومن هم الآخرون ؟ .

ـ والدتي .

ـ ومن هو والدك ؟

ـ أنيشيتو ايبيا .

ـ إلْغَايبغو ؟

سأل الشاب .

أومأتُ بالإيجاب ، وبي بعض الخجل من اللقب ، كانت والدتي تناديه بهذا اللقب ، المألوف بالنسبة لنا ، كان له هناك معنى آخر وآخر تقريباً ، تبادل الرجال النظرات وعاد العجوز ليتكلّم بعجلته المألوفة ، كمن يحرص على عدم إضاعة الوقت :

ـ لكنك لم تفعل شيئاً . . .

ـ لاشيء ـ قلت وأنا أهزّ كتفيّ مستغرباً اصراره .

نهض العجوز مبتعداً . لم يكن يهتم بالأبرياء . قال الشاب :

ـ والدك موجود هنا .

ـ مستحيل ، فهو لم يكن في البيت ولا أحد كان يعرف مكانه .

أكّد :

ـ قبضوا عليه ليلاً .

نظرت إليه ، غير مصدق .

ـ نعم ، الآن مرّ ، كانوا يحملونه إلى الرئاسة .

ارتحت من جانب وتألمت من آخر . ارتحت لأنني عرفت مكانه وتالّمت لوجوده هناك . اعتقلوه إذن . . . فهمت لماذا تركونا في المخفر . تصوّرته في تلك الساعات يرحل نحو الجنوب ، ليس مشياً ولا في القطار وإنما إنسياباً فوق الأرض ، في الهواء ، بسرعة وثقة بالنفس . تماماً كما كنت أنساب في الأحلام ، لايُدْرَكُ ولا يُمْسَكُ ، يضيع في السهوب .

ـ أوريليو هو الذي ألقى عليه القبض .

ـ أوريليو ؟

ـ ألا تعرفه ؟

كان الحوار صعباً ، ليس لأنه لايوجد بيني وبين ذلك الرجل نقطة لقاء وإنما ، بكل تاكيد ، لأنها لن توجد أبداً ، حتى ولو توصّلنا

إلى أننا ننتمي إلى طبقة واحدة ، ومن يدري إن كنا كذلك من قبل ؟ رأيت فيه ما لا يعجبني : فرط نموه العضليّ ، خاصة الساقين الضخمتين وكتفيه العريضين والهابطين . من يكون ؟ رغم أن صوته كان بسيطاً لاشيء فيه كان رقيقاً . لم تجذبني إليه عيناه الصافيتان ولاشعره الأشقر المتموج ولا بشرته البيضاء أو يداه النظيفتان . لاحظت فجأة أنه يغمزني بعينيه غمزة تنبيه : « انظر إلى الفناء » . نظرت كان هناك رجل المساء الفائت ، صاحب الصوت الحازم ، يجتاز الفناء خارجاً من الظلّ إلى الشمس يسير بخطى ثابتة ، يصوّت بكعبيّ حذائه على البلاط الملوّن .

— إنه أوريليو .

مرت لحظة شعرت خلالها برغبة لمناداته : « هيه ، أنا هنا » ، لكنني أحجمت . كنت وقتها في مرحلة الانتقال من الطفولة وكنت واعياً قليلاً لهذا التبدل . ان الليلة والنهار أو بعض الساعات التي قضيتها في زنزانة القسم ، إلى جانب رجال كنت أجهلهم ، وحدها كونت تجربتي الجديدة كلها ، ورغم ذلك فقد كانت كافية . لن أفاجأ بعد الآن بشيء وسأفهم كل مايدور حولي ، على الأقل مايتعلق بأموري وأمور عائلتي . لم أكن أحمل أية كراهية لذلك الرجل الذي عرفت اسمه منذ قليل . توقّعت انه ، يقوم ، مثل والدي ومثل بقية الرجال ، بواجب لايستطيع التملص منه دون أن يتخلى عما هو بالضرورة .

لكن مستوياتنا كانت مختلفة وعلينا أن نحافظ على أنفسنا فيها ، دون الانتقال من واحد إلى آخر ، مالم يكن بالاكراه الذي تفرضه الظروف ودون أن نتخلى عما نحن : شرطي وابن لص . لم يكن غليظاً ، كما لم يبد عنيفاً ولاعاتياً مع والدتي وسلوكه كان سلوكه . أما بالنسبة لي فسيكون دائماً وإلى الابد ، الرجل الذي اقتادني لأول مرة إلى السجن .

في اللحظة التي التفت فيها برأسي لأنظر الى الرجل الذي كان الحديث يدور بيني وبينه ، سمعت خطوات كنت أعرفها ، فأوقفت حركتي : انها خطوات والدي ، تلك الخطوات التي كان يسمعها أبناؤه وزوجته نهاراً في البيت ، عندما كان يمشي لنا وحدنا فقط ، فتطن على الأرض ، بسرعة أو ببطء ، لكن بثقة ودون خوف من الدوي الذي كانت تحدثه أو من الذين يسمعونها ، تلك الخطوات التي كانت تخف شدتها ووقعها كلمااقترب الليل، لتصبح أكثر نعومة وحذراً، إلى أن تعود غير مسموعة: يبدو أن خطوات والدي تفقد من ثقلها مع اتساع حدقات القطط . عدت والتفت وأنا أنهض كي أراه كما يحلو لي ولكي يراني بدوره . عاد عند نهاية الممر : انه دائماً الرجل الناحل ، الطويل ، الأبيض ، ذو الشارب المتشيب والحاجبين الكبيرين والمستديرين قليلاً والتقاسيم الجهمة والطيبة . كان يمشي وينظر الى الأرض ، لكن ما أن دخل الفناء وأصبح في النور حتى رفع رأسه : أمامه وخلف قضبان زنزانة الموقوفين كان ابنه الثالث . تعثرت خطواته وارتبك خط سيره كأنه يتوقف ، ثم اتجه ، نادماً ، الى اليمين ثم الى اليسار .

ـ من هنا ـ نبّهه الشرطي . ملامساً ذراعه .

كان يعرف تماماً الى أين ومن أين يجب أن يذهب . رآني ، لكن لاشيء الا الارتباك في مشيته دلّ على ذلك . كان يضع على عنقه منديلاً من الحرير وكانت ثيابه نظيفة بلا تجاعيد ، رغم الليلة البائسة التي قضاها مثلنا . اختفى في الطرف الآخر من الفناء وعدت للجلوس على الدرجة . كان رجال الزنزانة مايزالون واقفين ، بلا حراك ، ينظرون اليّ وينتظرون رد فعلي . لكن لم يكن ثمة ردّ فعل مرئيّ : بكيت مرّة ، لكني لن أبكي ثانية ، والذي شعرت به مرّ دون أن يلحظوه . لم تكن الكلمات لتسعفني في التعبير عنه : مزيج من الدهشة والحنان والألم والاعتزاز والفرح . شعرت للحظة بتشنّج في حنجرتي ، لكنه مرّ بسلام . المهم ان والدي عرف انني هناك . وغادر الرجال جمودهم وصمتهم وراحوا يتحركون هنا وهناك وجددوا أحاديثهم ، حتى الشاب ، الذي بدا في البداية انه يطمح أن يكون ممثلاً أو مشاهداً في مشهد أطول وأكثر دراماتيكية ، احتار ، تقدم خطوة ، بقصد الذهاب ، لكن وقع خطوات أخرى أوقفه : انها الآن مشية قصيرة وسريعة تتجرجر قليلاً ، لكن لاأحد كان يستطيع أن يقع على العرج فيها ، إلا صاحب السمع المرهف ، رغم ان العرج سيصبح بعد سنوات واضحاً . توقفت الخطوات خلفي وفي اللحظة ذاتها شعرت بيد تلامس كتفي .

توقف الشاب كما توقفت من قبل ، عن الحركة . تجمّد ، بينما انتصبت بعد أن التفت : كان هناك عجوز قصير وناحل في بزة شرطيّ ، ضاربة الى الخضرة ، يقف وراء القضبان ، ربما كانت حواجبه طويلة وشائبة مثل شاربه ، وكانت عيناه زرقاوين ضاحكتين ، تنظران ، كما لو من بعيد ، من تحت قبعته العسكرية ذات الشريطة الحمراء . قال لي بصوت حنون :

ـ هل أنت ابن إلْغَايبغو ؟

لاأعرف لماذا أعاد ذلك السؤال وتلك النبرة التشنُّجَ الى حنجرتي بعد أن سيطرت عليها قبل قليل . لم أستطع الكلام فأومأت برأسي بالايجاب .

ـ اقترب ـ قال لي .

اقتربت من الحاجز ، وضع العجوز يده ، التي تشبه يد الطفل ، لكنها مجعدة ، فوق ذراعي .

ـ يسأل والدك عن سبب وجودك هنا وماذا حدث .

لاحظت انه يحمل رزمة من مفاتيح مختلفة الحجوم . أجبته وقصصت عليه ماحدث . سألني :

ـ هكذا اذن ، والدتك موقوفة أيضاً .

ـ انها في جناح النساء .

ـ هل تحتاج شيئاً ؟

ـ لاشيء .

ـ نقود ؟

ـ كلاّ ، لماذا ؟

ـ ماذا سألوك في القسم ؟

لم نلق اهتمـــام أحد في القسم ، كان رجال الشرطة ينظرون الينا باندهاش ، وكأنهم يسألوننا عما كنا نفعل هناك ، ومع ذلك لابد أنه كان يوجد من يعرف ماذا كنا نفعل ولماذا كنا هناك ، ولكنه بالتأكيد ، رجل لايستعجل مع أحد ، بل وربما حتى مع نفسه . : كان يعتبر العالم كله مجرّدات ، لا حقائق ، فالشرطي شرطيّ والموقوف موقوف ، بمعنى انه اسم أو صفة ، وعندما كان يدرك اننا ، اضافة الى ذلك ، كنّا كائنات بشرية ، كان يستاء جداً ، فهذا يتطّلب منه الانشغال بنا . عاد العجوز وربت على ذراعي :

ـ حسناً اذا احتجت شيئاً فقل لهم أن ينادوا أنطونيو فآتي اليك في الحال .

ابتعد عبر الفناء متيبساً مثل مغزل وبقيت هناك ، كأنني في الهواء أنتظر أحداثاً جديدة . من سيأتي الآن ؟ ومرت فترة طويلة دون أن يهتم بي أحد . هذه الفترة الطويلة التي استفدت فيها من الاستماع إلى أحاديث السجناء : دعاوى ، أحكام تصدر ، محامون . عما كانوا سيتحدثون . ظهر أنطونيو ومعه شرطي آخر أمام الباب ، صاحا لي ، وأخذاني عبر ممرات طويلة إلى مكتب واسع ، وتركوني هناك أمام سيد بدين ، متورد ، أشقر يعلوه ازار أبيض . نظر الي من فوق نظارته الذهبية الاطار وراح يدوّن أوصافي ويسألني عن اسمي وألقابي وعنواني وتربيتي وأسماء وألقاب والدي ، رفع رأسه عندما سمع اسم ولقب والدي :

ـ ليس معقولاً ! هل أنت ابن الجليقي ؟

دبت الحيوية في وجهه . رددت عليه بالايجاب .

ـ أعرفه منذ سنوات طويلة .

لم أبال بالخبر . انحنى وقال بصوت حميمي :

ـ كنت أول من تناول بصمات أصابعه في الأرجنتين . أعرفها عن ظهر قلب ، كانت أول بصمات أتناولها . يالمصادفة ، أليس كذلك ؟ انه رجل جدي . ألقاه هناك أحياناً ، لكننا بالطبع لانتبادل الحية .

انتصب برضى .

— لايهمني ماذا يكون ولكن يهمه هو أن أكون موظفاً في التحقيقات.
نتبادل النظرات ، ليس أكثر ، وكأن كل واحد منا يقول للآخر :
« أعرفك ، أيها المقنّع » ، لكننا لانتجاوز هذا الحد . أعرف كيف
أميز بين الناس وأستطيع أن أقول ان والدك . . . لاأدري كيف أعبر
لك . . . محتشم ، نعم محتشم ، أعني انه ليس خنزيراً ، وغير قادر
على ارتكاب أعمال بربرية ، كما انه لايسرق أشياء تافهة ، طبعاً
لايسرق أشياء تافهة . لا ، الغاييغو لايفعل ذلك .

كان يتكلم وهو يوزع الفيش هنــا وهناك في علب موجودة
في كل ناحية . تناول بعد ذلك اسطوانة صغيرة وراح يخفق قليلاً
من الحبر فوق قطعة من المومر .

— اذا تجاوزنا هذا ، فأنا لست شرطياً ولارجل تحر ، لا ، انني
موظف فني . كلنا نعرف كيف نميز بين الناس ونعرف من يكون
هذا ومن يكون ذاك . لماذا جاؤوا بهذا : ذبح سكراناً ليسرقه بيسوين ،
من فضلك ، من أجل بيسوين . . . وهذا الآخر : دخل أحد البيوت ،
باغتوه فجرح صاحب البيت وشرطياً . وأنت ماذا تفعل مع هؤلاء
الأشرار ؟ وهذا الآخر والآخر : لقد سطوا على امرأة كانت في

طريقها إلى العمل أو قتلوا زميلاً لهم وقت اقتسام السرقة . بهائم شريرون ، بهائم شريرون . استخدم العصا معهم ، لكن هناك الكثيرين وهم الذين يشغلونك أكثر من غيرهم . لو كان جميع اللصوص مثل والدك لارتاحت الشرطة . اسمح .

تناول يدي اليمنى

ــ افتح أصابعك .

تناول الإبهام ومرر عليه الاسطوانة المشبعة بالحبر ، فصار أسود.

ــ اترك اصبعك ، من فضلك ، لاتجهد نفسك ، هكذا .

وظهرت فوق الفيشة ، ذات التقسيمات المتعددة ، وفي المكان المخصص للإبهام بقعة فطساء ، مشوهة ، ذات حجم كبير .

ــ الابهام الآخر ، لاتشنج أصابعك ، ارخها ، من فضلك ، هكذا . هل تدري ماذا حدث عندما ألقوا القبض على والدك لأول مرة؟ كانت المسألة تتعلق بمجوهرات قيمتها النقدية مئة وثلاثون ألف بيسو . هل تلاحظ ؟ مئة وثلاثون بيسو من أموال الأمة . . . حسناً، عندما نزعوا عنه ثيابه ليفتشوه ضاعت ماسة ولم تظهر بعدها أبداً ، فوقعت فضيحة في القسم : كانت ثيابه الداخلية ، كلها من الحرير، وليس أي حرير وانما من النوع الخالص . الرؤساء أنفسهم لم يروا وربما لن يرتدوا مثلها أبداً . أمر المدير باحضار سراويله الداخلية إلى مكتبه ،

لقد أراد أن يراها. تعرف أن هناك أناساً تبهرهم هذه الأشياء وأُطْلِقَ سراح إلْغَابيغو بعد ثلاثة شهور وأرسل بعد أيام قليلة إلى حارس الفناء ، الذي سجن فيه، هدية . يبدو انه أحسن معاملته: يقال انه هو الذي خبأ له الماسة ، من يدري ؟ وكانت الهدية عبارة عن مجموعة من الثياب الداخلية، المصنوعة من الحرير الخالص ، وبهذا دمّر الرجل المسكين ، الذي تخلى عن منصبه وتحوّل إلى نشال . شهران أو ثلاثة و « تراك » ثم طعنة سكين واذا رأيتك لاأعرفك — . لاتظن أن الذي قتله شرطي أو واحد من أصحاب البيوت أو المتاجر التي تغري بالسطو ، لاشيء من هذا أبداً ، قتله رفاقه الذين كلما رأوه تذكروا انه كان حارساً . هات الآخر : هكذا ، اقترب .

جعلني أخلع حذائي وقاس طولي .

— يالك من شاب ! تنقصك خمسة سنتيمترات كي تصبح بطول والدك . هل أنت طالب ؟

— نعم ، ياسيد .

— حسناً تفعل : عليك أن تدرس ، لان ذلك يساعد كثيراً في الحياة ، وأين تدرس ؟

— في مدرسة ثيزنيروس .

ـ انها مدرسة جيدة . هل من علامة فارقة في جسمك ؟ أو في وجهك ، ندبة في الحاجب الأيمن ، ضربة ، أليس كذلك ؟ عينان داكنتان ، أذنان بالحجم الطبيعي ، الشعر أسود ، حسناً ، انتهينا . ربما كان نصيبك أن تكون بجانب والدك ، لاأقول هذا بسبب البصمات وانما بسبب الاسم والكنية . اذهب ، لاأريد شيئاً آخر .

قرع الجرس فظهر شرطي .

ـ خذه ، لقد أصبح جاهزاً ، أتمنى لك التوفيق ، أيها الفتى .

عدت إلى الزنزانة حيث لايزال السجناء يمشون ويتحدثون . كانوا يسيرون في صف واحد وبخطوات منتظمة ، إلى أن يصلوا نهاية الفسحة عند الجدار ، فيدورون معاً محافظين على الصف دون أن يخطئوا .

ـ قلت للقاضي : أنا لص ياسيدي ، لاداعي للنكران ، واذا كنتم تقبضون علي فلأنني أستحق ذلك ، أنا لاأشكو وأعلم أنكم ستطلقون سراحي ذات مرة . مامن وقت الا وينتهي وما من حبل الا وينقطع ، لست مجرماً ، أسرق ليس أكثر ، ويغضبني أن يلقي علي هذا الشخص القبض : كان لصاً ويسرق معي ، نعم ياسيد ، كان يسرق معي ، كنا رفاقاً وتقاسمنا بعض المسروقات ، لا أريده أن يلقي القبض علي ، ليناديي آخر ليقودني ، لاأريده أن يقودني وسأقاومه دائماً . تقول لي

انه الآن شرطي ، أعرف هذا ، لكن ليقبض على آخر : لاعلي أنا ، لأنني كنت رفيقه . سيذهب ذات يوم ليقبض علي تحت ضوء القمر ولاأدري ماالذي سيحدث له .

— انه بائس . أيضاً سرق معي ، واذا كان شرطياً صالحاً كما كان لصاً صالحاً ، فانهم سيطردونه رفساً بأقدامهم .

كانوا في مشيتهم وأحاديثهم يوحون لك ان همومهم كانت محدودة ولايهمهم شيء وان باستطاعتهم أن يقضوا هناك كل الوقت الذي قد يخطر ببال ، بينما القضاة والأمناء والناسخون والمحامون والوزراء والمستقبلون والشرطة ينشغلون بقضاياهم ودعاواهم ، يكتبون أكواماً من الورق فيها افادات الشهود والشهود المضادين ، الأجوبة ، الأدلة ، والاستئنافات ، الحيثيات ،القرارات والاحكام ، وأسفار إلى هنا وأخرى إلى هناك ، « وقع هنا » ، هات عشرين بيسو ثمن الورق المختوم ، اطلبها من العجوز ، العجوز تقول انها لاتملك مليماً واحداً تشتري به المتة ، من أخي اذن ، لكن أخي سجين أيضاً ، مارأيك أن يعطيكها عندما يخرج ، ومتى يخرج ؟ هل ترى ان لي وجه انسان بليد ؟ ثم أخيراً إلى الا صلاحية أو إلى الشارع ، ليواصلوا سرقاتهم أو ليضمحلوا في احدى الزنزانات ، خلال أشهر أو سنين . بدا الشاب الجالس على الارض فوق الفرشة غارقاً في التفكير وإلى جانبه شخص آخر ، مستلق

على بطانية ، نائم يشخر بشكل غير مزعج . كان يبدو عليهم جميعاً الاضطراب وكانوا يتحدثون عن قضايا تؤكد هذا الاحساس . خلال الوقت الطويل – يوم تقريباً ، الذي كنت أصغي اليهم فيه ، لم يتحدث أحد منهم عن أولاده او والديه أو زوجته أو عائلته وكانوا جميعاً أو مايزالون أرباب عائلات ، ورغم ان المكان لم يكن ملائماً للحديث بالخصوصيات العائلية أو الغرامية ، هل يمكن ألا يتحدثوا فيما بينهم ، وهم الرفاق ، ولو بصوت منخفض وفي زاوية عن خصوصياتهم ؟

– أبلغوني الحكم فاستأنفت .

– نعم ، المحامي طلب مني مئتي بيسو ، والساعة لاتساوي أكثر من عشرين . أن تكون لصاً فتلك تجارة جميلة !

يمر الزمن وسأسمع عشرات الأشخاص ، ممن يبدو انه ليس عندهم من مشاغل سوى مهنهم واختصاصاتهم ، يتحدثون باستمرار وبشكل ممل ، عن القضايا المتعلقة بمهنهم واختصاصاتهم : تجارون وبناؤون ، أطباء ومحامون ، حذاؤون وممثلون هزليون : توقف الرجل القصير والأصلع ، الرث الثياب ، وذو اللحية الطويلة والوجه ، الذي يبدو وسخاً ، وسط الزنزانة .

– ٦ –

– لن آكون بعد الآن إلا سجيناً ، وأعتقد انني سأموت في هذا القفص . وقد أصبح ، بعد صدور القانون الجديد ، باستطاعة الشرطة أن تلقي عليّ القبض حيثما كنت ، حتى ولو في صالون الحلاقة ، أحلق ذقني ، ق ل = ث . لص معروف ، لكنه غير ذي فائدة . منذ عدة أشهر لم أسرق شيئاً . انني متجبن وعجوز . بدأت أسرق عندما كنت طفلاً وكنت أصعد فوق صندوق مسح الأحذية ، الذي استخدمته للتمويه ، كي أصل إلى الجيوب الغريبة ، ماأكثر ما سرقت وما أكثر الشهور والسنين التي قضيتها في السجن ! كم رفيقاً كان عندي ، وكم منهم ترك أدواته تسقط . أذكرهم جميعاً ، بأسمائهم وألقابهم ، بخبثهم وفضائلهم ، أذكر بشكل خاص ، إلبيسادو ، الذي كان لصاً كبيراً ، رغم انه كان أثقل دماً من فرع شرطة بكامله ولاأحد كان يريد أن يشاركه في السرقة ، والذين شاركوه بدافع الحاجة بكوا قهراً ، ليس أكثر . كان له شارب ينبت من أعلى نهاية فتحتي أنفه ويصل من الأسفل إلى صدريته تقريباً ، لولا أنه يقصه يومياً ، لكنه كان يقصه دائماً من الأسفل والأمام ويتركه ينمو إلى الأعلى على هواه . كان ظاهرة فريدة في السرقة : يلاحق الناس ، يدوسهم ، ويضايقهم ، حتى أن بعضهم كاد يمنحه محفظة نقوده ، لاشيء الا كي يتركه بسلام

وكان رجال التحري يتظاهرون بعدم رؤيته ، كان ثقيلاً إلى درجة انه عندما كان يقع في هذه الأقفاص كان النشالون يطالبون بتغيير زنزانتهم . ماذا كان عنده ؟ ، كان عملاقاً ، طويلاً ، عريضاً ، ويفيض عنه شيء من كل جانب ، وكان ثقيلاً في نظر الجميع : في كلامه وحركته وسرقته وأكله ونومه . قتلته قاطرة في محطة الجنوب ، كانت ترجع إلى الخلف ، ولم تكن لتستطيع قتله من الأمام . . .

حدث ذلك منذ سنوات كثيرة . أما الآن فلا أكاد أقف أمام باب أو في مواجهة رجل يحمل محفظة في جيبه حتى ترتعش يداي وتسقط مني الأشياء كلها : الخطاف الحديدي أو الصحيفة ، واشتغلت في كل شيء : مشعوذاً ، نشالاً ، حانوتياً ، بائع مفاتيح . ربما علّي أن أرحل من هنا ولكن إلى أين ؟ لاتوجد مدينة أفضل من هذه ، كما انني لاأريد ولا أفكر انني أستطيع أن أكون سجيناً في زنزانة غريبة . لاشك أن هذه المدينة كانت في الماضي أفضل من الآن كنا نسرق بهدوء أكثر وخطورة أقل ، لقد أفسدها اللصوص . كانت الشرطة في الماضي تتفهم مشاكلنا ، وبالتالي تطالبنا بتفهم وضعها ولم ينكر أحد عليها ذلك : الجميع كانوا معوزين . . أما الآن . . .

« لاأعرف ان كنتم تذكرون بيكتوريانو رويث ، قد لاتذكرونه ، لأنكم مازلتم فتية وقد أثارت حاله ضجة كبيرة بين اللصوص حتى

أن أحد النشالين بقي وأمعاءه في قبعته : سفر سعيد! كان بيكتوريانو لسنوات كابوساً بالنسبة للصوص المحافظ . دخل في الخدمة ، حتى اذا صار في الثلاثين من عمره أصبح مفتشاً.راقب المحطات ، وحرس في المحطة المركزية لمدة اثنتي عشر أو أربع عشرة ساعة يومياً . كي يدخل المرء إلى هناك كان عليه أن يكون لصاً سيداً . وليس فيما يتعلق بالعمل فقط وانما باللباس والسير والمعاملة أيضاً . ما من لص استطاع أن يدخل أويخرج الا اذا بدا سيداً من رأسه وحتى أخمص قدمه ، حتى هذا لم يكن يحدث دائماً : لأن بيكتوريانو كان يتمتع بذاكرة الدائنين ومن الصعب أن ينمحي من ذاكرته الوجه الذي رآه مرة واحدة لاسيما اذا كان فيه علامة فارقة .

« دخل إلبيسادو » (٢) مرتين . لاليسرق وانما ليأخذ القطار وفي المرتين أرسله بيكتوريانو إلى التحقيق . فلم يعد اليها ثالثة . استطاع بيكتور ري أن يدخل مرة ويخرج مرتين ، لكنه لم يكن يبدو سيداً بل أميراً ، فقد كان يبدل ثيابه مرتين في اليوم وكانت أظافره تلمع كالأقمار . ظهرت صورته في مجلة فرنسية مصورة . كان طويلاً ، أسمر ، ذا شارب صغير وشعر متجعّد . يميل إلى السمنة . جبهته عالية ولم يكن يبدو عليه أنه لص ، كما لايبدو عليّ أنني مدع عام

---

(٢) Pesado البيسادو وتعني الثقيل وقد عملت على عدم ترجمة اللقب في النص واكتفيت بترجمته في الملاحظات . (المترجم)

في محكمة الاستئناف . عرف بيكتوريانو كما عرف جيوبه — جمع المعلومات عنه قبل مجيئه — خرج للمرة الأولى من المحطة ومعه خمسة وعشرون ألف بيسو وعدة شيكات . كان ذلك في قطار أصحاب المزارع . استقبل بيكتوريانو الخبر كما يستقبل الصائغ ضربة حجر على واجهة حانوته . لم يدخل المحطة ولم ير على بعد كيلو متر حولها أيّ نشال معروف أو مشتبه بأمره . لم يكن في المستطاع القول بأن المحفظة قد ضاعت ، فالرجل كان يحملها في جيب سترته الداخلي وكان على بيكتور أن يفكّ أزرارها حتى يخرج المحفظة . هذا مالايقبل الشك . مرّ بيكتوريانو في ذاكرته على كل الوجوه الغريبة التي رآها في ذلك اليوم وتلك الساعة . كان يعرف جميع أصحاب المزارع والأغنياء في المحافظة كما كانوا يعرفونه بلبورهم . عند خروجهم ومرورهم أمامه كانوا ينظرون إليه مواجهة أو من أطراف عيونهم أو باستظراف ولكن بخوف أيضاً . فالشرطة تخيف الناس جميعاً ، وهذا شيء غريب ، وليس هناك من هو متأكد أنه لن يضطر لمواجهتها في أفضل أيامه . لم يجد بين تلك الوجوه الغريبة وجهاً واحداً يثير انتباهه ، إذ لايمكن أن يرتاب في الناس ذوي الثياب الرثة لأن لصوص الجمهورية كلها بما فيهم الأجانب ذوو الشعر الطويل كانوا يعلمون جيداً أن الدخول إلى المحطة بالأحذية الوسخة والثياب البالية والذقون غير الحليقة أشبه بأن يمثلوا في قسم الشرطة ويصرخوا : « نحن هنا ، تسقط الشرطة » . لقد كان مساعدو بيكتوريانو يقذفون هذا الرث في الهواء .

« هل دخل اللص وخرج . أم دخل فقط ؟ إن الإحتمال الأول خطير : ليس من الممكن أن يدخل أو يخرج بين قطار وآخر دون أن يلفت انتباه بيكتوريانو أو أن يجذب إليه مساعديه . خرج بيكتورري وكان قد وصل ونزل من إحدى عربات الدرجة الأولى يحمل حقيبته كمن يفد من مزرعة ليذهب إلى المصرف ويودع فيه عدة آلاف من البيسوات . عندما مرّ نظر إلى بيكتوريانو . الذي كان يقف إلى جانب الباب ويتحدث مع رئيس المحطة . تماماً كما يفعل جميع الذين يصلون لأوّل مرّة أي كما يفعل جميع الذين يحملون نقوداً -- وهو فعلاً كان يحملها وإن كانت ليست له -- لم يُجْدِه بَحْثُهُ نفعاً : لم يَجِدْ شيئاً . لا نظرة ولا حركة ولا مظهراً مريباً . كان الضحية قد قدّم له جميع أنواع التفصيلات : المكان الذي جلس فيه ، الناس الذين جلسوا أمامه أو إلى جانبيه ، والذين تحدث معهم ، اللحظة التي وقف فيها وشكل الناس الذين نزلوا من العربة ، قدم له كل شيء ولا شيء .

« امتصّ بيكتوريانو الضربة الموجعة وصرّح أنه لاداعي لإيقاف أحد تحسباً : لايمكن أن يُعرَفَ اللص مالم يشِ به لص آخر . تمهّل بيكتور ري الذي كان يلم ببعض الأخبار من خلال الصحف اليومية ثم قام بعملية سطو في المرفأ وأخرى في أحد البنوك عاد بعدها إلى المحطة متأنّقاً وأبرز هويته وصعد إلى العربة وجلس ونظر من هناك إلى بيكتوريانو

الذي كان يراقب المدخل بوقفته المعتادة . تحت ساعة الرصيف ـ مبعداً بين ساقيه وشابكاً يديه خلف ظهره على مستوى الكليتين ، نزل في أوّل محطّة . وطلب أفضل سيّارة ومضى : سبعة آلاف باتاكون . ذهب بيكوتوريانو إلى المديرية وسأل المدير عما إذا كان عليه أن يقدّم استقالته ، فاستفسر المدير منه عمّا كان يزعجه . هل يضيع أفضل عناصره لا لشيء إلاّ لأن أحد البلهاء تركهم يسرقون أمواله ؟ هيا لاتكن أحمق ثم أدخل السيجار حتى لوزتيه وتابع قراءة الصحف . عاد المفتش إلى المحطة وبدا لعدة أيام وكأنه يبتلع ثعباناً ؛ ثمة شخص يضحك من الجميع . ليس المقصود أن بيكتوريانو رجل سيء ، يكره اللصوص وتسعده ملاحقتهم وسجنهم . لاشيء من هذا أبداً ، فهو لم يذهب قط لاستنطاق الموقوفين بل كان يرسل مساعديه . لكنه شرطيّ يحرس في إحدى المحطات وعليه أن يرعاها ؛ كان كأنه عضو في فريق رياضي ، فهو مثلاً لا يهتم بسرقة تقع في مصرف أو حافلة أو وقت وصول البواخر ولم يحدث أن أوقف قط أحداً خارج المحطة الرئيسية ؛ فمحطته كانت محطّته ورغم ذلك فقد نادى مساعديه وأمرهم أن يذهبوا إلى القسم ويشدوا جميع النشالين الذين يجدونهم هناك من ألسنتهم ، مهما بلغ بؤسهم ، إذ كان من الضروري أن يعرف هل وصل نشّال أجنبيّ في تلك الفترة الأخيرة ، ولم يخطىء من هذه

الناحية لأن بيكتو ر ري كان كوبياً . إلا أنهم لم يتوصّلوا إلى نتيجة : لا أحد كان يعرف كلمة واحدة .

بعد ذلك بأيام نزل من قطار المساء سيد وجيه يرتدي عباءة من جلد الألبكة وتحدث إلى المفتش : ماذا جرى . مافائدة الشرطة ؟ إلى متى ستستمر السرقات ؟ الآن نشلوا محفظتي وفيها إثنا عشر ألف بيسو ! مئة . مئتان . خمسمئة بقرة ! تمنّى بيكتوريانو لو يتناول قضيباً ويضرب به رأسه لكنه تماسك وطلب من السيد أن يركن إلى السكينة ويعطيه بعض المعلومات : ماالذي ومن لفت إنتباهه . من وقف أمامه أو إلى جانبه ويحمل بيده شيئاً يثير الريبة . منديلاً أو معطفاً مثلاً . لم يذكر السيد ، فهو قصير النظر ، لكنه فعلاً شعر برائحة تبغ هافاني قبل أن يفقد محفظته . فوضع نظارته ليرى من ذاك الذي يسمح لنفسه أن يدخن ذاك التبغ النقيّ ، ولم يجد أحداً حوله يدخن . فيما عدا ذلك لا غبار على أحد ممن كانوا حوله ، فلماذا سيثير الريبة سيد يخرج منديلاً أو يحمل صحيفة في يده ؟ المهم لاشيء يذكر . توسّل إليه بيكتوريانو ألا ينطق بكلمة واحدة عن نكهة التبغ النقيّ ، فوعده السيد بذلك مكرهاً لأن الفكرة بدت له تافهة . إذن فالأمر متعلّق بمدخّن تبغ نقيّ . . . حسناً ، يحتمل ذلك ، وفعلاً لم يخطىء : كان بيكتور ري يعبد تبغ بلاده ويحمل في علبة سجائره ذات الطغراء

سيجارين أو ثلاثة من أفخر تبوغ بويلتا أباخو . إن رجلاً يدخن تبغاً ممتازاً لابدّ أن يكون سيداً . . . كيف ؟

تصوّر شخصاً ، لكن المصادفة وحدها هي التي هدته إلى النشال ؛ فقد مرّ بيكتور ري بجانبه بعد أن دخّن سيجاره بدقائق فقط ونكهة « الكورونا » (٣) ماتزال عالقة على شاربه . فلامست هذه النكهة التي تحدّث عنها الرجل ذو العباءة الأمريكية ، أنف بيكتوريانو ، الذي له خصوصية كلب الصيد . تسمرّ في مكانه تماماً وتركه يبتعد متخذاً الوضعية التي لاتسمح للآخر أن يغيب عن ناظره ، راقب حركاته . كان يحمل معطفاً باليد اليسرى وحقيبة باليد اليمنى ، وضع الحقيبة على المقعد وكاد يضع المعطف ذا البطانة الحريرية الزاهية وعندما رأى رجلاً عجوزاً يقترب . لامسه بشكل عابر : لقد كان يحمل محفظة نقود يكاد لا يتمكّن منها . صعد بيكتوريانو إلى المنصة بقفزة واحدة ، وعندما انقضّ بيكتور ري على الفريسة واتخذ وضعية العمل ووضع يده على كتف العجوز ليلتفت ، شعر بيد أقسى من يده تستند إلى كتفه فدار مذهولاً وجد وجه بيكتوريانو . كان باستطاعة المفتش أن ينتظر ويقبض على الكوبي ويداه في العجين ، أي والمحفظة في حوزته فيوقعه في دعوى ، لكنه لايهتم بذلك ولايهمه العجوز ولا محفظته وبالكاد كان يهمه بيكتور ري : الشيء الذي يهمه هو ألا يسرق أحد في محطته ولا في

---

(٣) Corona : علامة سيجار هافاني مشهورة . (المترجم)

المحطة العاشرة التالية لمحطته . كان بيكتور ري يستطيع المقاومة والاحتجاج والقول بأنه تعثّر ثم يخرج أوراقاً نقدية من فئة الألف بيسو ويريد خواتمه وساعته وعلبة سجائره ، لكن ليفعل ما يحلو له ، فهو لن يدخل تلك المحطة ثانية . لماذا إذن ؟ لأن النصيحة ليست لصالحه . ابتسم لبيكتوريانو ونزل من القطار دون أن ينبس بكلمة واحدة . لم يعلم أحد بالقبض على النشال الذي سرق هناك البيسوات . حمله بيكتوريانو إلى القسم ، طبعاً ، حمله في سيارة ، لأن بيكتور رفض الذّهاب بطريقة أخرى ، وتركه هناك في أيد أمينة وعاد إلى المحطة وهو يدخن سيجاراً كرّمه به النشال

رُحِّلَ بيكتور ري في اليوم الثاني على متن إحدى البواخر التي تسير على خط روساريو — بونوس أيرس — مونتيبيديو ، وترك للشرطة ، التي لم تستطع أن تثبت ضده أية عملية سطو ، لا في المحطة ولا في المصارف ، بصمات أصابعه وصورة أمامية وأخرى جانبية وقياساته الجسمية — كما نقول نحن الفنيين — وجميع السيجارات المتبقية معه .

لقد فاز بيكتوريانو مرّة أخرى ، لكنه لن يفوز في كل مرّة ؛ فهو إنسان ولابدّ أنّ فيه عيباً.ظهر ذات يوم على الرصيف ينظر إلى الناس تمر وتعود لتمر في ممر إحدى عربات الدرجة الأولى فرأى حركة أثارت عنده الشك : شخص يبلل أطراف أصابعه بلسانه وهذا يعني

أن لصاً هناك يستعد لانتشال محفظة نقود أحد الأشخاص فراح يتأهّب كي لاتنزلق من بين أصابعه عندما يسطو عليها . (إنها عادة سيئة ، فاحذروها أيها الفتية) جرى باتجاه باب العربة وصعد فسحة الوقوف وما أن نظر إلى الممر حتى خرج النشال من الباب الآخر : لقد هرب . وصل الفسحة ودار باتجاه الجانب المعاكس لرصيف القطار وقفز إلى الأرض . تراجع بيكتوريانو وقام بالحركة ذاتها . ، فوجد نفسه أمام أمر فظيع : لقد صدمت قاطرة كانت تغيّر الخط الرجل ، الذي جثا على الأرض وبيده اليمنى المحفظة التي سرقها منذ قليل من المسافر . كانت ساقاه بين الدواليب ووجهه ممرّغ في التراب . ركض بيكتوريانو إليه وأمسكه من كتفه وشدّه ، لكنه وصل متأخراً ، فالقاطرة هرست ساقه اليمنى . تحسّس المفتش الذي لاحظ أن شيئاً غريباً فيه ، ذراعيه فوجد أن البائس بذراع اصطناعية . . . صرخ فهرع الناس ، موظفو القطار ، الركاب والشخص المسروق ، الذي ماأن رأى المحفظة حتى تحسس جيبه واستعادها وعاد إلى القطار ، وقد أخرسته المفاجأة . حين جرّ بيكتوريانو جسد الرجل الذي كان ينزف ، انتبه ، ولأوّل مرّة ، إلى ماكان يمثله بالنسبة لهذا النوع من الناس : كان دوره قاسياً وحضوره كافياً كي يخيفهم إلى الحد الذي يفقدهم فيه زمام أمرهم . حقاً إن الرجل كان لصاً ، لكن الدم كان يتدفّق من ساقه بشكل مرعب

وصار وجهه كالورق فخاف بيكتوريانو وشعر أنه المسؤول . حضر مساعدوه وطلب سيارة إسعاف نقل الجريح فيها إلى المستشفى يرافقه بيكتوريانو الذي لم يتركه حتى قال له الأطباء أنه سيعافى . لكن ساقه بترت . لم يعد إلى المحطة بل ذهب إلى بيته وزار الموقوف في الساعات الأولى من اليوم التالي . مرّت الأيام وتحدث إليه : لقد فقد الكسيح أرتورو ذراعه في مواجهة مماثلة هرب أثناءها من الشرطة في إحدى المحطات . وكان يستخدم ذراعاً واحدة في السرقة وهذا أمر صعب ، لأن نشالاً بيد واحدة مثل ساحر بيد واحدة . كان يسرق وحيداً ، لأن من المستحيل أن يجد رفيقاً : لا أحد كان يصدّق أبداً أن باستطاعته أن يحرز محفظة بذراع واحدة وأصابع خمس فقط . خاصة إذا كانت سميكة من تلك التي تحمل ، أحياناً . مشدودة بدبوس معقوف في جيب السترة . كان وحيداً وسعيداً في وحدته لذلك كان يحظى باحترام وإعجاب بقية النشالين ثمّ تراه يفقد الآن ساقه . . .

أصبح بيكتوريانو صديقاً له وساهم ببعض النقود لشراء الساق المطاطية التي قدّمها لأرتورو بعض النشالين من ذوي الشأن والذين تحدث إليهم بيكتوريانو وهو الذي لم يتحدث قط إلى لص أكثر من ثوان معدودات ، لقد تحدّث إليهم هذه المرة مطوّلاً . كان أرتورو رجلاً بسيطاً ، سافر إلى أوروبا ويتكلّم الفرنسية — التي تعلّمها في

السنوات التي قضاها سجيناً في باريس – كما كان نظيفاً يتحدّث ببطء وابتسامة . بقي المفتش ، الذي اصطدم في سنوات خدمته الأولى مع أسوأ اللصوص ونشالي الدرجة المنحطّة ، السفيهة والقذرة ، يظن أنهم جميعاً متماثلون . حقاً إنه اصطاد بعض المحتالين اللطفاء ممن يشبهون السمك إذا ماقيسوا بهوائم الصنف الخسيس ، لكنه لم يفكر قط بالتحدث إليهم ليتأكد إلى أي صنف من الرجال ينتمون ، ولم يفعل ذلك لأن حكمه عليهم كان ثابتاً ، وظالماً ، كانوا لصوصاً وكفى . فاجأه أرتورو ، رغم أن المفاجأة كانت مؤلمة : لاأحد استطاع أن يخلّصه من فكرة أنه هو المسؤول عن فقدان ذلك الرجل لساقه ولم يُجْدِه نَفْعَاً أن أرتورو قال له أن ذلك نتيجة لسوء طالعه والمصادفة . لا . راح منذ ذلك الوقت يحاول التعرف إلى اللصوص الذين يقبض عليهم وإلى الذين كانوا لسبب أو لآخر يلفتون انتباهه في زنزانات القسم ، فلاقى أحياناً مفاجآت سارة وأحياناً أخرى رفسات حقيقية على وجهه: هناك رجال إذا تكلموا أو عملوا ، بدا كأنهم يرفسون والسلم البشري يتصاعد من هنا حتى يصل إلى أولئك الشبيهين بأرتورو والذين يبدو وكأنهم يطلبون أذناً للعيش ، لكن هذا لم يمنعهم ، إن استطاعوا وهذا صحيح ، أن يسرقوا محفظة الملاك الحارس نفسه ، فالحالة شيء والمهنة شيء آخر . كان الانعزاليون أفضل الجميع ، رغم أنهم يعانون من شيء

غريب استطاع أحياناً أن يكتشفه : المزاج ، العادات والمكان الذي يخرجون منه . اقتنع أخيراً أنهم ورغم كل الفروقات ، بشر ، جميعهم بشر ، إذ أنهم بمعزل عن مهنتهم يشبهون البشر الآخرين : الشرطة ، المدراء ، المحامين ، المستخدمين ، الحراس والعمال وجميع الناس الذين يعرفهم أو بامكانه أن يتعرف إليهم . لماذا لايغيرون مهنتهم ؟ ليس أمراً سهلاً أن يفعلوا ذلك فالنجار يموت نجاراً وسائق القاطرة يموت سائق قاطرة ، إلا في بعض الحالات النادرة جداً .

« لكن فاتنا ماهو أهم من ذلك : فقد التقى ، ذات يوم ، بالكاميسيرو وجهاً لوجه وكان لصاً أسبانياً معروفاً بين اللصوص ، استطاع بعد ساعتين من إيقافه في أحد الاقسام ، أن يوظّف لصالحه جميع العاملين في السجن ، بدءاً من الحارس وانتهاء بالضباط ، كان من الصعب أن يقاوموا ظرافته ، ولو أنه كان يطلب من الناس محافظهم بخفة الدم نفسها التي يطلب بها من الحارس أن يذهب ويحضر له زجاجة نبيذ ، بدل أن ينتزعها منهم خلسة لما منعها عنه إلا الأشقياء جداً ، عندما ألقى بيكتوريانو القبض على الكاميسيرو وخرج به إلى الشارع سمعه يلقي عليه أسئلة لم يسأله مثلها لص من قبل : إلى أين نذهب ؟ فأجابه إلى القسم ، وإلا إلى أين سنذهب ؟ لاتثر ، اعتقدت أنك تأخذني لنتناول كأساً من النبيذ أو ماشابه ذلك ، هنا مثلاً يوجد زيتون ممتاز . اعتقد

بيكتوريانو بعد مايقارب المئتي متر أنه سيموت من الضحك من خواطر المدريلدي . وبقي يضحك حتى وصل إلى الثكنة وتركه هناك وعاد إلى المحطة رغم الفرح الذي بعثه عنده . أطلق سراحه بعد عدة أيام حين لم يثبت ضده أي نوع من التهم . عندما وصل القطار المليونيريين في الليل ، ذهل بيكتوريانو كما لم يذهل في حياته كلها ، حين رأى كيف راح الكاميسيرو يهبط من عربة الدرجة الأولى ، نظيفاً ، أنيقاً إلى حد ما ، وقد سرّح شاربه الكبير وحمل معطفه إلى ذراعه ، يلاحق سيداً كأنه ينتزع منه محفظته بالقوة تقريباً . فغر فاه بيكتوريانو ، فالكاميسيرو لم يكتف في أن لم يفعل مايفعله معظم اللصوص : التستر والهرب ، على العكس تماماً ، فقد غمزه وابتسم وهو يحث الخطى خلف تلك الحقيبة التي بدأت تختفي عن ناظره وماعاد من ذهوله حتى صار النشال في الشارع خارج المحطة حيث وجده غير فرح ولاظريف كما في المرة السابقة وكما كان منذ لحظات . لقد تحوّل إلى حيوان مفترس : فالمسافر أخذ سيارة ومعه المحفظة . اللعنة . سنة مضت لم أر فيها واحدة ! اضطر المفتش إلى تهدئته ، عندي إمرأة وخمسة أطفال ويداي كأنهما من رصاص ! سنرى ماذا سيحدث !

« لم يعلم أحد . لا في ذلك الوقت ولابعده ، ماذا قال النشال أيضاً ولا القصص التي رواها ولا الشيء الذي اقترحه على المفتش . الحقيقة

أنه وقعت ، منذ ذلك اليوم - سرقات كثيرة في محطة بيكتوريانو وجميع محطات المدينة ، وكأن المرء في مكان مهجور ؛ كانت المحافظ وحتى الحقائب تختفي وكأن أصحابها نيام والشرطة لاتقبض شيئاً لقاء منع حدوث ذلك . طلب الرئيس بيكتوريانو : ما الذي يحدث ؟ لاشيء ، ياسيدي . وماهذه السرقات كلها ؟ هزّ كتفيه . أراقب ، لكنني لاأرى أحداً ، ماذا تريدني أن أفعل ؟ أن تشدد المراقبة قليلاً .

أُخْرِجَ من المحطة ونقل إلى أرصفة الميناء . وسرقوا هناك على سلّم الهبوط نفسه حقيبة بحار إنكليزي أنيق : جنيهات استرلينية خالصة . أرسلوه إلى أحد المصارف ، لكن المدير طلب تبديله بآخر ، لأن الزبائن لم يجرؤوا على الدخول ، فحيث يظهر كأنه يظهر معه مئة لص ، لا أحد كان يسمع إلا الصراخ : محفظتي ! حاصروا اللص ! إنه لص لم يقبض عليه أبداً . طلبوه إلى الرئاسة ، لكنهم لم يخرجوا معه بنتيجة ، والأسوأ من ذلك هو أن السرقات انتشرت في كل حدب وصوب ، سواء كان بيكتوريانو موجوداً أو غير موجود ، فقد وجد اللصوص فرصتهم وراحوا يأتون من كل جهة ، وبكثرة ، مثل جراد البحر ، يسرقون ذات اليمين وذات الشمال وبكلتا يديهم ويذهبون في الحال ، واثقين أنه كان جميلاً جداً أن يدوم ماحدث . . ازداد مجموع النشالين حتى أن عدد اللصوص كان يوازي أحياناً عدد المسافرين ، دون أن

يؤدي ذلك إلى زيادة عدد الموقوفين المحمولين إلى الفرع ، حيث لا يدخله إلا البلهاء أو الذين قبض عليهم المسافرون أنفسهم وسلّموهم ، بين الضرب ، إلى مراقبي الشوارع ؛ لأن رجال التحري اشتهروا بغيابهم . لم يكن المراقبون ، فيما عدا ذلك ، يتدخلون في العملية . كان الرؤساء وكأنهم على مشواة ، يُحَمّصون على نار هادئة . تدخّل حاكم المقاطعة . استجوب الشرطة ، لكن أحداً لم يعرف شيئاً ، رغم أنهم كانوا ، في الحقيقة ، يعرفون كل شيء وبدقة ، تماماً كما يعرفه نشالو المحافظ : لقد كان بيكتوريانو وبقية المفتشين وشرطة الدرجة الأولى والثانية وحتّى الثالثة يتلقون حصتهم من العصابة التي كان كل واحد منهم يتعامل معها . وقعوا في عملية ارتشاء مرعبة ، وعلى رأسهم بيكتوريانو الذي أُخِذَ بانسانية مفرطة . وانتهى ذات يوم كل شيء وسبب ذلك إلنْغرو إنطونيو (٤) ، الذي كان أسوأهم . واستغلّ تلك العلاقة ليتحوّل من سارق إلى نشال محافظ دون أن تكون له أصابع مهيّأة لمثل هذا العمل ولا لأيّ عمل آخر ماخلا الضرب أو القتل في شارع خال ، علماً أنه لم يكن في الحقيقة إلا خادماً للثلة التي كانت تعمل برعاية الغين الطيبة ، التي كانت من قبل رهيبة ، عين بيكتوريانو . أُلْقِيَ عليه القبض مخموراً في المحطة المركزية : لم يكتف بمحاولة انتزاع محفظة أحد المسافرين بالشد والعنف وإنما ضربه أيضاً عندما رفض المسافر

---

(٤) El Negro Antono : النغرو أنطونيو : أنطونيو الأسود (المترجم)

تسليم محفظته بتلك الطريقة. إنه لتجاوز كبير . بدأ في الزنزانة يقول أشياء جعلت الرئيس الذي نقلت إليه ، يستدعيه ألى مكتبه . ماذا تقول ؟ الحقيقة . وماهي الحقيقة ؟ لنر ، أنت فارس طيب ، لنوضّح الأمور . ثم قصّ عليه المتصلّف الأحمق ، إلنْغرو أنطونيو ، كلّ شيء : كان بيكتوريانو وجميع الشرطة من أمثاله ، يتلقون علاوات من اللصوص. أنت تكذب . أنا أكذب ؟ هل تريدني أن أبرهن على مأأقول ؟ أُطلق سراحك دون أي شرط . اتفقنا .

سجّل الرئيس السلسلة ورقم عشر ورقات نقدية من فئة المئة بيسو وسلّمها له . أطلق سراح إلنْغرو بعد أن عيّن له شرطيّ خاص يراقبه . وما أن أضبح النغرو في الشارع حتّى أخذ قطار المحطة الثانية أو الثالثة قبل المحطة التي كان بيكتوريانو فيها . وصل ، نزل وأومأ له عندما مرّ به ، وبعد لحظات سلّمه أنطونيو الورقات النقديّة العشر على طاولة محجوزة في المطعم الذي اعتاد بيكتوريانو أنيلقى فيه توردو خوليان ، رئيس العصابة . ماهذا ؟ أرسلها لك توردو . وتابع سفره إلى بونوس أيرس . أخذ الذهولُ المفتشَ ، فهو لم يعتد التفاهم مع الطيور المنخفضة التحليق ، لكن الألف بيسو كانت هناك وكانت تشكل مبلغاً يفوق عدة مرات مايتلقاه في الشهر.خبّأها . انتظر بيكتوريانو لحظة ثم خرج : كان يقف على الرصيف خفيران باللباس الموحد

كأنهما عمودان ، اقتربا منه وأخبراه بكل احترام أنهما تلقيا أوامر بحمله إلى الفرع . ضحك بيكتوريانو معتقداً أن إلتباساً قد حصل ، لكن أحد الخفيرين قال له أنه لاداع للضحك وأنهما يعرفانه وليس عليه إلا أن يتبعهما . أراد أن يقاوم فأوضح له الخفير الثاني أنه من الأفضل له ألاّ يضحك : كانا من الاستخبارات الريفية التي تلاحق قطاع الطرق ولصوص المواشي ، اختارهما الرئيس بنفسه . وهكذا سيمشي وعليه ألا يمدّ يديه إلى جيوبه وألا يرمي أية ورقة أو يقوم بأية تسلية أخرى . لاحظ بيكتوريانو أن الموضوع جدّي فطأطأ رأسه .

« فتشوه في المكتب أمام الرئيس : وجدوا الورقات النقدية العشر في جيوبه، وكانت تحمل السلسلة نفسها والأرقام ذاتها ، لم يعد ثمة مجال للشك . حسناً . اذهبا . لم ينكر بيكتوريانو ، وشرح الوضع : مضى عليه ثلاث وعشرون سنة في الخدمة التي دخلها كعميل مساعد ، رفع بعد فترة قصيرة إلى شرطي أول وبعد سنوات إلى مفتش حيث نهاية سقف الترفيع ، قضى عشر سنوات في ذلك المنصب وكان مرتبه زهيداً : ان أي صاحب مزرعة من أولئك الذين يسافرون في قطار الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة يحمل في محفظة نقوده وفي أية لحظة ، مبلغاً ، يتجاوز راتبه السنوي بعدة مرات . مطلوب منه أن يرعى أموالهم دون أن يكون عنده أمل بالترقي إلى قائد فرقة ، أو

إلى رئيس قسم أو مدير ، لأنها مناصب سياسية تمنح إلى الاشخاص الذين يعملون في خدمة أمين أحد الأحزاب ، وهو لايستطيع ذلك لأن عمله لايسمح له اضافة إلى طبيعته نفسها ، كما لم يكن يستطيع أن يضرب أحداً أو يتعامل بالثرثرة والوشاية كعربيد أو قواد .

« كان قد لاحق اللصوص وأوقفهم مثل كلب يلاحق الحجلان والأرانب ويصطادها ، دون أن يعرف أنها حيوانات مثله ، تعيش وتضطر للعيش ، ولم يفكر أو يخطر بباله قط أن اللص انسان أيضاً له أجهزة وحاجات الناس جميعاً : البيوت والنساء والاولاد ، إلى يوم سقط المانغو أرتورو تحت عجلات القاطرة حين حاول الهرب منه . تلك كانت تصريحاته . لقد اكتشف الانسان . لماذا كان شرطياً اذن ؟ لانه لم يستطع أن يكون شيئاً آخر . تراه كان يحدث له مايحدث للص ؟ ثم جاءه الكاميسيرو الملعون : لم يجرؤ لص قط على مواجهته أو التحدث اليه ، اذ كانوا لاينظرون اليه الا كشرطي كما انه كان لاينظر اليهم الا كلصوص . عندما كان يلقي القبض على أحدهم كان يحمله إلى الثكنة ، يسلمه ثم لايعود ليعرف عنه شيئاً حتى تحين لحظة السوء التي يقع فيها الرجل تحت نظره ويده ، لكن دون أية كلمة أو محادثة أو مسارة وأقل من ذلك بكثير الكلمة الودية أو الابتسامة . لماذا ؟ كان الكاميسيرو مختلفاً تماماً ، فقد حدثه وعامله كانسان ، وأكثر

من ذلك ضحك منه ، من شهرته ، وسلطته وحبه للواجب : كان انساناً. تلقى مالاً ، صحيح ، ولكن هذا أمر آخر : على الرئيس أن يعرف انه لم يفعل في حياته إلا شيئين : القبض على اللصوص وانجاب الأولاد، واذا كان قد أوقف في العام الفائت لصوصاً أكثر من أي شرطي آخر فانه قد أنجب أيضاً ابنه الحادي عشر في العام نفسه . . .

« الرئيس الذي خرج من الركام واستطاع بمهارته أن يدخل في خدمة أحد شيوخ السياسة ، فهم كل شيء . لكن كان من غير الممكن أن تستمر الأمور على ذلك الحال . رغم انه كان يقدر بيكتوريانو كما يقدر انسان عينيه ، لأنه كان أفضل عنصر عنده ، فقد حمله على توقيع استقالته ثم ربت على كتفه وودعه . تلقت العناصر في تلك الليلة حين جاءت لاستلام وتسليم المناوبة ، المعلومات عن مصيرها : مسرح ، منتدب ، مثبت . . . بيكتوريانو مايزال حتى الآن حياً وأولاده ، لحسن الحظ ، محتشمين . أوريليو هو بكر أبنائه ، أما إلنغرو أنطونيو ؟ طعنه التوردو (٥) خوليان بخنجره طعنة واحدة . »

التقيت في المساء بوالدتي أمام باب التحقيقات وعدنا إلى البيت . لقد دفعت أول ضريبة .

---

(٥) El Zurdo : الأعسر .

- ٧ -

وهكذا لم أستطع الإبحار : كانت تنقصني الوثائق ؛ ورغم وضع ساقي وذراعي ، رغم وحدتي وجوعي بدا أن وجودي لايعني أحداً . جلست على الدرج ، درج الرصيف أنظر إلى البحر : كانت السفينة تدور بدرجة قدرها مئة وثمانون درجة لتتجه بعد ذلك نحو الشمال الشرقي. كان البرونز والدهان والزوارق البيضاء والمداخن الداكنة يلمع تحت شمس المساء . أجلت فيها النظر من المؤخرة إلى المقدمة : في مكان ما على السطح ، في حجرة من الحجر ، في المطبخ أو المطعم كان صديقي . طأطأت رأسي ، ممزق القلب : بقيت هناك ، في ذلك الميناء المجهول ، وحيداً ، بلا نقود ، بلا جنسية مثبتة وبلا صديق .

تعرفت اليه على ضفة نهر . اقتربت منه عن بعد ، فلم يرفع رأسه إلا عندما أصبحت بجانبه ، نظر إلي :

- هل تعجبانك ؟

كان ثمة سلحفتان تتحركان على العشب .

- هل هما لك ؟

ـ بلى ، لي ، هيا امشي .

ودفع احداهما بعصا صغيرة .

ـ وهل تحملهما معك ؟

ـ بلى .

نظر إلي من جديد وتفحصني ثم استقام : بي شيء لفت انتباهه ، ربما كانت طريقتي بالكلام .

ـ وأنت ؟

لزمت الصمت ، لم أعرف بماذا أجيبه على سؤاله ذاك ، فانتظرت آخر .

ـ من أين أنت قادم ؟

التفت بجسمي وأشرت إلى الجبال الشاهقة .

ـ أمن الأرجنتين ؟

أومأت برأسي مجيباً . تفحصني من أعلاي إلى أسفلي ومكث لحظة صامتاً ثم انفجر :

ـ غريب !

أشار إلى حذائي ، الذي فقد كعبيه وتعزيزتيه ونعليه . عندما خرجت من منلوثا إلى تشيلي كان جديداً .

ـ كيف تسير ؟

ـ على قدمي .

ابتسمت للنكتة بحزن .

ـ اجلس ـ دعاني .

عندما جلست ومددت ساقي انتزع منه أخمصا قدمي استغراباً آخر :

ـ كيف تستطيع السير !

استندت إلى الخلف متمدداً على العشب بينما استمر هو في النظر إلى قدمي هاجراً سلحفتيه . سمعته .

ـ من الأرجنتين . . . أمن بونوس أيرس ؟

ـ من منلوثا .

ـ سيراً على قدميك ؟

ـ ثمانون كيلو متراً منها في القطار ، مختبئين في سلسلة الجبال .

نظر حوله .

ـ ألست وحيداً ؟

ـ الآن فقط .

ـ وماذا فعل رفاقك ؟

ـ رحلوا إلى الجنوب .

ـ وأنت ؟

كان يحمّل تلك الـ « وأنت » أشياء كثيرة : وأنت لماذا لم تذهب ؟ وأنت من تكون ؟ وأنت من أين قادم ؟ وأنت ماذا تقول ؟ أجبته غريزياً :

ـ لاأريد الذهاب إلى الجنوب ، فالأمطار غزيرة و . . المناجم لاتهمني .

خفض رأسه وقال :

ـ نعم ، ولكنه جميل . كيف عرفت انه ماطر ؟

ـ قد أكون قد قرأت عنه .

ـ صحيح ، انها تمطر كثيراً . أنا كنت أيضاً في الارجنتين .

استقمت .

ـ عدت منذ سنتين .

كنا جالسين على الضفة الجنوبية لنهر أكونكاغوا بالقرب من البحر ، حيث تصدر المياه المنخفضة هناك خريراً أثناء تجرجرها على الصخور الكبيرة . أمسك بالسلحفتين اللتين كانتا تتقدمان باتجاه النهر .

ـ ولماذا تركت بيتك ؟ ـ سألته .

نظر إلي بذهول :

ـ وأنت ؟

ذهلت بدوري : انه لسؤال تكرر مرتين وكان باستطاعتي ألا أجيب عليه ، أما الآن فلم يعد هناك مفر من الاجابة :

ـ ليس عندي بيت .

بدا عليه الارتباك .

ـ لكن عندك عائلة .

ـ بلى . . .

ـ وهذه العائلة تعيش في مكان ما .

لزمت الصمت ، اذ كيف أجيبه بأنني لاأعرف شيئاً عن أخوتي ووالدي ؟ ربما انتبه إلى ارتباكي فلم يلح وقال :

– والدتي ماتت ، أعني ، أعتقد انها ماتت . لم أعرف ولاأعرف عنها شيئاً . ولاأملك في البيت أية ذكرى منها ، لاصورة ، لارسالة ، ولا قطعة نسيج ، لاشيء على الاطلاق مما تتركه الأمهات ويذكر بهن وهذا لايعود إلى أن خالتي ، زوجة والدي ، أتلفته أو خبأته ، فهو لم يكن موجوداً قبل مجيئها إلى بيتنا . عشنا سنوات كثيرة وحيدين مع والدنا .

– وماذا يعمل والدك ؟

نظر إلي بذهول جديد .

– ماذا يعمل ؟

– نعم ماذا يعمل ؟

– انه مدرّس .

لم يحرز الحوار خطاً منتظماً . كان كل منا ينظر إلى الآخر نظرات دقيقة ، نتفحص وجهينا ، ثيابنا وحركاتنا وكأن الواحد منا سيتمكن من التوصل إلى معرفة شيء عن الآخر . كان يتكلم بشكل سليم ، لاشك كان يكبرني بسبع سنوات تقريباً ، وهذه جزء من تجربة ومعارف . شيء بين الحقيقة والزيف . : كان يستخدم العدسات ، ولم تكن عدسات بإطار ، من تلك التي تسمح لصاحبها بالجري ،

والقفز والانحناء ولاحتى بالمشي ، كما لم تكن من تلك التي تستند إلى الأنف بعقفتها التي تعقص الجلد . ان صعلوكاً بعدسات مثل آخر يحمل مظلة ، لم يساورني شك أنه كان كذلك : فحذاؤه معفر بالتراب رغم انه جديد — كم من الكيلومترات قطع في هذا النهار ؟ — وجوربه بلون الفأر متهدّل على رسغي قدميه وأسفل البنطلون وسخ مثل الحذاء وثيابه تكاد تكون جديدة ، لكنها مهملة ومغبرة ، كأنه ليس لصاحبها عمل بها ، ومع ذلك فقد كان قميصه مايزال مقبولاً رغم انه ليس زاهياً وعليه ربطة عنق سوداء فقدت وبرها وتليها بعض النسال وتذهب إلى هنا وإلى هناك باحثة عن القبة المهترئة . كان من الأفضل لو سأل الواحد منا الآخر بالتناوب عن كل ذلك الذي يريد معرفته : مثلاً ، أصلنا ، اتجاهنا ، إن كان لنا اتجاه ، قدرنا ، اذا كنا نشك به ، ولماذا وكيف ومتى ؛ إلا أنه لم يكن من السهل أن يقرر المرء ، لأننا لم نكن قد شعرنا بعد بالحاجة إلى معرفة مايتعلق بالواحد منا . كنا في بداية تعارفنا وما من ثقة بيننا : ماذا لوحدث في النهاية ان واحدنا لم يهتم بالآخر ؟ من الممكن أن أبدو له غبياً أو أن يبدو لي كذلك . كما يمكن أن تكون عاداته وحركاته غير محببة لي وحركاتي وعاداتي غريبة بالنسبة له . حدث لي — كما يمكن أن يكون قد حدث له أيضاً — أن ألتقيت بأشخاص لم يكن التجانس معهم صعباً فقط وانما أيضاً الحديث

والوقوف معاً في أحد الأماكن ، أشخاص مركبون بطريقة وحيدة ، قساة لايمكن النفوذ اليهم ، مثلاً ، أو رخاة ، مساميون ، كأنهم قطعة من ضرع بقرة ، هؤلاء الذين ينفتح عليهم الانسان في حالات كثيرة، تخدعه الظروف ، ويكون اجتماعياً، يقص عليهم حياته أو بعضاً منها ، يلقي نكتة ويضحك حتى يكتشف أخيراً أنه أضاع كثيراً من الوقت بالحديث إلى هذا الشخص عن مسائل غير ذات أهمية بالنسبة له . لكنه يملك شيئاً يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار منذ البداية : السلحفاتان أولاً ثم النظارة ثانياً : ان شخصاً يحمل بين معداته سلحفاتين وعدستين فوق أنفه لايمكن أن يُزْدَرى هناك على شاطيء أكه نكاغوا : كان ضرورياً أن يؤخذ بالحسبان .

قليلون هم الصعاليك الذين يضعون نظارات ، عرفت واحد فقط ، كان يسافر برفقة عازف أرغن وقارع طبل وصنيجات ، ولم يكن معهم لأنه موسيقي ، فهو ليس موسيقياً ، وانما كان ملحقاً تجارياً : عندما كان عازف الأرغن ينتهي من تحريك ذراعه وقارع الطبل من القرع والوثب ، كان اليهودي ـ فعلاً كان يهودياً وبولندياً أيضاً ـ يتقدم هو من الجمهور ويتكلم : كان له وجه طفل ، مشرق ، ووجنتان ورديتان وشارب أشقر وشعر ذهبي طويل يفر من تحت قبعته الوسخة ، وهذا ماكان يوحي بأنه متنور . عيناه زرقاوان وحزينتان بعيدتا النظر ،

كان يتفحص الزبائن من خلف نظارته الدائرية وكانت تقاسيم وجهه المختالة وشبه الرقيقة ونعومة صوته تدهش الناس وتجعلهم يعتقدون أن ذلك الرجل انما يتحدث عن أشياء هامة جداً ، عن وحي جديد ، ربما كان ذلك بفعل مظهره الغريب . لم يكن ثمة من يفهم مايقول في اللحظات الأولى : كان يحمل حزمة من المنشورات تحت ذراعه ، يسحب واحداً منها ويناوله للذين كانوا يحيطون به . تراه أبن الرب كان هناك ؟ كان بعض المشاهدين يريدون أن يأخذوه فوراً ، لكن وبما أنه لم يظهر ، حتى الآن ، أي ممن اختارهم الرب برفقة عازف أرغن يعزف : « حدثني عن الحب ، ياماريو» ولابرفقة قارع طبل يقفز ويطلق صيحات ، فقد كانوا يحجمون وقد استنفروا ذكاءهم وسمعهم . بعد لحظات كان يشعر الأشخاص الأكثر قرباً من ذلك الرجل وعامة كانوا أول الذين يفهمون ماكان يقوله وكأن يداً ضخمة تدغدغهم في مناطق مختلفة من جسدهم في آن واحد فينحنون أو ينقلبون على ظهورهم وجوانبهم وقد سيطرت عليهم ضحكة قاهرة : لقد كان الرجل المتنور ذو القبعة الوسخة يبيع كتب أغان ، ولا عمل له بكلامه سوى الدعاية لها وتقديمها لكن بكلمات مشوهة أو مبدلة الجنس والأصوات ، بطريقة ما من أحد يستطيع أن يسمعها الا وتطول ضحكته وكان الناس يشترون كتب الأغاني آملين أن تكون بظرافة بائعها ،

لكن لاشـــــيء من هذا : فهي لاتحتـــوي إلا على « التانغو » (٦) و « الميلونغا »(٧) التي تستطيع كلماتها أن تبكي أكلة لحوم البشر . كان عازف الأرغن المثقل بآلته وقارع الطبل المثقل أيضاً بآلته وتاجه الناقوسي والرجل ذو الوجه الوضاء بحزمة منشوراته تحت ذراعه ونظارته اللامعة فوق أنفه الأحمر الصغير يشقون طريقهم من جديد غير آبهين بآمال أو خيبة آمال الآخرين ، صموتين مثل أعمدة الهاتف . لا ، ان صعلوكاً بنظارات شخص غريب ، هاهما السلحفاتان هناك تنسابان على العشب دون ضجيج : لم أر ولم أسمع بأحد يسافر سيراً على قدميه وبرفقته حيوان دون تحديد ، كلب مثلاً أو قطة ، يتطلب رعاية و اهتماماً خاصين ، اضافة إلى أنه يعض ، يخدش ، يخرب ، ينبح ، يموء ، يسرق ، يمارس الحب ، يتوالد ، يختفي ويظهر . كما أن الحيوانات الأهلية مستقرة ــ ولو لا ذلك لما كانت هذا وذاك ــ ولم أر أحد يسافر ليجوب العالم يرفقة دجاجة أو بقرة . كنت أمقت الناس الذين يعيشون على أطراف المدن ، في أراضي البور ، تحت هياكل

(٦) Tango : هي في الأصل رقصة معروفة في جزيرة الحديد وانتشرت في الارجنتين ثم عموم أمريكا والعالم وتطلق أيضاً على موسيقا الرقصة والأغاني التي ترافق هذه الموسيقا . (المترجم)

(٧) Milonga : اسم رقصة وأغنية . (المترجم)

التنك والأكياس ، المحاطة بالقطط والكلاب والبراغيث ، كنت أرى انهم قذرون ، ليس لهم جو خاص ، أو لهم جو من قطط وكلاب ، أناس تنوروا بخيالات قاتمة قتامة حظائر خنازيرهم ، وليس لديهم أي شيء مهم سوى تقليد الآخرين ببيوتهم ورفاهيتهم ، الشيء الذي لأجله يحيطون أنفسهم بالحيوانات المقرفة : قطط مريضة ، كلاب جرباء ، والبعض منهم يعتقدون أنهم ملاك للأراضي التي يعيشون عليها ، فيخوفون الأطفال الذين يذهبون ليلعبوا فوق المرج ، قرب أكواخهم الموبوءة . كنت أفضل المشردين الذين لابيوت عندهم . لكن هاتين السلحفاتين كانتا صغيرتين وظريفتين في آن واحد وكانتا بلون الأرض ، تتسعهما يد واحدة وتنتقلان من مكانهما فوق عشب النهر الرطب مثل قطعتين أرضيتين . كانتا تضفيان عليه العظمة والأصالة والرفعة . لماذا يحملهما معه ؟ فهو لا يستطيع أن يأكلهما اذا جاع ولا تفيدانه في الحماية ولا يمكن أن تكونا شريكتين له في أية خديعة . ميزتهما هي أنهما كانتا صغيرتين .

اذن ، لم يكن إنساناً عامياً ، واحداً من أولئك العاديين في جميع الطبقات الاجتماعية ، الذين يودعون أمثالهم ، كما يمكن أن يودعوا كلباً ميتاً . ثمة شيء كان يشع منه بوضوح وهدوء . وكانت عيناه تشبهان عيني بائع الأغاني ، فهما مطفأتان أيضاً قليلاً ، رغماً أنهما لم تكونا زرقاوين بل كستنائيتين

داكنتين ، وربما صغيرتي الحجم وقصبرتي الأجفان قاسيتها . عينان ميوبيتان . لكن ، لاشك أنه هو الذي كان سيسأل :

— أليس معاك نقود ؟

— كلا ، لماذا ؟

أشار إلى حذائي .

— لن تستطيع الوصول بعيداً بهذا الخف .

كان ذلك صحيحاً ، رغم أنه لم يكن من الممكن تسميته خفاً ، فهو قطعة سلك مررت بمخطف طرف الحذاء وربطت حوله فكانت تمنع تفككه الكامل .

— صحيح ، لكن كل ماأملكه هو عشرون سنتيماً أرجنتينياً . هاهي .

انه الرأسمال الذي دخلت به البلد . تفحص النقود وتركها فوق العشب ، حيث بقيت تلمع : رأس امرأة والقبعة الجمهورية : الخلود للغار . . .

— عندي ثياب يمكنني أن أبيعها .

— لاتبعها ، ستحتاجها .

ـــ ماذا أفعل آذن ؟

ـــ معي في المزودة حذاء قنّبي ، سأعيره لك .

ـــ لكنه صغير .

ـــ تقصّ منه مايزعجلك ، المهم ألا تدوس على الأرض حافياً .

ـ ٨ ـ

كان مجرى نهر أكونكاغوا هناك عريضاً كفاية . لكنّ ماءه كان شحيحاً ، إضافة إلى أنه يتفرّع إلى عدة فروع ، تظهر هنا وهناك بين الأجمات ، تبحث عن مستويات أكثر انخفاضاً أو عن أرض أكثر طراوة ، تتقلّص أو تتضخم حسب الحظ الذي تصادفه . يحدث أن فرعاً يسلبُ فجأة مياهَ فرعٍ آخر سلباً كاملاً ، مثل هذا الذي تضخم بمياه آخر أصغر منه تعثّر في مسيره ، لأنه اصطدم بأرض قاسية مثلاً أو بمجرى ذي حصى غليظة ، حملته على التخلي عن طموحاته بالاستقلال ، لينضم إلى أول مسال يصادفه وهناك أخرى تصارع في مسيرها الطويل الحجارة التي يخلّفها تجار الرمل مجمّعة في هذا الجانب أو ذاك ، أو التي يجمّعها النهر في مواسم الفيضانات عندما يهاجم كل شيءفيسمع صوت الماء الدافق باسهاب وكأنه يحصي الحجارة ، إلى أن يصل مركداً حيث يبدو أنه يرتاح ومن هناك يتابع مسيره بصمت . على الضفة الأخرى تظهر صفوف أو أجمات من أشجار الصفصاف

والحور وهناك جرف قليل الارتفاع شديد الانحدار ، وجزء منبسط وصغير ثمّ تبدأ الأرض بالارتفاع فوراً باتجاه الهضاب البحرية ، التي كان بعضها أصغر من جذامة القمح أو الشعير ، حيث تظهر أجمات جميلة من الشجيرات والأشواك والمايتين (٨) والبولدو (٩) وكأنها أصدقاء أو عجائز يتحدثون عن الحياة القاسية هناك وعن أمراض الطفولة المرعبة ، عن المراهقة ، وسن الرشد والكهولة . إن من ينظر إلى الغرب لايرى شيئاً . هل يستطيع النهر أن يجري هناك كما يحلو له ، متحرراً من الضفاف العالية والغوطات والأجمات والصخور وأقنية الري أو الصناعة التي تسلبه حجمه وتقلّصه ، لتعود وتملأه من جديد ؟ لا : فالنهر يموت هناك . يوجد شيء يشبه الضباب باتجاه الغرب ، وخلف هذا الذي يشبه الضباب البحر . إلى الشرق ترتفع أسوار سلسلة الجبال . قمم عنيفة، صواعق جليدية ربما كانت عجوزاً مثل البحر. الأكونكاغوا، أبو البحر ، يملأ الأفق .

ـ سنسير ونحن نتحدّث .

---

(٨) Maitcn : مايتين : شجرة تنمو في تشيلي ، أوراقها محببة للابقار وخشبها قاس يميل إلى اللون البرتقالي (المترجم)

(٩) Boldo : بولدو شجرة تشيلية الأصل ثمارها صالحة للأكل ، يستعمل نقيع أوراقها لآلام المعدة والكبد . (المترجم)

كان النعل القنبي ضيقاً قليلاً ، لكنه لم يكن يزعجني . حملنا متاعنا وبدأنا نسير . في هذه الأثناء راح صديقي يتكلّم :

— أنا ذاهب إلى بالبارايسو وأفكر بالاستمرار إلى الشمال ، إلى حيث أستطيع ، ربما إلى بانما أو مضيق بيهرينغ . هذا هو خروجي الثالث . يقول والدي أنها تشبه خروجات دون كيخوت . خرجت في المرة الأولى ضجراً . تتعبني الرياضيات والنحو والتاريخ القديم والحديث ، والتربية المدنية واللغة الفرنسية ، علّموني أسماء الآلهة المصرية قبل أن يعلموني كيف أنظّف أنفي . لماذا ؟ إنها الثقافة . كان والدي لايتركني أتناول طعامي بفضل الثقافة ، كنت أصل إلى البيت ساعة الغداء أو العشاء منهكاً من محاولات التعلّم . كان مدرساً كما قلت لك ، ويستقبلني بسلسلة من الأسئلة : ماذا درست اليوم ؟ فتتجمّد الملعقة في منتصف الطريق ، بين الصحن وفمي .

— لغة فرنسية ، أسبانية ، بيولوجيا ، رياضيات .

— رياضيات ؟ ، أي نوع من الرياضيات ؟

— كان عندنا من الرياضيات مايصل حد الاشباع . إنه رجل يسيطر على الجبر كما يمكن لصياد السمك ، كصيّادِ سمكٍ ، أن يسيطر على شباكه . ماذا أفعل : كل شيء يتعبني ، والرياضيات تتعبني أكثر

من أي شيء آخر . فكّرت بالبحر ، هل في البحر جبر . هندسة .
تصريف ، معادلات من الدرجة الأولى . أعشار . أمثال مساعِدَة .
والله أعلم ماذا أكثر ؟ كنت أريد أفقاً ، على ألا يكون مفرطاً في
الاتساع ، فأنا نصف أعمى ، لكن يجب أن يكون أكثر اتساعاً مما
تسمح به جدران قاعة الدرس وشارب مدرس اللغة الفرنسية . وهكذا
وصلتُ إلى البحر . يتنهّد الغرقى بأمل أن يجدوا باخرة تقلّهم إلى
اليابسة وأنا أريد واحدة تقلّني إلى الجزيرة ، مهما كانت : وقعت
على باخرة حربية : وهكذا صرت شيئاً : بحاراً . لم يكن هناك
إنسانيات ، رغم أنه كان يوجد في الحقيقة رقيب بحري لايتكلّم
ولا يصرخ وإنّما يجأر : انهض أيها البحار . واربط أرجوحة الجيش !
اربطها إلى الدرابزن . كان يضيف بين الجد والمزح عند الشروق :
انتهت الحياة الطيبة ! . . . الحياة الطيبة . . . الحقيقة إنها لم تكن سيّئة
تماماً ، كنّا نبحر على طول شاطىء تشيلي وأبعد من ذلك : « من
القطب وحتى خط الاستواء الحار » ، كما كانت تغنّي جدتي لأبي
في بالبارايسو . اخترت هذا العمل وتحمّلت كلّ ماستطعته ، فأنا
سيء في دراستي وسيّء في الأعمال اليدوية . لم أستطع أن أطرق قط
مسماراً واحداً بشكل مستقيم ولا أن أقطع اوح خشب . أيّاً كان ،
للحظيرة . مافائدتي إذن ؟ لاأحد يعلم . لكنني تعبت أيضاً :أدر نحو

الميمنة ، .قاوم باتجاه الميسرة ، نظّف السطح ، اسند هذا الرأس ، أكنس هنا ، نظّف هناك ، جهّز زورق القبطان . أغلق الفتحات ، عاصفة في كابو رابير ، غيوم كثيفة ، ريح شديدة ، هربت في بونتا أريناس ، كنت قد قضيت زمناً طويلاً في البحر ، وكانت بي رغبة لأن أطأ أرضاً ثابتة ومع ذلك كان عليّ أن أعمل في شيء على اليابسة وأنا لاأتقن عملاً . درت ودرت ، نمت في فنادق حقيرة ، مثل صيّادي ذئاب ساء حظّهم ، إلى أن التقيت بصديق ، من أصدقاء المدرسة الذين يلقاهم الإنسان في كل مكان ، إنهم قديسون .

ــ أنت هنا ! أيّ شيطان جاء بك إلى بونتا أريناس ؟

ــ هربت من باخرتي وأبحث عن عمل .

ــ عن عمل في هذا الوقت في بونتا أريناس ؟

ــ لم أستطع اختيار مكان آخر .

ــ كان الوقت خريفاً .

ــ ومع ذلك ، دعني أفكّر ، رغم أنه لاضرورة ، في الحقيقة ، للتفكير طويلاً . هل تحب أن تكون عميل شرطة ؟

ــ عميل شرطة باللباس الموحد والسيف والحزمة والمسدس إلخ ؟ لا شكراً .

ـ لا ، يارجل ، شرطي تحقيقات ، ماذا تسمونهم ؟ عملاء ، رجال تحرّ ، من النوع الذي يرتدي لباساً مدنياً . عندنا أربعة منهم هنا . سيرحل واحد منهم ، وهم بحاجة إلى من يحل محله : الراتب ليس سيئاً . والعمل ليس كثيراً .

ـ هل يوجد هنا لصوص ؟

ـ لصوص ؟ هنا لايوجد لصوص . كيف تريد أن يوجد لصوص في مدينة تهبط حرارتها شتاء إلى عشرين درجة تحت الصفر ؟ لا لصوص ولا شحاذون ، فلو وجدوا لتجمّدوا في الشوارع ، نادراً ماتقع حادثة سرقة وأخرى وبالمصادفة ، القتل أيضاً قليل جداً ، المنتحرون ، نعم ، خاصة عندما تهبّ الرياح الغربية لأيام كثيرة متتالية ، لكن المنتحرين لايلاحقون ولا يسجنون وإنما يدفنون وينتهي الأمر . مارأيك ؟ » وماذا سيكون رأيي ؟ قبلت . أسوأ من ذلك هو أن آكل فئراناً والباخرة أقلعت وما من مخرج آخر : عميل شرطة ، إنه عمل جميل . بقيت هناك في مدينة النهارات القصيرة والليالي الطويلة أو العكس ، حسب الفصول ، أحمل مسدساً نموذج الأربعة والأربعين إلى خصري ، أنتظر أن يمر الخريف والشتاء كي أستطيع الإقلاع نحو الشمال . قضيت شتاء رائعاً . ذات يوم وقع حريق : احترق مخزن خلال دقيقتين وذلك بفعل الرياح ، كان من الخشب الخالص ، كل شيء

كان قد تحوّل إلى رماد عندما جاء رجال الاطفاء . فتح تحقيق بالموضوع : صاحب المخزن أضرم فيه النار وأعلن عنها بالصياح . كان إيطالياً ، ملّ المخزن ، أراد أن يبيعه ، لكنه لم يجد من يشتريه بأيّ ثمن كان ، أراد أن يتركه لأحد أبناء وطنه ، لكن هذا الأخير ، الذي جاء يبحث عن الذهب في تييرّادل فويغو ، ويبدو أنه وجده ، صرّح أنه يقبل أية هدية على ألا تكون مخزناً ، فهذا النوع من الأرزاق لم يكن يهمه . فلير م بهذا العظم لكلب آخر . شعر الإيطالي بخيبة أمل كبيرة . لم يكن يستطيع تأجيره ، بيعه ، كما لم يقرر أن يهجره وكان يريد الرحيل وعندما حلّت أيام الريح ، التي تهب ليلاً ونهاراً بشكل متواصل ، لم يحتمل فقرّر حرقه ، وهكذا يتخلّص منه . لم يكن المخزن مؤمّناً . هذا ماصرّح به ، فظنّ الناس أنه معتوه : إن صاحبَ مخزنٍ ، سواء كان إيطالياً أو غير إيطالي ، يحرق مخزنه وهو غير مؤمّن ، لايمكن إلا أن يكون معتوهاً ، وكان كذلك فعلاً بل وشديد العته . أوقِفَ ، وبما أنه لم يكن هناك مستشفى نفسي ، فقد أودع في المستشفى وكُلّفَت الشرطة بحراسته ريثما تصل الباخرة التي يمكن أن تحمله إلى بالباراييسو . كان يجب أن لاتكون شرطة بلباس موحّد ، إذ لاأدري لماذا لم يكن يستطيع أن يتحمّل رؤية اللباس الموحّد : كان يشرع بالحديث عن غاريبالدي ويثور . .

جاءني الدور بالحراسة : ياللحظ ! حين رأيته أوّل مرة كلّمته قليلاً ، لأرى كيف كان وضعه فاقتنعت أن من الأفضل لي ، إذا كنت لاأريد أن أقضي عليه ، ألا أكلمه كلمة واحدة طوال مدة الحراسة ولابعدها . وبقينا هناك سجيني إحدى غرف المستشفى ، أخرسين مثل قطعتي خشب بطول خمسة سنتيمترات : هو جالس أو مستلق في فراشه وأنا واقف وظهري إلى الباب أو جالس على كرسيّ . دام ذلك أياماً كثيرة ، عندما استلمت الوردية من زميلي ، الشرطيّ الآخر ، وكانت ورديته ليلاً ، بدا لي وكأنه ينقه من التهاب رئوي ، شعرت أنا أيضاً ، في المساء عندما استلمت الوردية منه كما يشعر المرء بعد غسل بارجة بدلو ماء ، أخذت معي كتباً وكرّست نفسي للقراءة ، لكنني لم أستطع أن أقوم بذلك بهدوء : فقد كنت أشعر أن المجنون ينظر إليّ ويدرس حركاتي ، مترصداً اللحظة التي يستطيع أن ينقض فيها عليّ ، كان عملاً مسلياً ، فالمجنون كان ينفجر فجأة ويلقي منولوجات بالإيطالية ، بصوت معتدل لايفهم منه ، أو لايكاد يفهم منه شيء : كلمتان أو ثلاث ، فقط . كنت أترك القراءة وانظر إليه بانتظار أن يسكت ، كان رجلاً قصيراً وقوياً ، رأسه كبيرة ، بشرته بيضاء ، شعره أسود وكذلك شاربه . كان يتكلّم ويتكلّم برهات طويلة وكان ينظر إليّ من حين لآخر نظرات سريعة وجهمة

وكأنه يختبيء مني برأسه المنحني وعينيه الحمراوين ومع ذلك كنت أظن أنه لايوليني اهتماماً أكثر مما يولي الكراسي أو ألواح الأرض الخشبية ، ولكن ورغم أن نظراته كانت بالنسبة لكل شيء واحدة فإنها كانت تقلقني .

ماذا حدث للباخرة كي لاتصل ! كنت أفضل أن أدفع راتبي السنوي كلّه مقابل أن أتخلّص من البقاء هناك وألعن غبائي الذي وقعت فيه حين هربت من الباخرة . فالرقيب أفضل بكثير من المجنون . كان الإيطالي يصمت وأتابع أنا القراءة . ذات يوم وفي اللحظة التي وصلت بالرواية التي كنت أقرؤها إلى أعلى درجات الأهمية شعرت أن شيئاً شبيهاً ببيت من طابقين قد هبط فوقي فسقطت منكباً على وجهي وتحطم الكرسي الذي جلست عليه مثل جوزة ضغت بكلاّبة : إنه المجنون ، الذي استغلّ انشغالي وشغفي بقراءة الروايات وانقضّ عليّ مثل نمر . أصبحت تحته ، أمسكت الرواية بيد وحاولت بالأخرى أن أمسك المجنون من مكان حساس ، كائناً ماكان . حافظت على الكتاب في يدي عدة ثوان فقد كان هناك شيء لا شعوريّ يمنعني من إفلاته وكأن هذا الشيء خاف أن يتمزّق الكتاب أثناء العراك ونبقى دون معرفة ما سيحدث في الفصول الأخيرة . كانت الرواية انكليزية : « الملعقة الفضيّة » وعندما انتبهت إلى نفسي قذفتها بحذر إلى مسافة محددة وتفرّغت في الحال للإيطالي الذي كان يلهث مثل فقمة .

كان قد أمسك بعنقي من فوق كتفيّ– كان فوقي وسطياً –وضغط عليه ضغطاً كان ضعيفاً وبيد واحدة هي اليسرى ، بينما كانت اليمنى تتلمّس خصري وكأنها تبحث عن شيء . ماذا كان يريد ؟ وشعرت بالذعر عندما تبينت ماكان يريد : إنه يريد الحصول على المسدس . وبينما كان يمسك بي بذلك الشكل ويتلمّسني انفجر بمونولوج بدأه بكلمات تمرّد ، ياتمرّد ، الذي ذكر فيه ، كما في جميع المنولوجات ، غاريبالدي (١٠) ، لاأحد كان يستطيع أن ينتزع من رأسي أن ذلك الرجل لم يكن من رجال مارسالا ، ربما آخرهم ضغط عليّ ووضعني في وضعية منعتني من المقاومة ، ومع ذلك استغليت لحظة ضعف ، ارتخى فيها الضغط على أحد الأجزاء فلرت وأطلقت صرخة، في الوقت نفسه ، يمكن أن تكون قد سمعت في قناة بياغل ، لكن من المؤسف أن أحداً لم يسمعها : فالغرفة هي إحدى آخر غرف البناء وكانت تهبّ ريح غربية شديدة . انتبهت إلى كل شيء : عندما استطعت أن أرتفع فوق المجنون وتغلّبت على مقاومته ، تصرفت بما سمحت لي به الظروف :

(١٠) Garibaldi : غاريبالدي : بطل ايطالي وطني من حركة البعث (ريسور خيميينتو) ، اشترك في أعمال حربية كثيرة وحركات انقلابية في بلاده وفي الحروب الأهلية في البرازيل وأرغواي . عاش بين عامي ١٨٠٧ – ١٨٨٢ تحول إلى بطل شعبي بالنسبة للإيطاليين . (المترجم)

ضربة بيده على رأسه . نقّبت له أفكاره إذا كانت غامضة إلى ذلك الحد ووضعته خارج المعركة . تمتم : « تمرّد » للمرة الأخيرة ثم أفلتني .

نهضت ، استرجعت الرواية ، رششت بعض قطرات الماء على وجه المجنون ؛ فاستعاد وعيه ونظر إليّ من طرف عينه وهو ينهض ، ثم ذهب وجلس في مكانه المعتاد حيث شرع بمونولوج آخر حذف منه كلمة « تمرّد » . أما أنا فانتظرت برهة ثم سوّيت من وضع ثيابي ، نفضتها ، أطلقت تنهيدتين أو ثلاث طويلات لأعيد تنفسي إلى وضعه الطبيعي ثم حاولت أن أتابع القراءة ، لكنني لم أستطع : فالانفعال كان هائلاً . شعرت بما يشبه الندم في داخلي . حاولت التحرر منه قائلاً لنفسي إنه لم يكن بالامكان التصرف بطريقة أخرى . كيف أناقشه وأقنعه ؟ بقينا هناك على هذه الحال ، هو يتكلّم وأنا صامت وبيدي الكتاب دون أن أستطيع العودة بنفسي إلى ما كنت عليه . لكن عذاباتنا انتهت في اليوم التالي ، عندما وصلت الباخرة التي كانت ستنقله إلى بالبارايسو ، ومع أننا لم نستطع أن ننقله إلى سطحها إلاّ قبل دقائق من إقلاعها ، فقد أراحنا التفكير بأنه لم يبق لنا معه إلا يومان أو ثلاثة .

ماأن سلّمنا الإيطاليّ إلى ناظرٍ له وجهُ من لا أصدقاءَ له وهبطنا من الباخرة حتّى ذهبت مع الشرطيّ الآخر واحتفلنا بتحررنا بثلاث قناني نبيذ لكلّ واحد ، وسكرنا سكرة قاتلة ، وقضيت شتاء كاملاً

هناك . أصغي إلى عواء الريح في الشوارع وصفيرها في المداخن . حياة لطيفة : سمنت عدة كيلو غرامات بلحم الخروف الجاف الخالص رغم عدم توفّر الخضار ورغم الخمس عشر درجة تحت الصفر . لكنني لم أغادر بيتي لأدفن نفسي في الحياة كلّها في بونتا أريناس . جاء الربيع . وكان ربيعاً حافلاً بمياه الثلوج ووصل معها طرّاد ، كان يشكّل كل أسطول جمهورية أوروغواي الشرقية الحربي . بقيت أتأمله يومين كاملين من الرصيف . أخمّن عرضه وطوله وارتفاعه وأتنبّأ بالطعام الذي يقدمونه على ظهره وأبحث عن ذريعة للابحار فيه والاقلاع عبر الأطلسي نحو الشمال .

باندهاش كبير من جهتي تجرّأت أخيراً على الحديث مع رقيب وعندما علم أنني أبحرت في باخرة تشيلية ووصلت إلى كابو ده أورنوس واجتزت غولفو ده بيناس عدة مرات وتحمّلت عاصفة خريفية في كابو رابير . دون أن أصاب بالدوار . وهذا أقصى مايمكن لمسيحي أن أن يتحمّله وألمّ أيضاً بجميع المناورات والأنظمة البحرية ، ظنّ الرجل ، دون أن يشكّ ولو قليلاً . أنني السندباد البحري وقال لي أنه لايوجد ما يمنعه من التحدث إلى قائده ، الذي طلب مني أن أصعد إلى ظهر الطرّاد وسألني فكرّرت عليه القصة بكاملها ، وزدت قليلاً ، فانتهى به الأمر إلى قبولي للوصول إلى مونتيبيديو كبحّار من الدرجة الثانية ،

ولي كامل الواجبات دون أية مكافأة أخرى غير اللباس والطعام ، إضافة إلى أنهم لم يضمّنوا اسمي في القائمة ؛ فقبلت . كان ذلك أقصى ما أستطيع أن أفعله : تخلّيتُ عن مركزي الفاخر كشرطي من الدرجة الثانية وأعدت المسدس . صعدت إلى الطرّاد وأقلعنا بعد عدّة أيام بحثاً عن مخرج المضيق . بعد أن أصبحنا في عرض المحيط الأطلسي بيومين أو بثلاثة أيام ، نبحر نحو الشمال صادنا ذيل عاصفة كنست كل شيء على السطح ، حتى لم يبق عليه إلا اثنان لم يصابا بالدوار : أنا ومهندس الآلات . أما الآخرون بدءاً من القبطان وانتهاء بمساعد الطبّاخ فقد أصبحت معداتهم في أفواههم وضاعت أقدامهم ، يجثون هنا وهناك كأنهم خرق بالية . جاءت لحظة شعرت فيها أنني ضائع وسط تلك الباخرة وذلك المحيط . ورغم ذلك مرّ كل شيء بسلام ووصلنا إلى مونتيبيديو بحال كنا فيها مثل ذئاب بحرية . أعدت الثياب وتلقيت مكافأة كانت عدة بيسوات ، رفضت عقداً يخوّلني أن أكون رقيباً بحرياً وأبحرت في باخرة كانت تقطع الطريق ليلاً إلى بونوس أيرس

شعرت بنفسي صلب العود سعيداً : كانت الأشياء تحدث لصالحي : ما أجمل بونوس أيرس من مدينة ، وطنك أليس كذلك : حسناً ، أصبحت هناك ، لأجل ماذا ولماذا كنت سأنفق النقود ، التي لاتفيض عنّي ، على فنادق لا أحتاجها ؟ كان الربيع في أوجه والريح الشمالية

تهبّ وكأنها تخرج من كرش الجحيم . كنت أنام في العراء . على أحد مقاعد الساحات أو في فراغات الأبواب . حدث أن نمت في المرفأ الجنوبي : ألم تلاحظ أن في المرافىء أنابيب ضخمة مهجورة . نصف مغمورة بالرمل أو مطمورة تحت أكوامٍ من الألواح : تبقى هناك سنوات وسنوات دون أن تعرف لماذا هي هناك ولا ماذا سيفعلون بها ، كما أن أحداً لايعرف فيم استخدمت ، هذا إذا كانت قد استخدمت في شيء ذات مرّة . شعرت بالتعب بعد أن جلت النهار كاملاً في المدينة ، أنظر وأراقب كلّ شيء . في منتصف الليل بدأت أفكّر بفرصة تؤمّن لي شروط أمنٍ أفضلَ ، تذكّرت ذلك الحجر وذاك الأنبوب فذهبت إلى هناك . وعندما أصبحت أمامه قلت لنفسي : « هي ذي غرفتي ، ولن يكون هناك قبطان تجاري أو حربي سينام أفضل من نومي هذه الليلة » .

لم أر كائناً حياً واحداً ، رغم أنني كنت أسمع بالقرب مني جلبة رافعات باخرةٍ تُنْزِل بضائعها أو تحمّل الحبوب . طأطأت قليلاً ، لأن المدخل لم يصمّم للكائنات البشرية وتقدّمت خطوات في الظلام : لحسن الحظ أنني وضعت قدمي بحذر إذ وقعت فوق شيء انكمش بسرعة ، فأرجعتها وسمعت جلبة شيء يزحف وأحداً يقول في آن واحد :

ـ مهلاً ، يوجد سكّان .

ـ عفواً ، أيها الصديق ، لم أقصد ازعاجك .

ـ لاتكتئب . عمّ تبحث هنا ؟

ـ لاشيء غير عاديّ .

ـ هنا لايوجد سيدات .

ـ آسف جداً .

ـ أيضاً لايوجد طعام .

ـ لست جائعاً .

ـ ماذا تريد إذن ؟

ـ أبحث عن شيء بسيط جداً .

ـ ستجده إذن .

ـ ألست من رجال الشرطة ؟

ـ كلا ، فهؤلاء يدوسون بقوة أكبر ولايطلبون العفو .

ـ تقدّم ، إذن ، أيها الصديق .

ـ هل من سرير جاهز ؟

— يوجد عدة أسرة ، وكلها جيدة .

— أود لو أرى واحداً .

— اعبر من هنا .

— انتبه إلى ساقي من فضلك .

لم يكن حواراً : فالأصوات كانت تصدر من كل حدب وصوب . أشعل أحدهم عود ثقاب فاستطعت أن أرى ما كان هناك : أربعة عشر رجلاً . جلست في زاوية خالية .

— الغرفة رقم خمسة عشر .

أطلق أحدهم قهقهة .

— هل تريد طعام الإفطار في السرير ؟

— لست رقيقاً إلى هذا الحد .

— هل وجدت باب البيت مقفلاً ؟

— لا.

— تشاجرت مع زوجتك ؟

— أيضاً لا .

— هل أضعت المفتاح ؟

– لاشيء من هذا . ليس عندي بيت ولازوجة ولامفتاح . أنا تعب وأريد أن أنام .

– اذن كل شيء يجمع بيننا ولاشيء يفرقنا .

– ثق ، أيها الصديق ان التهوية جيدة والاسعار متواضعة .

– لكن عليك أن تولي صباحاً باكراً .

– الحراس لايقولون شيئاً في الليل ، لكنهم في الصباح يصابون بداء الكلام ويتكلمون حتى من أزرارهم .

كان ذلك خاناً للمشردين ، لكنهم مشردون من نوع خاص : بينهم أشخاص كان عندهم حسابات في صناديق التوفير وفي البنوك وينام هناك أشخاص من نصفي الكرة الأرضية ، من الشرق والغرب : أسبان ، تشيليون ، يوغسلافيون ، بيرويون ، إيطاليون وأرجنتينيون . كانوا أزواجاً وفرادى ، ولم يكن بينهم أحد ممن يسميهم الناس صعاليك ، بمعنى الرجل الذي لايريد ، لسبب أو لآخر ، أن يعمل . على العكس ، كانوا رجال أعمال ومهن أيضاً : حذائين مثلاً ، كالتشيلي كونترايراس ، ومحامين كالأسباني رودريغث – كل اسباني محام لأنه أسباني ، حتى يظهر العكس – كان يقول .

وكان بينهم أيضاً ميكانيكيون ، نجارون ، بناؤون وخراطون .
ماذا كانوا يفعلون هناك في محم مهجور إذا كانوا رجال أعمال :
ببساطة ليس لديهم بيوت ولاعائلات في المدينة ، ولايستطيعون أن
يشيدوها ، كما انهم لايريدون أن ينفقوا نقودهم في استئجار آخر .
لاتفكر ، إنّ كلّ واحد منهم قد خطّ مستقبله الممكن ويعرف لماذا
هو هناك وليس في مكان آخر وماذا ينتظره وماذا يريد أن يفعل .
تريتشخ مثلاً ينتظر الفرصة المناسبة لينتقل إلى بونتا أريناس ، تييرا
دل فوغو (١١) ، التي كان يقول أنها حلم الكثيرين من اليوغسلافيين .
استطاع بفضل عمله في احدى البواخر أن يصل إلى بونوس أيرس
فقط وينتظر باخرة أخرى يعمل فيها لتنقله إلى مضيق ماجلان . عنده
أموال في البنك ، لكن لماذا يستهلكها بشراء تذكرة ، يستطيع أن يدفع
ثمنها بعمله فهو شاب وليس كسولاً أبداً ، وليدفع ثمن التذكرة من
يملك مالاً فائضاً ومن يخاف العمل ، فهو لم يكن يخافه وانما كان يريده
وعندما سمع أنني قادم من بونتا أريناس انقض علي بالاسئلة كيف
الطقس ، يعيش هناك يوغسلافيون كثيرون ، هل صحيح انهم أصبحوا
جميعاً أغنياء ، هل مايزال يوجد ذهب في باهيه بالنتين ، ألن أصل

---

(١١) Tierra del Fuego : أرض النار منطقة تقع في أقصى جنوب
تشيلي . (المترجم)

متأخراً جداً ؟ لا ، ياتريتشيخ.فاذا كان الذهب قد نفد والعجوز موستا قد صنع لصدارته الخيالية سلسلة مضاعفة من آخر التبر المستخرج من البارامو ، فانه مايزال هناك أراض كثيرة تُستَعمر وهنود كثيرون يقتلون ويستعبدون وأغنام كثيرة تجز ، وأحمال كثيرة تحمل وبحريات تصطاد وبضائع تباع وقمامات يجب ازالتها وقذارات وأوساخ كثيرة تنظف ، لذلك كله فانه مايزال باستطاعة البخلاء ، الذين لاهدف لهم في الحياة إلا الربح ، أن يربحوا أموالاً كثيرة . لقد وقع مني موقعاً ثقيلاً : كان يحول كل شيء إلى نقود ولم أخفِ فرحي حين علمت انه مسافر إلى بونتا أريناس ، لأن عليه أن يبحث عن النقود هناك حتى تحت روث الحيوانات .

« اذا ماقورن التشيلي كونترايراس ببلاع الفضة ذاك ، فانه رجل نبيل : كان يسافر حباً بالسفر ويستخدم لذلك كل الوسائط التي وضعها التقدم في خدمة الانسان رغم انه ، وهذا واضح ، لم يكن يدفع أجره . اذ عندما كانوا يطردونه من قطار الشحن أو الركاب الذي يسافر فيه دون تذكرة ، لم يكن ينزعج بل كان يتابع سفره على قدميه ومزودته على ظهره ، إلى أن يأخذ قطاراً آخر وهكذا وصل من سانتياغوتشيلي إلى بونوس أيرس ، دون أن ينفق سنتيماً واحداً .

– لكثرة مايتحدثون عن الارجنتين وعن بونوس أيرس ، سنرى ماذا كان كلامهم صحياً .

هوذا هناك ، لم يعمل خلال أربعة أشهر الوقت الذي استغرقه سفره ، – سفره من مندوثا إلى بونوس أيرس استغرق شهرين – ، فهو لم يكن على عجلة ، وبما أن الوقت لم يكن وقت حصاد في الريف فان سائقي القطارات كانوا يلاحقون المتسلقين ، لم يشتغل إلا في مناسبتين : أسبوع واحد في مندوثا وثلاثة في روساريو وقد أحزن هذا الأمر أرباب عمله العرَضيين ، الذين لم يفهموا كيف يمكن لعامل يملك تين اليدين أن يكرس نفسه للتشرد ، فيتوسلون اليه أن يبقى معهم أياماً أخرى ،أسابيع أخرى ، شهوراً أخرى ، فهم يملكون أعمالاً كثيرة والزبائن ، خاصة أصحاب الاقدام المستحيلة ، كانوا مشغوفين بذلك الحذّاء .

– جئت لأتنزه ، لا لأعمل . وداعاً (١٢) ، أيها السيد .

بعد هذا التصغير الحتمي ، سار خطوة خطوة بين نيام الخط الحديدي.

– لو أن الأمر يتعلق بالعمل ، لبقيت في تشيلي حيث عندي عمل

(١٢) Hasta lueguito : يستخدم المؤلف التصغير وتعني في الحقيقة إلى اللقاء . (المترجم)

مدى الحياة وأكثر قليلاً . أنا متزوج وزوجتي هي التي تسير الورشة ، انها تنتظرني . قلت لها : إنني ذاهب إلى الأرجنتين سيراً على قدمي ، لاأستطيع أن أحملك معي ، انتظريني . انها تعمل في التصليح وتكسب مثلي تقريباً . كيف أبقى اذن في مندوثا أو روساريو أعمل لصالح رب عمل غايته الوحيدة مشاطرتي الأرباح ؟ ولاحتى لوجننت . سأقضي الربيع والصيف هنا وسأعود إلى سانتياغو في الخريف .

« كان رجلاً قصير القامة ، رقيق النظرة ، طويل الشعر المسترسل ، له مظهر شاعر ريفي ، يتقن إلقاء بعض القصائد ويتحدث كثيراً عن حرية الفرد ، عن استغلال الانسان للانسان ، داخلني شك بأنه فوضوي. قضيت برهات أتحدث إليه ، تكلمنا عن سانتياغو ، بشكل [illegible] ، مدينتنا ومسقط رأسينا ، والتي كان يعرفها جيداً . لم يكن [illegible] موضوع التحدث طويلاً ، أيضاً الصداقات التي كانت تنشأ في دلك الانبوب لم تكن أبدية ، فلكل غايته وقدره الذي يعمل لتحقيقه ، فالمكان ليس نادياً ، رغم أنه مشهور باسم فندق المهاجرين ، كان علينا أن أن نستمر واستمررنا .

بدأت أبحث عن عمل ، أيّ عمل كان وأينما كان ، مكتب ، حانوت ، معمل ، مخزن ، طريق ، بناء في وهج الشمس ، لكن

إيجاده كان صعباً : عشرات ، بل ومئات الكائنات ومن جميع الجنسيات والأعمال والأصول ، مشردون ، مثلي ، لابيوت لهم ، وآخرون لديهم بيوت ، لكن الجميع ليس لديهم ما يأكلونه ، يستجدون عملاً بأجر قدره عشرون أو ثلاثون بيسو شهرياً . كان ذلك في المدينة التي تعجّ بالمهاجرين : إيطاليون أو أسبان ، فلسطينيون أو بولونيون ، بعضهم يبكي في الشوارع ، جاؤوا بحثاً عن الثروة ويضحون في تلك اللحظة بكل شيء في سبيل لو أنهم ولدوا في « أمريكا القذرة » أو في سبيل لو أنهم غير موجودين فيها . يتحدّثون بلغات مختلفة ويندفعون على كل شيء ، حتى ولو كان في سبيل الطعام فقط . تراهم على أسطحة عربات الشحن ، مثل طيور عملاقة ، شاحبة ألوانهم ، يتضوّرون جوعاً ، بانتظار الموسم أو يطلبون الطعام وأحياناً يسرقونه .

مكثت هناك شهراً ونصف الشهر ، لكنني لم أجد عملاً ، ولاحتى لقتل الصراصير ، الكثيرة هناك . خطر لي ذات يوم شيء عجيب : كنت في أحد الشوارع ، مستنداً إلى جدار ، أتفكّر بكيفية الخروج من تلك المحنة ، قانطاً من حالتي المزرية ، كما يقول البيرويون ، فاذا بي أرى رجلاً شاباً ، ناحلاً ، يضع نظّارة ، راقبني خلال عدة ثوان أثناء عبوره أمامي ، أزعجني فضوله فرمقته بطرف عيني وهو يبتعد ، لاحظت أن كعبيي حذائه متآكلان وبدلته تلمع عند الردفين

والظهر . كان واضحاً إنه لم يكن يسبح في النعم . بعد دقائق وكنت قد نسيته شعرت بشخص اقترب مني دون أن أحسّ به أو أراه ، أخذني من يدي ووضع فيها ورقة نقدية من فئة البيسو وابتعد في الحال . لماذا ؟ من كان ؟ لم أدر . لو كنت يهودياً لأعتقدت أنه النبي الياس ، لكن لم يكن ضرورياً أن يكون نبياً كي يلاحظ من وجهي ومظهري أنني في حالة يرثى لها . شكرته من الأعماق على البيسو. ابتعدت وقد خجلت قليلاً وأنا أضغط جيداً على الورقة النقدية في يدي ، من حسن حظي أن والدي الذي كنت قد كتبت له ، أرسل لي نقوداً من أجل العودة إلى تشيلي .

عاد الولد المبذّر . كان والدي مايزال مدرساً تماماً : الرياضيات ، النحو ، علم الأحياء والفيزياء . دخلت لأتعلم النجارة في مدرسة للفنون والمهن . لكن ، وحتّى هناك بين ألواح خشب النجارة ، كان عليّ أن أدرس التاريخ ، ليس تاريخ النجارة ، وإنما التاريخ الوطني ، الذي لاعلاقة له أبداً بالأخشاب، واللغة القشتلانية والهندسة والتربية المدنية . وليس هذا أسوأ مافي الأمر : وإنما الأسوأ هو أنني لم أكن أصلح لأكون نجاراً ، إذ أن لي عينين لاتصلحان إلا للأشياء التي لاغنى عنها : كي لا أتعثّر بأعمدة الكهرباء .

« إضافة إلى أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل في البيت : فخالتي ، زوجة والدي ، كانت امرأة جميلة ، لكنها حزينة جداً ، فهي أصغر من والدي بثلاثين سنة ، تزوج معها وهو في الثانية والخمسين من عمره . إنّ لهذا الرجل،الذي كرّس حياته كلّها لمهنته ودراساته،دائماً جاذبية خاصة بالنسبة للنساء . رغم أنني أفكّر أحياناً أنه يهيمن عليهن أكثر مما يَعْشَقْنَهُ . كنت أحب أحياناً أن أتصور كيف كانت والدتي وماذا كان شعورها بين يدي ذلك الرجل الذي يملك جاذبية عاطفية ، والكِفْءُ بالجبر الذي اعتصر شبابها وأحشاءها بعاطفته ، عاطفة الرجل اللامبالي بكل ما لايستند إلى الصرامة المنطقية . لم يحدثني عنها أبداً . تزوّج مرّتين وأعتقد أنه كانت له مغامراته العاطفية الطويلة والمثمرة مع امرأة ثالثة ولكن بشكل سري ، قد تكون ماتت أو ماتزال حية والتي أعتقد أنني ولدها . لم يتحمل أخي الكبير الأمر طويلاً فهاجر إلى الولايات المتحدة وأتمنى ألا تكون له حالتي .

ـ ٩ ـ

(وهكذا وبينما كنا نسير دون سرعة ، الواحد إلى جانب الآخر ، مثل زورقين متحازيين ، اقتربنا من البحر ، تحملنا أقدامنا وذكرياتنا وشخصيات ذكرياتنا التي كانت تسير بدورها في داخلنا . ابتعد النهر

عنا مسافة فلم نعد نراه . ظهر من جديد وهو يتقدّم نحو الشمال وقد تغيّر كثيراً ، إذ جمع كل ألسنته الصغيرة الرطبة التي أتعبها زحفها المضني الذي استمر عدة كيلومترات فوق طبقات الحصى . كان يصل وقتها عريضاً مختالاً وهادئاً وكأنه لا علاقة له بالنهر الذي خلّفناه وراءنا على بعد ثلاثة أميال ، ذلك النهر المجزّء والمنهوب من قبل الفلاحين والصناعيين . لكنه تأخر في تضخمه واتخاذه الأهمية لنفسه : فالبحر كان هناك ولا فائدة من العظمة المزيفة في اللحظات الأخيرة . فليس أمامك إلا أن تستسلم ، لم يعد باستطاعتك أن تعود ، أن تنعطف ، أو أن تنكر نفسك . ولولا هذا لكنت أنت الرابح حين تلقي بمياهك العكرة ، التي ، لاشك ، نبعت شديدة الصفاء ، في تلك المياه الأخرى ، الشديدة الزرقة والتي تنتظرك . الليل يخيّم وقريباً تشتعل أضواء بالبارايسو) .

— ١٠ —

ماذا كان باستطاعتي أن أقص على صديقي : فحياتي كانت كالسر ، حياة لي أنا وحدي . ماتت والدتي ذات يوم وأيقظنا والدي عند الصباح :

— ماما مريضة — قال .

ثم أضاف متوجّهاً بكلامه إلى الكبيرين :

ـ تعالا أنتما .

ارتدى خواو واثكيبيل ثيابهما وخرجا ، بينما مكثنا نحن الآخران في الفراش نصارع النعاس والرعب . انقضت فترة طويلة . سمعت خطوات جياد ورنين جرس عربة إسعاف ، ثم خطوات وأصوات داخل البيت . ثم عاد الصمت فخيّم على كل شيء . أخيراً ظهر اثكيبيل في الغرفة :

ـ نحن ذاهبون ـ أعلن ـ يقول لكما والدنا بألا تتحركا من هنا . سنعود حالا .

ـ ماذا حدث ، يااثكيبيل ؟

ـ ماما مريضة .

ـ وماذا بها ؟

هزّ كتفيه وقام بحركة انسحاب :

ـ اثكيبيل ـ ناديته ـ إلى أين ستأخذونها ؟

ـ إلى الإسعاف العام .

ذهب . سُمعَ صوتُ الباب الخارجي وجرس سيارة الإسعاف من جديد بينما نظرنا أنا ودانييل كل إلى الآخر تحت ضوء الشمعة . بقينا وحيدين ، صامتين ، مترقبين :

ـ ماذا يمكن أن يكون بها ؟

كانت والدتي تتمتّع بصحة جيدة ، لم تشك قط من شيء ، كما لم نرها أبداً تضع لبخات الخل وشرحات البطاطا أو ورق السجائر على صدغيها كما كانت تفعل سيدات أخريات . لقد أدهشنا ذلك المرض المفاجيء أكثر مما أخافنا .

ـ هل ننهض : ـ اقترحت على دانييل .

كان الظلام مايزال مخيماً والطقس بارداً . دانييل رفض :

ـ لماذا ؟ ماذا سنفعل على أقدامنا ؟

وجدت أنه كان محقاً فبقينا هناك مستيقظين ، قلقين ، نتصوّر آلاف الأشياء ونتحدث من فينة إلى أخرى . ماأن طلع الصباح وذهبنا في طريقنا لتناول طعام الإفطار حتى شعرنا بهم يفتحون باب البيت . خرجنا إلى الفناء . رأينا والدي يتقدّم منا ، كانت عيناه محمّرتين وشفتاه شاحبتين ومفترّتين . طأطأنا رأسينا خائفين . وضع يديه على كتفينا وتركهما برهة ثم قال وهو يلفظ الكلمات بصعوبة :

ـ ماما ماتت .

ابتعد ودخل غرفة نومه وأغلق الباب خلفه . انفجرت أنا ودانييل

بالبكاء . اقترب منا خواو واثكيبيل اللذان دخلا بعد والدنا ؛ كانا يبكيان وأيديهما على فميهما ، وقد تقوس ظهراهما وكأن شيئاً في أحشائهما يؤلمهما .

وهكذا بقينا هناك طويلاً بلا حراك ، دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر أو ننظر بما يشبه الخلسة ؛ لاندري مايجب أن نفعل كما لم نجرؤ على فعل شيء ، فكل شيء كان يبدو لنا باطلاً أو غير مناسب.برد الفطور على الطاولة ، الماء غلي حتّى انتهى ، انطفأت النار ولم يولي أحد أنتباهه لأصوات الباعة ، الذين كانوا يصرخون في كل يوم وفي ساعة محدّدة عند الباب يُروِّجون لبضائعهم . لم تكن تسمع ضجة في غرفة والدنا ، ولم يأت أحد ليطرق باب بيتنا ، كنا حديثين في الحي ، ولم يكد يمضي وقت على وصولنا إلى بونوس أيرس : لا جيران ، لامعارف ، لا أصدقاء ؛ فقط وحشة وصمت .

في ساعات ، في أقل من يوم صار البيت آخر وصرنا نحن آخرين ؛ أيضاً والدنا أصبح ، ودون شك ، آخر . كل شيء كان يتغير وكل شيء يتغيّر بشكل رهيب . شعرنا به في ثباتنا . يجب أن تمر أيام ، وربما شهور ، قبل أن نستطيع – هذا إذا استطعنا – أن نستعيد حركتنا .

في ساعة متأخرة من المساء شعرنا بخطوات في غرفة والدنا . بعد

ذلك بلحظة فتح الباب . كان قد شاخ ، وشحب وجهه وتقوّس جسمه . بحث عنا بنظره : كنا هناك ، جالسين أو واقفين ، يستند بعضنا إلى الجدار ، ذاك ينظر إلى السماء وهذا إلى الأرض ، يفتل المنديل أو ينظف أظافره إلى ما لانهاية . كلّمنا :

ـ تعالوا ـ قال .

بدا لنا أنه لم تسمع منذ سنوات كلمة واحدة في ذلك البيت . اقتربنا منه ، حملنا إلى غرفة الطعام حيث جلس وهو يضع يديه الطويلتين على الطاولة . كانت يداه ترتجفان . تلك اليدان البيضاوان الكبيرتان ، المليئتان بالشعر الناعم الضارب إلى الحمرة ، الثابتتان ، الماهرتان ، اللتان ربما لم ترتجفا أبداً . جمعهما ، ربما ليتلافى الرجفة وقال ناظراً إلينا الواحد بعد الآخر :

ـ ليس كثيراً مايجب أن أقوله لكم . شيء فظيع هذا الذي حدث لنا . ومع ذلك فكل شيء يمكن أن يوجز بأن والدتكم قد ماتت .

أصاب صوته مايشبه الحشرجة . توقّف ثمّ تابع بينما انفجرنا نحن ببكاء صامت .

ـ ماما ماتت . يعتبر هذا فاجعة بالنسبة لأي إنسان ؛ لكنه بالنسبة لي أكثر من ذلك . أنتم تعرفون لماذا . فأنا لن أستطيع أن أفعل ما كنت

أفعله : أصبحت مقيّد القدمين واليدين ويجب أن أنظر إلى جهة أخرى ، ولا أعرف حتّى الآن إلى أين . للأسف أنني لا أملك نقوداً وأنا في بونوس أيرس ، حيث أنني معروف وقد يكون صعباً جداً أن أعيش بهدوء . لا أدري ماذا سأفعل ، لكنني سأفعل شيئاً . خلال ذلك علينا أن نتدبّر أمرنا بالشكل الذي نستطيعه . آمل أن تفعلوا ما بمقدوركم لمساعدتي .

سكت وأبعد مابين يديه ، اللتين ماعادتا ترتجفان .

ــ والآن ــ قال وهو ينهض ــ علينا أنْ نفكّر في هذه اللحظة .

ــ بابا ــ قال خواو متردداً ــ ألم يكن لوالدتنا أقارب في تشيلي :

ــ ربما ــ أجاب والدي وقد توقّف ــ لكنهم أقارب بعيدون ، لم يعرفوها وربما لايعرفون أنها كانت موجودة . مات والدُها منذ سنوات وكذلك أخوتُها باستثناء واحد موجود في أحد الأديرة . لانستطيع ، من هذه الناحية أن نلجأ إليه كذلك الأمر بالنسبة لي ، فأنا لا أملك ولا قطاً واحداً يموء لي باستثنائكم أنتم .

سكت ونظر إلى الطاولة :

ــ ارفعوا هذه الأشياء ــ قال وهو يشير إلى أدوات طعام الإفطار ــ فكّروا بوسيلة تشترون بها شيئاً تأكلونه .

همّ بالخروج لكنه توقّف .

ــ غداً تدفن والدتكم ــ نبّهنا ــ سنذهب إلى المستشفى وسننقلها من هناك إلى تشاكاريتا . سأذهب أنا وخواو واثكيبيل . ليس ضرورياً أن نذهب جميعاً ، بل من الأفضل ألا نذهب جميعاً .

بدأت الأمور تسير في البيت ، لكن بتعثر . اضطررنا أن نقوم بكل شيء بأنفسنا. وكل شيء كان يأتي متأخراً أو سيّئاً . وليس هذا هو أسوأ مافي الأمر : الأسوأ من ذلك هو الاطمئنان والاقتناع بأن الحال يمكن أن تستمر على هذا الشكل ، لابدّ كان هناك مخرج ، حل ، لانعرفه ولا نعرف مايمكن أن يكون . كان على والدنا أن يقرر ، رغم أنه ، وكما لاحظنا ، لم يكن سهلاً عليه أن يفعل ذلك . كان باستطاعته أن يأمرنا بترك المدرسة وبالعمل ، لكن لم يكن ذلك هو الحل الشامل . كنّا بحاجة إلى امرأة ، امرأة واحدة فقط ولم يكن هناك أية واحدة . كان باستطاعتنا أن نتخذ خادمة ، وهو أبسط الأمور ، لكن والدي هو الذي كان عليه أن يفعل ذلك . كما كان علينا أن نرى إذا كان ممكناً إيجاد خادمة لعائلة ربّها لصّ معروف .

تولّى خواو أمر المطبخ ؛ كان يتقن الطبخ تماماً كما يتقن الحديث

باللغة الغوارانية «١٣» يساعده في ذلك اثكييل وتولينا أنا ودانييل أمر النظافة والمشتريات ، وهو عمل أسهل وأسرع . والذي لم يكن يتقن أياً من هذه الأعمال وكل ماكان يتقنه من بين الأعمال المنزلية هو خياطة الأزرار وكان يفعل ذلك بشكل تبدو فيه أنها مخاطة بسلك : لم تكن تعود لتفلت أبداً ، هذا أقصى ماكان عنده . أما بالنسبة للمطبخ فانه لم يكن يميّز بين القدر والمقلاة وكان يذهله أن للبطاطا قشراً يجب إزالته .

كان يتمشّى لساعات طويلة في البيت ، يتوقّف أمام الجدران وينظر إليها طويلاً ، أو أمام الأبواب والنوافذ . كان ، بشكل عام ، قليل الكلام وفي تلك الأيام كان أقل كلاماً من أي وقت آخر . كان عقله يبحث عن مخرج من ذلك المأزق بينما كان يعرف هو أن أولاده مرتبطون به : فهو أبونا وأمنا معاً ، دون أن يملك ، وللأسف ، المؤهلات الضرورية لهذا الدور أو ذاك وهذا مايبدو أن لاأحد يملكه . كنّا ننظر إليه ونسكت أيضاً .

ذات ليلة لاحظنا أنه يستعد للخروج ، كانت الساعة نفسها دائماً .

---

(١٣) Guarani : لغة الشعب الأصلي الذي يعيش في المنطقة الممتدة بين نهر أورينوكو وريو ده لا بلاتا . (المترجم.)

ـ سأعود في الحال ـ قال وكأنه يعتذر لخروجه ـ ناموا ولا تتركوا أياً من الأنوار مشعلاً .

خرج وأغلق وراءه بصمت ، كما كان يفعل دائماً . نمنا متأخرين ؛ عند الفجر وبينما كنا نحن الأخوة الأربعة نياماً ، طرق أحدهم الباب طرقات قوية ، فاستيقظنا مذعورين . أشعل خواو شمعة وجلس في السرير.

ـ من يكون ؟ ـ تأتأ .

لم أجرؤ على البوح ، لكنني كنت أعرف تلك الطَرَقَات : لاأحد يطرق بهذا الشكل إلا الشرطة . ذهب خواو إلى غرفة بابا : لم يكن قد أتى بعد ، فذهب مع اثكييل إلى الباب الخارجي .

ـ من ؟ ـ سمعنا خواو يسأل .

وكان الجواب الذي انتظرته ، توقّعته :

ـ الشرطة ، افتحوا .

لم يكن مجدياً الرفض . فتح خواو ودخل ثلاثة رجال شرطة وأغلقوا الباب .

ـ بابا غير موجود ـ أراد اثكييل أن يوضّح .

ـ نعلم ذلك ـ أجابوه بلطف ؛

رحنا أنا ودانييل نرتدي ثيابنا ، كنا منهمكين بذلك ونحن مانزال في السراويل الداخلية حين دخل أحد الرجال إلى الغرفة ونظر إلينا .

— أيها الأولاد — قالها كمن يقول أيتها العظايا — وسأل — هل هناك أحد غيركم في البيت ؟ .

— لا ، ياسيد — همست .

— حسناً — قال — سنرى ، إلق نظرة هنا — أمر أحدهم وانسحب.

دخل رجل آخر وصاح عندما رآنا :

— إلبسا واخرجا —

خرجنا إلى فناء الدار واجتمعنا بخواو واثكييل ، حيث مكثنا بينما كان الرجال الثلاثة يفتشون البيت ، سنتيمتراً بسنتيمتر ، يقلّبون الفرش ، يفتحون الأدراج ، يرفعون أغطية القدور ويتلمسون الجدران ، وأخيراً فتشونا نحن أيضاً .

— لايوجد شيء — قال الرجل الذي كان أول من دخل بينهم ، وكان سميناً ، أبيض ، شاربه كستنائيّ اللون وعيناه شهلاوان — هيّا ، أيها الفتيان .

كنّا ، نحن ، الأخوة الأربعة . الواقفين في فناء الدار جامدين مثل الأشباح . مرّ الرجال أمامنا دون أن ينظروا إلينا وكأننا غير موجودين وتوجّهوا نحو الباب وحين ركض خواو باتجاههم كانوا يفتحون الباب ويستعدون للرحيل .

— ياسيد — قال .

توقّف الرجل السمين والتفت نصف إلتفاتة وصرخ :

— ماذا هناك ؟

سأله خواو :

— ووالدي ؟

نظر الرجل إليه مندهشاً ونظر إلى رفاقه أيضاً :

— إن إلنغاييغو سجين — قالها وكأنه يؤكد شيئاً يعرفه العالم كلّه .

استدار من جديد واستعد للخروج . خرج ورفاقه أمامه . ثم أضاف قبل أن يغلق الباب وهو ينظر إلينا :

— والآن لزمن طويل .

أغلق الباب بطرقة قوية . لم يكن يخاف أن يسمعوه . .

- ١١ -

لم يعد يوجد من يقدّم حلاً ولا من يقدم شيئاً . كان والدنا قد قال : « إنني مقيّد القدمين واليدين » . وهو الآن مقيّد كلياً ، ونحن لسنا أفضل حالاً منه ، صحيح أننا طلقاء ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ لو لم تكن عنده الرغبة الخفية بجعلنا أشخاصاً شرفاء وَعلّمنا ، إن لم تكن السرقة — الشيء الذي يمكن أن يكون حلاً ، كما كان بالنسبة للكثيرين — فالعمل في شيء على الأقل ، لما كانت حالتنا على هذه الدرجة من القنوط ، لكنه كان مثل الكثيرين من الآباء لايريد لأبنائه أن يصبحوا نجارين ولا صانعي أقفال ، لا بنّائين ولا حذّائين ، لا ، كان يريدهم أن يكونوا شيئاً أفضل من ذلك : محامين ، أطباء ، مهندسين ، أومهندسي عمارة . لم يعش حياته كما عاشها لينتهي أبناؤه إلى حمالين ، لكن الأمر كان أسوأ : لم نصبح ولا حتّى حمالين .

عصفت ريح الذعر بالبيت ومرّت لحظة أوشكنا فيها، نحن الأخوة الأربعة على أن نهرب من البيت ، الذي لم يعد لنا فيه فائدة : لم يعد فيه أمّ ولا أب ، ولا شيء سوى الأثاث والتردد والغرف الخاوية والصمت . استطاع اثكييل أن يفرض نفسه وأن يوقفنا .

— ماتت والدتنا ولم يعد باستطاعتنا أن نفعل شيئاً لأجلها . لكن والدنا حيّ ولا أحد يعرف إن كان باستطاعتنا أن نساعده .

ذهب إلى فرع الشرطة يرافقه خواو .

— نعم — أخبروه — الغايبغو هنا .

— هل يمكننا التحدث إليه ؟

— ومن أنتم ؟

— نحن أبناؤه .

— كلاّ — كان الجواب — إنه معزول .

ساد صمت .

— لماذا هو موقوف ؟ — تجرّأ اثكيبل وسأل :

ابتسم الشرطي :

— لاأعتقد أنه موقوف لأنه كان يوزّع الميداليات — علّق ثم سأل وهو ينظر إلى اثكيبل :

— ألا تعرف ماذا يعمل والدك ؟

احمرّ اثكيبل :

ــ بلى ــ تمتم .

ــ حسناً ، لذلك هو سجين ــ وضّح الشرطي .

ثمّ تابع توضيحه :

ــ والآن ألقوا عليه القبض ومعه المجوهرات داخل البيت ، ولا مجال لإنكار شيء أبداً .

سكت الأخوان ، لأن ماقاله الرجل كان يوفّر كل التعليقات ومع ذلك فقد تجرّأا على طرح سؤال أخير :

ــ وماذا نستطيع أن نفعل ؟

ــ ألا تعرفان ماذا يجب أن تفعلا ؟

ــ كلاّ .

ترك الرجل مكتبه واقترب منهما وقد بدا عليه الاغتياظ :

ــ أي نوع من أولاد لصوص أنتما ! ــ سأل ، بشكل شبه قاس ــ ماذا فعلتما في المرات السابقة ؟ فأنتما لن تقولا أنها المرة الأولى التي يدخل فيها الغاييغو السجن !

نظر خواو واثكييل كل للآخر .

ــ نعم ، ــ أكد خواو ــ كانت والدتي تعيّن له محامياً .

— حسناً — قال الشرطي ، بنبرة تنمّ عن الشعور بالرضى لأنه توصّل إلى نتيجة — ولماذا لاتعيّنوه الآن ؟

— لم يجب الأخوان — .

— ماذا حدث : — سأل الشرطي بعناية — هل هي سجينة أيضاً ؟

— كلاّ — أجاب اثكييل — والدتنا ماتت منذ أيام .

وجم الشرطي ثمّ سأل :

— وهل أنتما وحيدان ؟

— وحيدان .

— أليس عندكما نقود ؟

— لاشيء .

بدا الضيق على الرجل : فلو مرّ هو نفسه في هذه الظروف لما عرف ماذا يفعل . لكن شيئاً خطر له ، رغم أنه غير أصيل ؟

— إذن — قال ببطء — خير ماتستطيعان فعله هو الانتظار :

ثمّ تمتم وكأنه مرغم :

— لكن عليكما أن تنتظرا طويلاً ، إذ ليس من وسيلة تخرج الغابيغو .

أخيراً ودّع ابني الغايبغو وربت ربتات خفيفة على ظهريهما .

— اذهبا ، أيها الشابان — قال بلطف . — وابحثا عن طريقة تسوّيان بها أموركما وحدكما وكما تستطيعان .

— ١٢ —

وحدكما وكما تستطيعان . . . شهران ولم يبق في البيت كرسي واحد . كل شيء بيع أو حمل إلى بيوتات الرهن : الطاولة والأسرة الأربعة ، الصوان وخزانة الأطباق . رهنا فراشي الوالدين وفراشي خواو واثكييل ، حتّى أنه لم يبق عندنا أخيراً إلا اثنان على الأرض وملاحف وسخة جداً ولحافان كنّا ، نحن الأخوة الأربعة ، تنام عليهما ، كل اثنين في واحد .

ورغم ذلك فقد استطاع خواو واثكييل أن يكلّما والدنا ، الذي بدا متشائماً من وضعه ، متفائلاً من وضعنا : على الأقل كنا نحن طلقاء ويمكن أن نتلقّى بعض المساعدات . وممن ؟ راح ، على غير عادته ، يفكر وقتها بأصدقائه . أولئك الأصدقاء الذين لم يكن هناك من يعرف عنوانهم ولا أين يتواجدون في أوقات محددة ، في ساعة النوم مثلاً : إذا كانوا طلقاء ، سجناء ، فارّين ، متخفين ، أو موتى . أمر بكتابة

بعض الرسائل ، إذ تذكّر هذا العنوان أو ذاك ، إلى تشيلي ، روساريو ، إسبانيا مونتيبيديو . بينما كانت الرسائل تسافر كان الزمن لايتوقّف وصاحب البيت لم يكن عنده مايجعله ينتظر وصول الرسائل إلى أهدافها وعودة الأجوبة ؛ وكذلك صاحب المخزن وبائع الحليب والجزّار والخبّاز لم يمهلونا كما لم يكن باستطاعتنا أن نحدّثهم بما جرى لنا ولا أن نرجوهم أن يمهلونا . على كل الأحوال لم يصلنا أي جواب . بحث خواو واثكيبيل ، وأنا أيضاً ، عن عمل : ندلاء ، سعاة ، صنّاع في أي شيء ، وكانوا حتّى عندما يعرضون علينا عملاً يقدّمون لنا أجوراً لاتسد كفاف الجوع . عملت اسبوعاً في محل للخياطة : « لانعطيك أجراً ، وإنما طعام غداء فقط » . تعلّمت تركيب الأزرار . كنت أصل إلى البيت فلا أجد أحداً : كان أخوتي يهيمون ، بدورهم ، على وجوههم ، فأجلس على أحد الفراشين وأنتظر ، وحين كان يحل الليل أشعل شمعة وأقرأ إلى أن أنام جوعاً وتعباً حتّى صباح اليوم التالي . لم يكن ممكناً الاستمرار على هذه الحال . قرّر خواو الرحيل إلى البرازيل ، أعلن عن ذلك وذهب ، لانعرف كيف ، على قدميه أم في باخرة أم في قطار : فهناك قد يجد بدرو إلْمولاتو وقد يرسل إلينا مساعدة . لم نعرف بعد ذلك عنه شيئاً . ووالدي حكم عليه بالمقابل لعدد هائل من السنين ، عشر ، بخمس عشرة ، عشرون ، كان الأمر سيان ، ولم يكن هناك

محام قادر ، ولو بما يغطي أجره ، على تخفيضها ولو حتّى النصف ، وقد بدا لنا ، نحن الذين لم ندرك من العمر ولا حتّى العشرين ، أن هذا العدد الهائل من السنين كان كونياً .

أصبحت ذات يوم وحيداً في البيت : فلا دانييل ولا اثكييل وصلا للنوم . شعرت أن اللحظة التي كنا نخافها قد جاءت : طفت في فناء الدار ، ثم دخلت غرف النوم : نظرت إلى الزوايا والنوافذ والسقوف : حتّى أيام قليلة خلت ، كانت تعيش في ذلك البيت عائلة ، ولم يعد هناك شيء ، لاموقد ، لا والدان ، ولا أخوة ، لم يبق إلاّ فراشان . ولحافان وملحفتان وسختان وفتى محزون ، أخذت لحافاً حزمته ووضعته تحت ذراعي وخرجت : وهكذا إذا عاد دانييل واثكييل فانهما سيجدان ولو شيئاً ينامان عليه وآخر يتغطيان به . أطبقت الباب وبينما كانت قبضته ماتزال في يدي قبل أن أشده لينغلق فكرت في المكان الذي كنت سأرحل إليه . كانت بونوس أيرس مدينة هائلة بالنسبة لطفل في مثل تلك الحال. اخترت حي كاباليتو . فقد كنا قد عشنا هناك في زمن آخر لوقت محدود ، وكنت وما أزال أتذكر بعض الأطفال الذين كانوا أصدقاء لي . وهكذا توجّهت بخطواتي إلى هناك .

حالفني الحظ تقريباً : فعند اقتراب الليل ، في اللحظات التي يئست

فيها من لقاء أحد أعرفه — لم يظهر أصدقائي الصغار (إذ من يدري إلى أين حملهم المدّ الذي يحملني الآن !) — وجدت أحداً ، كانت امرأة نحيلة ، قصيرة ، أصبحت عجوزاً ، إنْ لم يكن عمراً فمظهراً ؛ كانت متواضعة الثياب ، تترك في النفس انطباع دجاجة هزلت وراحت تفقد ريشها : كانت تدعى بارتولا . لم يكن اسماً سعيداً بالنسبة لذلك اللقاء ، لكن أسوأ من ذلك لو أنني لم أجد أحداً . أعرفها منذ أعوام خلت ، فقد كانت تزورنا مع زوجها القصير والقوي وكان دائماً بلحية لم تحلق منذ سبعة أيام على الأقل ، ووسخاً ، رثّ الثياب ، عبوس الوجه له عينان صغيرتان ثاقبتان ، وكان أعرج ، عمل لصاً ، ثم ترك هذه المهنة بعد أن فقد إحدى ساقيه : اجتاز معبراً سطحياً للمشاة دون أن يعر أهمية لإشارة المرور ، فدهمه قطار ركّاب وقطع ساقه من تحت الركبة قليلاً . كان لصاً ليلياً : ماذا كان بمقدوره أن يفعل بساق واحدة : كرّس نفسه لشراء سرقات صغيرة ، كان يبيعها بعد ذلك إلى زبائن أكثر بؤساً منه وهم بشكل عام أصحاب حوانيت بائسة لبيع الثياب المستعملة ، وبذلك كان يعيش سيئاً أكثر من حسن ، أو سيئاً كما هو حسن .

كانت له ساق خشبية يطرق بها بلاط وأحجار الأرصفة أو أرض البيوت بلا رحمة ، فيها حلقة حديدية تحمي الجزء الأسفل من الساق

الصناعية من جبروت الاستعمال : ربما كان يخاف أن تتشظى . كانت ساق السروال الذي يغطي الساق الخشبية تتكشف عن تمزقات ونسالات وتبدو غير مريحة .

من الغريب أن بارتولا كانت تتكلّم بعذوبة فائقة وكان فيها شيء أكثر غرابة : إن تلك المرأة التي كانت تبدو منمّلة دائماً – كانت تعيش متشابكة اليدين وكأن أصابعها مخاطة للأبد – كانت جميلة العينين ، غير الكبيرتين ، وغير المزدانتين برموش طويلة ولا بحواجب متقنة الرسم ، لكن لونهما كان رائعاً ، يشبه لون العسل ، لكنه عسل مشع ، وهو لون كان يضفي على وجهها طيبة عميقة ووجاهة عجيبة . مامن أحد نظر إلى عينيها وأكد أن اسمها بارتولا . سألتني ماذا كنت أفعل في الحي فرويت لها كل شيء دفعة واحدة : كنت بحاجة لأن أروي ذلك لأحد . أصغت إليّ بذهول ، ثم سألتني ناظرة إليّ باطمئنان وكأنني لم أرو لها شيئاً :

– إذن ليس عندك مكان تنام فيه ؟

قمت بحركة تنم عن قلق فصبمتت المرأة ثم قالت :

– لماذا لاتأتي معي ؟ ربما يستطيع أيسياس أن يؤويك في البيت بعض الوقت .

قبلت ، لكن دون حماس كبير ، وذهبنا . لم يكن ممكناً أن أطلب أكثر في تلك الساعة . كانوا يعيشون في بيت مدقع ، شبيه بالخيمة ، يقع في شارع ضائع قليلاً ، موازٍ لخطوط سكة حديد الشرق : كانت القطارات تمر طوال النهار من هناك وطوال النهار كانت تسمع كتكتة الصيصان التي يربيها الجيران ، الفقراء ، جميع الجيران ، إلى جانب بعض الدجاجات وهذه البطة أو ذاك الديك الحبشي .

بعيداً عن البيت ، كانت تمتد أرض ترتفع بالقرب من الرصيف . فيها بعض أشجار الفاكهة ، وخاصة الدراقن ، ويعلو مايبدو أنه بقايا قنّ دجاج والذي كان فعلاً كذلك : جميع الأسيجة التي كانت تفصل بين البيوت كانت شباكاً سلكية واسعة الفتحات ، جميعاً كانت مخرّبة ، تتكشف عن تمزّقات يغطيها الجيران بالشكل الذي يسمح لهم به ذكاؤهم : بالتنك ، بقطع الخيش ، أو بقطع أخرى من شبك سلكي كانت فتحاتها أصغر أو أكبر ، حسب ماكانوا يجدون في متناول أيديهم . كانت الطيور تستغل تلك التمزقات لتترك العنان لغرائز تسوّلها التي لاتنضب ، الشيء الذي كان ينتج عنه دائماً مشاجرات بين هذا البيت أو ذاك أو بين عدد منها بسبب هذا الديك أو تلك البطة أو الدجاجة أو الصوص الذي عبر إلى هناك واختفى .

استقبلني ايسيّاس استقبالاً حسناً بعكس ماكنت أخاف .

ـ أليس ابن بنت بلدنا ، روساليا ؟ ـ سأل بحيوية وصوت مصطنع عندما رآني أظهر في بيته ـ آه كم كبر !

ـ نعم ـ قالت السيدة أرتولا بصوت ، يشبه صوت من سلمت أمرها ـ إنه أنيثيتو .

ـ وماذا جاء به إلى هنا ؟ ـ سأل بالحماس نفسه وهو يلقي نظرة على الحزمة التي ظهرت تحت ذراعي ـ هل كلّفك والدك بشيء ؟

اعتاد والدي أن يبيعه بين الفينة والأخرى بعض الترهات التي تفيض عنه ليكسب ودّه ، لكن في هذه المرة لم يكن هناك أيّ تكليف من والدي . خبّرته بارتولا ، بعد أن جمعت يديها، بكلمات قليلة، بما كان قد حدث وعن موضوعي . وهكذا قبل زوجها أن يؤويني في بيته عدة أيام بعد أن فقدت نظرته حماسها وصار صوته أكثر طبيعية ورمقني عدة نظرات وقع نصفها على الحزمة .

ـ ريثما يجد مكاناً يرتاح فيه ـ لفت الانتباه .

بعد أسبوع وقد تحوّلت إلى خادم جائع ، يعامل معاملة سيئة ، وسخ ، شرس ، فهمت أنه يوجد ماهو أسوأ من فقدان الأم ووجود الأب في سبيرّا تشيكا أو أوسوايا وهو أنك عرضة لأن تعامل برؤوس الأقدام دونما سبب أو حق . كان ايسياس من نوع البغل ، وكان

يتصرّف مثل بغل مع أيّ شخص أو حيوان تابع له : كان يرفس بساقه الخشبية ذات الحلقة الحديدية ، الكلب والدجاجات والصيصان والديوك الحبشية وبارتولا ، ذات العينين الجميلتين ، لم يكن يخفى عليه شيء . لم أبك عندما تلقيت الرفسة الأولى ، فقد كان خجلي وألمي اللذان شعرت بهما كبيرين . لم أكن قد تلقيت حتّى ذلك الوقت إلاّ ضربة وأخرى وهذه الصفعة أو تلك على قاعدتي ، وجميعها كانت خفيفة . لكن رفسة ايسياس — مستحيل تسميتها ركلة — التي تلقيتها ، دون أن أتوقّعها ، على عظم العجز تماماً ، بدا لي أنها قصمت ظهري . تركني الألم دون كلمة ولا دمعة ، رغم أنني بكيت طويلاً عندما ذهب البربري ، بكيت خجلاً وكبرياء أكثر مما بكيت من الألم . لم أستطع ومازلت لا أفهم لماذا يضرب فتى عندما يأكل قطعتين من الخبز بدلاً من قطعة واحدة ، كما كانوا ينتظرون منه . كيف يمكن أن توجّه له رفسة . لكن عنفواني لم يذهب سدى ، إذ بحثت وأنا أبكي عن قطعة آجر ووضعتها في مكان تبقى بمتناول يدي في كل لحظة : فوق إحدى عوارض القن الخشبية . تلقيت بعد يومين أو ثلاثة الرفسة الثانية والأخيرة : فقد نسيت أن أبدّل الماء للدجاجات وأن ألقي بالعشب للصيصان ، ذلك العشب الذي كان عليّ أن أذهب وأبحث عنه في القسم السفلي من سد سكة الحديد الترابي . شعرت بالألم والخجل

نفسيهما ، لكنني أصبحت أعرف ماذا يجب أن أفعل ، فالبربري الذي كان يجهل ماكنت أبيته أساء اختيار المكان ليشتمني ويرفسني الرفسة الثانية : كانت قطعة الآجر في متناول يدي . كبحت أجهاشي ، تناولت الآجرة ورميته بها دون تصويب تقريباً ، فأصابته على جمجمته : ارتبك وانحنى وحمل يده إلى رأسه ، وهو ينظر إلي مذهولاً : كان معتاداً على وداعة الكلب والطيور وزوجته ، وكان يستغرب أن يرد عليه أحد بالطريقة نفسها أو بما يشبهها . عندما رأيت الدم وقد بدأ يسيل على أحد خديه ، فركت يديّ كمن ينظفهما من شيء وسخهما وهربت باتجاه عمق الحقل الذي كان مليئاً بأغمار الماء والوحل دائماً . اجتزت السياج وصعدت إلى السد الترابي ، إلتفت من هناك ونظرت : كان ايسيّاس مايزال في مكانه ، ينظر إلى يده المخضبة بالدم وبارتولا إلى جانبه تنظر إليّ وكأنها تودّعني . نظرت إليهما للحظة ، وكأنني أردت ألا ينسباني أبداً ، ودّعت في ذهني اللحاف وانطلقت أسير باتجاه الحقل ، مبتعداً عن المدينة . توقّف في المساء قطار شحن في المحطة التي كنت أرتاح فيها . كان فيه مجموعة من الرجال مسافرين في إحدى عرباته . إلى أين يذهبون ؟ لاشك أنهم كانوا عمالاً ، نظرت إليهم فصاح لي أحدهم وكان طويلاً ، ناحلاً يحمل شارباً وله عينان خضراوان .

ـ هيه ، أيها الفتى ، هل تريد أن تذهب معنا ؟

ـ إلى أين ؟ ـ سألته وأنا أضع قدمي على سلم العربة .

كان الرجال الآخرون ينظرون ويبتسمون .

ـ إلى قطاف الذرة في الريف . .

وعندئذ ترددت .

ـ اصعد ، لاتخف ـ قال الرجل بحنان .

لم أكن خائفاً ، فأنا لست أوّل فتى يخرج ليطوف العالم : صعدت إلى العربة .

ـ ١٣ ـ

وهكذا خرجتُ إلى العالم ، ومعي أمّ ميتة وأب لص ـ محكوم عليه بالسجن لسنوات طويلة ـ وثلاثة أخوة ، لا أعرف عنهم شيئاً ، لعله كان يفوق طاقتي وأنا في ذاك العمر ، لكن أطفالاً آخرين كانوا يأتون ومعهم ماهو أسوأ . فقد كنت أحسن حالاً إذ كانت لي طفولة سعيدة تقريباً ، وحنان ومأوى ووالدان وأخوة . شعرت ، رغم الشرطة والزنزانات ، أن ذلك كان يشكل دعماً لي وركيزة . وأنا إذا تذكرت طفولتي وبعضاً من مراهقتي ، فذكرياتي لابدّ ستكون ، على الأقل ،

لطيفة . شخص واحد فقط عاملني بسوء : إيسيّاس ، لكن ايسياس بقي ويده على رأسه يشعر بدمه يسيل وقد أدهشه أن يدفع له ابن بنت بلده ثمن تضحيته باستقباله في بيته بتلك الطريقة . لم أكن نادماً لأنني جرحته ، كما لم يكن هو كذلك بالتأكيد لأنه رفسني . كلانا سدّد ماعليه . على الأقل أنا فعلت ذلك .

عدتُ إلى بونوس أيرس بعد شهرين حين انتهى جني المحصول . قد مِتُ إليها وأنا أكثر خيلاء مما كنت عند خروجي وكانت يداي مثل الحجارة . فبيثنته ، الرجلُ الذي دعاني للصعود إلى العربة والانضمام إليه وإلى رفاقه ، وضعني تحت حمايته واشتغلت معه من مطلع الشمس حتّى مغيبها . كان يعمل في خياطة الأكياس وهو عمل يدر ربحاً كبيراً رغم أنه بعد أيام قليلة يترك الأيدي مشققة والأصابع ذبيحة : القنب كالسكين يقطع اللحم وفوق جرح اليوم ، الذي لن يكون قد اندمل ، يحدث غداً آخر ، المسلّة الخائطة ، الطويلة والمقوّسة والغليظة والسهلة الانزلاق تساعد القنب محدثة وخزاً وكَنَباً ، وفي النهاية — ولأن المرء لايستطيع أن يترك العمل وعليه أن يتحمّل — يبقى ويداه كأنهما مدبوغتان : لو مرّر فوقهما حد سكين لكان كمن يمرره فوق حافر حصان .

ذهبت إلى المكان الذي كان بيتاً لي : ناس غرباء كانوا يعيشون فيه .

ذهبت إلى فرع الشرطة : لم يكن والدي هناك ، كما لم يكن في السجن ، لقد نقل إلى أحد سجون المقاطعة ولم يعرفوا أو لم يريدوا أن يقولوا لي إلى أين ، ألى سييرّا تشيكا ، أم إلى باهيّا بلانكا ، أم إلى قاعة تييرّا دل فوغو . لم أعرف أيضاً شيئاً عن أخوتي . فمن أسأل ، إلى من ألتفت ؟ لا أحد كان يعرفني ولم أكن أعرف أحداً ، كنت غريباً في مدينتي ، مسقط رأسي . كنت شبه أجنبيّ .

وهكذا تساوت عندي كل الأمكنة .

وداعاً ، يابونوس أيرس .

قطعت لابامبا ، أعمل هنا مساعدَ نجار وهناك مناول بناء وهنالك صانعاً ميكانيكياً ، حتّى وصلت أخيراً إلى مندوثا ، حيث التقيت برجل كان يقول أنه نباتيّ ، وتلميذ شوبنهور وأنه كان يتغذى ، بشكل يكاد يقتصر كلياً ، على العجين المقلي وكانت له علاقات غرامية مع زوجة معلّم المطبخ في أحد المطاعم الليلية ، علّمني دهن الجدران والأبواب والنوافذ . هكذا أصبح عندي مهنة . وعندما حل الصيف انطلقت إلى الجبال ، متعاقداً كمساعد نجار في ورشة من عمّال الخطوط الحديدية الترانساندينيه .

كنت أقترب من تشيلي ، البلاد المختبئة .

القسم الثاني



- ١ -

لم يكن باستطاعتي أن أبقى أمام السجن إلى الأبد ، فقد كان الحارس يزورني ، بين فضولي ومنزعج ، فضولي لأنني سجين غريب ، بقيت أمام الباب ، متخشباً ، وكأنني أرفض أن يطلق سراحي ، بدل أن أذهب بخطوات واسعة ، كأن أركض ، إن استطعت ، ومنزعج ، لأن صورتي لم تكن ، ولابشكل من الأشكال ، تزيينية ، يكفي المرء انه حارس ، مثلاً ، لمبنى ، ثم يأتي شخص هزيل ، رث الثياب وينتصب أمامه هناك دون أن يبدو عليه انه يريد الرحيل . الحقيقة انني كنت أود من أعماقي أن أعود وأدخل : لم يكن عندي في تلك المدينة المزدحمة بالناس والمتاجر الضخمة ، مكان واحد ، أوجه إليه خطواتي لأبحث عمن يقدم لي كرسياً أو كأساً من الماء ، يشد على يدي بحرارة أو يربت على كتفي ؛ فصديقي رحل حاملاً معه كل ماكنت أملكه في تلك المدينة وذاك البلد . بينما كان الرقيب غونثالث يحملني في السجن إلى المستوصف ويأتيني بفنجان من مرق تطفو على سطحه قطرات الشحم ، أو بصحن من الفاصولياء مع الشعيرية التي كثيراً ماكانت تحتوي على زر أو عود ثقاب ، أو نسالة وأشياء أخرى غير ضارة ، لكنها لاتؤكل ولايتفاجأ بها إلا الجدد ، وكان باستطاعتي أن أبقى في السرير اسبوعاً

أو شهراً ، إلى أن تتخشب ساقي ، دون أن تؤلمني رئتي أو تدمى إذا سعلت بقوة . لكنني لاأستطيع العودة : فالأسرة كانت قليلة والتريبله الذي تلقى طعنة خنجر في بطنه ؛ بسبب حبه الشاذ يحتاج إلى ذلك السرير ، كان وضعي مقبولاً إلى حد ما ، والحرية تكمل شفائي . أنت طليق . تدبر أمرك ، كما تستطيع .

نظرت حولي : كنت أرى المدينة من المكان الذي أنا فيه ، بيتاً بيتاً ؛ لقد كان موقع السجن يقدم من الباب – من المؤسف أن يكون من الباب فقط – مشهداً رحباً يبتعد فيه البحر باتجاه الأفق ، والسفن الراسية في الخليج كانت تبدو وقد استقرت على الماء أكثر مما رست ؛ الزوارق الصغيرة كانت تتحرك ببطء واطمئنان وسفن الجر تقطع الخليج من هنا إلى هناك بقلق واختيال تقرع أجراسها وتصفر ، وكانت المدينة طويلة أكثر مما هي عريضة وشوارعها تسلك اتجاه الشاطىء أو تتمرغ فيه .

هبطت وفي الطريق رحت أعيد في مخيلتي بناء الجزء الذي كنت أعرفه أكثر من غيره في المدينة والذي كان يقتصر على الحي المحيط بالميناء حيث كنت أتردد يوم كنت طليقاً وأهيم على وجهي أياماً بكاملها في شوارع بطول ربع ميل أو ميل كحد أقصى . كان علي أن أذهب إلى هناك ، حيث أو من حيث أنطلق لأجد الراحة و هذه اللقمة أو تلك .

لاشك كان الميناء مناسباً ، مكاناً رائعاً يستطيع المرء أن يقضي فيه ساعة ، عاماً ، قرناً ، دون أن يحس بالزمن ، ولا يشعر بالحاجة شيء ولا حتى بالضروريات الأساسية كالطعام أو النوم مثلاً . يبدو أنها تنسى أو تضمحل ، هذا دون أن نأخذ بالحسبان ، أن المرء ، في الساحة أو في الميناء ، يستطيع أن ينام جلوساً أو على الرصيف . أما الطعام فليس عليه إلا أن يجتاز الساحة ويدخل مطعماً ، إن كان يملك نقوداً ، ويلتهم صحناً من اللحم أو الفاصولياء ، ليعود بعدها إلى الرصيف أو إلى الساحة ليجتر ، بقوة أكبر الآن ، الفكرة نفسها ، أو الحلم نفسه أو الذكرى نفسها . ولو أن الانسان خلق بلا عظام ولا نسج ولا عضلات وان هذه العضلات والنسج والعظام الملعونة تحتاج الغذاء والانعاش ، لأمكنه البقاء هناك ينتظر أو لا ينتظر شيئاً ، ينتظر عملاً ، صديقاً ، أولاينتظر إلا الموت . وعندما تأتي اللحظة التي عليه أن يرحل فيها ، لأن البقاء مستحيل ، فالطقس بارد وهو يتضور جوعاً وعليه أن يمكر ، رغماً عنه ، في الطعام والمأوى أو العمل وهنا يلاحظ أن الكائن البشري شيء تافه ، أساسه حاجات بائسة : هيا ، امش إلى الطعام السعيد ، إلى المأوى الملعون ، إلى العمل العهري .

نعم ، ان الميناء مكان ممتاز ، لكن فقط بالنسبة لمن يملك الصحة والمال ، ولا هم أن يكون بلا عمل ، ماحاجته للعمل اذا كان يملك

المال والصحة ، وأنا لم أكن أملك لاهذا ولاذاك ولاحتى المأوى ، فقد عشت ، أو بالأحرى ، نمت خلال وجودي طليقاً في تلك الحظائر التي لاتحتوي غرفها الا على أفرشة قاسية وبعض المسامير في الجدران ، لامغاسل ، لاحمامات ، ولا ألحفة أو ملاحف ، فالملاحف غير موجودة ولا بأي ثمن ، أما اذا كنت مفرطاً في رقتك وتريد لحافاً أو أي شيء تتغطى به فعليك أن تدفع العلاوة : يصل المرء في العاشرة أو الحادية عشر ليلاً ، يدفع ويدخل إلى الغرفة التي لاتتجاوز مساحتها الأربعة أمتار مربعة ويستلقي ، لاوجود للأبواب ، ولولا ذلك ، لازدحمت باللواطين ، عندما تكون الأبواب مفتوحة ينام الانسان بحشمة ، وهو أفضل للصحة ، يوجد ضوء واحد لكل غرفة من الغرف ، التي ليست الا تقسيمات قليلة الارتفاع ، مصنوعة من الألواح الخشبية والورق في صالة واسعة ؛ وما حاجتك إلى النور ؟ فأنت تعب وجائع ولاتحتاج إلا للظلمة والراحة ، للنوم أو التفكر ، لاتعرف من الذي ينام في الغرفة المجاورة ، فقد يكون قاتلاً ، عربيداً ، معذباً ، مريضاً ، أو ربما شخصاً يموت — مثل ذلك السكران الذي قضى ليلة طويلة يحتضر فيها ، ورحنا نجبره على السكوت وبطنه مفتوح ، دون أن نعلم انه كان يموت— على كل حال اتركه فهو يريد أن يموت بهدوء أو بالعكس ، لذلك فهو لايحتاج إلى نور ولا الى رفيق . غداً يستيقظ المبكرون في الساعة

الرابعة أو الخامسة ، فيسعلون ويبصقون على الجدران ، على الأرض أو حيث تقع — فهم لن يفكروا في اختيار المكان في مثل هذه الساعة — ، بعضهم لايخلع ثيابه ، لماذا يخلعونها ؟ ليخرجوا بعدها إلى الميناء ، أو إلى السوق ، إلى مرافىء الصيادين الصغيرة ، والمطابع أو إلى المستشفى ، الآخرون يستيقظون بعدهم ، لكن مامن أحد ، ولاحتى المرضى ، يستمر هناك بعد الثامنة ، اذ لاأحد ، بدافع من الوجل الحميمي ، ينتظر حتى يأتي النادل ويقول له ان الساعة ، ساعة الرحيل قد حانت وعليه أن يذهب وهو يرشق وجهه بملء يديه من ماء صنبور المرحاض ، حيث لاتوجد مناشف ولاصابون ، زجاجهُ مكسور وجدرانه مطلية بالقطران بينما أرضه مغطاة بالأوراق ذات البقع الصفراء : « يرجى عدم رمي الأوراق في الحوض . »

لم يكن باستطاعتي البقاء في الميناء ، كان علي أن أبحث ، وقبل أي شيء عن مأوى ، وهذا يتطلب مني أن أجد المكان والطريقة التي أكسب بها السنتيمات الضرورية لأجرة السرير واللحاف ، وهي قليلة ، لأن أجرة السرير كانت ستين سنتيماً واللحاف عشرين . هذا هو المهم : أن أنام متدثراً ، ولو لم آكل ، فالنوم على الأرض الاسمنتية دون أي غطاء وأنا أبول تحتي من البرد ، سبب لي التهاب الرئتين ونتيجة لذلك صرت أخاف جداً ، ليس من الموت وإنما من المرض والعجز الصحي ،

وفي الميناء لم أكن لأستطيع الحصول على المال ، لأنه يتطلب القيام بأعمال قاسية ومجهدة : مستحيل ، كان علي أن أستمر ، أنظر البحر ، الرصيف ، البواخر ، وأحسد الناس الذين يتبادلون الأحاديث أو يلزمون الصمت ، يتناولون الشمس ويدخنون : انهم يتمتعون بصحة جيدة ويستطيعون المقاومة ، وأنا لاأستطيع .

تقدمت في شارع ثم في آخر ، متفادياً الرجال الذين كانوا ينتظرون من يناديهم ليحملوا أو ليفرغوا ، لينظفوا أو ليحزموا ، ليزيتوا أو ليشحموا ، ليرفعوا أو لينزلوا ، ليدهنوا ، أو ليكسوا بالخشب أو ليكشطوا ، فهم يستطيعون أن يكسوا بالخشب ، يكشطوا ، يدهنوا ، ينزلوا ، يرفعوا ، يشحموا ، يزيتوا ، يحزموا ، ينظفوا ، يحملوا وأن يفرغوا الكون كله بنجومه وشموسه ، بكواكبه وأبراجه وسدمه ، شريطة أن يدفعوا لهم من الأجر مايسمح لهم بألا يموتوا جوعاً وأن يحصلوا على واسطة تنقلهم إلى المكان الذي يحتاجون ؛ رجال قصار القامة ، أشداء ، يبنون الموانىء والسفن ، يستخرجون الأملاح والفحم والنحاس والأسمنت ، يمدون الخطوط الحديدية ولايملكون سوى حرية تبادل الحديث لبرهة وتناول هذه الجرعة أو تلك من النبيذ ، ينتظرون اليوم التالي أو الأخير .

فجأة وتنتهي المدينة جنوباً ، لتظهر بعض الأكواخ ، والغرف

الفقيرة المسيحة . ماذا يوجد هناك : جراذين وبضائع ، لاتوجد أية ضجة مسموعة ، وسفح الهضبة يرافق الشارع بمنعطفاته واعوجاجاته ، والذي ينظر إلى الأعلى يستطيع أن يرى بعض أشجار الصنوبر البحري ، التي تتكشف عن أغصان داكنة على حواف الوهدة . الحافلات تروح وتغدو مزدحمة بالناس ، بينما يبدو الشارع مقفراً ، ونادراً مايظهر بحار أو حمال على جواده هنا وهناك . الوحشة ترعبني : أريد أن أكون بين الرجال والنساء ، خاصة بين الرجال ، الذين أقترب منهم وأطلب نصيحة أو اساعدهم في عملهم إذا كانوا خفيفي الظل . كان المارة ينظرون إلي بفضول وببعض الاستغراب أيضاً وأنا واثق انهم يعودون لينظروا إلي بعد أن يبتعدوا . ترى ماهي هيئتي وأنا أسير تحت الريح والشمس على شواطىء البحر : أحس بخفقان شديد حولي وأبعد قليلاً ونبضان وقور وواثق بالإضافة إلى دعوة فرحة وخفيفة إلى الحركة والمغامرة ، ولكنني خائف ولا أريد أن أنجرف أو أن أباغت بشيء عنيف : من فضلكم ، اتركوني بسلام ، فرئتي ليست كما يجب . كيف هو الجرح ؟ آه لو استطيع أن أراه ، تراني أستطيع أن أراه ؟ كيف حاله ؟ كبير أم صغير ، جاف أم رطيب ، سميك أم رقيق ، متماسك أم رخو ؟ شيء غريب : يرى الانسان صور ورسوم القليب والمعدة والكبد والرئتين ويعرف ، الى حد ما ، حالها ويستطيع أن يصفها

بل وربما أن يرسمها وأن يقول أين تقع في الجسم وماهي وظائفها ، لكن اذا كان الأمر يتعلق ، بمعداتنا ، بأكبادنا أو برئاتنا ، فان الواحد منا لايعرف شيئاً ، ولاحتى أين تقع بالضبط ، وتتقلص معرفته أكثر عندما تمرض ، يبدو ان المرض يحولها إلى شيء غريب ، وعدواني ، غريب عنا ، له كيانه الخاص والمتغطرس . وفجأة انتهى الجدار وظهر البحر .

— ٢ —

(تصور نفسك مجروحاً في موضع ما من جسمك ، في موضع ليس باستطاعتك أن تحدده بدقة ، اضافة ، إلى أنك لاتستطيع أن تراه أو أن تلمسه ، افترض ان هذا الجرح يؤلمك ويهددك بالانفتاح أو انه ينفتح في الوقت الذي تنساه وتفعل مالايجب ، كأن تنحني ، تركض ، تصارع أو تضحك ، وما أن تقوم بذلك ، حتى يفاجئك الجرح ، ذكراه أولاً ثم ألمه ثانياً : أنا هنا ، امش ببطء ، لم يبق أمامك سوى طريقين : اما أن تتخلى عن العيش بهذه الطريقة وتتعمد القيام بما لايجب أو أن تعيش هكذا وتتجنب القيام بما لايجب . فاذا اخترت الطريق الأول وقفزت ، صرخت ، ضحكت ، جريت أو عاركت فكل شيء سينتهي قريباً : لأن الجرح إذا اتسع أكثر مما تستطيع أن تحتمل

فانه سيحولك إلى شيء لايحتاج إلا للقبر . ويمكن أن يمر الأمر دون حدوث ذلك . اذا حدث هذا دل على أن بك رغبة كبيرة للعيش ولكن وبما أنك مغتاظ لانك لاتستطيع أن تعيش كما تريد تكون قد فضلت الموت وهذا ليس بطولة وانما يدل على ان بك جرحاً وان هذا الجرح أقوى منك وتركت له المكان . أما اذا اخترت الطريق الثاني ، فستبقى حياً دون أن يعرف أحد إلى متى: ستتخلى عن الحركات المارشالية والافراح المفرطة وستعيش خادماً لجرحك ، ترعاه كي لايدمى ولا يتفتق أو يتفسخ وهذا يدل ، ياصديقي على أن بك رغبة شديدة بالعيش وانك تقبل به ، لأنك لاتستطيع أن تعيش كما تريد. ، فقد منعوك من العيش كما ترغب ، وهذا دون أن يكون لزام تسميته جبناً ، تماماً ، كما لو انك اخترت الطريق الأول حيث لاشيء يحمل على الافتراض بأنك بطل : فالتحمل جبن أو بطولة ، تماماً مثل التنازل . فيما عدا ذلك ، فالجراح ليست أبدية ، فهي تنقه أو تقضي على صاحبها .. يمكن أن يحدث أيضاً أنك بعد أن تعيش أعواماً كثيرة تشعر أن واحداً منها قد التأم وأصبح باستطاعتك أن تقوم بما يقوم به كل انسان صحيح البنية ، كما يمكن ان يقضي عليك أيضاً ، فالجرح جرح ويمكن أن يميت بطريقتين : بذاته أو بأن يفتح جرحاً آخر في مخك فيهاجم مقاومتك من أجل الحياة دون أن تشعر : لنفترض ان بك جرحاً في الرئة ،

في الاثني عشري ،في المستقيم أو في القلب ، وتريد أن تعيش فتقاوم ، ولاتستسلم. وتشد على أسنانك وتبكي ، لكنك لاتستسلم وتستمر ولو على ركبتيك أو زحفاً ، تملأ العالم بكاءاً وتجديفات لكنك في النهاية ستشعر ، ذات يوم ، انك ماعدت تستطيع المقاومة وأن أعصابك ترتخي وركبتيك وساقيك ماعادت تستطيع معك صبراً فتخر : عندئذ تسقط ، تستسلم ويمتصك الجرح : انها النهاية. جرح انضم إلى آخر وأنت الذي ماكدت تستطيع أن تقاوم واحداً لن تستطيع تحمل الاثنين .
لست أدري ان كنت تعرف بعض العقد البحرية ، قد لاتعرفها ، كما هو الحال بالنسبة للغالبية من الفانين فهم يعرفون نموذجاً واحداً من كل شيء ، لاأكثر ، وعندما تسمعهم يتكلمون عن العقد لاتتذكر إلا عقدة الوردة دون أن يعني هذا انك تعرف عقدها ، فالعيش لايتطلب معرفة أشياء كثيرة : يكفي أن يتمتع المرء بصحة جيدة . توجد عقدة بحرية تدعى عقدة الصياد ، تتذكر بما أقوله لك . انها مركبة من فعلين ، وبما انهما متشابهان ، فانهما يحدثان بشكل منفصل ، وطالما انهما منفصلان فهما ليسا خطرين ، لأن الخطر يكمن في وحدتهما : خذ حبلاً أو مرسة أو مرسة صغيرة مثلاً واعقد فوق مرسة أو مرسة صغيرة أخرى ، بعد أن تمسكها جيداً ، عقدة عمياء ، وهذه العقدة التي تصنعها جيداً ، لاتشدها كثيراً ولاتتركها رخوة ، أي أن

تكون من تلك العقد التي تعض كما يقال ، واصنع أخرى مماثلة في طرف المرسة نفسها تكون فوق الأولى وهكذا يكون عندك مرستان متحدتان بعقدتين عمياوين موجودتين على مسافة غير محددة ، وهما في هذه الحال غير ضارتين . والأسوأ هو انهما غير مفيدتين أيضاً ، لكن العقدة لم تتشكل بعد : اذا أمسكت المرستين أو المرستين الصغيرتين من الجزء البعيد عن العقدتين وشددت مبعداً بين يديك ، فان العقدتين تتقاربان الواحدة من الاخرى بوداعة ربما تفاجئك في عقدتين ليستا مجبرتين ظاهرياً على اطاعة شيء ؛ واذا شددت بعنف سترى انهما لاتتقدمان بسرعة وحسب ، بل بأكثر من ذلك ، بضراوة ، لتتحدا بشغف مركز . وما أن تتحدا حتى لايعود بمقدور شد بشري ولاحيواني أن يفصلهما أو يفكهما ، وستبقيان هناك تتحملان الزورق أو الشبكة ، الليل بكامله إلى أن يأتي الصياد متعباً في الفجر فيفصل التحامهما الشديد بالبساطة ذاتها التي يمكن للموت أن يفصلك بها عن الحياة : بحركة بسيطة نحو هذا الجانب أو ذاك . . . لكن تصور انك لست مصاباً بالجرح الأول ولا الثاني اللذين حدثتك عنهما ، وانما بجرح آخر يمكن أن يولد معك أو أن يظهر في مجرى حياتك ، في مرحلة الطفولة أو المراهقة أو الرجولة ، تلقائياً أو نتيجة للحياة . اذا ولد معك فيمكن أن يكون صغيراً في البداية ولايزعجك ، دون أن تستطيع أن تصرف النظر

عن امكانية أن يكون كبيراً منذ البداية وأن يمنعك من التحدث أو السير . لنفترض هذا ، دون أن تأخذ بالحسبان المكان الذي تولد فيه ، والذي يمكن أن يكون نزلاً صغيراً أو بيتاً أو قصراً . يمكن أن تكون محاطاً بأناس يهتمون أولايهتمون بك، يريدون مساعدتك أولايريدون فاذا وجدوا وارادوا واهتموا يمكنك الاحتفاظ بذاتك ، إلا اذا كان جرحك ، ذاك الجرح الذي لاتستطيع أنت ولا سواك تحديد موضعه لأنه موجود في كل الأجزاء وغير موجود في أي منها : في الأعصاب ، في المخ ، في العضلات ، في العظام ، في الدم ، في النسج ، في السوائل وفي العناصر التي تجوبك ، أقول إلا اذا تغلب جرحك على كل شيء وعلى الجميع : على الطب ، والتربية والوالدين والمدرسة والأصدقاء، هذا اذا توفر لك كل ذلك ، لأن هناك أعداداً لاتحصى من الكائنات البشرية ، لم ولن يتوفر لهم الطب ولاالتربية ولا الأبوان ولا المدرسون ولا الاصدقاء ، دون أن يبدو أن أحداً قد أولى ذلك أو أولاهم اهتماماً في عالم لاقيمة فيه لشيء الا للمبادرة الشخصية ، كائناً ماكان نوع هذه المبادرة ، شريطة أن تترك مبادرة الآخرين بسلام ، مهما كانت طبيعتها . اذا تغلب الجرح على كل شيء وعلى الجميع ولم تنحسر تأثيراته واستمرت وتزايدت مع الزمن فلا خلاص لك . هذا الخلاص الذي لايتعلق فقط بروحك ، التي هي حتماً ضائعة وتأتي ، على كل

حال في الدرجة الثانية من الأهمية في العالم الذي نحيا فيه ، وانما يتعلق بلك كاملاً ، حتى ولو استطعت أن تحوز على كل الفضائل والنعم التي يمكن للكائن والروح أن يحرزاها . فهي لن تفيدك في شيء وستتحول عندك إلى إحباطات : الحب ،الفن ،الحظ والذكاء ، سيمتد الجرح إليها جميعاً ، اذا كان أهلك ذوي مال فستسير حياتك بقدر ماعندهم من مال ، أما اذا كانوا فقراء أو ليست لك عائلة ،فمن الأفضل لك ،أيها البائس ، ألا تكون قد ولدت ، وتكون قد فعلت جيداً لو كان عندك والدان وبصقت في وجهيهما ، الشيء الذي لاشك قمت بما هو أسوأ منه . ولنفترض ، وكما قلت لك ، أن جرحك ظهر تلقائياً في شبابك أو بتأثير الحياة والتكرار الآلي : الذهاب والعودة من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت ، ولعدة عقود ، الخ ، الخ ، أو القيام يومياً بعمل واحد على الآلة أو يدوياً : أن تضغط على الصمولة ذاتها ، ان كنت عاملاً أو كأن تغسل الأواعي البلورية ذاتها ان كنت خادماً ، أو كأن تحرر الإخطار الرسمي أو الرسالة نفسها ، أو لائحة الاسعار ذاتها ان كنت تعمل في مكتب . ربما يبدأ بمداراة شديدة سطحياً وبمداراة شديدة ، كما يبدأ السرطان عادة ، كجرح صغير في الغشاء المخاطي للأنف أو الفم أو الأعضاء التناسلية أو كحبيبة أو تؤلولة في أي ميليمتر مربع من جلد جسدك . لن تهتم به في البداية ، رغم

أنك تشعر بأن الطريق بين بيتك ومكتبك أو مكان عملك يطول ويثقل يوماً بعد يوم والحافلات تزدحم بالناس أكثر والباصات تصبح أكثر ازعاجاً والسائقين يضغطون على مزمار سياراتهم بوحشية أشد ، وبأن ريشتك لم تعد تكتب بسهولة كما في أزمنة سابقة وشريط الآلة الكاتبة ممزق دائماً واحدى دستاناتها مرفوعة وخيط الصمولة متآكل باستمرار ورئيسك أو رب عملك صار له وجه هو في كل مرة مخيف أكثر ، مثل وجه فرس البحر أو التمساح ، كما تلاحظ ، من جهة ثانية ، بأن زوجتك قد شاخت وتدمدم أكثر مما يجب وبأن أبناءك يزداد إزعاجهم لك : يصرخون ، يتشاجرون ، يتناقشون في أمور تافهة ، يكسرون الاثاث ، يوسخون الجدران ، يطلبون النقود ، يصلون متأخرين لتناول الطعام ولا يدرسون كما يجب ، ماذا حدث ؟ لقد انفتح الجرح ، ظهر ويمكن أن يختفي أو أن يستمر وينمو ، فاذا اختفى يمكنك أن تدعوه تعباً أو انهياراً عصبياً ، أما اذا استمر ونما فله أسماء أخرى وقد يؤدي إلى الفوضى أو إلى الرذيلة ، كالكحولية مثلاً أو القمار والنساء والانتحار ، لابد انك سمعت عن تعب المعادن ولاشك أنك ضحكت لهذه العبارة : هل يمكن أن تعاني المعادن من هذا : وهل يمكن لأحد أن يتخيل خطاً حديدياً يقول : أناتعب : يُدهش التفكير بأن قطعة من الحديد أو الفولاذ تنتهي بالتعب والاستسلام واذا كان الحديد يستسلم

والفولاذ يرتخي فكيف يمكن للأعصاب والعضلات والأوتار والخلايا الدماغية والدم أن تكون أكثر مقاومة : هذا مع قلة الذين يعرفون مدى قدرة الكائن البشري على المقاومة . وماهي مقاومته ؟ انها ، أحياناً ، أكثر صلابة من الفولاذ ، ومما يزيد في الدهشة أن هناك أناساً يبدو أن مقاومتهم تقوى كلما ضعفوا وازدادت بنيتهم هشاشة . لاشك أنك تتذكر ذلك الرجل الذي عرفته في شبابك ، مهزوماً ، مجروحاً ، لا أحد يعرف بأي سلاح ، مجروحاً في أكثر مناطق شخصه الحيواني عمقاً ومايزال يقاوم ، يبيع رباطات الأحذية ، أو يشحذ ، ويمر عام ، عامان ولا تراه ، حتى اذا نسيته ظهر لك وقدّم لك رباطاته أو صحفه ، أو طلب منك صدقة ، انه مثل مدمن المخدرات ، بلا بيت ولا عمل ولا أسرة ، قاوم رغم انه نام في الشوارع ، على مقاعد الساحات ، أو تحت الجسور دون أن يأكل أو يتدثر ويداه أكثر برودة من يدي أكثر الأموات برودة ، وقد قبر ، في خمس سنوات أو في عشرين ، زوجته الأولى وزوجته الثانية وأولاده من الأولى ومن الثانية بل وربما أحفاده أيضاً ، دون أن يملك أي كنز آخر سوى محقنته الصغيرة وغراماً من المورفين ، الذي ساهمت معه بالحصول عليه عندما دفعت له بعض البيسوات ومثل المقلوج ، الذي كان قد أصيب بجرح كبير مثله ، بدأ في الفصيص الأيمن من الدماغ وانتهى في أظافر قدمه الأيسر ،

إضافة إلى انه فقد ذراعه ـ اجتزته القاطرة عندما كان يعمل في أحد الأكواخ في صغره ـ قاوم الوحشة عشر أو ثلاثين سنة دون أن يستطيع أن يأكل أو يغتسل أو يرتدي ثيابه أو ينام أو ينهض بوسائطه الخاصة ، وهو بلا أسنان، نصف أعمى يستند إلى ساقه اليمنى ، إلى ذلك الشيء الخفي واللامعقول الذي يبقي حتّى على أولئك الذين يريدون أن يموتوا ، كي ينتهي وقد صعقته جلطة قلبية ، يحسده عليها جميع أولئك الذين يخافون الموت بالسرطان والأورام الدماغية . تستطيع أن ترى في المدن ، حول المدن ، الشيء الذي يندر جداً في وسطها ، إلا في حالة الانتفاضات الشعبية ، كائنات مماثلة وشبيهة بقذى الأعشاب ، التي أنهكتها الريح الهوجاء ، لاتكاد تستطيع الزحف وقد تسلح بعضها بدلو صغير وموقد ومارس مهنة بائع الغاز الجوال ترافقه امرأة ، كأنه صنعها بنفسه في موقده الصغير ، ينامون في أماكن مقفرة ، عند زوايا الأرصفة أو ضفاف الأنهار ، يتسولون بعيونهم الحمراء والرمصاء ولحاهم الرمادية أو النحاسيةوأظافرهمالقاسية السوداء وأسمالهمالتي بلونالبولأو الطحالب والتي تسمح من خلال تمزقاتها ، برؤية أجزاء من جلد أبيض ، ضارب إلى الزرقة الداكنة ، أو يتسوّلون دون أن يعملوا أو يطلبوا شيئاً ، يرجمهم الأطفال ويصفعهم السكارى ، لكنهم أحياء ، منتصبون بشكل غير معقول على أقدام هي بدورها قوية بشكل غير معقول . عندهم

أو يبدو ان عندهم هامشاً ، ليس أكبر بقياسه من ذاك الذي تعطيه راحة الكف ، أي قياس أربعة أصابع ، الذي يليه تماماً الجور ، حالة الخطر والموت ، يتحركون ويسيرون ، وكأنهم في درب ضيق ، خُطّ على حافة هاوية لاتتسع إلا لأقدامهم : أي تعثر ، أو أية حركة عشوائية ، بل وأستطيع أن أقول أية ريح قوية قليلاً ، يمكن أن تلقي بهم في الفراغ ، لكن لا ، انهم يقاومون ، ويعيشون لعدة عقود ، يمكن أن تفقد والدتك ، زوجتك ، أولادك ، أصدقائك ، وكلهم أصحاء أقوياء ، ودون أية علة ، بينما هم يقاومون ويغيظون بحضورهم المرضى والأصحاء ، الأقوياء والمتواضعين ، الشيوخ والشباب ، دون أن يستطيع أحد أن يفسر كيف يمكن أن توجد مثل هذه الكائنات في عالم يبشر بالديمقراطية والمسيحية . لكنك ، خلقت ياصديقي ، معافى مثل قضيب الخلاف ، مرناً وقوياً ، أو مثل قضيب من الفولاذ مطواعاً ومحكماً ، ليس بك علة ، ولا جراح ، ظاهرة ولاخفية ، قواك ، قدراتك ، فضائلك جميعها سليمة وستنمو في الوقت المناسب أو انها نمت فعلاً . اذا فكّرت ذات مرة بمستقبلك وشعرت بالخوف ، فالخوف أساسه هو ذاته أساس جميع المخاوف التي تمر بها الكائنات البشرية التي تتطلع إلى المستقبل . الموت ، لكن لاأحد يموت ، عشية يومه ، وسيأتي هذا اليوم بالنسبة للجميع ، كما بالنسبة لك أيضاً ، مهما فعلت .

اليوم ، يوم شمس وريح ، ويوجد فتى مرهق يسير إلى جانب البحر ، ويبدو انه يسير ، كما قلت لك منذ لحظة ، في درب خط على شفى هاوية . اذا مررت به ونظرت إليه سترى وجهه الضامر ، ثيابه المبقعة ، وحذاءه المهترىء وشعره الطويل ، اضافة إلى تعابير الخوف ، لكنك لن ترى جرحه، ذلك الجرح الوحيد عنده في تلك اللحظة، قد تظن انه صعلوك ، كائن يرفض العمل وينتظر أن يعيش من عطاء الآخرين ، أو مما يحصل عليه هنا وهناك بالوسائل الحسنة والسيئة ، لكن هذا غير صحيح : فهو لن يطلب منك شيئاً واذا قدمت له شيئاً فانه سيرفضه مبتسماً ، الا اذا نظرت اليه وأنت تقدمه له وكلمته بطريقة لاأستطيع ، ولا غيري تفسيرها لك ، فهذه النظرة وهذا الصوت لايمكن وصفهما أو تفسيرهما . فكر انه يوجد في هذه اللحظة إلى جانبك كائنات كثيرة تبدو عليها مظاهر المرض ، مريضة بجرح حقيقي أو وهمي ، ظاهر أو خفي ، لكنه يبقى ، في كل الأحوال ، جرحاً ، عميقاً أو سطحياً ، أخرس الألم أو حاده ، دامياً أو جافاً ، كبير الشفتين أو صغيرهما ، يحصرهما ، يقلصهما ، يصغرهما ويثبتهما) .

- ٣ -

توقفت بعد قليل . جدار حجري صغير يلي الجدار ، وهو على العكس منه ، لايخفي شيئاً ويظهر كل شيء . توقفت ونظرت : كنت أمام فرضة ، شاطئها مزروع بحجارة يغسلها البحر بأمواجه التي تتحطم بعنف ودون انقطاع . تظهر في البحر على بعد أمتار من الشاطىء بعض الصخور المتسخة بالدمان الذي تخلفه النوارس والبجع والبط الحمول وأبورمح هناك يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام . تنبعث من الفرضة رائحة زيت البكلاء ، التي تستقبل المرء تماماً كما يستقبل الوجه الصفعة ، وتدخل في الأنف . ترتفع في أحد جوانب الشاطىء بعض البيوت البائسة المصنوعة من الخشب والكالامين .

توقفت هناك ونظرت : على مسافة قليلة من الشاطىء كان البحر يتكشف عن لون العمق والموج ينتفخ بماء كثير فيغمر في كل مرة شقوق الصخور ، حيث طيور البجع الأمريكي ، بمظهرها الشبيه برجال صغار ، ولونها الضارب إلى السواد ، تنتظر ، لا أحد يعرف أية لقمة ، وإلى جانبها النوارس وطيور أبي رمح الأكثر حركة ، والتي تقلع وتحوم حول الصخور أو تحط على الأمواج مستسلمة حتى اللحظة التي تستوي فيها تماماً وتتقدم لتتحطم يقيناً على الحجارة . تحمل بعض الصخور ، تحت متوسط مستوى الماء ، لوناً مخاطياً مقرفاً غير

واضح . هناك نوارس أخرى تتيه على الرمال للحظات قصيرة ، تترصد طعم فخ أو ملمس حبار أو جزءاً من أمعاء سمكة ، فان لم تجده ، تقدمت في البداية خطوتين أو ثلاثاً ، فيما يشبه الجري ونشرت أجنحتها في الحال وقذفت سيقانها إلى الخلف مطلقة العنان لزبيطها المحموم . وعندما كان يقترب زورق مليء بالسمك من الفرضة ، كانت البجع التي هي أكثر خوفاً وطمعاً ، لاتتحرك عن الصخور وتنكمش جميعها . إلى جانبي على الرصيف كان يوجد رجل يرفأ شبكة صنعت من خيوط قرميدية اللون . توقفت هناك ونظرت : لم يكن هناك باستثناء الصيادين الأربعة أو الخمسة الذين يعملون ويثرثرون حول الزورق الذي وصل لتوه أي كائن بشري سوى رجلين كانا يسيران هنا وهناك وبشكل متكرر ، ينحنيان من حين لآخر ويلتقطان شيئاً يتفحصانه ثم يخبئانه في جيوبهما أو يقذفان به إلى هذا الجانب أو ذاك .

بقيت هناك ، أستند إلى الجدار الصغير ، وكأن النهار صار بطول مئة وخمسين ساعة وانه أصبح بحوزتي ألفان أو ثلاثة آلاف عام من العمر .

— ٤ —

— وداعاً ، سأكتب لك من بانما أو من نيويورك .

دارت الباخرة ، تدفعها أنوف سفن الجر ، تبحث بمقدمتها السوداء عن الشمال . إلى أين تمضي ث . إس . آ . ف . انها تتمايل بسرعة

اثنتي عشرة عقدة أو ربما أربع عشرة من الميسرة إلى الميمنة وتتهزهز من المؤخرة إلى المقدمة . كان ، أحياناً ، يداخلني شعور بأنني أمضي على متنها ، مساء في مواجهة الرياح ، رغم انني كنت أتشرد في الشوارع ، وكأن روحي غائبة يلفها شيء عازل . انفجرت العاصفة في تلك اللحظة دون أن يدري أحد في أي زقاق من الميناء أو في أية جادة من المدينة أو في أية عطفة طود التهبت الشرارة التي تحولت إلى لهب مضطرب . رأيت نفسي فجأة في وسطها ، غير مبال بصواعقها الأولى ولاأفكر إلا بصديقي والجهود التي بذلت للحصول له على بطاقة السفر : وثائق ، وثائق ، وثائق ، ولكن عندما جاء بي والديّ ، لماذا لم يضيفا إلى أعضائي وثيقة تفيدني للأبد كالمثانة أو الأنف يبدو أن الانسان فقد ميزاته البشرية وأصبح كائناً يملك أو لايملك وثيقة ،وحدث هذا لأن بعض الأفراد استغلوا طيب أو لامبالاة الأكثرية واستولوا على الأرض والبحر والسماء والطريق والريح والمياه وراحوا يطالبون بالوثائق كي يتصرفوا بكل ذلك: هل عندك وثيقة كي تمر إلى هناك؟ هل عندك وثيقة كي تمر إلى هنا؟هل عندك وثيقة حتى تتنفس ، وثيقة حتى تمشي ، وثيقة حتى تنتجب ، وثيقة حتى تأكل ووثيقة حتى تنظر ؟ آه ، لاياسيد : ليس عندك وثيقة ، إذن ارجع واقبر نفسك هناك ولاتمش ، لاتتنفس ، لاتنجب ، لاتنظر . الذي يليه : أيضاً ليس عنده . انهم في كل مكان وحيث لايتوقع أحدوجودهم ، في منعطفات الطرق وزوايا المرافىء ، في ممرات الجبال وخلف الأبواب

وتحت الأسرة يتفحصون الوثائق ، يقلبونها أو لايقلبونها يحتفظون بها أو يعيدونها : ليست كاملة ، ينقصها التوقيع ، غير مؤرخة ، يجب أن يكون عليها طابع هنا بقيمة بيسوين ، طابع مالي ، نعم ، ياسيد ، وهذه الصورة بقدر مايمكن أن تكون صورتك يمكن أن تكون صورة الأسقف ، هذا التوقيع غير مذيل ، لم أذيل توقيعي قط ، لست بحاجة لذلك . لاياسيد ، كيف يخطر لك ذلك ! ان توقيعاً بلا تذييل مثل تركي بلاشارب ها ، ها ، ها . أعطني وثيقة لأعطيك أخرى . واحداً واحداً . أنّ المصباح فانهمر وابل من القطع البلورية على الأرض ، والرجل ، الرجل المربوع ، جسداً ووجهاً ويدين عبر مسرعاً فلفح وجهي بالهواء المخلخل ونظر إلي نظرة شزر تفحصتني من الأعلى إلى الأسفل .

— ليمت !

التفت بشعور من يعارك ليخرج من مستنقع من الوثائق والبواخر التي تبحر نحو درجة العرض صفر ؛ سأكتب لك من بانما أو من أليوكون ؛ مصباح آخر ، كان هذه المرة أبيض ومحصوراً ، انفجر وتلاشى ، شظايا من بلور مزركش بدت كأنها تضحك وهي تتفرقع فوق خطوط الحافلة الكهربائية . ظهر رجل آخر وآخر وآخر واختفوا ، صرخوا ونزلت ستارة معدنية بسرعة كبيرة ودوي هائل . ماذا حدث ؟ لقد

رحل صديقي ، الذي كان عنده كل شيء كما يريد الموظفون ، أصحاب الوجوه الأرشيفية ؛ العمر والجنس والعنوان والجنسية ، كان موثقاً بكامله . أتريدني أن أحضر لك والدي أيضاً ؟ وجدت انني مضطر أن أدور بجسدي من جديد : كان يحدث خلفي لغط شديد ، يشتعل وينطفيء ورجال آخرون وآخرون وآخرون يتدفقون من مفارق الشوارع ويختفون فيها .

— ليمت !

ليمت من ؟ هل الوثيقة : عشرات الستائر والأبواب أغلقت بعنف . كنت أعمل ، لكن عملي لايكفيني ، أريد أن أسافر والعمل يمنعني . أعـ ل وأسافر ، لاأعمل وأبقى . أريد أن أختار قدري وأن أرفض مايفرضونه علي . حسناً ، إلى أين تريد الذهاب ؟ لاأدري : إلى الشمال ، إلى الجنوب ، فهنا لايوجد إلا جهتان أصليتان ؛ باناما ، غواياكيل ، كاياو ، لاغوايارا ، أريكيبا ، هونولولو ، أسماء رائعة كأسماء الأشجار والنساء السمراوات . تلك هي المرة الأولى التي أكون فيها إلى جانب البحر وأشعر أنه يناديني ويبدولي ان السفر فيه غاية في السهولة : ليس فيه طرق ، — انه بحد ذاته طريق كبيرة — لا حجارة فيه ولا جبال ولاقطارات ولاسيارات وربما أيضاً لايوجد فيه سائقون ولاموظفون ولابلاعو وثائق لكن يوجد اتساع ، وحشة ، حرية ، وفضاء ، البعض

يحبون هذا الفضاء وآخرون ذاك ، كم فضاء يوجد ؟ لم أتمكن من موا صلة تطوافي : عشرون ، ثلاثون ، خمسون رجلاً يحيطون بي ، يصرخون ويومئون ، رجال من كل الأنواع والحجوم والظروف : سمر ،قصار ، طوال ، شقر ، ممشوقو القامة،شاحبون ، ذوو وجوه مستديرة أو شاذة وأنوف من شمع أحمر قاس أو طري ، وشوارب متيبسة أو متجعدة أو ذبيبة وجباه ضيقة ، مثل جباه القردة ، أو عالية كالصخور . ماذا يريدون مني ؟ يكفيني ما أعاني من الوثائق وغياب صديقي . يتحركون بقلق ، ينحنون فيلتقطون أشياء هي بالنتيجة حجارة أو قطع من بلاط أو أسفلت ، لاشك أنه ليس شخصي هو الذي يجمعهم حولي وانه لاعلاقة لهم بي ، لأنني لا أعرفهم . المصادفة ، المصادفة الميكانيكية وحدها هي التي جمعتهم حولي ، ليكن مايكون ، فان لم يكن شخصي هو بؤرة الجاذبية ولاشخص آخر ، فلا بد انه يوجد باعث ، مهما يكن ، وراء اجتماعهم . يختفون ثم يعودون ثم يذهبون فجأة بدافع قوة مجهولة ، تسمع خطواتهم وقرقعة أحذيتهم على الأرصفة وصيحات وأصوات وعبارات وضحكات . أعود وأبقى وحيداً ، لكنني لاأستطيع أن أرجع إلى الوثائق ولا إلى البواخر ولا إلى البحر . يجب أن أبقى بين الرجال : سأكتب لك من سان فرانسيسكو أو من هيدسون ، آه ، وداعاً ، ياصديقي البعيد .

يبتعد الرجال من جديد ومع ابتعادهم رحت أسمع صياحاتهم بشكل أفضل وأستوعب مايعبرون عنه : هناك تمرد ، لماذا ؟ لاأستطيع أن أستقصي الأمر ، ففي أذني تتزاحم جلبة عشرة ، ثلاثين،خمسين أو مئة جواد تخب على حجارة الأرصفة أو اسفلت شارع قريب ؛ وتذكرني بوقع قطرات مطر كبيرة على سطح من التوتياء . ترى من أية جهة يأتون ؟ هل هو الجيش ؟ هل هي الشرطة ؟ أحسست أنني فقدت ثقلي وخلا رأسي من الأحلام والذكريات حتى أصبح مثل ورقة بيضاء ، لاشك أن لوني قد شحب . نظرت إلى الرجال : كانوا يتراجعون مبتعدين وينظرون إلى المكان الذي كنت أقف فيه وحيداً بملاصقة جدار دهن بالأبيض . تفكرت : ماذا علي أن أفعل هنا ، وماذا يهمني مايمكن أن يحدث ، ؟ فأنا أجنبي ، رغم أنه ليس بحوزتي وثائق ، لم أتعرض لأحد ، لم أفعل شيئاً وقضاياي لاعلاقة لها بقضايا هؤلاء الرجال ولا بقضايا هذه المدينة ، ومع ذلك اقتربت من الجدار وأسندت اليه ظهري وكذلك يدي ، وكأن كل ذلك لم يمنحني شعوراً بالاطمئنان والجسارة ، الشيء الذي كنت أبحث عنه ، فثبت قدماً ومددت أخرى حانياً ركبتها وبقيت على هذه الحال .

ــ اركض أيها الرفيق ، انهم قادمون !

أنا ؟ نعم أنا : رجل مجهول ، ناحل ، يرتدي ثياباً قاتمة ، بأسارير

لم أتبينها جيداً ، يصرخ ويومىء بيديه بعنف بينما يناديني . انه أمر يغيظني : لماذا يريدون أن أنضم إليهم ولماذا سأتدخل في قضايا غريبة عني . كل أملي كان معلقاً وبشكل لاشعوري إلى انني أجنبي وليس لي أية مصلحة في تلك المدينة،رغم انني كنت أعلم مايمكن أن ينتظرني من رجال الشرطة والجيش وأنا على تلك الحالة من الثياب الرثة .

إنه شارع عريض ، جادة ذات اتجاهين ، فيها أشجار قصيرة ، كأسية الشكل على الرصيفين . بدأ الظلام يهبط . ظهرت الشرطة في الزاوية وملأت الخيول ، التي كانت تسير في رتل ثنائي أو ثلاثي ، الشارع ،وتقدمت باتجاه الناس حيث كنت . كانت معادن الأسرجة والملابس الموحدة والسيوف والرماح ذات البيارق الخضراء تلمع . انه موكب رائع لعرض وطني ، لاشيء مثير لمن كان يستند إلى الجدار ، فهو يعرف انه رث الثياب ويشعر بنفسه أجنبياً في شوارع مدينة متمردة . تقدمت صدور الخيل مثل موجة سوداء ، لاأحد كان يستطيع أن يمر من بينها حتى ولوكان ساحراً . ويعود الرجل المجهول فيصرخ :

ـ اركض ، ياأحمق !

لاأعرفه ولايعرفني ، ولايعلم ان كنت أجنبياً أو من أبناء بلده ، تركياً أو أورغوائياً ، تشيلياً أو تاهيتياً ، فقط كان يرى فيّ رجلاً

وحيداً يقف في مواجهة خبب طويل لما يقارب خمسين جواداً عسكرياً .
لم أستطع الهرب ، لكن ماأن صارت الحيوانات على بعد يقارب الثلاثين خطوة وتضخم ضجيج حدواتها وقرقعة المعادن وأصبح غير محتمل وما أن نظرت إلى موكب الجياد ورأيت الوجوه تحت القبعات العسكرية والأيدي الصغيرة السوداء على قبضات السيوف والرماح حتى تنبهت إلى أنه لاأمل من بقائي هناك ولافائدة من كوني أجنبياً أو من أبناء البلد ولامن امتلاك الوثيقة أو عدمه . وبشكل لاشعوري أسندت ظهري وكذلك يدي وقدمي إلى الجدار واندفعت إلى الأمام بعنف وقفزت أكاد ألامس الأرض بينما رحت أنظر شزراً إلى كتيبة الخيالة ، كان أحد رجال الشرطة يتقدم باتجاهي مباشرة وبدا لي أنني أرى يده تبحث عن الوضعية الملائمة على الرمح . أصبح على مسافة قصيرة جداً مني فارتبت خلال ثانية من قدرتي على الهرب . ولولم يحدث ماهو غير متوقع ولوشاءت ضربة الرمح أن تجرحني بالسنان أو بالقناة وأرادت أن تكون باسلة لقبرتني من رأسي في الأرض . درت في الهواء.ورحت أجري في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها الرجال يجرون ، بعد أن كانوا أحاطوا بي قبل لحظات وابتعدوا ليجتمعوا هناك بعيداً ، وكأنهم انتظروا مبادرتي . صرخ الرجل الضامر الأسمر من جديد بقوة متحدياً ومشجعاً :

ـ مرحى ، أيها الرفيق .

اجتزت مدخل شارع جارياً بسرعة كبيرة ومنهمكاً بذلك حتى انه لم يكن لدي متسع من الوقت لأن أفكر إن كان باستطاعتي أن أنعطف هناك وأختبىء في احدى الزوايا : لقد أضعت فرصة . حالفني الحظ عندما عبرت المنعطف ، فقد تأخر الجواد عني نتيجة لتغيير الرصيف والانتقال من الاسفلت إلى البلاط الحجري ، فخب الشرطي بالجواد لكي يتلافى التأخر فعوّض جزءاً من المسافة المضاعفة ، المسافة نعم المسافة التي يحبها البعض ويكرهها آخرون . لم أكن أعرف كم متراً أو خطوة بيني وبين الجواد ؛ لكنني كنت أقدرها بوقع الحدوات ، التي انعزلت وصوتت لي وحدي . كنت أجري وكأن الرجل الضامر لايرفع عينه عني . ربما كان يخاف علي . كان خلاصي يتوقف على وصولي الزاوية المجاورة والانعطاف فيها ، الشيء الذي كان علي أن أفعله عند العطفة الأولى . اختفت مجموعة الرجال فجأة على بعد خطوات مني وكأن قوة شارقة كبيرة قد امتصتهم . ماذا هناك ؟ لاحظت أن الرجل الذي كان يصرخ لم يختف مع الآخرين ، بل بقي في تلك النقطة ينظر إلى السباق بين الفتى والجواد .

ـ اركض ، أيها الرفيق ـ صاح من جديد بقنوط ثم بغضب ـ لاتأكله ، أيها الكلب !

يبدو أن الرمح أصبح على بعد سنتيمترات قليلة من رأسي . هل يمكن أن أسقط في هذا المكان وبجرح قاتل ، بعيداً عن حبي وأخوتي وأبي كل هذه الفراسخ ؟ بذلت جهداً أكبر في الجري وهو آخر ما يمكن أن أطالب به قلبي وساقي ، وفي لحظة كنت إلى جانب الرجل الذي أخذني برشاقة وجذبني اليه بقوة ، لم أملك الوقت الكافي لأدور فتدحرجت والرجل على الأرض ونظرت إلى الخلف فرأيت الرمح وحزام السلاح ثم وفي الحال رأيت أيضاً الجواد والفارس الذي كان ينظر شزراً إلى الفريسة التي راحت تفلت منه . كيف أستطيع النجاة ؟ نهضت ونفضت ثيابي . كنت ألهث . نظرت حولي : كنا في ممر ضيق عال يصل طوله إلى خمسة عشر متراً مسور بسياج دهن باللون الأصفر وينتهي بأفريز : انه نزل « لاترويا » . هل كان باستطاعتنا أن نبقى في ذلك المكان ؟ كان رجال المجموعة ينظرون إليّ بود وفضول .

ـ لن نبقى هنا ـ صاح الرجل المجهول ـ اذا داروا الدورة يسدون علينا المخرج ! هيا .

عاودنا الجري وكنا قرابة ثلاثين شخصاً ، درنا أمام السور وتدفقنا إلى فناء النزل الذي يؤدي من شارع إلى آخر . أحدثنا جلبة بالجري إضافة إلى صراخ الرجال . فتح بعض الجيران أبوابهم ونوافذهم :

صياح : ماذا حدث ؟

ـ يريدون أن يرفعوا العدد إلى عشرين ! ليموتوا !

كنت وحتّى ساعة متقدمة من المساء ماأزال أجهل الموضوع والشيء الذي يريدون أن يرفعوا عدده إلى عشرين ومن هم الذين يجب أن يموتوا ، على كل حال لم أكن في تلك اللحظة لأهتم بالاستقصاء عن شيء : الشيء الذي كان يشغلني وأريد أن أتأكد منه هو أن تكون أرتال الجياد قد تابعت عدوها بالشرطة واختفت مع الرماح والسيوف . انضم إلينا بعض الجيران وكنت أراقب رفاقي وأنا أجري : لوحكمت عليهم من ثيابهم لقلت إنهم عمال ، كانوا يتصببون عرقاً ويلهثون رغم انهم غير تعبين . بدأ العراك ، والرجل الضامر الأسمر يجري إلى جانبي ، قال لي :

ـ هل خفت ؟

هززت كتفيّ وابتسمت متبجحاً :

ـ مم ؟

قام بإيماءة غير واضحة .

ـ ظننت أن الشرطي سيدركك وبدا لي انني رأيتك تسقط برأسك على الأرض ! لماذا لم تركض ؟

كررت الايماءة السابقة ذاتها : لم يكن بمقدوري أن أوضح له لماذا لم أهرب منذ البداية ولماذا هربت فيما بعد ، كنت خارج وعيي تماماً كما كان خارج وعيي الجري إلى جانبه . وصلت طليعة المجموعة إلى طرف الفنـــاء فتوقف الرجـــال على الرصيف وصرخوا وهم يرفعون أذرعتهم ويشدون على قبضاتهم : ليمت جلادو الشعب !

أنّ المصباحُ وسقط مثل رجل يتلقى لكمة في معدته ، مثل تقيؤ، مثل مطر من بلور ورافقه مصباح آخر مجاور .

ـ حذار ، انهم قادمون !

ماأن وصلنا إلى الباب حتّى بدأت الشرطة حملتها الجديدة مما جعلنا نتابع جرينا . تراني أقضي اليوم كله على هذه الحال . دخلت تشيلي في عربة وأنا أرقص بين الحيوانات ، ألا يكفي هذا ؟ ومع ذلك ركضت ببطء ، لأنه كان عندي متسع من الوقت كي ألتقط أنفاسي وأصل إلى أول زاوية وأنعطف باتجاه الجادة ، حيث باغتتني العاصفة وتفرقت المجموعة . كانت الشوارع التي تصب عمودية على البحر مقفرة وكأنها شوارع مدينة أخرى لاشوارع تلك،ولاشك أن سبب ذلك هو خلوها من المتاجر ، أو ندرتها . ومع ذلك فالمصابيح التي حافظت

على بلورها كانت قليلة ، بينما كانت الشوارع الموازية للبحر مزدحمة بالناس ، خاصة الجادة التي وصلتها ، حيث يتأجج لهيب العنف ويبلغ ذروته ، لم يعد عدد الرجال خمسين بل صار خمسمئة أو ألف وخمسمئة ملؤوا الفناء الذي فاجأتني فيه خيول الشرطة ، لاأحد كان يعرف من أية رابية أو عبر أي زقاق أو أي فج هبطوا ، هل من ليتشيروس أم من كالاغوالا ، من لاس بيوليتاس أم من لاكارثيل ، من البارون أو من لاكابريتيريا أو ربما انبثقوا من الحوانيت ، من السد ، من البواخر ، والزوارق وكان بعضهم مايزال يحمل كيس فحمه أو حطبه وآخرون يرتدون بنطالات لاتستر نصف سيقانهم وتظهر تحتها سراويلهم الداخلية البيضاء وهناك من كان حافياً في حين تزاحم قرابة المئة منهم حول الحافلات الكهربائية ، التي حطموها سنتميتراً بسنتميتر : حطموا الزجاج أولاً وكان يتحول تحت وطأة الأقدام إلى نوع من المسحوق المتلألىء ثم المقاعد فأطر النوافذ ، فالمصابيح ، لكن الحافلة أسير صلب ، خاصة منها تلك الحافلات الحديدية ، العالية ذات الحاملات المصنوعة من الصفيح الثخين والأنابيب المدهونة بلون ترابي ، والذي لاأدري لماذا تمنح إحساساً بالصلابة ، ولم يتبق منها الا مايمكن لنفخة أوكسيدريكية أو لمطرقة آلية أن تحطمه . كان

الجمهور يتمايل مثل موجة ويتحرك بعصبية بوجوهه وأجساده وأرجله وأذرعته .

ـ لنقلبها !

تلقوا الفكرة بزئير من الموافقة لأنه لم يكن من الممكن حرقها وراح الناس ، ليس كل الناس ، بل القريبون منها واستطاعوا الوصول اليها ، لأن المكان لم يكن يتسعهم ، يبصقون في أيديهم ويشمرون عن زنودهم ويأخذون أماكنهم إلى جانبها . دفعوها محذّرين :

ـ حذار ، انقلبت !

ساد صمت والحافلة لم تتحرك فقد كانت ثقيلة ، جاسئة . سمعت بعض الضحكات ، ثم :

ـ هيا !

تنطّح أحدهم لقيادة العملية وراح صوته يدوي وكأن الأمر يتعلق بعمل عادي ، وشيئاً فشيئاً تناهى إلى المسامع صرير لاقى ترحيباً من أولئك الرجال الذين كانوا يدفعونها فمالت الآلة الثقيلة قليلاً ، لكن بشكل غير كاف واحتفوا بهذه النتيجة الأولية بهتافات :

ـ هيّا ، مرة أخرى .

دوى الصوت الآمر وكانت نبرته مقنعة يصعب معها التهرب من الدعوة . لماذا يقف الانسان هناك ويداه في جيبه أو خلف ظهره ولايساهم في الجهد المشترك ؟

ـ هيا !

ذكرني بأيام خالية كانت مليئة بالعمل الشاق وشعرت لثوان أنني لاأستطيع التملص من سحر الصوت :

ـ الآن ، هيه ، أيها الشباب !

دوى الصوت مثل صوت الماتشيته أو أنطونيو أو التشوابينو . انه الصوت نفسه الذي طالما دوى ، انه الصوت الذي بنى الاهرامات وأشاد الكاتدرائيات وفتح الأقنية الواصلة بين المحيطات واخترق سلاسل الجبال . اهتزت الحافلة ومالت وبدا للحظة انها أزعنت للدفع ، ومع ذلك فانها لم تقلب ، رغم انها خرجت عن الخط ، سمعت همهمة عندما عادت إلى وضعها الطبيعي وعاد الصوت ليطفو من جديد :

ـ مرة أخرى ! . . .

لم يعد الصوت صوت قيادة ، كصوت رقيب أو عريف بل صوت دعوة مفعم بالحزم والثقة ، الحقيقة انه لم يبق متسع لأحد حول الحافلة والبعض لم يكن يستطيع أن يدفع إلا بذراع واحدة . مئات العيون كانت ترقب ومثلها من الأصوات كان يصيح :

ـ دفعة أخرى وتسقط ! . . .

ماأن مالت الحافلة حتى راح الصخب يرتفع وكان قد بدأ بأصوات متفرقة مدوية ومحرضة ، لكن سرعان ماانضمت اليها صيحات اعجاب أخرى شَكَّلَتْ بمجموعها أخيراً عموداً كان يصل ذروته حين كانت الحافلة ، الوحشية ، غير المبالية بقدرها ، تذعن للدفع وتتراجع خمس ، عشر أو خمس عشرة درجة ، دفعات أخرى وتسقط . وسقطت أخيراً فقفز الرجال إلى الخلف أو إلى الجوانب خشية أن تنفجر بفعل الصدمة وتجرحهم بزجاجها أو حديدها أو بالشظايا التي تتناثر منها ، لكن شيئاً لم ينفجر وأحداً لم ينجرح . غريب أن يرى المرء حافلة من أسفلها : فالعجلات الثقيلة، العجلات التي سحقت وتسحق وستسحق أرجلاً وأذرعة وأعمدة فقرية كثيرة ، حديد مليء بالشحم والتراب ونوابض ثخينة ، كأنها تتصب عرقـــاً ، ونسيج عناكب وقطع ورق ملونة ، وفراشات ليلية .

ماأن استقرت الحافلة حتى فقد الناس الاهتمام بها وتوجهوا إلى أخرى تنتظر مصيرها بمصابيحها المطفأة ونوافذها وزجاجها الذي صار مسحوقاً ، وظهرت الشرطة أو عادت من جديد ، ذلك أن أحداً لايعرف متى تكون هي نفسها ولامتى تكون أخرى ، فهي دائماً نفسها ، ودائماً خضراء ، غبراء ، أو زرقاء ـ لكن الناس لم يهربوا ، لأن الأمر

لم يعد يتعلق بعشرين أو خمسين رجلاً وانما بالمئات منهم ، واذا كان الرجال قد هربوا عندما كانوا قلة فان الشرطة لم تشن بدورها حملتها عندما لاحظت عدد المواجهين لها . فتقدمت ببطء واصطفت على حافة الشارع بشكل كانت فيه أرداف الجياد باتجاه الرصيف ، واتخذت الحشود التي سكنت فجأة ، رغم انها بقيت متحفزة ، مواقعها دون أن ترفع نظرها عن الجياد والرماح والسيوف . ودوت فجأت الأصوات العالية :

– كأنهم جياع !

– جميعهم لهم وجوه كلاب !

– والضابط ماذا ؟ انظروا ، ان له وجه سيف .

فعلاً لقد كان للضابط وجه طويل وحاد . بدا مضطرباً وكذلك جواده الأسود الطويل بدا أكثر اضطراباً منه وكان يتحرك بقلق ، يطأطيء رأسه تارة وأخرى يرفعه .

– ماذا ينتظرون ؟

– لماذا لايشن هؤلاء الكلاب حملتهم ؟ لهذا الغرض يدفعون لهم !

اشتعلت ، في تلك اللحظة ، أنوار التلال فبدت المدينة أكثر اتساعاً وتتسلق السفوح بأغصانها أنوارها .

ـــ هيا بنا ! ولنترك هؤلاء التعساء وحيدين .

ان كلمة استفزاز وُجِّهَتْ للشرطة آلتني بشكل غريب . كنت أشعر انها تصفع وجوههم بقسوة وانه مع كل كلمة يوجهها لهم الجمهور يرفون أجفانهم . بدا لي انه يجب ألا يشتموا ولايستفزوا ، كما شعرت بنفسي مسؤولاً إلى حد ما عن تلك الكلمات لأنني موجود بين الذين يصرخون بها . حقاً انني وجدت نفسي مضطراً لأن أجرى مثل أرنب أمام موكب الجياد دونما سبب ، دون أن أعرف لماذا ، لذلك فان عدم الوعي عند الشرطة والجياد بدا لي حتمياً ، ومن هنا فهو مبرر ، بينما كان الصراع طوعياً وارادياً . في داخلي صوت كان يسأل لماذا تستطيع الشرطة أن تقتل من تشاء بينما لايستطيع الجمهور أن يصرخ حين يريد ، لاأعرف بماذا أجيب وأحرص على ألا أجبر أحداً على السكوت : فأنا لاأريد أن أتلقى ضربة عصا على رأسي أو لكمة على أنفي ، وهكذا تتابعت الصراخات والكلمات البذيئة والاستهزاءات. ورغم انني خفت أن يؤدي الاستفزاز إلى رد فعل عند الشرطة فان ذلك لم يحدث وكأن الضابط وقواته لم يسمعوا شيئاً . استمروا هناك ، بعضهم شاحب اللون وآخرون مترددون والبقية كأنهم غير مبالين ، كانوا أشبه بالآلات والمعدات وأدوات الاستعمال وأقل شبهاً بالانسان . كانت قمصان العمال تلمع في الظلمة وفي الجو شيء متأزم يهدد ،

بين لحظة وأخرى بالانفجار ، لكن شيئاً لم يتفجر وبدأت الحشود تتفرق إلى مجموعات مضت في هذا الشارع وذاك ، لأنه ليس لديهم مايفعلونه ، والشرطة بقيت في مكانها ، اذ لم تكن تستطيع أن تلاحق كل مجموعة بمجموعتها وليس هناك مجموعة أهم من الأخرى ، وراح الناس يودع بعضهم بعضاً :

ــ لاتدعوا الضجر يتملككم !

ــ مساكين ، لقد بقوا وحدهم .

ــ انظروا أي وجه لهم !

لم تنته المغامرة عند هذا الحد : فالتمرد كان يغلي في كامل القسم السفلي من المدينة ، باستثناء المركز ، حيث المصارف ودور الصحف والمراكز التجارية الكبيرة . وقد رجمت الحشود مخازن المأكولات في بعض الأماكن مفضلة مخازن المنطقة الواسعة من المدينة وتلك الموجودة على سفوح الهضاب . حقاً انه لاعلاقة للمخازن برفع تسعيرة الحافلات ، لكن الكثير من الرجال استغلوا المناسبة ليبدوا كرههم للذين يستغلون فقرهم شهوراً وسنين ويعيشون منه ، يسرقونهم ، بالوزن والسعر والنوعية ؛ ان دناءة البعض وبذاءة البعض الآخر واستهتار الجميع ، أو الجميع إلا قليلاً ، التي تسببت بحروق وجراح وتحد وكراهية

طوال أيام البؤس الحزينة والطويلة ، عادت إلى الذاكرة من جديد ؛ ومخازن كثيرة سرقت بضائعها إضافة إلى أنها رجمت بالحجارة ، تلك البضائع التي كانت موضوعة قرب الأبواب كالبطاطا والفاصولياء والخضراوات وكل ما له فائدة كالمكانس والقدور المعلقة وتطالها الأيدي ؛ وقعت عدة حوادث وأطلق بعض التجار النار من أسلحتهم وجرحوا بها المارة أو المتفرجين وهذا مازاد من سعير الجماهير . سقط بعض الجرحى وراحت صفارات سيارات الاسعاف تعوي في الشوارع .

هبط الليل فهمت على وجهي من هنا إلى هناك، مرة ألحق بهذه المجموعة وأخرى بتلك . كنت أتسلى. لم أهتف ولم أرجم ، ومع أن الهتافات والرجم كانت تضايقني لم أعزم على الرحيل . سأكتب اليك من . . . كنت قد نسيت صديقي والباخرة . الصيادلة كأنهم شفافون خلف طاولاتهم الهشة ، تحيط بهم زجاجات كبيرة وصغيرة تحتوي على سوائل مختلفة الألوان ومرايا وخزائن زجاجية ، ينظرون إلى الخارج ، إلى الشارع بفضول وذهول وكأنهم يريدون أن يظهروا للناس أن لاعلاقة لهم بما يحدث وخاصة بمؤسسات الحافلات ومخازن الأغذية : انهم يبيعون الأدوية ، بذلك فهم يحسنون للناس ويساهمون في تخفيف آلامهم لاشك أنهم غير مرتاحي الضمير ، لأنه حتى الأموات من التجار غير مرتاحي الضمير ، لكن الجماهير والاشخاص الذين تتكون منهم :

العمال والمياومون والمستخدمون والباعة المتجولون ، الذين بدأ يظهر بينهم مجرمون ، كانوا يشعرون أن الصيدلية ليست حاجة ملحة لكل يوم ولحظة ، كالمخازن وحوانيت الخضار . لاأحد يدخل صيدلية ويستدين منها قنينة دواء للسعال أو مقو للوهن والصيدلاني لايزن بشكل عام الشيء الذي يبيعه — على الأقل لايقوم بذلك على مرأى من الجمهور — وبالنتيجة فهو ظاهرياً لايسرق ولايبدو فقير النفس ، واذا كان هناك من لايملك مايشتري به دواء لصدره ، أو مقوياً فباستطاعته أن يبقى يسعل ويضمر أو أن يلجأ إلى العلاجات البيتية ، فهي أرخص دائماً ، كما انه لايخطر لأحد أن يسرق علبة مسحوق أرز أو فرشاة للأسنان ، بينما لاأحد يستطيع أن يستغني عن الخبز والسكر والبقول والبطاطا والقهوة والشاي والزبدة لأنه ليس هناك ولن يكون ابداً منتجات بيتية أو غير بيتية تحل محلها . ان سيدة البيت ، أو زوجة العامل العاطل عن العمل أو الذي يتقاضى مرتباً ضحلاً أو مرتب مريض ستلجأ إلى كل الوسائل : ستبيع الحذاء والثياب أو ترهن الفراش ، تستدين إلى أن تحل اللحظة المأساوية والمخجلة التي يقتصر فيها أملها الوحيد والضعيف —ويا له من أمل — على التاجر والذي هو أكثر من تاجر ، انه ذلك الرجل وقلب ذلك الرجل ، الذي اشترت منه أعواماً ويبدو في قميصه لطيفاً ، طيباً ، يتكلم أسبانية مشوبة بالايطالية أو متقنة اللفظ ، ولا يضع وزرة وأحياناً

في قميص الفانيلا فقط والبنطال البالي ينتظر المشترين خلف طاولته التي ثبت عليها قطعة أو قطعتين أو ثلاث قطع نقدية مزورة ويعرف أن عليه أن يبيع ، أن يبيع فقط ، لأن البيع هو أساس التجارة ، الدين ممنوع تماماً : اليوم نقداً وغداً ديناً .

— لكنك مدينة لي بسبعة بيسوات .

— صحيح ، ياسيد خوان ، ولكن اصبرني ، فزوجي عاطل عن العمل .

— انه بلا عمل منذ زمن طويل .

— أنت تعرف أن المدابغ مغلقة .

— ولماذا لايبحث عن عمل آخر ؟

— بحث كثيراً ، لكن البطالة متفاقمة بسبب الأزمة . . .

— لاتنقصه النقود للنبيذ .

— أي نبيذ ! . . . نحن لم نذق طعاماً منذ البارحة . ليس معنا مايكفي لتناول كأس من الشاي . وتتوج الأمر بمرض أحد الأولاد .

— آسف ، لاأستطيع أن أبيعك بالدين ، فحسابك عندي كبير .

ينظر صاحب المتجر وقد أمال عنقه المنتصب والقاسي إلى جهة أخرى واعتراه حياء داخلي ، لكن ماذا سيحل به اذا استمر يبيع العالم

كله .بالدين ؟ يجب أن يعيش أيضاً وتخرج المرأة بسلتها الممزقة وفستانها البالي ، مستحية خافضة الرأس ، أما الرجل الذي ينتظر في غرفة النزل عودة زوجته ليأكل شيئاً ، حتى ولو كان كسرة من الخبز ، فيشعر ان الحقد يزداد حتى يصل درجة الجريمة .

ـ سيحصد هذا الو . . . . مازرعه ، ذات يوم .

أحياناً يصل ذلك اليوم وكان هذا اليوم واحداً منها . كان الصيادلة الذين تعلوهم وزراتهم الأنيقة وحولهم الزجاج ، كأنهم داخل زجاجة ، مجردين ، فقدوا انسانيتهم ؛ لم يغلقوا محلاتهم ، كما فعل معظم التجار بل انتظروا ، رغم مظهرهم المزيف أن يحصلوا على بعض النفع من ذلك التمرد : أوَلَنْ يعطي جريحاً ، أو من أصيب برضة أو بانهيار عصبي . لدينا فاليريانا ، برومو ، شاش ، قطن ، ضمادات . أغلق أصحاب حوانيت الخضار والفاكهة واللحم والخبز في الوقت نفسه الذي أغلق فيه أصحاب المخازن وبقية المتاجر محلاتهم وحتى أولئك الذين لايخافون تمرد الشارع ولاينتظرون منه شيئاً ، كما هو الحال بالنسبة لمحلات الأسرجة والاكشاك الخشبية أو الحديدية . من سيذهب في تلك اللحظات ليشتري سرجاً أو دعامة أو من يستطيع أن يفكر بسرقتها : لقد أغلقوا محلاتهم أيضاً اغلاقاً محكماً ، ومع تقدم الليل كانت تندر وتندر المحلات التجارية المفتوحة ، وكانت تلك هي المحلات الصغيرة ،

التي لاتسمح مساحتها بوجود غير صاحب المحل وبضاعته الزهيدة ومتاجر أخرى نصفها ورشة ونصفها الآخر للتجارة حيث تباع المواسير وأكياس الاسمنت ومكاوي التوتياء ، أي جميع المواد التي لاتؤكل ولاتنقل بسهولة ، ومدافىء ومطابخ قديمة ومدافىء صلحت بصعوبة ، ويندر أن تحتوي على المأكولات . كانت تظهر معزولة تزهو وسط الظلمة التي زرعتها الحجارة القاسية في الشوارع .

تشكلت مجموعات قوامها أفراد يبدو عليهم وكأنهم خرجوا من مجاري التصريف — يمكن لبعضهم أن يؤخذوا على أنهم جرذان عملاقة— فهم ملتحون ويرتدون الأسمال ، عيونهم برّاقة ، مفعمون بالحيوية ، قلقون ، لم يصرخوا ، لم يكسّروا المصابيح ويظهر أنهم لايكنون الكراهية ولا الحب لأحد ، لكنهم يستولون على كل ماكانت تصله أيديهم بسرعة مذهلة ، شبه حيوانية ويتحرّكون حول المتاجر المفتوحة ، خاصة متاجر الأقمشة وبيوتات الرهن حيث يقف أصحابها والعاملون فيها ، ومعظمهم من الإسبان المتفائلين مثل الصيادلة ، وأيديهم خلف ظهورهم يضغطون بها على أمتار خشبية قاسية . وقعت صدامات بين المجموعات ، وظهر في واحدة منها الرجل المربوع ، المربوع الجسد واليدين والوجه ، ذلك الرجل البدين المخيف ، الذي كأنه خلق من دعامة غليظة واحدة ، بعدة عقد مكتنزة ، وكان يترأس ثلة من العمال

دخلوا في عراك مع ثلة أخرى جاءت من تحت الأرض تنهب حانوت تبغ تديره امرأة . صاح الرجل صوتاً هيمن على الضجة :

ـ لا يارفاق ، نحن لسنا لصوصاً ، دعوا هذا في مكانه !

راحت المرأة تطلق الصرخات .

هرب بعض رجال المجارير وبقي بعضهم الآخر ، الأهدأ ، في مكانه .

ـ ماذا حدث ؟ ـ سأل أحدهم ببرودة .

كانت لحيته طويلة ووسخة وثيابه ممزّقة ، لامعة ، يعكس في النفس صورة سكين مثلومة ، يعلوها الصدأ أو الشحم لكنها خطرة . اقترب منه الرجل الذي يبدو عليه مظهر آلة نجارة وصرخ به بانفعال شديد حتى كاد يضربه بقبضته على صدره :

ـ ماذا حدث ؟ نحن لن نسرق ، ولاعمل للصوص هنا !

رفّ الرجل ـ السكين أهدابه ولزم مكانه ثم عاد وسأل ببرودته المعتادة :

ـ وماعلاقتك أنت ؟ هل أنت شرطي ؟

بدأ الناس يتجمهرون وعاد الرجال ـ الجرذان ، الذين هربوا ، وأحاطوا بزميلهم وتقابلت الثلتان وجهاً لوجه .

قال الرجل — المطرقة :

— لست شرطياً ، لكنني لا أرضى أن يلقوا على كاهلنا تبعة مايفعله بعض الوقحين من أمثالك . نحن شغيلة ولسنا نشالين ، هل تفهم ؟

شعرت بتقدير كبير تجاه الرجل المربوع فاقتربت من ثلته ، لأنني لو حمل رجل المجارير حانوت التبغ بالبائعة وبكل مافيه ماكنت لأجرؤ على أن أنبس بكلمة واحدة . إن كلمة منه ونظرة من عينيه البرّاقتين كفيلة بحملي على الهرب . لكن الرجل — المطرقة كان يعرفهم ولايخافهم ، بل وأكثر من ذلك يحتقرهم . لم يكن الرجل — السكين يميّز بين الشغيل والنشال ، لذلك لم تترك الشتيمة أي أثر عنده — ربما لايوجد في العالم شتيمة تؤثر به — تابع التحديق بالرجل — آلة النجار . كان الأول مربوعاً قاسياً وكان الثاني هزيلاً ، سريع الانزلاق ، يتسعه المكان الذي لايتسع للآخر والذي يستطيع أن يرمي أرضاً ما لايستطيع الآخر أن يسنده .

وتكلّم أخيراً :

— وماذا في ذلك ؟

لم يكن جواباً بل تحدياً :

— لم يعملوا قط عند أحد ويسرقون كل من يستطيعون ، أنهم يسرقون الفقراء في نزولهم والسكارى والمسنين والصغار . ليسوا لصوصاً وإنما نشّالون قذرون .

كان صوت الرجل المربوع ، الضخم والقوي يسري في الرجل الآخر من أعلاه إلى أسفله ، عبر الرقع والمزق والشحم والفلذ ؛ لم يجبه ، لاشك أنه لايملك شرط النقاش ومع ذلك لم يكن ليستطيع أن يجيب بمنطق أكبر ولا أصغر ولا بكلمات أفضل أو أقل فضلاً ، على وابل كلمات الرجل — المطرقة ، الذي لم يبد عليه أنه خاف الدخول في نقاش العمل أو السرقة أو العمل ورأس المال . أما الرجل — الحاد والمثلوم فردّ فعله أمام حالات كهذه اثنان : الأول استفهام أو جواب : ماذا حدث ؟ ولا أريد ! والثاني مسبّة ثم حتماً المرحلة العضلية ، طعنة سكين ،ضربة بقبضته ، لكنه لم يكن في تلك الليلة بين أناس يؤخذون على حين غرّة : فالرجل المربوع يعرف مع من يتعامل ولا يسمح له بأن يباغته — . إذ لو قام الرجل — الحرذون بأية حركة مريبة لانقضّ عليه وذبحه ؛ لكن البروليتاري لايعرف من أين تأتيه الضربة ، فقد تأتيه من كلّ الجهات . وقف نشال ، لم ينتبه إليه أحد ، إلى جانب الرجل المربوع ثم قفز فلمع شيء في الهواء وسقط على رأسه وأصابه . ناسَ الرجلُ على أثرها دون أن يسقط . في اللحظة نفسها ، التي بدأ النشال والآخرون انسحابهم أدركه أحد العمال بضربة عصا على عظم جدار جمجمته الأيمن ، فسمع صوت الضربة جافاً ، فكبا على وجهه كما لو أنه تعثّر ، كان ينتعل حذاء قنبياً ممزقاً ، انفصل وجهه عن

النعل ، مما يسمح برؤية كعبيه الشبيهتين بكعبي جرذون : مرت لحظة تردد : رفع الرجل – آلة النجارة فيها قبعته وتلمس ظهره ، الذي نزف بغزارة ، توقّف الرجل – السكين ، الذي فر هارباً ، بتردد عندما شعر بالضربة ورأى زميله يسقط ، تقدم الشغيلة ومعظمهم مسلحون بالعصي وكانوا رجالاً أشدّاء ، حمالين في الموانىء ، أو نجّارين ؛ ابتعد النشالون مخلّفين وراءهم الرجل وهبطوا في المجرى القريب : كانت مطاردتهم هناك تعني الموت تقطيعاً . حمل الجريح إلى إحدى الصيدليات – لقد كان الصيادلة على حق – وتفرّقت الحشود ، وبعد دقائق عاد رجال المجارير وحملوا زميلهم الذي كان يجرجر قدميه ولا يجيبهم رغم أنهم كانوا يسألونه .

— ٥ —

في وقت متقدم من الليل جابت فصائل من الشرطة المسلحة بالبنادق الخفيفة ، المدينة ، استعداداً للصباح ، يسيرون في أرتال من ثلاثة رجال أو أربعة وعلى رأسهم ضباط . كانت خطوات الجياد تدوّي فوق أرض الشارع المرصوفة ومجموعات من المدنيين تُشَاهَدُ في الشوارع ، خاصة حيث يوجد مصباح أو ضوء لم تطله الحجارة . كانوا يتحدثون بحماس ويروون كيف حدث هذا أو ذاك وكيف

هربوا أمام الهجوم أو كيف تصدوا له ؛ كم حافلة قلبوا وكيف سرقوا المخازن وماهو عددها . لم ينته التمرد لأن الناس شعروا بالرغبة في ذلك وذهبوا إلى بيوتهم للطعام ، بقدر ماكان لأن الباعث لم يسمح بأكثر من ذلك . لم يبق ما يستحق الجهد بعد أن كسروا المصابيح وقلبوا الحافلات وليس مطلوباً أن يفعلوا أكثر ، فهي ليست ثورة . حين سمعت بعض المجموعات وَقْعَ حدوات الجياد على الأرض المرصوفة تفرقت واختفى رجالها هنا وهناك وبسرعة كبيرة ، أما الآخرون ، الأقل خوفاً فقد مكثوا في أماكنهم ، إلا أنهم صمتوا أو غيّروا الحديث. توسل الضابط ، الذي يقود الفصيلة ، لأحدى المجموعات أن تتفرّق وكان صوته لطيفاً إلى حد غريب بعد كل ما بدا منهم في المساء ، فاستجابوا له وابتعدوا بشكل عام أزواجاً وببطء وبعضهم كان يسأل دون أن يتحرّك من مكانه :

— هل نحن في حالة منع تجوّل ؟

ويجيب الشرطي دائماً بصوت لطيف :

— كلاّ ، ولكن معنا أوامر بمنع التجمهر في الشوارع .

ويضيف أحياناً :

— الأشرار كثيرون .

ويحتج الرجل :

— لسنا لصوصاً .

— ليس مهماً — كان الضابط يقول بصوت أقل لطافة — الرجاء أن تنسحبوا .

فاذا حدث وأضاف الرجل أية ملاحظة أخرى أو أبدى أي احتجاج ، تقدم الضابط بجواده من المجموعة لأنه لايملك قدرات كبيرة على الكلام .

لا أحد كان يبدي أية مقاومة . أما أنا فكنت أَتَنَقَّلُ من مجموعة إلى أخرى ، أصغي إلى أحاديثهم ، حتّى إذا تفرّقت رحت أبحث عن أخرى . كانوا يتجمهرون ويتفرّقون بسرعة كبيرة ، ولم يكن من النادر أن تجد في هذه الزاوية نصف عدد الأشخاص الذين كانوا منذ قليل في تلك . رغم أن التمرد أصبح بحكم المنتهي فقد ظل قائماً في الذاكرة والحديث . لم أتكلّم ، كنت أصغي فقط ، ولم أتشجع على الكلام إلاّ بعد أن نظروا إليّ في إحدى المجموعات مرّتين أو ثلاث باستغراب لأنني لم أنبس ببنت شفة . رحت أروي لهم كيف استطعت الهرب من حملة الشرطة ، إلا أن أحد الرجال قاطعني وروى لهم شيئاً مشابهاً لما كنت سأرويه مع فارق أنه لم يهرب ، كانت طريقته في الرواية جذّابة مما جعلني لا أقدم بعدها على تناول الكلام . رحت عند منتصف الليل أقترب من حظيرة النوم وأنا أتشرد من هنا إلى

هناك وقد أخذني التعب والجوع . نزلت شارعاً مزدوجاً ، انشقّ في وسطه مجرى نهر . إنه الشارع الذي جرح فيه رفيق الرجل ـــ السكين ـــ المثلوم ـــ لكن الخطير الرجل المربوع ـــ الصالح ، لأجل ـــ الدفع ـــ و ـــ التهديم ، لاشك أن ذلك المجرى موجود هناك منذ أن نهضت أراضي أمريكا اللاتينية من أعماق البحار أو منذ أن انسلخت تلك القطعة الهائلة من المادة التي تشكل اليوم القمر عن كوكبنا ، مخلفة ذلك التجويف الذي سارع المحيط الهادي وملأه وسقطت فيه وماتزال تسقط مياه الأمطار القادمة من المضايق المجاورة ؛ إنه ورغم البيوت التي ارتفعت على حوافه والشوارع التي شقّت والأشجار التي غرست وخطوط الحافلات التي مدّدت مايزال مفتوحاً تسكنه القطط والكلاب والجرذان والبراغيث والمشرّدون واللصوص والشحاذون والقمل والقتلة ، الذين عاشوا هناك وأحياناً ماتوا بين القناني الفارغة والخرق والصناديق المفككة وأكوام التبن والأغصان والحجارة وأغمار الطين والحيوانات الميتة واللص الذي يُقَدَّرُ له أن يصل إلى حوافه المسقوفة حتّى وسطها بالخرسان المسلّح ويلقي بنفسه فيه يختفي مثل أرنب صغير في قبعة ساحر ، فالشرطة لم تكن لتجرؤ على دخول المجرى ، الذي يبدو ، على الأقل كما كان يقال ، أنه متصل بمجاري المدينة . أجيال بكاملها من المشردين خرجت منه ومن الزرائب التي ولدوا فيها ، يقطعون

المجرى ومن المجرى إلى الأرصفة ليشحذوا أو يسرقوا ثم إلى أقسام الشرطة والاصلاحيات ومن الأقسام والاصلاحيات إلى المجرى من جديد ومن المجرى إلى السجن أو إلى المستشفى أو إلى المعتقل أو إلى الاصلاحيات من جديد ، كي تتّخذ بحقهم أحكام أشد وأخيراً يموتون ، بعضهم كان يموت في المجرى .

قليلون هم الناس الذين كانوا يُشَاهَدون في الجادة ؛ تقدمت من الزاوية التي تشكلت مع شارع عريض مرصوف بحجارة النهر المستخرجة من المجرى الألفي ، الذي لاأحد يعرف في أي عهد تَشَكّلَ ؛ كان طولها لايتجاوز النصف كيلو متر وتسمّى ممر كيّليوتا ولا أدري لماذا سمّوها ممراً علماً بأنها شارع محترم ، يعجّ بمختلف أنواع المتاجر ، وبخاصة المطاعم الصغيرة والكبيرة التي تغصّ بالزبائن منذ غياب الشمس وحتى مابعد منتصف الليل بكثير . كانت حوانيت الدرجة الأولى والثانية والثالثة – الخمارات – وكأنها لاتكفي فأقيمت على الأرصفة وفي عرض الشارع بسطات لبيع الفواكه والسمك المقلي والسجق والمعجّنات المقلية والحلوى والمرطبات والكتب أيضاً . رجال ونساء بوزرات متسخة يعرضون بضائعهم أو يعيدون تسخينها ليدلّلوا عليها بأعلى صوتهم . كان الشارع يصعد حتى التل ويمر فيه مئات الأشخاص بعد الغروب فالتل مكتظ بالسكان ومتصل بتل آخر كان بدوره مكتظاً

والعامل الذي يدخل الممر في الطريق إلى بيته ويصل إلى هدفه دون ن
يتوقف أو يدخل أحد المطاعم الشعبية يستطيع أن يهنّىء نفسه لانتصاره
على الاغراءات ، لكن الذين يصلون إلى الزاوية التي ينعطف فيها الممر
ويتلاشى ، قلة لأن البارات تتكشّف بمعازفها ،، المعازف الكبيرة
والآلية ، عن مناظر تبزغ فيها الشمس والقمر والنجوم وتتنقّل والماء
يسقط والأوز يسبح والفرسان الشاحبون والآنسات العاشقات يتقاطرن
وصفوف من القناني يتألّق فيها النبيذ البنفسجي اللون والتشيتشا «١٤»
الصفراء والوردية التي تنيرها المصابيح الكهربائية ؛ كان الزبائن يمدون
أيديهم بحرية إلى النادلات ذوات الشعر المصفّف والوزرات البيضاء
وكن يتقبّلن هذا النخب وذاك وهذه الدعوة وتلك لممارسات غير
علنية تتجاوز تناول الكأس الصغير ، لقد كنّ جذّابات بشكل قوي
وهائل ، ثمّ هل يضرّ أحداً كأسٌ من البيرة أو جرعة تشيتشا ، جرعة
نبيذ أو عرق : طبعاً لا . هيا ، يارجل ، لاتكن هكذا، لحظة واحدة
فقط ، مازال الوقت مبكراً . — صحيح ، لكني زوجتي مريضة .
وماذا في ذلك ؟ إنها لن تموت لأنك ستصل متأخراً نصف ساعة . ـ المشكلة
أنني أحمل لها بعض الأدوية . — تعطيها لها فيما بعد . انظر هيذي التي

---

(١٤) Chicha : تشيتشا مشروب روحي يستخرج من تخمر الذرة في الماء المحلى، مشهور في تشيلي والبيرو بشكل خاص ؛ كما يستخرج من ثمار أخرى (المترجم)

تعجبك هناك ؟ لاماريكيتا ، إنها جذّابة ، أليس كذلك ؟ ماذا حدث ؟ كيف حالكما ؟ ماذا فعلتما — لاشيء ، نتعذّب لأننا لانراك . — هكذا إذن ! ماذا أقدّم لكما ؟ مرّت بقطعة قماش على الطاولة . — التشيتشا رائعة ، فهي من العنب الصافي. إن الضعف — الضعف ليتّران — جرعة طيبة . صُبّي لنفسك أولاً ، ياماريكيتا . اقتلي سمّه . نخب صحّتك .

تبدو البارات المنظورة من الشارع ، بدرابزيناتها الخشبية ومشاربها وأنوارها وعشرات الطاولات والكراسي ، لا متناهية ويمكن للمرء أن يدخلها ويجلس فيها ليلة كاملة فيشرب حتى اليوم الثاني أو الثالث لمدة أسبوع أو شهر أو سنة يضيع. وينقبر هناك دون أن يتمكّن من الاتيان على نبيذها والتشيتشا ، البيرة والعرق والبصل بالخل والشطائر وسلطات قوائم الخنزير بالبصل المفروم والناعم جداً والمتبل بالفلفل الحار ، آه ، بالكثير من الفلفل الحار، المشبع بالفلفل الحار المفيد للكبد . كان بعض الرجال يخرجون إلى الشارع بوجه مرعب ، وجه رجل قتل أباه أو أمّه أو زوجته ، ثبت عليه الجرم فهو مضطرب ، لقد نققت نقوده في منتصف السكرة ، بينما آخرون يقهقهون ويفوقون بين القهقهة والأخرى والبعض يتقيأ قرب المجمرة ، حيث يسخّن بائع الرصيف أسماكه الشهية للمرة العشرين . — « لاتلوّث لي الضاعة ، ياسيد » ؛ وآخر يتبوّل البيرة لبضع أرباع الساعة ، ثم هذا الذي لايعرف

أين هو ولا إلى أين يذهب أو من أين جاء ، زائغ البصر ، هابط السروال وقد خرج قميصه من تحته ، وذاك الأبعد منه ، جدّي ، قاطب الجبين ، ينظر إلى الأرض وكأن هناك مشكلة تشغله ، لكنه لايتحرّك وآخرون يتشاجرون ويتضاربون ، ويهوون بسلال اللؤلؤ والمشارب وسجقها .
— « ماذا بكم أيها البلهاء ! اذهبوا وتشاجروا في مكان آخر » — يكاد يكون السير هناك أيام السبت مستحيلاً ، الناس في الداخل والناس في الخارج والناس يمرون أو ينتظرون الصديق ، الزوجة أو من يدعونه .

لكنها لم تكن ليلة سبت ، كانت ليلة وكان الشارع مزدحماً تماماً ، حدث ماهو متوقّع ، فالكثير ممن شاركوا في التمرد وكسروا المصابيح أو قلبوا وحطموا الحافلات ، أو اكتفوا بالصراخ : يسقط ، يعيش ، ذهبوا ليمروا من هناك ، فالهيجان الذي عاشوه منعهم من التراجع إلى بيوتهم ، لقد كان يوماً استثنائياً ، يوم عراك ويختلف عن بقية الأيام الرتيبة ، التي لايوجد فيها غير العمل ومن الضروري تناوله بالنقاش بل وربما الاحتفال به ، أنا ظمآن ، ولن يضرني تناول كأس صغيرة من البيرة أو بالأحرى من التشيتشا . هل عندك « سندويش » : نعم — إذن علي باثنتين واحدة لحم وأخرى جبن . نعم بالثوم . كان الدخول سهلاً أما الخروج فصعب ، إلاّ إذا أفلس أو ألقوا به إلى الشارع لشدة سكره . لكننا أصدقاء وأحمل نقوداً ، صبّ لنفسك ، أيها الرفيق ، لاتحتقرني ،

ضعف آخر ونذهب ، كانت المشاجرة رائعة ، أليس كذلك . كان صاحب المشرب ، يساعده عدد من الفتيان ، يملأ الكؤوس بالبيرة والنبيذ والتشيتشا والبونتشة دون توقّف ويصنع الشطائر ويجهز السلطة التي يلتهمها الزبائن بسرعة رهيبة في حين كانت تصلنا رائحة الخل ، الرائحة الملتهبة والحارة التي تخرّش الأغشية المخاطية لتخرج إلى الشارع حيث يصعب مقاومة اغراءاتها . المعازف تعزف والرجال يتحدثون والنُدُل يصيحون والدخان الكثيف يملأ المكان . وعلى الأرض أعقاب السجائر والبصاق والقبعات والنشارة وقطع الخبز وقشور السجق وكلب صغير طويل الشعر يطوف بين الطاولات . المشاجرات تحدث دائماً في الداخل أو في الخارج وتدوّي صرخات محمومة غليظة وتظهر أفواه بلا أسنان وعيون مرضوضة وقمصان ممزّقة وملطخة بالنبيذ أو بالدم .

– اضربه ، اضربه !

– دعوهما يتعاركان !

كان الرجال ، الذين أهاجهم التمرد أولاً والكحول ثانياً ، يخرجون من البارات إلى الشارع ، إلى الضغط العالي يحملون كل مايقع أمامهم وتنطلق من أفواههم الكلمات المقذعة . ماذا يظن هؤلاء الشرطة أولاد ا ا . . . ! يسقط جلادو الشعب . لم يخل الأمر من وجود شرطيين

أو ثلاثة لايلقون القبض إلا على أولئك الذين يتمادون إلى الحد الذي يصبح فيه تحملهم مستحيلاً وعلى الذين يتشاجرون أو يحطمون أكشاك الباعة السهلة ، بينما كانوا يصطحبون البقية إلى الزاوية أحياناً ويقولون لهم ناصحين كيف ومن أين يذهبون ؛ اذهب مباشرة ولا تتوقف هناك . حسناً ، أيها الرقيب ، كان يتمتم السكران بلطف ، مستجيباً إلى ذلك الدافع الذي يحمل المرء، الذي يشعر بشيء من الذنب ، على ترقية الشرطي الذي يكلمه . لم يكن نادراً أن تجد جمركياً يعود من ورديته مثل برميل : لقد كانوا أناساً كرماء . كان السكران يقول بصوت منخفض : — أسمع أيها الرقيب ، تعال وتناول معي جرعة . وكان الجمركي يلبي الدعوة بعد أن يلتفت إلى جميع الجهات ويمر بأصابعه على شاربه باضطراب ثم يجرع ربع ليتر أو نصف ليتر ، مهما كان نوعه . ثلاث أو أربع دعوات ويتوقف أو يقضي الليلة ، في الزنزانة. — لست سكراناً ، ياسيدي الملازم — كان المسكين يؤكد بينما لا يستطيع أن يفتح عينيه . — شم نفسي . فيتراجع الضابط شبه مغمى عليه . — إلى الزنزانة ، هيا ! تأتيني أكثر سكراً من قملة .

كانت تلك ليلة مختلفة. فالقتال كان مع الشرطة ، التي جرحت البعض وأوقفت الكثيرين أثناء التمرد ؛ كان السكارى ، بالرغم من الميل إلى التساهل وكونهم يتحلون بأخلاق كريمة ، لاينسون ، فبعضهم

نالت منه العصي مرة أو مرتين أو زحف بين قوائم الجياد وهاهم شرطة العمر كله البغيضة هنـاك بثيـابهم الضارية إلى الخضرة الأكثر قماءة من أية مرة أخرى وبقبعاتهم الأكثر مقتاً مما كانت عليه البارحة وستراتهم ذات الأزرار الذهبية اللون التي كانت تثير السخرية وجزماتهم البالغة الرخص والمثيرة للغيظ ، وهي ليست في الحقيقة جزمات وانما قماطات بكل معنى الكلمة . وضع سكران قبضته تحت أنف الشرطي وصاح يملأ وجه ممثل القانون باللعاب النبيذي ويتلفظ بأكثر الشتائم بشاعة ضد مجموعة الشرطة وأمثالهم وأقاربهم . يغيظه هدوء القائم على النظام العام ، الوحيد في تلك اللحظة فيدفعه وكأنه يثيره ، ويتراجع الشرطي عدة خطوات ويطلب الهدوء من المنفعل ، الذي يبدو وكأنه يطلب منه أن يصلي صلاة التبشير ، اذ يعود السكران يدفعه الآخرون ويستغل فرصة انهم عدة والشرطي واحد فيدفعه مما يجعل الشرطي يرد عليه بأن يخرج صفارته ويطلب المساعدة فيستجيب له الشرطي الذي كان يقف في زاوية الممر المتصل بالتل . يتلقى السكران الذي هاجم الاثنين ضربة عصا على رأسه سبحت وجهه بالدم ويقتاد ، إضافة إلى ذلك ، موقوفاً أمام دهشة شركائه .

سرى الخبر عبر الأرصفة والمطاعم : ضربت الشرطة رجلاً واقتادته سجيناً ! كان المخفر على مسافة ثمانين متراً ، عادت الشرطة

يصحبها فصيل من الخيالة . أرونا ، من هم العناترة ، كان العناترة يعدون بالعشرات ، فالكحول أدخل سروراً غير محدود إلى نفوسهم وشجاعة لاتنثني ، فاحتقروا المخفر والعصي والخيل والفرسان « أنا تشيلي ، ولا أسمح لأحد أن يكلمني ، خاصة اذا كان شرطياً قذراً مثلك ! اضربني ، أيها الوغد ! ها هو أمامك صدر رجل ! كانوا يفتحون قمصانهم بقوة فتتطاير الأزرار وتتمزق العروات ويتقدمون بصدورهم المشعرة ، ولم يكن من الشرطة ، التي استنفذت امكاناتها وردود فعلها الكلامية دفعة واحدة إلا أن تظهر بطولة أقل : أخذت الرجال وحملتهم شداً ، وضربتهم عندما دافعوا عن أنفسهم وجرتهم عندما قاوموا ثم سلمتهم أخيراً إلى الخيالة ، الذين أخذوهم من رسغهم وحملوهم كما لوفي الهواء وهم يخبون . كان السكارى يتعثرون بالحجارة ويعوون عندما يشعرون بآباطهم على وشك أن تنخلع وبسراويلهم تهبط وببقية ثيابهم تتمزق . خرج أصحاب البارات والندل إلى الشارع وأضحت المطاعم فارغة وحمل تجار الأوصفة ، الحكماء بالرغم من ضحالة رأسمالهم بسطاتهم . لم يكن مستقبل التجارة الصغيرة واضحاً .

كنت آكل قطعة السمك وأنظر ، فأنا جائع ولا يهمني كم يكون عمر السمكة الذي قد يدهشني لوعرفته ، لكنني كنت سآكلها حتى اذا تأكدت من انها من البحر الأحمر ومعاصرة للنبي يونس ، لاشك

أن رائحتها كانت منفرة ، لكن ماذا يحل بالفقراء لو حدث وكانت حاسة الشم عندهم مفرطة في رهافتها : ليس للفقر والجوع حاسة شم . وأكثر من ذلك ان حاسة الشم تربك الجائع . كانت القشرة ، وهي اللفظة الأدق ، التي تعلوها ، تقرش بين الأسنان، مثل صدف الرخويات، ولا يوجد أي شبه بينها وبين السمك الذي كانت تغطيه والدتي بمخفوق الخبز الطري المبشور والبيض ، في زمن صار بعيداً جداً . ومع ذلك فقد كان من النوع اللذيذ بالنسبة لأسناني ، التي تتلقى الاحساس بالمضغ الصعب وتنقله . كنت آكلها وأنا أقف في الزاوية ، كانت ساخنة ويتصاعد منها بخار ينفذ إلى أنفي فيوسعه مثل أنف كلب . انها سمكة تنشطر إلى قطع تبدي استعداداً كبيراً للتفتت ، وكأنها ضجرت من الانتماء إلى كلٍّ واحد، يستغرق تفتته وقتاً طويلاً . كنت أرد رأسي إلى الخلف وأنا آكلها كي لايضيع مني شيء ولايفلت من بلعومي أي جزء قد يسقط . فكل نثرة كانت كنزاً لايقدر بثمن . كنت أستطيع أن آكل عشراً أو عشرين سمكة ولكنني لاأملك سوى ثمن واحدة مع قطعة الخبز . كنت جائعاً وآكل وأنظر ، وبائع السمك الذي يبدو أنه من مادة شبيهة بالسمك ، أعطاني مع السمكة قطعة ورق أمسكها بها كي لا أوسخ يدي ، فالسمكة كانت ترشح زيتاً شفافاً مشكوكاً بأصله .. كنت آكل وأنظر .

ـ مارأيك ! ـ قال لي بائع السمك ، عندما ارتدت عصا الشرطي على رأس السكران وتحطمت من هول الضربة ـ في ليال أخرى كانوا يقبلون كل مايقدّم اليهم من شراب ، دون أن ينظروا إلى نوعه ، شريطة ألا يكون بارافين ، لكن الفرسان سيئو المزاج اليوم .

أتيت على السمكة وألقيت بالورقة إلى الأرض ونظفت يدي بسروالي ، لأن ذلك الزيت ليس قادراً على اختراق الورق فقط بل أيضاً على اختراق صفائح الحديد في ميسرة بارجة .

لاأعرف مااللذي دفعني ، في الساعة الأخيرة ، على الدخول في معركة الكلاب تلك . لاأرى سبباً آخر غير انني رحت أشعر بالقلق الكبير والغضب الأكبر للوحشية التي ارتكبت ، حقاً أن أحد السكرانين قد تصرف بوقاحة ، أعتقد انه يستحق عليها ماتلقاه ، لكن هذا لايدعو لمعاملة الآخرين بالطريقة نفسها . فقد رجال الشرطة انسانيتهم ، مثل الصيادلة ـ رغم انهم يحملون العصي بأيديهم ، فوحشيتهم كانت من نوع آخر ـ وتصرفوا بشكل آلي ، أخذوا الرجال من رسغهم ولووا أذرعتهم وضربوهم عندما امتنعوا عن السير وسلموهم إلى الخيالة ، الذين كانوا ينطلقون خبباً وهم يجرونهم . قررت أن أذهب : لاشك أن ذلك سينتهي نهاية سيئة بالنسبة لشخص واحد أو للجميع . أمسكوا برجل ، لم يكن ثملاً تماماً بقدر ماكان مهتاجاً ، فأخرج أداة حديدية ،

إزميلاً أو ربما مفكاً ، صفعوه وضربوه بالعصي . لم تعد الشرطة تنتظر من السكرانين أن يستفزوها : لقد راحت تجوب الشارع من أعلاه إلى أسفله وتدخل بالدفع بين المجموعات ، يبعدون الرجال بالعنف ، ويكفيهم تزمر أو احتجاج أو نظرة كي يقودوا الرجل إلى الزاوية . كل ذلك كان نتيجة لدفعة قام بها سكران تجاه شرطي .

بدأت أجتاز الجادة وأشعر بقبضتيّ تنغلقان وتنفتحان تلقائياً بعيداً عن إرادتي . عندما كنت أسير في عرض الشارع شعرت بجلبة فالتفت ورأيت شرطيين على جواديهما يأخذان رجلاً . نظرت إليه ، لقد ضربوه أو أسقطوه على وجهه الذي كان مليئاً بالدم . انحنيت بشكل آلي ودون تفكير بما فعلت ، والتقطت حجراً ورميت به واحداً منهما بكل ماأوتيت من قوة . رأيت الشرطي يُفلتُ السكران ويترنح على جواده فهربت حتى اذا وصلت إلى الرصيف توقفت ونظرت إلى الخلف ، لم أستطع أن أرى شيئاً لأن ألماً قَصّ ظهري . التفت من جديد فوجدت شرطياً ينتصب أمامي وسيفه مسلول لامع . من أين تراه خرج ؟ لم أعرف ذلك أبداً ، رغم أن المجرى كان على مسافة تقل عن العشرين متراً مني .

- ٦ -

أخذوني سجيناً ، لكن ليس قبل أن يشدني الشرطي شدتين ليجبرني على السير . شعرت بالخنق ، لكن ضميري كان غير مرتاح فأزعنت للسير . لم نتكلم في الطريق وعندما تكلم هو كان ذلك ليكيل الشتائم بوقاحة ، على المتمردين الذين أجهدوهم كثيراً . لم أدر بماذا أجيبه ، لكنه ، على الأغلب ، لم يكن ينتظر جوابي . علمت من كلامه انه لم يرني أرمي الحجر ، وانه أوقفني فقط لأنه رآني أركض ، ياله من سبب تافه ، لكن جميع الأسباب كانت في تلك الليلة مقبولة . كان قصيراً وهزيلاً . فكرت ، أثناء الطريق ، بالإفلات والهرب منه — فهو يمسكني من كمي ، وأصابعه تشد على أزراره ؛ ومع ذلك تذكرت أن اليوم كان يوم تمرّد والليلة ليلة أيد طليقة فتراجعت . ماذا يحدث لو انني لكمته في صدره ورميت به ؟ لقد كان ضعيفاً ولابد سيسقط مثل كيس ، ثم أهرب . لكن ماذا سيحدث لو أنني لم أتمكن منه تماماً وقاومني ؟ لاشك انه مسلح بمسدس . طالما انه لم يرني أرمي الحجر لن يكون عنده دليل ضدي وسيطلق سراحي ، هاهو المجرى ، قفزة واذا رأيتك لاأذكر ، لكنني أجهله ولا أعرف أين سأقع ، في مستنقع أم فوق كلب ميت أم في حفرة حيث تنكسر ذراعي وتسقط أسناني . تراجعت عن الفكرة . في البعيد كان يرتفع صياح الرجال

ووقع جري الخيل . تلك هي المرة الثانية التي أدخل مخفراً موقوفاً ، دون أم الآن ودون أب ولابيت ولا أخوة لا إلى جانبي ولا خلفي .

انه مخفر يقع على سفح تلة ، مطلي من الخارج بالأبيض والأخضر ، انه مثل جميع المخافر سيء الإضاءة ، تفوح منه رائحة بول وخيل ، بقضبان حديدية وأرض غير مستوية . أخذوا اسمي في قاعة الحرس وسألوا الشرطي عن سبب توقيفي فأجاب : اخلال بالنظام . نقلت بعد ذلك إلى الزنزانة ، لم أمنح فرصة ولا وقتاً لأقول شيئاً ، لأدافع عن نفسي أو لأطلب اليهم أن يقولوا لي ماشكل الإخلال بالأمن الذي ارتكبته . كنت موقوفاً وكفى . « سيقدّم بدعوى إلى المحكمة » ، قال الضابط الأشقر ، الوردي والقذر وصاحب الجلد الزيتي والشارب المتعفن والثقيل الظل والسمج قليلاً . اختفى الشرطي ذو السيف وسُلّمتُ لآخر قال لي : « من هنا » ، وكأنه يدخلني في صالة استقبال ، كان الفناء الممتد خلف القضبان واسعاً محاطاً بأسوار عالية يتوقع المرء وجود زنزانات خشبية الأبواب على حوافة ، تمنع رؤية من بداخلها .

وضعوني في زنزانة ، بابها حديدي ، يضيؤها مصباح ملتصق بالسقف . كان بودي أن أنتظر حتى يمتلىء المخفر بكل الرجال الذين جاؤوا بهم من الممر ، لكن ربما كانوا في الزنزانات المغلقة . التي تنبعث منها أصوات مترددة وهذا وذاك الصوت الواثق الذي يصرخ ضد انسان

أو شيء . كانت الزنزانة التي وضعني فيها الشرطي الذي عاد ليقول لي « من هنا » تحتوي على شخص يجثو على الأرض وفي الوسط تقريباً ، بسرواله الهابط والملتف حول قدميه ، وكان مكشوف المؤخرة والساقين ويشخر وكأنه في سرير . لاشك انه أحد السكرانين الذين جاؤوا بهم من الممر ، أقول انه أحد السكرانين لأن مافعله لايفعله إلا السكران والسكران تماماً . يبدو انه شعر وهو في سجنه برغبة بالتغوط ، لكن حالة السكر تلك لم تسمح له بالانتباه إلى الجرن الخاص بذلك والموجود في إحدى زواياً الزنزانة التي كانت واسعة إلى حد ما ؛ ولانه لم يره فقد دفعته الحاجة إلى التخفيف عن نفسه بالتغوط على الأرض ، وكثيراً كان غوطه . بقي على أثر العملية نائماً على غائطه ، الذي جلس عليه في الأخير ، ثم بحث عن وضعية مريحة أكثر فتمدد على جنبه لينام ،

كانت النتانة مرعبة . طبعاً لم يكن المرحاض ، كمرحاض مخفر ، محتمل الرائحة ، لكن رائحة غائط السكران كانت تفوق رائحة عشرة آلاف مرحاض مجتمعة وأكثر قليلاً . الغريب في الأمر أنها كانت تذكر بالروائح التي كانت تصدر عن مطاعم الممر وتنطلق منها دون انقطاع إلى الشارع : رائحة الخل ، الشبيهة برائحة البصل والسمك المتبل بالبهارات والخل والنبيذ القوي ، الرائحة الحادة التي تجرح الأغشية

المخاطية والتي أحضرها السكران معه ، ولكن اذا كان ذلك ينتن ، فهذا يمزق .

شعرت انني محاط بوحشة كبيرة . كان الرجل الممد على الأرض يساهم في تضخميها : لم يبدو لي انساناً بل حيواناً . بهيمة ، وأقل من بهيمة ، لاأعرف ماذا . ومع ذلك فكرت أن ذلك خير مايمكن أن يصادفني ، لولا النتانة ، اذ ماذا كنت سأفعل لو وجدته سكراناً ومستيقظاً ؟ ماذا كان سيقول لي وبماذا كنت سأجيبه ؟ فكرت أيضاً انني لو رأيته قبل ساعات في التمرد وهو يجري أو يقوم بعمل ما لبدا لي رشيقاً أو متحمساً . انساناً مفعماً بالظرافة والقوة وربما شجاعاً . لكنه الآن وهو ثمل بفعل الكحول . مجرد بهيمة نتنة ، تجثو هناك مغلفة أيضاً بالوحشة . الوحشة الملفعة بالغائط . لاشك أن المطاعم ماتزال مفتوحة ، بمعازفها ونادلاتها ومئات الزجاجات من النبيذ الأحمر أو التشيتشا وهاهي ثمارها ممددة على الأرض ، نائمة ، وقاعدتها بادية للعيان .

لاأدري لماذا أرعبني ذلك الرجل ؛ عندما دخلت ، مررت بجانبه على رؤوس اصابع قدمي ونظرت اليه شزراً . من جهته بقي الشرطي إلى جانب القضبان ، بعد أن أغلق الباب كان ينظر بدوره وينقل عينيه

قبل ذهابه بين السكران وبيني . كانت نظرته إليّ قصيرة ، لاتعني شيئاً ، كأنه لم ير شيئاً أو رأى ماهو خارج عن الشعور الانساني . كأن عينيه جمدتا للأبد . جلست على التخت وأنا أبحث عن مكان يقيني منظر ذلك الرجل ، الذي يشحنني بالحياء المريع ، ليس لأنه مستهتر وانما لانه نابع من اللاوعي ، لأنه لايعرف ولايستطيع أن يعرف وضعه الذي كان سبب ذلك الشعور . شعرت أنني مشارك في الخطيئة ، لاأعرف بم لكنني واثق انني لست كذلك . لم أستطع أن أهدأ : تصورت نفسي مكانه مكشوف الساقين والاست وأن استه وفخذيه هي استي وفخذاي واست وأفخاذ جميع الناس . لكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ان محاولة ايقاظه وتنظيفه وإلباسه ، وهو على تلك الحال ، كانت نوعاً من الجنون . سينقلب ضد من يحاول ذلك وسيعزو له ما لا أحد يعلم من النوايا ويطلق بعد ذلك عواءات مرعبة تأتي الشرطة على أثرها فيضطر المرء أن يشرح كيف ولماذا كان الرجل هابط السروال مكشوف الأست وقد لايصدقونه : كيف يمكن لرجل أن يصل إلى هذه الحال : لا . ثم كيف سيصلح من وضعه بنفسه بعد أن تذهب السكرة ويلاحظ الحال الذي كان عليه : رفضت حتى التفكير بذلك .

بقيت قرابة الساعتين منزوياً هناك ، خائفاً من ذلك الرجل ومن إليتيه البيضاوين المغطاتين بالقذارات ، عاد الشرطي بعدها ،

وكان شرطي الا « من هنا » نفسه . فتح الباب ونظر الي . لاحظت أنه أجهد نفسه هذه المرة كي لايرى السكران . قال لي بصوت غريب ، بين الشفوق واللطيف : « تعال إلى هنا » . . نهضت ومررت بجانب السكران على رؤوس أصابعي وخرجت من الزنزانة . لم يستطع الشرطي أن يحول دون النظر إلى ذلك المكان ، الجذاب والمنفر في آن واحد . أخرجَ أخيراً المفتاح من القفل الذي يربط السلسلة الحديدية التي تقفل الزنزانة ، قال وهو يهز بكتفيه وينظر إلي نظرة تفهم :

— أليس رهيباً أن يصل المرء إلى هذه الحال ؟ . . .

كنا في بداية الخريف وكانت السماء سوداء مزدانة بالنجوم والطقس بارداً قليلاً .

— ابق هنا — قال الشرطي الذي توجه نحو الزنزانات ذات الأبواب الخشبية .

بقيت هناك أنظر إلى السماء وأتنفس بعمق ، راغباً أن أطرد ذكرى الفتاة من اغشيي المخاطية . فتح الشرطي احدى الزنزانات ، بعد أن بحث عن المفتاح المطلوب ، فتدفقت حزمة من النور إلى الفناء . نظرت إلى الداخل ، كان هناك قرابة اثني عشر رجلاً يتكلسون ، بعضهم متمدد وكأنه نائم بينما كان الآخرون جالسين على حافة الدكة وكأنهم بطات زرقاء هائلة .

— هيا ، هيا ، المشاغبون إلى الخارج . نعم الجميع . لماذا جاؤوا بك أنت ؟ أيضاً . طبعاً لم يفعل أحد منكم شيئاً ، مساكين . أنا أيضاً لم أفعل شيئاً ، ومع ذلك تراني هنا . لا ، السكرانون يمكثون حتى تذهب عنهم السكرة . أين ستذهبون ؟ إلى القسم أولاً ، ثم إلى المحكمة . الليل طويل ، ياأعزائي ، وخير لكم أن تقضوه في الفراش . آه لوأستطيع . هيا ، هيا .

خرج الرجال واحداً واحداً ، مبهورين ، يفركون عيونهم ويتثاءبون ، يتمطون ويرتعشون ؛ كان بعضهم يسعل ويبصق بعنف . انهم رجال التمرد أنفسهم ، عمال ومياومون وباعة متجولون أو أناس من الخليج ، تركوا العاصفة تجرفهم وشاركوا فيها ، ومن ثم وبسبب هذا الظرف أو ذاك وقعوا في أيدي الشرطة . لم يبدُ أن أحداً منهم كان خائفاً أو حزيناً لوضعه . كائناً ما كان مافعلوه فهو ليس أمراً خطيراً ويبدو انهم يعرفون دلك ، لاشك أيضاً انها ليست المرة الأولى التي يسجنون فيها . يصعب أن تجد شخصاً من الشعب لم يسجن مرة أو مرات ؛ والأسباب كثيرة : اخلال بالنظام ، سكر ، أخطاء ، اضرابات ، مشاحنات وأحياناً مشاركة في بعض الجنايات الطفيفة والقليلة الأهمية .

ــ قفوا جميعاً هناك ، مع بعض ــ أمر الشرطي وقد توجه بعدها إلى زنزانة أخرى ــ .

اقترب الرجــال من بعضهم وتبــادلنا النظرات بهــدوء وكأننا رفاق ، فنحن موقوفون للسبب نفسه . بلغ عدد المجتمعين وخلال دقائق مايقارب الثلاثين ، راح الشرطي يفرزهم : الثملون يمكثون وكذلك الموقوفون بجنايات عامة ، فقط وقف هناك المشتركون في التمرد .

ــ أنت لا : فقط المشاغبون ، يجب عدم الجمع بين الأشرار والشرفاء ولابين الثملين والمتزنين .

كان رأيه شبيهاً برأي الرجل المربوع : كل واحد في مكانه . عاد بعض الرجال إلى الزنزانة .

ــ جاهزون ــ أعلن الشرطي عبر القضبان المحيطة بالفناء ــ الجميع جاهزون .

دخل ثلاثة أو أربعة من الشرطة إلى الفناء ، كانوا يتثاءبون بدورهم ويرتعشون ويتمطون ويرتعدون . أوقفونا في صف في العمق .

ــ هيا ــ أمر الضابط الذي كان يراقب العملية من باب قاعة الحراسة ــ إلى الأمام .

فتح الباب الحديدي وتقدمنا . في الشارع كانت تنتظرنا سيارتا شرطة دخلناها برفقة الحراس ، وتوزعنا على المقاعد . أُغلق الباب وسُحب قضيبٌ وسُمع صوت إغلاق قفل .

— تحرك !

لم نر شيئاً رغم أن حصيرة النافذة كانت تسمح بدخول القليل من النور والهواء ، . بدأ الرجال يتحدثون :

— اللعنة : لقد تجمدت . أنا بارد وجائع .

— ولماذا تريد أكثر ! يكفيك هذا .

— من معه سيجارة ؟

— هنا ، اسحب .

— أين ؟ لاأرى شيئاً .

— هنا .

أشعلت بعض أعواد الثقاب فاستطعت للحظة أن أرى وجوه رفاقي ، لكن النور لم يمكث إلا القليل وعاد الظلام بينما كانت السيارة تجوب الشوارع .

ــ أين نحن ؟

ــ أعتقد أننا في جادة لاانديبندنثيا (١٥) .

ــ حسناً ، وماذا سيحدث ؟

ــ ليس غريباً أن يدينوننا بالسكر : خمسة أيام .

ــ وأنا الذي كنت أملك عملاً جيداً ! على كل الأحوال ، ماذا نستطيع أن نعمل !

كانت نار السجائر تلتهب هنا وهناك .

ــ أُوقفتُ مرتين في أقل من شهر . يمكن ألا أقع على القاضي نفسه هذه المرة .

ــ وماذا حدث لك ؟

ــ وماالذي لايحدث للفقير ؟ كنت أتناول بعض الكؤوس مع بعض الرفاق ونغني في بيت أحدهم ، اذا بالباب يفتح ويدخل بعض رجال الشرطة . لم نكن قد سكرنا . ماذا حدث ؟ أوقفوا الجميع ، ياللسخرية ! ولماذا ؟ السكر والفضيحة . كانت تلك فعلاً فعلة رائعة . . . فلو كنا ثملين أو حتى نصف ثملين ، لحدث شيء فظيع . ولكن لا .

---

(١٥) Paseo de la Independencia : جادة الاستقلال (المترجم)

كنا هادئين ، على كل حال : التوقيف لمدة خمسة أيام . أو دفع غرامة بقيمة خمسة بيسوات . دفعنا وخرجنا .

— ٧ —

عند هبوطنا من السيارة نظرنا إلى هذا الجانب وذاك ، نظرة السجين الذي لايعرف عمّ يبحث ولاماذا يريد : يودع الحرية أم يتعرف على المكان الذي هو فيه . كان الشارع مقفراً وإلى اليسار توجد التلال المضاءة في المناطق المستوية والمظلمة في الفجوات ، بينما يتوقع المرء أن يكون البحر إلى اليمين خلف الأكواخ ، أنوار حمراء وخضراء وبيضاء كانت تنوس في الهواء فتمدده : كان البحر هناك ، ذلك البحر الذي حرمني منه رجال الأرشفة وكأنه ملك لهم ، والذي طالما شدني اليه وأستطيع أن أظل أتأمله أياماً بكاملها ، منذ الفجر وحتى المغيب : طيراً وباخرة وزورقاً وعوامة وسفينة ، ودخاناً يقترب أو يبتعد أو يمكث في مكانه وحتى بلا طيور ولابواخر ولازوراق ولا عوامات ولاسفن ولا دخان ، فهو دائماً يقدم دائماً أشياء مختلفة : لوناً ، تموجاً ، غمامة ، أثر تيار ، دون الأخذ بالحسبان الريح التي يداعبها ، يثور بينها برشقاته وتجعيداته وارتطاماته وتموجاته وتبدلاته المفاجئة أو أمواجه الموشاة وزبده المتطاير فوق الذروة .

كان قسم التحقيقات ، بالمقابل ، بناء بلا جاذبية كبيرة ، فالأرض تحت مستوى الرصيف وتضطر المرء أن يهبط درجتين أو ثلاثاً حتى يدركها ويصل أمام الباب ذي القطع الزجاجية الملونة الصغيرة والمؤدي إلى دهليز مظلم وبارد ، ينفتح إلى يساره باب غرفة مضاءة بمصباح ملتصق بالسقف ، تماماً كما في الزنزانة .

ـ ادخلوا .

كان المكتب صغيراً ، غص بنا فوراً ، وتركنا خلفنا عدداً من الرجال لم يتسعهم المكان . برز هناك مكتب مغطى بالقطيفة الخضراء ، الممزقة هنا وهناك ويوجد بين تمزقاتها محبرة ، وصحن سجائر نحاسي وقطع أوراق ، على الجدار ، في العمق يوجد رف مليء بالكتب الطويلة ، (لاشك انه الارشيف) . ويوجد كرسيان أو ثلاثة وكرسي كبير ورجل قصير قاتم اللون ، رمادي الشعر ، محفر الوجه ، عكر العينين ، جاف الشفتين ، فقير اللباس تقريباً ـ كانت قبة قميصه تتكشف عن بعض النسالات ـ ، استقبلنا بوجه ليس فيه ود كبير . كان أمام مقرأ يغطيه كتاب كبير . قال وهو يبلل الريشة بالمحبرة :

ـ لنر ، كل بدوره ، ماسمك أنت ؟

طأطأنا ، نحن الباقين ، رؤوسنا أو مددنا رقابنا لنرى ماذا كان سيفعل ذلك الرجل القصير . أجابه المستجوب :

ــ روخيليو سانتش .

ــ ماهو عملك ؟

ــ ماذا ؟

ــ ماهو عملك ؟

ــ آ ، سائق زورق .

ــ هل أوقفت ذات مرة ؟

ــ نعم ، عدة مرات .

ــ ولماذا ؟

ابتسم روخيليو سانتش ، الرجل الطويل ، البارز العظام ، والبريء الوجه ، ابتسامة كبيرة .

كانت شفتاه شاحبتان وأسنانه كبيرة .

ــ لاأذكر .

ــ سرقة مع كسر ؟

ــ كيف يخطر لك هذا ؟

– تهريب ؟

– لا . . .

– سكر ؟

– نعم ، شيء من هذا القبيل .

– أين تعيش ؟

– تل ماريبولا ، نزل إلا لامو ، غرفة رقم ١٤ .

– هل أخذوا بصمات أصابعك ؟

– بالطبع . عزفت البيانو منذ زمن (١٦) .

– هل صدر حكم بحقك ؟

– أبداً لا .

– هل أقيمت ضدك دعوى ؟

– لا .

– هل لك لقب ؟

– نعم ، يدعوني دون روخه .

– ولكن هذا ليس لقباً .

---

(١٦) Ya he tocado el piano : بمعنى أنني طبعت بصمات يدي .(المترجم)

ـ وماذا أفعل ؟

ـ لماذا جاؤوا بك الآن ؟

لم يعرف دون روخه ، الذي أجاب على جميع الأسئلة بسهولة ، بماذا يجيب على ذلك السؤال ، فأدار رأسه باتجاه أحد الحراس : لماذا جئتم به ؟ أجابه الحارس :

ـ اخلال بالنظام واعتداء على الملكية .

ـ حسناً ، ليؤخذ إلى المحكمة مع التقرير . الآخر .

ابتعد روخيليو سانتش خائفاً من ذلك المنصب الذي لم يفهمه.

ـ ألبرتو كونتريراس ، دهّان ، تل بولانكو ، زقاق لابينتي أونا ، نعم ، بسبب السكر ، متزوّج ، لاأحمل لقباً .

ثبّت الرجل القاتم والمحفّر الوجه ، الذي كان يكتب بسرعة كبيرة ، الريشة في المحبرة وأدار رأسه ونظر إلى الدهانألبرتو كونتريراس بامعان .

ـ من المسيء أن ينكر المرء لقبه ـ قال ـ إذ أسهل للمرء أن يجد شخصاً من خلال اللقب من أن يجده من خلال الكنية .

ـ لكن ليس عندي لقب . ماذا تريدني أن أفعل !

كان ألبرتو كونتريراس مربوع القامة ، قاتم اللون مستدير العينين منتفخ الوجه ، قصير العنق ، إضافة إلى أنه يتكلم بشكل أجوف .

ـ غريب ـ أجاب الموظف ، الذي تذكر وقتها كما يبدو أن له أسناناً ، فامتص أحد أسنانه بصوت قوي ـ لابد لمن له هذا الوجه من لقب .. الذي يليه .

ـ برودينثيو مارتينث ، تل لوس بلاثيريس ، شارع لامارينا ، رقم ٨٠٩ ، تاجر ، عازب .

ـ اللقب .

ـ ليس عندي .

ترك الموظف الريشة من جديد وانتصب منزعجاً :

ـ أنت أيضاً ليس عندك لقب ؟ ومن أين خرجتم ؟ أمن وزارة المالية؟

نظر إليه برودينثيو مارتينث مندهشاً ، وكان يؤثر بثوب عمله الوسخ . استنكر البيروقراطي ذلك بحركة من رأسه وأدار رأسه إلى الكتاب وهو يشرق ضرسه من جديد : هناك نخر كان يزعجه وربما اعتقد أنه إذا شرقه ارتاح .

تزمّر :

ـ لاأحد عنده لقب !

لم تكن بقية المعلومات بذات بال ، فالاسم والعنوان والعمل والوضع

العائليّ ليست مهمة ولاتقول شيئاً ولا تعبر عن خلق أحد أو تميّزه ، على عكس اللقب . مئات الأشخاص — الأفراد كما قال — كانوا يعيشون في شارع لامارينا ، في نزل إلألامو أو في زقاق لابينتي أونا ، وآخرون كثيرون كانوا يعملون نجارين ودهّانين وسائقي زوارق ويدعون ألبرتو أو برودينثيو أو روخيليو ، لكن ليس هناك اثنان يحملان اللقب نفسه .

— يوجد رجال كثيرون لايعرفون اسم رفيقهم في العمل أو جارهم، لكن مامن أحد يجهل لقبه ، والذي لالقب له ، يضعون له لقباً ؛ فهو أسهل وأكثر استساغة .

بدا أن اللقب كان بالنسبة للموظف الشاغل الوحيد والمفضل وكان ، كما رأينا ، الشيء الوحيد الذي يسجله بارتياح . ومع تقدم الاستجواب كنا نجد أنه محق : فاللقب وحده كان يحتوي على شيء من الحياة والتميّز وسط ذلك التتالي من الأسئلة والأجوبة التافهة والمتشابهة .

— لهذا السبب أنا معجب باللصوص — قال الرجل القصير — مامن أحد إلا وله لقب وكلما قبض عليهم بدلوا أسماءهم وكنياتهم ، وللكثير منهم عشرون أو ثلاثون منها ، لكنهم لايبدلون ألقابهم أبداً ، فهم لايستطيعون ذلك لأنه ليس ملكهم ، ولو بدلوه لما عادوا أنفسهم .

من يعرف اسم كاراده أغيلا ؟ لاأحد ، ولا حتى والدته التي عمّدته ، ومع ذلك تشيلي بكاملها تعرف لقبه .

عاد وشرق ضرسه ، فالنخر لايتركه بسلام ، رغم أنه يحتمل أنه لايؤلمه ، لكنه يستغرب الثقب الموجود فيه ، وبما أنه لايستطيع أن يملأه أراد على الأقل أن يفرغه مما فيه أو يخرج منه . ناقش عدداً من الموقوفين الذين أبدوا أنهم لايحملون ألقاباً ودعموا رأيهم هذا بشيء من العناد القاتل : عيون مستديرة وحية ، لوزية أو ذابلة،رقاب قصيرة وغليظة أو طويلة ورقيقة ، سيقان فارعة الطول ، أو مزعزعة ، طريقة الكلام ، التأتأة ، التلكؤ بلفظ الحركات أو الحروف الساكنة ، نبرة حلقية أو جوفاء ، شارب بهذا الشكل : شعرة هنا جعلته يكون مشبوهاً . هل يمكن أن تكون بلا لقب ؟ وعمّد اثنين أو ثلاثة بألقاب أضحكت الموقوفين ، فهي ملائمة وظريفة حتى أنها جعلت الملقبين بها أنفسهم يضحكون ويتقبلونها على أساس أنها جيدة . ومع ذلك فقد سأل أحدهم الموظف بهدف أزعاجه ، وهو الذي لقّبَهُ بـ (لافوكا («١٧» لأن عينيه كانتا مستديرتين وشاربه خفيفاً :

– وأنت بماذا يلقبونك ؟

---

(١٧) Lo Foca : الفقمة أو عجل البحر .

أجاب الموظف بابتسامة ودون غضاضة :

ـ الكاغادا ده موسكا (١٨) .

ضحكنا ضحكة جعلت الرجل يتشجع ويعمّد الجميع ويجادل أولئك الذين كانوا يحملون ألقاباً غير مناسبة ، ألقاباً لايمكنهم الدفاع عنها ، لأنهم لم يختاروها بأنفسهم ، والتي إن لم يشعروا معها بالراحة ، اعتادوها : تَبَدُّلٌ واحدٌ كان يسبب الإرتباك .إلْبالو دهآخو(١٩) : لكننا ندعوه هنا إلْبالو ده سيبو (٢٠) .

ـ حتماً ، هذا صحيح ـ تنهّد ـ بيّرو إلْسابّو ! وأنت يجب أن يدعونك البوتيخو (٢١) . . .

بقينا هناك الفترة التي صفّوا فيها البعض وتناولوا بصمات البعض الآخر . أخيراً وعندما انتهوا من كل شيء وأصابت الاطالة الجميع بالضجر ، أمرونا أن نتقدم في الدهليز . ذهب رجال الشرطة الذين أحضرونا وأوكلونا إلى آخرين جدد .

---

(١٨) Cagada de Mosca : ونيم الذبابة .
(١٩) El Palo de Ajo : عود الثوم (المترجم)
(٢٠) El Vela de Sebo : شمعة الشحم (المترجم)
(٢١) Botijo : الإبريق

– إلى الأمام ، إلى الأمام ، مباشرة ، ليس هناك شيء آخر .

خلال تلك اللحظة الطويلة ، ساعة أو ساعتان ، لم يظهر أحد هناك – باستثناء شرطيّ واحد نظر إلينا وكأننا بضائع يريد تفحّصها ، وأبدى لنا اهتماماً ، لكنه ليس إنسانياً ، فهذا مطلب كبير ، ولاحتى قضائياً (إذ ليس لدى الشرطة اهتمامات غير بوليسية) . لم يبد أن الموقوفين توّاقون لشيء ، إذ لاأحد منهم قال شيئاً يمكن أن يحمل على الاعتقاد بأنه يطلب توضيحاً أو يريد أن يدلي بهذا التوضيح . كانت تقوم على الجانب الآخر من الدهليز غرف جديدة تنبعث منها أصوات ووقع خطوات ورنين أجراس ومكالمات هاتفية . فُتِحَتْ الأبوابُ عدة مرات وخرج منها عدد من الرجال أو دخلوا ، كان بينهم الشرطي الناظر .

كان الدهليز ينتهي إلى فناء مبلّط بحجارة النهر ، تغمره ظلمة مرعبة : لاشيء يرى ولاصوت يسمع ، سوى هذه الضحكة أو ذلك السعال ، بدا لنا أننا ندخل في نفق ، توقفنا يمنعنا الظلام الذي كان مثل الجدار . لكن الشرطة ، التي بدا أنها تعرف كل ماكان في ذلك البهو وعن ظهر قلب ، دفعتنا :

– إلى اليسار ، إلى اليسار .

قال أحدهم :

ــ لانرى شيئاً .

ــ وماذا تريدون أن تروا : ــ سأل صوت لم نعرف إن كان صوت موقوف أم حارس .

ــ من هنا .

تقدمنا عدة خطوات أخرى ، أحسسنا أنهم فتحوا باباً ، فتوقفنا يحدونا هاجس أنهم سيقبروننا أحياء . لم يعد يميّز الواحد منا الآخر وبدأنا نحس بالنفور عند الاحتكاك ببعضنا . دفعونا من جديد فتوغّلنا في الظلام أكثر ، انتبهنا ، إثر طرقة باب أغلق ، أننا أصبحنا في القبر ، أو البالوعة أو الزنزانة التي جهّزوها لنا وكان حجمها وشكلها غارقاً في الظلام أيضاً . وقفنا صامتين وشعرنا أننا غرباء عن بعض تماماً ، إذ لا وجوه ولاأجساد ولاأصوات فالصمت والظلام فصلا بيننا ، محوانا ، أضعنا بعضنا وما عاد أحدنا يعرف الآخر ، أما ماعدا ذلك : هل الرجل الذي يحتك بذراعنا أو الذي نشعر بظهره إلى كتفنا جاء معنا أم كان موجوداً قبل وصولنا ؟ إذا كان موجوداً من قبل ، فمن تراه يكون ؟ مكثت وقتاً طويلاً في المكان الذي كنت أشغله عند انغلاق الباب ، إلا أنه لم يكن باستطاعتي الاستمرار في تلك الوضعية طوال الليل

لذلك كنت مضطراً لأن أجد ، على الأقل ، جداراً أستند إليه ، لكن أين الجدران ؟ حاولت أن أخترق الظلمة وكان ذلك مستحيلاً . بدا لي ، في بعض اللحظات ، إنه لاتوجد جدران ، بل قضبان ولا غير القضبان ، وكأننا داخل قفص للحيوانات ، وأحياناً كنت أتصور أن الزنزانة مقسّمة بما يشبه الحجب القاتمة الرقيقة بشكل غير مجد . أغمضت عينيّ وعندما فتحتهما أحسست ببعض البريق ، الوهن جداً ، يطفو في الهواء ويبدل مكانه ببطء ، يختفي ويظهر . عدت وأغمضت عينيّ وبقي البريق يظهر ويختفي : حدث هذا ضمن عينيّ . اقتنعت على أثرها ببطلان جهودي فقررت أن أتقدم إلى أي مكان ، خطوت خطوة نحو اليمين فتعثّرت قدمي بشيء انكمش بسرعة .

— انتبه — همس صوت أجش .

أحد ماكان متمدداً هناك . ومرّة أخرى بقيت بلا حراك . بعد لحظة من الانتظار حاولت أن أتحرّك إلى الجانب الآخر : مددت قدمي ، لامست الأرض وكانت خالية . هل أنا بعيد عن أحد الجدرن ؟ نشرت ذراعيّ ودرت بجسدي ، كان هناك شخصان على مدى يديّ ، أمامي وإلى يساري ، ربما كانا يبحثان مثلي عن الجدران أو عن فسحة من الأرض.بالتأكيد ليس من أجل أن يتمددا وإنما كي يجلسا فقط .

تخيلت أنهما متردّدان يدوران برأسيهما ، يمدّان أذرعتهما في الظلام . وعندما لامست أحدهما همس ساخراً :

— صه ! ماهذا ؟

جلت في الزنزانة لحظة طويلة حتّى إذا مددت ذراعيّ أخيراً وقعت على جدارين : إنها زاوية . أتراها خالية : تقدمت خطوة إلى الامام واثقاً أنني سأتعثّر بأحد ، سيقذفني باحدى لعناته ، وتعثّرت فعلاً ، لكن ليس بكائن بشريّ وإنما بشيء قاس ، لم ينكمش ولم يتكلّم . تحسسته بقدمي ، فوجدت أنها أشياء بحجوم صغيرة ، ضغطتها فانزاحت من مكانها ، تقدّمت نصف خطوة فوجدت الحافة ، انحنيت ولمستها : إنها قطع آجر ، أو على الأقل كان لها شكلها ، رغم أنها أدهشتني ببرودتها وخشونة سطحها . تنهّدت وكأنني انتهيت من اتمام عمل تَطَلَّبَ جهداً جسدياً كبيراً أو تركيزاً ذهنياً كبيراً ثم انحنيت ودرت في الهواء ونزلت إلى الأرض وجلست على الآجرات المفترضة التي تناثرت قليلاً واستطعت تجميعها . لقد أصبح عندي مقعد . بقيت هناك هادئاً ، أحاول أن أعرف شيئاً عن المكان الذي كنت فيه . تذكرت رفاق تلك الليلة : ماذا حلّ بهم ؟ هل مازالوا يطوفون عمياناً وباللمس في الظلمة يتعثّرون ببعضهم وبالرجال ، الذين بدا لي أنهم كانوا مستلقين هنا وهناك على الأرض . كانوا قرابة الثلاثين . ترى أين دخلوا ، إذا كانوا

قد دخلوا إلى مكان ما فعلاً ؟ للصمت وقار الظلمة : لا صوت ولاسعال ، لاتجشّؤ ولا شخير لاشيء يسمع مما يحدثه الإنسان في يقظته أو في نومه . وكأن الرجال الذين كانوا هناك قبل وصولنا قد اتفقوا على التزام الصمت : هل هم نيام أم مستيقظون ؟ وإذا كانوا نياماً فلماذا لايشخرون : أو كانوا مستيقظين فلماذا لايتكلمون أو يدخنون، يسعلون أو يتحرّكون؟ إن الزنزانات التي تحتوي على ثلاثين أو خمسين شخصاً أو على أقل من ذلك يكون فيها دائماً واحد أو اثنان لاينامان ، بل يدخنان أو يتحدثان. كم عددهم ؟ إثنان ، ثلاثة ، خمسون ، ألف ؟ بعد برهة وبينما كنت مشغولاً باغماض عينيّ على أمل أن تعتادا الظلمة وتسمحا لي برؤية شيء — رغم أنني لم أر إلا البريق الذي رأيته في البداية — سمعت تنفساً ثقيلاً وعادياً بالقرب مني : لابد أنه مستسلم للنعاس ، مستلق على الأرض، الأرض القاسية ، لأنه لا أحد يتوقع وجود سرير هناك . لا أعرف كيف شعرت وقتها أن شخصاً يقترب مني ، ربما أن الظلمة ضخمت اقترابه أو أن حاسة الشم عندي دلتني على اقتراب الرجل الذي وقف مقابل المكان الذي كنت أشغله : إنه شخص يتقدم في الظلمة . شعرت بقشعريرة وبأسئلة كثيرة تدور في ذهني : من يكون ، ماذا يريد وعمّ يبحث : هل هو من أصحابي ؟ هل أدفعه أم أتركه يمر ؟ أما إذا لم يكن من أصحابي ويبحث عن شيء لا أعرفه وكان شيئاً غير محبب ، فستكون لحظة مزعجة بالنسبة لي ، حقاً إنني كنت جالساً على كومة من الآجر

القاسي وهي قذائف أو سلاح جيد ، لكنني لا أعرف إن كان يحمل في يديه شيئاً أكثر قساوة . توقّف حينئذ أمامي . إذا كان من أصحابي وتركته يمر عرضاً فانني أكون قد ارتكبت حماقة . هممت ، وتناولت قطعة آجر باليد اليمنى ومددت اليسرى وقفزت حتى كدت انتصب على قدميّ ، حانياً جذعي إلى الأمام ، فارتطمتُ بذراع ، مددت يدي وأمسكت رسغاً . ذعر الرجل وشعرت بالطمأنينة ؛ هو أيضاً كان غبر مالك لأعصابه ، جذبته من رسغه إلى الأسفل ونحو اليمين بقصد أن يعرف أن هناك مكاناً فارغاً ، وبعد لحظة من التردد تحسس الرجل المكان بقدمه وانحنى فأفلته ، لكنه استطاع أن يمسك بيدي عندما مدّ ذراعه دون هدف ، رغم أنه قدّر في الظلمة الاتجاه الذي كانت تنسحب فيه يدي ، وربت على قفاها بأصابعه بلطف وتمتم : « شكراً ، أيها الرفيق » ثم غرق في الظلمة والصمت .

لم يبق أمامي إلا الانتظار ، فقررت ألاّ أقوم بأيّ جهد آخر من أجل أن أسمع أو أن أرى وكان الصوت قد سأل : — وماذا تريدون أن تروا ؟ — مكثت هناك ، بلا حراك ، جالساً على الآجرّات ورأسي بين يديّ وعيناي ، اللتان لم تكونا تنفعانني في شيء ، مغمضتان . كان الجو حاراً وأشعر بالهواء ثقيلاً . كم الساعة ياترى ؟ الثالثة ؟ الرابعة : حتام سنبقى سجناء هناك ؟ ثم إلى أين كانوا سينقلوننا وماذا سيحدث ؟

برز الماضي في ذهني ، كل شيء كان على حاله : والدتي ، والدي وأخوتي ، منهم من كان يتحرّك ومنهم من كان بلا حراك لكنهم ينظرون إليّ جميعاً ، ينظرون إليّ من مكان مضاء ، من رصيف شارع أو من باب دار ، من ضفة نهر أو من غرفة مضاءة بمصباح خفيف النور أبيض الزجاج . لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً لأجلي كما لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً آخر سوى النظر إليهم واحداً واحداً في الظلمة ، أستعرض وجوههم وأجسادهم ، أراقب حركاتهم وأتذكر دموعهم وابتساماتهم ، وكانت عينا والدتي ، اللتان بدتا جامدتين ، تنظران إليّ من مكان بعيد بعيد .

حبا شيء على رقبتي بسرعة ، فارتعشت وتلاشى الماضي ؛ ثنيت ذراعي وأمسكت شيئاً صغيراً ، بقي بين أصابعي عدة ثوان ثم قذفت به في الهواء . كان ناعم الملمس ، كروي الشكل : لاشك أنه صرصور حككت رقبتي بشدة . ترددت مابين البقاء هناك ومابين البحث عن مكان جديد . تراجعت عن الموقف فكل الأماكن كانت متساوية وإذا لم تكن كذلك فليس هناك امكانية للاختيار . ربما كان الأمر يتعلّق بصرصور وحيد ، تائه مثلنا في الظلام . مكثت في وضعية المترقب ، متيبّس الرقبة ؛ شيء ما كان سيأتي : تحرّكتْ بعد ثوان حشرة أخرى على رقبتي . كان احتكاكها أكثر نعومة ولطافة من سابقتها فعدت

ومددت يدي وأمسكت بها ، شعرت أنها تتفتت بين أصابعي : كانت بقّة . شممت يديّ ، نعم إنها كذلك ، أو بالأحرى كانت كذلك . كنت جالساً على مصنع للحشرات . انتصبت ورافق ذلك رشح سريع راح يتدفّق من جسمي ، بينما راح شيء يصعد في حنجرتي . نظرت وأنا واقف إلى هذا الجانب وذاك واستطعت بذهول كبير أن أرى أمامي وبخط مائل بابا من القضبان الحديدية ، يبدو أن حرارة الانفعال زادت من قدرتي البصرية . اتجهت إليه دون تردد فتعثّرت بشخص مستلق على الأرض. دمدم ، لكنني لم أعره أيّ انتباه : بدأ يتملّكني يأس عصبي ولم يكن يهمني أن أتشاجر مع أيّ كان . كان الباب مصنوعاً من قضبان حديدية ثخينة ومسطحة ، وقد قفل بقفل ومزلاج . حاولت أن أهزّه بغباء ، وبالطبع لم يهتز ولم يحدث أية جلبة : ازددت يأساً ، يجب ألا أبقى هناك ، ولو بقيت لأصبت بالاعياء أو بالانهيار العصبي . لم أخف ، لكنني متضايق جداً . أمسكت بالقفل ، المعلّق إلى السلسلة الحديدية وطرقته فوق مزلاج الباب الحديدي ، فحدثت صلصلة اهتزّت جافة في الليل وانتشرت في الظلام ، سمعت عدداً من الأشخاص يدمدمون أو يطلقون التأوهات أو يتلفظون ببعض الكلمات : فقد استيقظوا مذعورين . لم ألق جواباً . عدت وطرقت بقوة أكبر وصرخت أيضاً :

ـ هيه ! .

عاد الناس وتحرّكوا وتنهّدوا ودمدموا وصاح أحدهم يسأل لماذا أقوم بكل تلك الضجة لكنني لم أعره أي إنتباه وعدت لأطرق الباب وأصرخ . خفت هذه المرة ألا ألقى جواباً من أحد وأن أضطر للبقاء هناك مخذولاً وحنقاً . ومع ذلك ترامى إلى سمعي وقع خطوات وشخص خرج إلى الفناء يسأل بصوت قويّ :

ـ ماذا حدث ؟

ـ من فضلك . هنا ـ صحت .

تقدم الرجل نحو الزنزانة مقترباً من الباب . بدا لي أنه كان يرى في تلك الظلمة :

ـ ماذا حدث ؟ ـ سألني بصوت ألطف مما توقعت .

ـ أخرجني من هنا . أشعر أنني لست طبيعياً .

ـ هل أنت مريض ؟

عندئذ رأيته . كان كتلة واحدة . إنه حارس . وجهه بقعة سوداء بلا تقاسيم . راح بدوره ينظر إليّ من أسفل إلى أعلى . محاولاً أن يميّز وجهي .

ــ اعتقد أنني سأصاب باعياء . اسمح لي بالخروج إلى الفناء .

مدّ يده إلى حلقة المفاتيح ، فتح القفل ثم المزلاج ، أدار الباب الذي صرّ صريراً قصيراً شبيهاً بصرير المنشار وخرجت . عاد الحارس وأغلق الباب . خبّأ مفاتيحه وقال لي :

ــ ابق هنا ، لكن لاتصرخ مرّة أخرى .

ذهب ، ومرّ كل شيء بنعومة كبيرة ، شعرت بها أكثر مما رأيتها . بقيت هناك . لامست وجهي هبة ريح ، ونسمة ناعمة . شعرت بالطمأنينة وسرت بعض الخطوات . بدا لي ، بفعل الظلمة ، أن الفناء مسقوف ، لكن تلك النسمة الخفيفة دفعتني إلى أن أرفع رأسي وأنظر : سماء هائلة وسوداء كانت تتلألأ في الأعلى . شعرت بقشعريرة وعطست . توقّف التعرّق . فتّشت في جيوبي فوجدت سيجارتين ، شبه تالفتين وعلبة ثقاب . دخّنت وسرت في الفناء ، ناظراً ، من حين إلى آخر ، إلى الأعلى : جدران عالية كانت تحيط بالفناء الصغير رأيت كيف كانت تنتهي إلى السماء . لم أكن نعساً وشعرت بنفسي خفيفاً ، وسعيداً بعض الشيء ولم يخطر لي ، في أية لحظة ، أن أهرب ، لأنه لم يكن باستطاعتي أن أدفع ثمن طيب الحارس بتلك العملة السيئة . ولاشك كان يعلم ، عندما تركني وحيداً في الفناء ، إنني لا أستطيع الهرب ،

فقد كنت في قسم التحقيقات ، وليس في معرض للتسلية . لم أفكر بعد ذلك بما يمكن أن يحدث في اليوم التالي . رحت أتمشّى في الفناء . تذكرت صديقي . ابتسمت وتوقّفت : بدا لي أنني أسمع صوته يحدثني عن سفره الثاني .

— ٨ —

ذات ليلة ، كنت فيها في غرفتي أطل من النافذة وانظر إلى سماء الليل ، رأيت شخصين يسيران على الرصيف ببطء ويحملان بندقيّتين على ظهريهما فقلقت للامر . كان البيت على مقربة من الخط الحديدي ، الذي تمر عليه القطارات الذاهبة إلى بالبارايسو ولوس أندس ، كانت الغرفة في الطابق الثاني . وتطل نافذتها على ذلك الخط . كانا يتحدّثان فعرفت صوتهما : إنهما رفيقان قديمان من رفاق المدرسة . كان الوقت صيفاً والنسمة تهزّ أغصان الأشجار السوداء . وعندما مرّا تحت النافذ ناديتهما :

— غيه ، ايبينثا ! غونثالث !

توقفا ورفعا رأسيهما رغم أنهما لم يرياني ، لأن الأغصان حجبتني ، لكنهما عرفاني من خلال صوتي ولأنهما يعلمان أنني كنت أعيش هناك منذ سنوات كثيرة .

ــ مرحباً ! كيف حالك ؟

ــ جيد ، إلى أين أنتما ذاهبان ؟

ــ إلى الأرجنتين .

ــ ولماذا ؟

لم يجيبا . ماذا كانا سيقولان ؟

ــ ذاهبان ، لا أكثر ولا أقل .

بقيا هناك ووجهاهما ، اللذان كان ينيرهما المصباح الذي تركني في الظل ، إلى الأعلى . شعرت لعدة ثوان أن أفكاري تطير إلى كل الأماكن مثل سرب من الطيور فرّقتها طلقة من بندقية صيد : الأرجنتين ، الفضاء الطلق وسلسلة الجبال ، السهل والأيام الخالية من سرعة وكتب مدرسية . كنّا في أوائل كانون الثاني ونسيم الجبل يهب في الأماسي باتجاه البحر . أحسست أن موجة من الدم صعدت إلى رأسي .

ــ انتظراني .

بقيا يتحدثان هناك ريثما بحثت عن ثيابي في الظلام . صنعت منها حزمة وألقيت بها إلى الشارع ، كما يلقي البحار كيس سفره عن ظهر السفينة إلى الرصيف حين يغادرها . رفعاها وهبطت الدرج : كان

والدي يقرأ في الصالون بينما كانت زوجته تطرز ، جميلة الوجه ، حزينة . كانا صامتين . رفع والدي رأسه :

ــ إلى أين أنت ذاهب ؟

ــ لأقوم بجولة هناك .

ــ لاتتأخّر ، فالساعة تجاوزت العاشرة .

ــ سأعود حالاً .

خرجت : وتأخرت عاماً ونصف العام حتى عدت . نمنا عند الفجر متسلقين على الأرض تحت بعض الشجيرات في أطراف مدينة لوس أندس . أربعة أيام وأصبحت على بعد ثلاثمئة كيلو متر عن بيتي ، هابطاً إلى ميندوثا برفقة زميلي اللذين اضطررت في بعض الأماكن لأن أحملهما بين ذراعي تقريباً، فقد آلمتهما أقدامهما بشكل مريع ، كما اضطررت أن أغسلهما وألبسهما وأجهز لهما الطعام : لم يكونا ينفعان للصراع في العراء . لولم أذهب معهما لماتا في الجبال وكأن الامر لايتعلق برجلين كاملي البنيان وانما بطفلين ، فقد دخل أحدهما مدينة مندوثا بهيئة تلين قلب الضبع ، كان يستند إلى كتفي طويل اللحية ، متسخاً ، منهكاً ، لف أحد قدميه بقطعة من الخيش ، بينما استند الآخر وهو غونثالث الى عصـــا ، يسير خلفنـــا يكاد يجهش بالبكاء . واذا استثنينا موضوع قدم الأول فان هيئة الأخير لم يكن ليحسد عليها . كلاهما

كان يبدو وكأنه انتزع من بين مخالب الموت في أثناء وقوع زلزال أو طوفان عامين . حدث لهما ذلك في الطبيعة ، عندما كان عليهما أن يستفيدا من أقدامهما وأذرعتهما وعضلاتهما في الصراع مع البيئة المضادة . أما في المدينة فقد كانا مختلفين إلى حد أنني ذهلت لأمرهما : كانا زوجاً من المكارين ، القادرين على غش الأب الخالد — اذا كان يوجد أب خالد — كلهما خداع واحتيال ، لايملان من المرح والطعام والشراب والضحك . بدا لي وكأنهما سجنا أو قيدا عشرين سنة متواصلة واستعادا حريتهما البارحة أو منذ خمس دقائق فقط . أصبحت في مندوثا تحت حمايتهما ، فهما لم ينسيا العناية التي بذلتها في سبيلهما في اللحظات الصعبة . اكتشفا هناك كيف يمكن للانسان أن يعيش مع الآخرين وطبقا ذلك بعزيمة مدهشة ، أي أنهما اكتشفا أن في العالم حرية التجارة ، وأن باستطاعتهما ، مثل أي انسان آخر ، أن يمارساها دون أن يملكا سوى الجرأة والمال لذلك . ولم يكن ينقصهما المال ، كما لم يكن ينقص من له جرأتهما ، نفسها ، صغيرة كانت أم كبيرة . تفرغا لتجارة المجوهرات ، طبعاً لتجارة المجوهرات الرخيصة : ساعات النيكل ، الفضة ، المشابك المزيفة ، الخواتم ذات الاحجار التي بمقدورها أن تصيب ، لشدة سوئها ، عيون جميع صاغة أمستردام بالحول ذهولاً ، انها مجوهرات يستطيع أي شخص أن يشتريها من

أسواق السقاطين بأسعار زهيدة جداً ، لكنهما كانا بطريقة عرضها والفن الذي يقدمانها به يجعلان أسعارهاتفوق كثيراً أسعار المجوهرات الحقيقية ، ان لهذا الفن ثمنه الذي يجب أن يدفع كما يدفع لقاء الواجهات الفاخرة والعاملين ذوي الملابس الأنيقة . كانت الخدمة سهلة ، وقد شاركت فيها بمناسبتين أو ثلاث. وذهلت لسهولة المتاجرة ، اذ لاحاجة إلا للتصميم وامتلاك المرء لزمام نفسه .

— هيه ، ياسيد ، عندي ساعة جيدة للبيع . زهيدة السعر . انها تذكار عائلي .

ومع كلمات تذكار عائلي كان الزبون يتوقف وهو الذي لم تكن لتثير فضوله كلمات « ساعة جيدة » ولا « زهيدة السعر » لولا أن عنده أفكاراً خاصة عن العائلة والتذكارات التي كان يتركها بعضهم عادة .

— ساعة ؟

— نعم ، وهل يهمك أن تراها ؟

وتمر لحظة تردد .

— وهل هي غالية الثمن ؟

كان يعتقد أن التذكارات العائلية كانت دائماً ذات قيمة ، لذلك كان سؤاله يبدو طلباً للرحمة أكثر مما هو سؤال .

– كلا ، لكنها ساعة جيدة وماكنت لأبيعها. لولا أنني أمر في ضائقة كبيرة ، فالوالدة مريضة .

كان ذكر الأم حاسماً دائماً .

– سنرى – كان المشتري المحتمل يهمس وكأن الأمر يتعلق بمؤامرة .

– هي ذي – كان البائع يقول بصوت مشابه .

ويخرج الساعة التي اشتراها بالأمس من حانوت البيع والشراء الذي يملكه يهودي عجوز ، محب للكحول أمام محطة القطار. ثم يريه الساعة بعد أن يلتفت حوله وكأن الأمر يتعلق باخفاء شيء يقضي الاهتمام العام اخفاءه . انها ساعة مألوفة أكثر من ساعة في مكتب بريد ، لكن طريقة عرضها بذلك الصوت والتأكيد على أنها تذكار عائلي كان يضفي عليها صبغة التحفة التي لاتقدر بثمن . وينظر الزبون اليها بدهشة واهتمام لايخلو من الشك غير الواضح ، ربما كما ينظر إلى كل مايقدم على انه تحفة : فهو رجل عجوز والساعة قديمة وهو يبحث عن الأشياء التقليدية والسهلة التحقيق أكثر مما كان يبحث عن المبادرة بحد ذاتها .

– انها من جدي ، الذي باعها له رقيب أسود من القوات التي

اجتازت الجبال مع الجنرال سان مارتين ، ويبدو انه سرقها أثناء عملية السلب التي قام بها بعض عديمي الضمير في بيت أحد القوطيين .

وكان عليه أن يخفض صوته هنا : فكلمتا قوطي وسلب كانتا ترفعان سعر هذه السلعة بشكل غير معقول .

— وكم ؟

— لك أنت — يجيبه البائع وكأنه يعرفه منذ عشرين سنة — بثمانية عشر بيسو .

وكانت تثبط همة الرجل فجأة ، وكان على حق ، فالساعة حتى ولو كانت تحمل كل المواصفات التي تقال عنها ، لاتكلف أكثر من أربعة بيسوات ويستطيع أي شخص أن يحصل عليها بثلاثة بيسوات في أقرب سوق للسقاطين .

— أنا لاأبيعها لولاأنوالدتي مريضة.—كان يقول البائع بصوت فيه حسرة — وعلي أن أرسل في طلب وصفة لها وأن أشتري لها شيئاً تأكله . ألاتدفع خمسة عشر بيسو ؟

وهنا يعود الزبون ليهتم بالأمر من جديد : فالمأساة التي كانت تضايق البائع راحت تتحول لصالحه وتوقظ الأمل في نفسه : « اذا

قللت من اهتمامي بها سيخفض سعرها قليلاً ، لأن العجوز مريضة وستموت اذا لم تأكل » . ومـــا أن تصـــل لعبة العرض والطلب الشريفة حداً مقبولاً ، الشيء الذي كان بالامكان ملاحظته من بعيد ومن خلال حركاتهما ، حتى يقترب الشريك من الرجلين بوجهه الرائع البراءة : فهو طيلة الوقت كان جالساً على مقعد قريب ، – كانت هذه الصفقات تتم غالباً في الساحات العامة ، حيث يكثر العاطلون عن العمل أكثر من أي مكان آخر – وهو ينظر إلى الرجلين اللذين يتجادلان حول سعر التذكار العائلي ليقترب منهما أخيراً كمن يتآكله الفضول :

– عفواً – كان يقول بابتسامة الدخيل ، الذي يخاف أن يطرد رفساً – منذ لحظة وأنا أراكما تتجادلان ولم أستطع أن أقاوم فضولي . ماالمسألة ؟ هل السيد يبيع شيئاً ؟

ولم يكن المشتري المحتمل لينطق بكلمة واحدة ، رغم انه يرمق الدخيل بازدراء ، لكن البائع كان يتظاهر بعدم المبالاة .

– نحن لانتجادل – كان يؤكد – انها مسألة تجارية .

ثم لايزيد على ذلك كلمة واحدة . كان الدخيل ينتظر لحظة ، بوجه من أخطأ التقدير وابتسامة بلهاء تثير الشفقة ويقوم بحركة المتراجع فيطلق البائع عندئذ صوته من جديد :

ـ انها مسألة ساعة ، تذكار عائلي ، أريد أن أبيعها للسيد . لكنه يستغليها ، وأنا ماكنت لأبيعها لولا . . ويتابع الباقي . فتنير وجه الشريك ابتسامة الغبطة :

ـ تذكار عائلي ؟

ـ نعم ياسيد .

وتبرق عينا الدخيل ، الذي ينظر إلى الزبون وكأنه يعتذر ويسأل :

ـ هل أستطيع أن أراها ؟

ـ لماذا لا ، هاهي !

فيأخذها الدخيل وينقلها من يد إلى أخرى ، وكأنه لم ير قط ساعة قديمة مماثلة ويتأملها من وجهها وجوانبها وخلفها ويسأل بكم يقدر عمرها وكم يدوم تعبئتها وعما إذا كانت مكفولة . وكانت الضحية خلال هذا الوقت تعض على شفتيها وتلعن الدخيل الذي يسأل البائع أخيراً وهو يعيد اليه الساعة :

ـ وكم سعرها ؟

وهنا كان البائع يضرب ضربته القاضية :

ـ لك أنت ، وبما أنك أظهرت كل هذا الاهتمام ولأن الوقت أصبح متأخراً ، أبيعها بخمسة عشر بيسو .

وهنا كان الزبون يرمق البائع ساخطاً : فهو قد طلب منه منذ البداية ثمانية عشر بيسو ، أي بزيادة ثلاثة بيسوات عن الآخر :

ــ ولكن ــ يضيف البائع زائداً من عمق الطعنة ــ أنا مستعجل جداً ، لذلك فانني أتركها لك باثني عشر بيسو .

وهنا كان ينفجر محب التذكارات العائلية ، الذي بدأ يرى أن الساعة ستضيع من يده وهو الذي لم يخفض له سعرها إلا إلى خمسة عشر بيسو :

ــ اسمح لي ــ كان يقول وهو يدخل بين الشريكين فيتحمل الدخيل المسؤولية ــ كنت أناقش السيد قبلك .

ــ حسناً ، حسناً ــ كان يجيب الشريك بخوف ــ ولكن بما أن هذا السيد . . .

ــ عندما أذهب تستطيع أن تتابع حديثك معه اذا كنت ترغب ذلك بهذا الشكل .

ثم يضيف وهو يلتفت إلى البائع بعنف :

ــ أنا أشتريها باثني عشر بيسو .

ــ حسناً ــ كان يجيب الابن النموذج بوجه يظهر انه سيان عنده

أن يكون المشتري هذا أو ذاك ، فالتي كانت تهمه فعلاً هي العجوز — هي لك .

وكان الضحية يخرج الاوراق النقدية ويسلمها ويستلم التحفة ويذهب ناظراً باحتقار إلى الدخيل الذي بقي مع البائع يتحدث معه ليذهب بعدها برفقته بحثاً عن زبون جديد . لقد ربحا بهذا الشكل أموالاً كثيرة ، لكن هذه الكثرة كانت بالنسبة لهما قلة ، فقد عاشا حياة مليونيريين ، يقيمان الموائد العظيمة ويحيان حياة قصف . كنت أرسم اشارة الصليب ، لأنهما كانا هادئين في المدرسة ان لم يكونا رعديدين . على الأقل كانا ظاهرياً غير قادرين على خداع أحد ، لكن التجارة أفسدتهما .

كان علي أن أهجرهما ، فقد عرّضاني لمضايقة حقيقية : أقاما علاقات مع فتاة ، نزيلة أحد بيوت الدعارة ، كانت ترافقهما مع أخـــرى إلى احتفالاتهما . قررا ، ذات ليلة ، وكانـــا ثملين ، أن يعيشا معهما ويجعلا منهما عشيقتين لهما ، لكن الفتاتين لم تكونا تستطيعان مغادرة الماخور بتلك السهولة . اذ يتوجب عليهما أن تسويا حسابات الإقامة والثياب والديون والسلف وتنزيلات هذا وإضافات ذاك ، وهي حسابات أكثر تعقيداً من تركة البرازيلي بكثير ،

مع القواد أو مع المشرفة على الماخور ، هذا دون أن يؤخذ بالحسبان أن القواد لاينظر أبداً بعين الرضى إلى انسحاب المقيمات ، إلا إذا ذهبن إلى المستشفى لمعالجة قروحاتهن . ومع ذلك كان عليهما أن يقوما بعمل ما من أجل الثياب التي كانت في الماخور . تحدثا إلي وأقنعاني بالذهاب والتوسط حتى ولو كان فقط لأجل واحدة منهما :

ـ المشرفة ـ قالا لي ـ امرأة هيابة جداً ـ وعندما رأوا أنني أنظر اليهما بوجه من لايصدقهما صححا ـ تخاف الشرطة . قل لها انك شرطي وانك مكلف بهذه المهمة أو تلك وستعطيك جميع الأغراض فوراً .

تركت نفسي أقتنع وأتعلم ، مدفوعاً بابتسامة احدى الفتاتين ، التي بدت وكأنها تداعبني بعينيها . وصلت إلى أمام البيت ، الكائن في طرف مدينة مندوثا . توقفت هناك ونظرت حولي مثل قائد يدرس الأرض قبل بدء المعركة : كانت الوحشة مطلقة وكأن أحداً لايمر في الشارع إلا ليلاً . والأرض وكأنها كنست لتوها أمام البيت . كانت النوافذ والأبواب مغلقة ولاتسمع في الداخل أية ضجة كأن البيت مهجور. حكمت أن باستطاعتي الهرب باطمئنان في حال حدوث أي شيء لاأعرف ماهيته . قرعت الجرس ، الذي رن طويلاً وبعنف وغرابة في البيت الوجوم ، ربما استغرب الجرس أن يقرع في مثل تلك الساعة . شعرت بعد لحظة ، أن أحداً يهبط الدرج ، ويلمس الباب ويسحب عوارض ومزالج ويفتح الباب : كانت امرأة عجوزاً .

ـ ماذا تريد ؟ ـ سألت والمكنسة في يدها .

تصنعت صوتاً جهماً :

ـ معي مهمة للتحدث مع المشرفة .

نظرت إلي بدهشة :

ـ في هذه الساعة ؟ انها ماتزال في فراشها ولاتستيقظ حتى الساعة الرابعة .

ـ أنا قادم من قسم الشرطة ومعي أوامر بذلك .

وتحولت الدهشة عند العجوز إلى خوف ، يبدو أنها كانت بدورها تخاف الشرطة . نظرت إلي من جديد ، الا انها قالت بعد ان رأت في وجهي الجهم ممثل القانون وردت الباب قليلاً :

ـ انتظر لحظة .

صعدت الدرج وتركتني هناك وقلبي يقفز في صدري ورغبة ملحة تدفعني لأن أطلق العنان لقدمي ، لكن ابتسامة مومس كانت بعيدة أوقفتني . وشعرت بعد لحظة بصوت العجوز يقول :

ـ هيه ، تقول لك السيدة أن تصعد .

تكلمت العجوز بصوت متوسط الارتفاع من أعلى الدرج . تشفعت بكل القديسين وزررت معطفي وسويت بنطالي ورحت أصعد .

نظرت حولي عندما أصبحت في أعلى الدرج : لم يسبق لي أن دخلت ماخوراً في مثل تلك الساعة ولا في أية ساعة أخرى كما لم يسبق لي أن أقمت أية علاقة مع مومس . كانت القاعة مثل قاعة أي بيت برجوازي : نباتات داخلية ، سلة فضلات ، مشجب للقبعات ، لوحات رخيصة على الجدران ، سجادات صغيرة ، أرض مشمعة بشكل جيد ، أثاث من النسيج القطني ورق الجدران نظيف وخال من أي تمزق وكان هناك ماتوقعت انه غرف النوم المقفلة في صف واحد . سمعت سريراً يصر وأقداماً حافية تسير على الأرض ، ثم انشق الباب بعد لحظة وبرزت فيه امرأة سمراء ، طويلة ، حالكة سواد الشعر ، يعلو جسدها روب لايستره جيداً ، اذ يتكشف عن منبت الصدر وجزء من الثديين المستديرين المشرئبين . أحسست أن لساني يتقلص وفمي يجف وحنجرتي تنغلق . اقتربت المرأة مني وهي ترفع يديها فتمسك بشعرها الذي سقط ونتج عن تلك الحركة أن انفتح الروب وظهر قميص النوم الحريري والوردي اللون فخرج لساني وجفت لوزتاي تماماً . كان صوت المرأة، التي حيتني من بعيد بصباح خير تافه أجش ، بغيضاً ، حامضاً ، كان صوت امرأة اعتادت أن تصرخ وتتلفظ بكلمات قاسية ونابية كأن تقول فرس اذا توجهت بحديثها إلى امرأة وديوث بن ديوث اذا كان المنتفع منها رجلاً ، على عكس ماانتظرت ، فقد توقعت انه رنان ، غني النبرات ، مخملي ويدغدغ ، كما يقال ، السمع . شعرت بخيبة أمل فجسدها يستحق صوتاً آخر . نظرت اليها تقترب فصاحت عن بعد خطوات خمس :

ـ اديلميرا ! هاتي إلي الفطور .

اديلميرا هي العجوز التي أجابتها وهي تخرج من إحدى الغرف وقالت انها ستأتيها به في الحال وراحت تبتعد باتجاه عمق الماخور . ثم قالت لي المرأة وهي تبتسم وقد غيرت من نبرة صوتها قليلاً :

ـ لماذا جئت إلى هنا ؟

بدا لي أن في صوتها بعض الرقة ، لكنها كانت رقة جشاء . شعرت انها تداعبني ، الا انني تمالكت نفسي وقلت :

ـ تلقينا في القسم شكوى ضدك . الموضوع يتعلق بأولغا مارتينث .

وعندما سمعت اسم تلك المرأة انتفضت :

ـ أولغا مارتينث ؟ كانت نزيلة هنا ثم ذهبت ولي في ذمتها مقدار من المال .

ـ لكنها تجزم انها غير مدينة لك بشيء وأقامت هنا أكثر من سنتين دون أن تعطيها سنتيماً واحداً وتطلب أن تسلميني ثيابها .

أحسست أن المرأة كادت تنفجر فنظرت شزراً إلى الدرج ، الذي كان مقفراً . كم قفزة أحتاج لأكون في الشارع ؟ وانفجرت المرأة :

ـ فرس القذارة ! أتفعل معي هذه الفعلة القذرة بعد أن احتضنتها سنتين وتحملت جميع العشاق الذين خطر لها أن تضمهم . . .

ثم التفتت إلي بينما كنت أنظر إلى قبعة لها شكل الفطر وعصا علقت إلى مشجب وقالت :

ـ قل لهذه الا . . . بنت الا . . . أن تأتي وتأخذ ثيابها وانها تستطيع أن تأخذ جميع قمصانها القذرة وثيابها القديمة حين تسدد الدين الذي لي عندها . . .

كانت مهتاجة ولو أن الفتاة كانت موجودة لمرت بأزمة عصبية . لم تهتم بدثارها ، بعد أن تخلت عن كل حياء ، وراح روبها ينفتح بحرية ويسمح لي برؤية قميص نومها الوردي وما خلف الثديين الرائعين ، دون أن يثيرا عندي أي احساس شهواني ، لأن مضاجعة تلك المرأة تحتاج إلى المال أو القوة وليس عندي أي شيء من هذا ولا آمل أن أملكه ذات يوم . لاشك أن الرقة ، تلك الزهرة الانسانية والحيوانية الرائعة تموت بين يديها أو بين ساقيها وكأنها تحترق بالحمض ، فالحياة لم تسمح لها بأن تتثقف بها أو ربما لم تعلم بوجودها ولا تشتاق اليها . وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد أصبحت رغبتي الوحيدة الابتعاد من هناك ، الذهاب،الهرب ، لكنني كنت ممثلاً للسلطة ويجب على ممثل السلطة ألا يهرب ، الا إذا دعت الحاجة لذلك . أجبتها وقد تلعثمت قليلاً :

–تحدثت البارحة مع رئيسي وهو الذي أرسلني لأقول لك أن تسلميها ثيابها .

بدرت منها علامة استغراب ونظرت إلي بامعان : حقاً لقد كانت جميلة ، عيناها سوداوان ، حاجباها كبيران . شفتاها غليظتان ، كانت سمراء . ماذا تفعل معها تلك القبعة والعصا ؟ قالت :

– هل قلت ان الرئيس هو الذي أرسلك : أنطونييتو (٢٢) .

أكدت لها الأمر . لقد كان دون أنطونيو ده لاراثابال هو رئيس قسم التحقيقات ، أي أنه رئيسي .

تابعت المرأة قولها وهي تبتسم هذه المرة :

– ولماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية : انه هنا . . . فقد قضى ليلة البارحة مع لاخوليا . انتظر لحظة ، سأذهب لأتحدث معه . يمكن أن يكون قد استيقظ . . .

دارت نصف دورة وفعلت الشيء نفسه . كان الدرج مايزال مقفراً . اذن دون أنطونيو قضى ليلته هناك ؟ لا أعرف كم الوقت الذي استغرقته المرأة في الوصول إلى الباب الذي وقفت أمامه وطرقته ،

(٢٢) Antonito : أنطونييتو تصغير لاسم أنطونيو . (المترجم)

ربما أعواماً . دمدم صوت نعس بشيء ثم فتحت المشرفة القوادة ودخلت.
نظرت اليها للمرة الأخيرة ، قبل أن تختفي من الخلف وكانت شهية
من الخلف كما من الأمام عندما سوت روبها من جديد فقد كانت
تهتز من الامام إلى الخلف بحذائها العالي الكعبين ورسغيها الناعمين
وساقيها الضخمين وطالما هي كذلك فان ممثل القانون أو السلطة ،
لن يصيبها بأذى . تلك هي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها . فقد أصبحت
في الشارع بعد ذلك بثوان ، وعندما وصلت إلى الرصيف أحسست
بحنق شديد ، لكن ليس ضد الفتاتين . اللتين كانتا وستبقيان للأبد
ضحية هذا الوغد وتلك القوادة ، وانما ضد اللذين زجاني في تلك
الورطة وكان علي أن أنفصل عنهما ان كنت لاأريد أن أرى نفسي
في لحظة لم تخطر لي ببال وقد دخلت في ورطة أدهى . لم أرجع إلى الفندق
بل سافرت في اليوم التالي إلى لاباميا . وعندما عدت إلى منلوثا بعد عدة
شهور ودخلت احدى الزنزانات ، التي قادوني إليها بتهمة تخريب
مزعومة في بعض أعمال الاكساء بالخشب ، التي كنت أكسب بها
مايسد رمقي بمن تراك تظن انني التقيت ؟ لقد التقيت بصديقي ايبنثا
وقد نمت لحيته ورمصت عيناه وجلس في احدى الزوايا على قاعدة
قنينة فارغة تعلوه علائم من لاينتظر إلا ساعة الاعدام . عندما رآني
انفجر بالبكاء :

ـ ماذا حدث لك ؟

لم يقدر على الاجابة . تركته يبكي كما يحلو له : احمرت عيناه من البكاء . بدا أن لحيته تنفتل وخيوط من اللعاب تسيل على شعرها . صار مرعباً فأثار عندي شفقة حقيقية : لاأعرف لماذا شعرت بالعطف على الأحمقين .

ـ سجنوني اثر موت أولغا .

ـ وهل قتلتها ؟

ـ سمت نفسها .

ـ لماذا ؟

وروى لي قصة طويلة تافهة ، سمعتها مكرهاً ، لأنني لم أستطع أن أفتح باب الزنزانة وأشد الرحال .

أطلق سراحي في اليوم التالي وبعد أسابيع عدة انطلقت في عربة شحن باتجاه تشيلي . نزلت في ثانخون أمريو ، حيث تناولت جرعة ماء ورحت أبحث عن رئيس عصابة قديم تعرفت اليه في مندوثا لأسلم عليه ، وكانت قد هبت ريح بدت وكأنها تريد أن تحمل كل شيء إلى النهر . لم أمش كثيراً حتى وقعت على أبينثا في المحطة وهو يرتعد وقد احمرت عيناه وحرقت جلده الريح الجبلية وكانت ثيابه وحذاؤه ممزقة وقدماه أثخنتا بالجراح ، كان جائعاً

ووسخاً . أدخلته في خيمة الرئيس وكأنني أدخل جثة في تابوت حيث قضيت خمسة عشر يوماً في العناية به : التهاب قصبات مرعب . وأخيراً تحسن وتابعنا السفر إلى تشيلي . كنت معه مثل صبي الأعمى ورغم أنني لم أكلمه لأنني قرفته من أعماق نفسي لم أستطع التخلي عنه ، خاصة انني اعلم انه جبان . وكثيراً ماسألني صديقي الرئيس ، ناظراً الي بعينه اليمين لأن اليسرى تغطيها غشاوة : « من هذا الثقيل » ؛ « وكيف يخطر لك أن تجول العالم مع سافل مثل هذا ، يابن بلدي »؟« لاتقل لي شيئاً . ياريرا ، تنتابني ، أحياناً ، رغبة لأن أذهب والقي به في النهر » .

— ٩ —

فجأة بدأ بزوغ الفجر وسناً ناعماً ينبثق من الأرض والجدران . كأن الفضاء يضيء ذاته والظلمة تنقشع ارادياً . لقد شحبت النجوم وراح نهار جديد يزحف باتجاه الكائنات البشرية ، سجناء وطلقاء ، مرضى وأصحاء ، شباب وشيوخ ، بؤساء وأقوياء ، يحمل لهم ماحمل النهار السابق ، أو ماهو أسوأ كالمرض مثلاً ، أو القنوط . نظرت إلى الزنزانة التي كدت أنساها وصعقت اذ رأيت أن الشبك الحديدي كان يشغل الواجهة كلها بينما الجدران تشغل البقية . كانت أبعادها مساوية لأبعاد تلك التي دخلتها في أول مرة أقاد فيها إلى السجن .

كان علي أن أدفع الضريبة بالتقسيط ، اذ لاأحد يستطيع أن يدفعها نقداً ، إلا إذا مات . : الضريبة الاولى كانت تلك والثانية وفاة والدتي والثالثة القبض على والدي والحكم عليه وهذه هي الرابعة . إن لم تخني ذاكرتي . نهض بعض الرجال واقتربوا من الشبك وهو ينظر إلى الفناء كمن ينظر إلى صحراء . كان بينهم بعض الزملاء الذين تعرفت اليهم وتعرفوا إلي ، فابتسموا لي .

دخل الفناء عدد من الحراس . كان الليل يولي وكنت قد قرعت خلاله برأس قدمي مثل راقص أو سباح ، احد أعماقه اللامتناهية التي يطرقها الانسان في حياته : عمقاً يحتوي على سجن جسدي ومعنوي ضيق ، قد يتحمله الانسان أو لايتحمله . لكن عليه أن يقبله ، منذ البداية ، أو أن يرفضه ، أن يرضى به أو يتمرد عليه . رفضته ، لا لأنني لم أستطع تحمله وانما لان شيئاً لم يقل لي أن علي أن أفعل ذلك . وكنت سعيداً به . لوقبلت به وتحملته دون جدل كمن يقبل ويتحمل صفعة أو شتيمة ، لرسخت في ذاتي سابقة شؤم طبعت حياتي المستقبلية ولما عرفت الاعمال والحالات التي قد أتحملها أو أقبلها فيما بعد .

ـــ هيا ، اصطفوا في رتلين ! هيا بسرعة !

— ١٠ —

كانَ الوجه أحمر وتظهر في عدة أماكن منه بثور صغيرة تكاد تنفجر ؛ الشفتان غليظتان ودائمتا الابتلال ، كان اللعاب يفيض عن الفم ؛ وكان اللسان الضخم والبنفسجي اللون يكنسهما باستمرار ، لا ليطريهما ، كما يحدث عادة ، وانما ليسترجع ماأفلت منه . رغم ذلك كانت تقاسيمه حيوية وكلامه عذباً ، لكنه يتلعثم ، ربما لأن غزارة الفرز اللعابي أو حجم لسانه كانت تضطره لذلك ، الشيء الذي يجعله يلفظ بسرعة مايفكر به أو يحتاج لقوله ، اذ لو ترك فمه مفتوحاً برهة طويلة لحدث مايزعجه . صرح انه يدعى فلورينتينو إرناندث وانه رسام ويحمل لقب الأثاركون (٢٣) ولاشك ان ذلك يعود إلى لون وجهه الضارب إلى الحمرة .

— الأثاركون : — صاح لاكاغادا ده موسكا ، عندما سمع اللقب — فعلاً انه لقب ! اسمح لي أن أهنئك . انه اسم على مسمى .

— اثنان ، اثنان — طلب الحارس حين رأى الجميع في الفناء .

لم يبق في الزنزانة إلا القليل من الرجال الشعث والقذرين ، التصقوا

(٢٣) El Azarcon : الأثاركون ؛ اللون البرتقالي الفاقع (المترجم)

بالشبك وراحوا ينظرون إلى الفناء ببلاهة . أما البقية ، المعروفون منهم والمجهولون ، الجدد والمقيمون فقد شكلنا صفاً ونحن صامتون . لم يكن يوجد مانتحدث عنه ، فكل واحد كان يعيش همومه وعنده منها مايكفيه . كانت الوجوه منهكة والثياب بالية مثل الخرق . اقترب الحارس من الجانب الأيسر ويده تحت ذراعه قرب الابط ؛ شعرت بعد قليل بضغط الصف الرفيع والقوي .

— اقترب أنت .

اقترب إلاثاركون مطواعاً . كرر الحارس العملية بذراعه اليمنى . بقينا متخشبين وقد ربط الواحد منا إلى الآخر بانتظار أن يكتمل الصف . وحدها خطوات الحراس كانت تسمع في الفناء . قادونا ، بعد أن ربطونا ، عبر الدهليز وفتحوا لنا الباب وخرجنا اثنين اثنين ، مثل تلاميذ المدارس الذاهبين إلى النزهات . كان الحراس يسيرون إلى جانب الصف بلا سيوف ولا بنادق ، لكن مسدساتهم كانت مشدودة إلى خصورهم . كنا قرابة الخمسين رجلاً ، موزعين ، أو بالأحرى مربوطين اثنين اثنين . الناس الذين شاهدناهم في الشارع كانوا قلة ، والذين صادفناهم راحوا ينظرون الينا بفضول ودون اكتراث : كنا فرجة . كثيرون منا لم يعرفوا كيف يتصرفون بأعينهم ، فبعضنا كان ينظر إلى

الأرض باستمرار وبعضنا الآخر يرمق بسرعة المارة الذين كانوا يطيلون الينا النظر . انتابنا شعور بالاعتزاز فجأة فرفعنا رؤوسنا ونظرنا بازدراء اليهم في محاولة منا كي نوحي اليهم أننا كائنات خطرة . ولكننا كنا نعلم انها ليست إلا طريقة للدفاع عن النفس ، طريقة طفولية ، لكن الانسان يدافع عن نفسه بالطريقة التي يستطيع . وغالباً ماكان الذين ينظرون الينا يجهلون ذلك . هل يمكن لسكران أو لرجل سرق مكنسة أو لذلك الذي لم يفعل سوى أنه صفع أو انه كسر بعض المصابيح في تمرد أن يحمل مكبلاً تحت رقابة الحراس المجهزين بالمسدسات إلى خصورهم ؟ كلا . لاشك أننا كنا أناساً معطوبين ، ورغم أن الكثيرين منا كانوا يشعرون انهم ليسوا إلا تعساء مساكين ، غير قادرين ، معنوياً ، على القيام بأعمال خطيرة ، فقد حاولنا بارادتنا أن نظهر العكس وبذلك سوغنا وجود الشرطة . أما عندما لم يكن هناك من ينظر إلينا فكنا نشعر كم كان ذلك تافهاً ومذلاً .

كانت الشوارع مغطاة بقطع الزجاج والحجارة والاسفلت والورق. قطعنا الجادة التي قلبت فيها الحافلات الكهربائية ، لكنها كانت غير موجودة ، فقد رفعوها أثناء الليل وحملوها إلى المستودعات .

لم تكن الطريق طويلة . أحسست بجوع فظيع ، فتذكرت بتوق قطعة السمك التي التهمتها قبل القاء القبض علي . متى سأعود وآكل

شيئاً ؟ انه أمر مجهول . لم يكن في حوزتي نقود أو أي شيء أستطيع أن أبيعه وأسعى لذلك . كانت تلك المرحلة المستقبلية من حياتي صفحة بيضاء . دخلنا في شارع أبنيته عالية وترابية اللون وكان قصيراً ، أي بطول كيلو أو كيلو متر ونصف كحد أقصى وينتهي عند قدم أحد التلال ، حيث يتحول ، ككل الشوارع ، إلى شيء مختلف . فيفقد عرضه واتجاهه ويتسلق بصعوبة سفح التل تساعده على ذلك أدراج حجرية أو سلالم خشبية مائلة .

كانت النهاية في قسم الموقوفين وهو بناء مصمت متسخ اللون . حيث لاشك أن المحاكم تعمل لما فيه راحة الموقوفين ، الذين ينقلون منها إلى الزنزانات : خطوات قليلة وكل شيء جاهز . تسلقنا بعض الادراج ودرنا في بعض الممرات المزدحمة بالمكاتب الصغيرة ، وحظائر أمناء السر والاستقبال والنسخ، عمال الهاتف والأرشيف والحراس وجميعها كانت مفروشة بما لاغنى عنه : طاولة وكرسي . طاولة أخرى ، كرسي آخر ، وهذا التقويم وذاك ، أرقام سوداء ، أرقام حمراء ، مباصق ، محابر ، محابر كثيرة ، محابر كثيرة جداً . محابر هنا ومحابر هناك ، فالعدالة تحتاج الكثير من المحابر . وأخيراً توقفنا أمام باب ينفتح على قاعة واسعة مرتفعة السقف : قاضي التحقيقات الجنائية الأولى ، تفكك الصف ورحنا نتزاحم ونتجمع ، بينما كان

الحراس يقفون جانباً . أغلقوا الباب وراحوا يفكّون أغلالنا ، إذ لم يعد هناك خوف من هروب أحد . جلسنا على بعض المقاعد المفككة وكان إلى جانبي إلاثاركون الذي اعتاد رفقتي فقدّم لي سجائره .

— قد يصل القاضي قريباً — قال لي وقد مرّر لسانه فوق شفتيه بعد أن لفظ الجملة .

— لماذا ؟

— لن نضطرّ بهذا الشكل إلى الانتظار وسيطلقون سراحنا فوراً .

وفجأة اقترب مني أكثر وسألني بصوت خافت :

— هل معك نقود ؟

وكان هذا السؤال آخر ماكنت أتوقعه اضافةإلى أنه غير مناسب .

— ولا سنتيم واحد .

سحب السيجارة من فمه ونظر إليها : لقد كانت مبلّلة حتى منتصفها . قطعها وألقى بالجزء المبلّل إلى الأرض ووضع القسم الباقي في فمه .

— لاشكّ سوف ندان بالسكر وعقوبته خمسة بيسوات أو خمسة أيام سجن . رخيص ، أليس كذلك ؟

نظر إليّ وكأنه يطلب رأيي . كانت عيناه داكنتين ووديعتي النظرة . أومأت بالإيجاب وأنا أنظر إلى سيجارته : لقد وصل لعابه إلى طرفها . كان بقية الموقوفين صامتين أو يتحدثون بصوت منخفض ، وكأن وجود الحراس يخيفهم . وكان الحراس يجلسون بدورهم إلى أطراف المقاعد الطويلة بصمت وتثاؤب .

ــ ماذا تعمل ؟

ــ دهّان .

ألقى نظرة على ثيابي : الإسبيداج كان ظاهراً للعيان .

ــ لم أنتبه إلى ذلك ــ علّق قائلاً .

نظرت من جهتي إلى ثيابه النظيفة ، التي لاتظهر عليها آثار المهنة ؛ وكانت رغم ذلك متواضعة ، ومن النوع القاسي . تذمّر قائلاً :

ــ لقد ألقوا علي القبض في أسوأ لحظة .

سحب السيجارة من فمه ونظر إليها : كانت قد انطفأت بفعل اللعاب . رماها وتابع :

ــ كنت ذاهباً لأجتمع بامرأة فتية عذّبتني شهوراً ، كانت تقول لي فيها : لا . وما أن قالت نعم حتّى حدث ماتراه . بدلت ثيابي ، بل

وتحمّمت . كانت تستحق ذلك ، لكنني لم أستطع الوصول إليها . أنا واثق أنها تقول عني الآن إنني لوطي . هل ستعلم كيف قضيت الليلة . لاتظن أنني حشرت نفسي في المعمعة : هم الذين حشروني . شيء مؤسف . لقد ضاعت مني ليلة جميلة . لابد سأقع على أخرى ، ألا ترى ذلك ؟

مدّ يده إلى سترته وكأنه يريد أن يخرج سيجارة أخرى ، إلا أنه ندم ولم يخرج شيئاً . لماذا ، إذا كانت لاتكفيه لنفسين اثنين ؟ فرك يديه وأضاف :

ـ أظنّ أنك أنت الذي أمسكتني من يدي ليلاً في الزنزانة ، عندما كنت أسير ضائعاً أكثر من أعمى على مزبلة . أين تعمل ؟

ـ إنني عاطل عن العمل .

ـ مع من كنت تعمل ؟

ـ مع المعلم اميليو داثا .

ـ اميليو ؟

ـ نعم ، اميليو داثا .

تفكّر لحظة :

ـ لا أعرفه .

نظر حوله ، لم يكن يوجد من يراقبنا أو يولينا أدنى اهتمام ، فتمتم :

– معي نقود ، كنت ذاهباً لأجتمع بالفطساء ، فسرقت بيسوين ، هاهما محفوظان جيداً ، لايستطيع الإنسان أن يثق بأحد . إذا أدنا بالسكر فسأدفع عنك الغرامة . كلها لاتتجاوز الخمسة بيسوات . لاتستحق الذكر .

شكرته بحركة من رأسي وكأن الأمر يتعلّق بصفقة رابحة ، وتمّ الاتفاق عليها . عاد ومدّ يده إلى سترته وأخرج علبة سجائره وقدّم لي واحدة :

– دخّن .

– شكراً .

فضّلت ألا أنظر إليه ثانية ، رغم أن التحوّل الذي أصاب سيجارته كان جديراً بذلك : كان لعابه يتدفّق وكأنه يسيل من ماسورة ، لكنه كان رجلاً طيباً وكريماً ولم أكن أودّ أن أصل حدّ ازعاجه بالنظر إليه بهذا القصد .

كأن الموقوفين صاروا حجارة . لاأحد كان يتكلّم .. الجميع بلا حراك ، ماعدا اثنين أو ثلاثة كانوا يدخنون ونظراتهم معلّقة بالأرض ، بالجدران أو بالسقف .. كان خيالهم أو الذكرى تسرح

بعيداً عن المكان أو قريباً جداً منه ، كانوا شاردين وأيديهم إلى أفخاذهم ، متقاطعة فوق بطونهم أو تلعب بعود الثقاب أو بالسيجارة وكان الواحد منهم بعيداً عن الآخر بعد نجم عن شجرة . كانوا يبدون وسخين ، ثيابهم مجعّدة ، يبدو عليهم الأرق ، شعرهم أشعث ، وربما كانوا جياعاً . ولابدّ أنهم يفكرون بزوجاتهم وأولادهم ، إن كانوا متزوّجين وعندهم أولاد ، أو بالعمل ، بمصالحهم الصغيرة ، وبالغرفة التي يشغلونها في بيت مستأجر بالفراش الممزّق ، بآلاف الأشياء الصغيرة التعيسة التي تشغل عقول كائنات ، لاتستطيع ، بفعل الظروف ، أن تفكر بأشياء أكثر ترفعاً . لم يكن رجال الشرطة بدورهم خاليي البال أكثر من غيرهم كما لم يكونوا ليفكروا بأشياء أكثر رفعة : فقد أطال الضجر والملل وجوههم ، يتحرّكون فوق المقاعد ، يشبكون أرجلهم ثم يعيدونها إلى وضعها ويجلسون على هذا الكفل أو ذاك . تمتم أحدهم :

– يالها من ورطة ! في أية ساعة سيصل القاضي ؟

وصل القاضي أخيراً : إنه سيد متوسّط العمر ، نظيف جداً ، أصلع قليلاً ، ممتلىء الكتفين . نظر إلينا شزراً حين كانوا يفتحون له الباب ، فنحن عمله الأول في ذلك اليوم ، تململنا في مقاعدنا ، تنهّدنا ، سعلنا ، بينما نهض الحرّاس على أقدامهم . دخل خلف القاضي ثلاثة أو أربعة موظّفين ، لاشك أنهم موظفون ، كانوا نظيفين ، شبه

مذ يئّنين ، متكبّرين : فلَيَلُهُم كان سعيداً . فتح الباب بعد ذلك بلحظات وصاح أحد أولئك الأشخاص بصوت رنّان :

ــ ليدخل الموقوفون .

أدخلونا صفّاً . كان القاضي يجلس وراء مكتب فوق منصة مغطاة بحصيرة حمراء قاتمة ؛ وقد أسند مرفقيه إلى المكتب وأراح رأسه إلى يديه المتشابكتين تحت ذقنه ، ووضع نظارة . كان النور يدخل من نافذة خلف المكتب . نظر إلينا مثل المارّة ، بفرح وفضول ودون اهتمام . عندما دخل آخر واحد منا وكان الصف طويلاً ، أنزل يديه ونظر في الأوراق . بدا عليه بعض الارتباك ، تردد ثمّ رفع رأسه مرّتين أو ثلاث قبل أن يعزم على الكلام . قال أخيراً متوجهاً بسؤاله إلى أحد الحراس وهو يشير إلينا بحركة من رأسه :

ــ هل يوجد أكثر ؟

تردد الحارس بدوره وأجاب بعد تفكير :

ــ لا ، ياسيدي .

مرّر القاضي يده فوق الأوراق ورفع بعضها ووضع أخرى وبدا كأنه يحصي شيئاً ، قال :

– يوجد هنا أربعة أقسام : نشل ، شجار ، جراح وإخلال بالنظام: وسبعة وثلاثون موقوفاً ! ياللهول ! كأنه اجتماع سياسي .

فكّر لحظة ربما أن العدد جعله يجبن : فمحاكمة واحد ليست مثل محاكمة سبعة وثلاثين . قال بعد ذلك :

– بدرو كارديناس .

– حاضر ياسيدي – أجابه رجل تقدّم نصف خطوة .

– خوان كونتيراس . .

– حاضر – أجاب آخر .

تابع القاضي تلاوة الأسماء وراح يخرج ، مع ذكر كل اسم ، موقوف . قال موجهاً كلامه للحارس :

– دعهم ينتظرون في الخارج .

خرج الرجال دون همّة كبيرة ، فالخروج كان يعني لهم الانتظار أكثر . لم يبق غيرنا ، نحن الذين أوقفونا بسبب الشجار والاخلال بالنظام . ومع ذلك فقد بدا القاضي مضطرباً . تمتم :

– لا أفهم . .

نهض السكرتير واقترب منه متبادلاً معه بعض الكلمات بصوت

خافت ، فسلّمه القاضي إحدى تلك الأوراق ، التي نظر فيها وراح يتلو اسماء أخرى دون أي تردّد . ما أن انتهى حتى أصبح في القاعة ثلاث مجموعات . أعاد الورقة ، بعد ذلك ، إلى القاضي وانسحب إلى مكتبه الذي كان أصغر وأقل ارتفاعاً ويقع جانباً . نظر القاضي إلينا من جديد وقال بصوت بطيء ومتردّد موجهاً كلامه إلى إحدى المجموعات :

— اخلال بالنظام ، تشاجر ، كسر مصابيح ، قلب حافلات . . . بماذا ستتعللّون ؟

تقدّم أحد الرجال وأعطى بعض التوضيحات التي لم يفهم أحد منها شيئاً ، لكن فُهِمَ أنه لم يكن مذنباً وأوقف خطأ : كان يسير في شارع وظهرت مجموعة من الناس في شارع آخر ، لم يتمكن من الافلات فألقوا عليه القبض خالطين بينه وبين الآخرين . أصغى إليه القاضي بضجر وبلا اكتراث ، وكأن الرجل قد قال له أشياء سمعها مرّات كثيرة وعرفها عن ظهر قلب ، فلم يكن فيها أي جديد . وكرر آخر الاسطوانة نفسها والسكرتير يكتب على ورقة ويرفع رأسه بين الحين والآخر إلى أولئك الذين كانوا يتلعثمون ، بينما القاضي ينقر بأنامله فوق الورق ويسند رأسه إلى يده ، ينقل بصره بين المستجوب والورق وبقية الموقوفين ، وبين السقف والأرض . كان يبدو مضطرباً ومنهكاً .

الذين تكلّموا كانوا ثلاثة فقط ، فقد فهم الآخرون أنّ من الحماقة تكرار ماقيل وبما أنه كان صعباً عليهم قول أشياء جديدة لزموا الصمت . لقد قيل كل شيء ولم يكن بمقدور أحد أن يضيف شيئاً إلى ماقيل وخاصة القاضي .

لكنه تكلّم فجأة رافعاً رأسه عن يده التي كانت تسنده :

ــ سجن خمسة أيام أو غرامة خمسة بيسوات . خذوهم .

خرج الرجال فرحين بشكل متعثّر . بقيت هناك مجموعتان . قال القاضي مخاطباً مجموعة منهما :

ــ حالتكم أشد خطورة : اعتداء وتسبّب بالجراح . يقول التقرير أنكم جرحتم عدداً من رجال الشرطة .

تقدّم رجل طويل وقويّ ، له شعر أجعد ، شديد السواد وثياب ممزّقة ووجه مزرقّ ، وقال بصوت ضخم وعنيف بينما راح ينقّل بصره بين القاضي ورفاقه :

ــ يقول سيادتكم جراحاً ! أنا أوقفت بهتاناً وأنا خارج من أحد البارات . اساءتي الوحيدة هي أنني شربت ليتراً من النبيذ ، نخب صحتي . لووا ذراعي ولكموني على وجهي وضربوني عدة مرات بالعصا على

رأسي . انظر كيف حوّلوا ثيابي . لم أعتد على أحد ولا أعرف حتى الآن لماذا أنا موقوف .

التفت القاضي إلى السكرتير وكأنه يطلب منه المساعدة ، لكنه لم يدر كيف يقدّمها له : كانت نبرة الرجل مقنعة تماماً ووجهه قد ضرب ضرباً مبرحاً وثيابه تمزّقت شرّ تمزّق مما جعل من المستحيل تكذيبه أو إدانته .

قال القاضي أخيراً مخاطباً أحد الحرّاس وسأله :

ــ هل عاد أحد الشرطة مجروحاً ؟

ــ كلا ، ياسيدي ــ أجاب الحارس .

ــ لاتوجد براهين ــ قال القاضي وهو يمرّر نظره فوق مجموعة الرجال ، الذين قضوا الليل سهراً ؛ وسأل أحد الموقوفين ــ : وأنت ؟

كان المسؤول هو إلاّثاركون ، الذي أخرج لسانه ومرّره على شفتيه بسرعة ، كان عليه أن يحتاط للأمر . قال متلعثماً وكأن لسانه لايساعده :

ــ لست أدري ، ياسيدي ، لم أتشاجر مع أحد . لا أحد تشجار معي ، لا أحد ضربني ولم أضرب أحداً .

توقّف ، ربما لأن اللعاب ملأ فمه وأضاف وهو يبتلع شيئاً كثيفاً :

ـ أنا رجل عمل ولا أتشاجر مع أحد وآخر ما أفكّر به هو الشجار مع الشرطة الرابحة دوماً .

ابتسم القاضي ، فهو بدوره كان يعرف ذلك ، رغم أن هذه المعرفة لا تخفّف عنه شيئاً . ليس هناك إثباتات والشركة ، صاحبة الحافلات ، لم تطالب بالعربات المحطّمة ولا بالمصابيح المكسّرة ، علماً بأنها صاحبة الشيئين ؛ فهي ستعوّض ذلك برفع التسعيرة ، لا أحد كان يتهم أولئك الرجال ، إلا التقرير ، الذي كان يصعب فهمه ، ومما ساهم في تعقيد الأمور عدم وجود شرطيّ واحد جريح . وهنا قال بصوت أقل سلطوية :

ـ خمسة أيام سجن أو خمسة بيسوات غرامة . هيا إلى الخارج .

بدا أنه تحرر من ثقل . خرج الرجال بفرح وسرعة . أثناء الخروج قام إلا ' ثاَركون بحركة ودية نحوي فهمت : عليّ أن أنتظر حتى يدفع الغرامة عنّي . . . رغم أنه لا فائدة قد ترجى من الانتظار . تصوّرته بعد نصف ساعة من خروجنا من المحكمة باتجاه الزنزانات ، جالساً على أحد المقاعد أو متنزّهاً في أحد الممرات ووجهه مليء بالبثور التي توشك على الانفجار وجلده أحمر ولسانه يجفّف شفتيه الرطبتين وعلبة سجائره قد فرغت ، بعد أن ملأ الأرض بأعقاب السجائر المبلّلة .

كيف أقنع القاضي أنه لاعلاقة لي بعملية السطو على محل المجوهرات ولم أر الرجال الذين يحتمل أنهم قاموا بالعملية ، وإنني لا أعرف حتى اسم الشارع الذي وقعت فيه عملية السطو تلك وأنني ، إضافة إلى ذلك كله ، رجل نزيه ، أو أنني مقتنع بأنني كذلك . هو بدوره لايستطيع أن يبرهن العكس ، لأنه لايملك أي دليل ، لكن يوجد تقرير ملعون ورد فيه اسمي ، إلى جانب اسماء أخرى واسم صاحب المتجر المسروق ، الذي حضر كمدّعي . كان هذا الموضوع أكثر جدية . فالقاضي هو القاضي وأنا لست سوى موقوف عليه أن يصدق التقرير ويؤمن به إلى أن يتم التوصّل ، بطريقة غريبة ، أو بسيطة ، إلى اثبات العكس . قد يتلطّف القاضي في هذه الحال ويصدق عكس ما أثبته التقرير ، إلا إذا أثبت أحد ما وبطريقة غريبة أو بسيطة ، عكس العكس الذي يثبته التقرير . أية شياطين رتبت تلك الورطة : هل هو شرطيّ ؟ وإن لم يكن كذلك فمن سيكون ؟ ربما الضابط الرطب الشارب أو أي شخص آخر جاف الشارب . ما أهمية ذلك فقد يكون المحرر هذا أو ذاك . إذا كان لايثق بالشرطة ، فبمن سيثق إذن ؟ فهو لو وثق بالمتهم ، لفقدت الورقة قيمتها .

— أنت متّهم .

- ١١ -

بعد ذلك المساء المضني والليل الطويل ، كلّ منهما بتمرّده ومشاداته وجريه ، وبعد قسم الشرطة والسكران وقسم التحقيقات بصمته وظلمته ، بصراصيره وبقّه ، وبعد عرض الشارع والعار الذي ترتب عنه ، والمحكمة وقاضيها المرتبك والانتظار والاستجواب والنهاية المدهشة ، التي لافرح فيها ولا ظرافة ، وجدنا زنزانة قسم التوقيف مكاناً يكاد يكون مريحاً ، واسعاً ومليئاً بالنور وكانت أرضها الاسمنتية قد نظفت قبل قليل ، وكانت ذات قضبان عالية وعريضة ونوافذها فارعة ومستطيلة على الجوانب .

قفل الحارس وبقينا ، نحن الثمانية الرجال ، هناك مقابل سكان الزنزانة العشرين أو الثلاثين ، الذين كان بينهم الفتية والرجال الأشداء وأفراد يرتدون الصدريات والقبّات وربطات العنق والقبعات وآخرون حفاة بالقمصان الداخلية ، رجال جهمون وجلون وآخرون جريئون وفرحون ، ليس بينهم من نعرفه ولا من ابتسم لنا أو استقبلنا . انهالت علينا النظرات بفضول وبلا اكتراث أيضاً وعبّرت نظراتنا عن الشيء نفسه ، إضافة إلى الحذر الذي يكون عند من يدخل مكاناً يأهله أناس لايعرفهم . الرجال الذين كانوا هناك هم بشكل أو بآخر أصدقاء بل

ورفاق أيضاً ، أو على الأقل يعرف بعضهم بعضاً ، فهم معاً منذ عدة أيام ، أما نحن فلا أحد منّا يعرف الآخر لأننا لم نجتمع إلا منذ ساعات قليلة ولم تتح لنا ، حتّى تلك اللحظة ، الفرصة للتحدث إلى بعض ، رغم أننا كنا نحاكم أو سنحاكم للسبب نفسه ، وكنت أسوأهم وضعاً ، فهم ، أي رفاقي في القضية ، كان لكل منهم ، على الأقل ، بيت ، أو عائلة في تلك المدينة ، بينما لم يكن عندي أحد .

انفصلنا منذ اللحظة الأولى ، أو بالأحرى انفصلت أو فصلوني ، فأنا لا أعرف تماماً إن كان ما حدث هو هذا أو ذاك ، وتشكلت ثلاث مجموعات : الأولى من أربعة رجال والثانية من ثلاثة والأخيرة من واحد ، هذا إذا كان باستطاعتنا أن نسمي الواحد مجموعة . وقد بحثت كل مجموعة عن المكان الذي استطاعت أن تجده . على الدكة كانت توجد ثياب نوم وكذلك شبكة سرير وبطانيات ومفارش من كل الأنواع بل وملاحف أيضاً . إنه لترف لامثيل له . جلس إلى أحد الأسرة أربعة أشخاص راحوا يتحدّثون ، كانوا متوسطي الاعمار ، نظيفين ، رغم أنهم مهملون ، فلحاهم كانت طويلة وشعورهم شعثاء ، كأنهم يجهلون أن في الزنزانة أناساً آخرين ، افترضت من خلال مظهرهم ، أنهم لصوص . لم أدر لماذا كان مظهرهم مألوفاً بالنسبة لي ، أو على الأقل ، لم يكن غريباً عني . وكان هناك أيضاً أشخاص آخرون بعيدون ، يجلسون

على حافة الدكة أو يستندون إلى الجدار ، دون أن يدري أحد من هم ولا بماذا يفكرون ، بدوا لي قصاة ، غرباء عن زملائهم في الزنزانة وكان هناك أيضاً مجموعات من رجلين أو ثلاثة . بدا لي أن وضعهم مختلف عن الأولين والمختلفين أيضاً عن الانطوائيين . وكان هناك أخيراً مجموعة من الشباب الأقوياء والرشيقي القوام ، حركاتهم صلبة وكانوا في معظمهم حفاة وبالقمصان الداخلية . وكانت نظراتهم هي الأكثر عرياً . بالكاد نظر إلينا الرجالُ الأربعةُ ، أما الانطوائيون فقد فعلوا ذلك بتعابير حزينة ، والحائرون بانتباه وسرعة ، والآخرون بنظرة قاسية وباردة .

نظرت إلى الجميع بينما كنت جالساً على الدكة . كانت أحاديثهم تصلني ، لكنني لم أستطع أن أركّز انتباهي على أيّ منها ، فهي كثيرة ، إضافة إلى أن رجال المجموعة الأخيرة كانوا يتحدثون بصوت عال ويضحكون بصوت أعلى وأشعر بالاعياء والجوع وفتور الهمّة ، ولم أشعر قط بمثل ذلك العجز ، خاصة وأنه ليس لدى الانسان مايقوم به في السجن إلا انتظار مرور الزمن الذي لابدّ أن يأتي بشيء . لا أحد كان يعرفني هناك ، كما لم يأت من يسألني ، مثلما كان يحدث في أزمنة أخرى ، لماذا ذهبوا بي إلى هناك ، وماذا ارتكبت ، فأنا لم أعد الصبيّ ، ابن الإثني عشر عاماً ، كما لم يعد هناك من يسألني ، إذا

سمع اسمي إن كنت ابن الغابيغو ، فالغابيغو مجهول هناك تماماً مثل فلا ماريون ، الشيء الذي كان يواسيني قليلاً هو أنه كانت لي هيئة رجل ، رغم أنني كنت يافعاً تماماً ، كان هذا يقف عائقاً في وجه أيّ دافع . أن تكون في حافلة ، في عربة قطار ، أو مسرح ، وبرفقة أناس تجهلهم ، فهذا يسبب لك بعض الخوف ، الشيء الذي لايحدث لجميع الناس ، لاترتاح ، رغم أنك تشرد أحياناً ، ورغم ذلك عليك ألا تخاف أيّ شيء مزعج ، إلاّ في الحالات الاستثنائية ، فلا أحد سيعتدي عليك ، أو سيحاول أن يسرقك ، ثم لا أحد سيضمر لك السوء ، قد يسرقونك ، إذا كنت تحمل نقوداً ، لأن السارق كثيراً مايجهل المسروق، لكن أن تكون وحيداً ، في الزنزانة ، ومجهولاً ، وليس عندك من يقف إلى جانبك ، لا في الداخل ولا في الخارج ، ولست واثقاً أنك سجين لعمل اقترفته فعلاً وقد يفيدك كسابقة — قتلت ، سرقت ، جرحت رجلاً ، احتلت ، احتَرِمْني ، فأنا لست شخصاً عادياً ، وأستطيع أن أعود لأقتل،أسرق ، أجرح وأن أحتال على أي شخص ، عليك ، أو على الآخر — أن تكون ، أخيراً ، أدنى مؤهلاتحيث يوجد آخرون يملكون الكثير منها ، حتى ولو كانت سيّئة ، دون أن يكون لديك أيّ مؤهل آخر : — القوّة ، الدهاء ، السيطرة ، السهولة في الكلام ، المال— فهذا أسوأ شيء،خاصة إذا كنت لا تستطيع أنتبرهن عن مؤهلاتكالجيدة.

عرفت وشعرت أن اللصوص لن يتعرضوا لي ، اذ لم يكن عندي مايسرقونه ، وحتى لوكان عندي فهم لن يفعلوا ذلك ؛ والانطوائيون كانوا انطوائيين ، والرجال الذين كانوا يشكلون مجموعات من اثنين أو ثلاثة لم يعيروني انتباهاً ، كنت أخاف الآخرين ، لماذا ؟ كان فيهم شيء يخيفني ، خاصة شبابهم القاسي الذي كان يتعارض مع شبابي ، المتميز بالهدوء ، ووقاحتهم وتوترهم وقوتهم غير الانسانية ، شبه الحيوانية ، التي لم أكن أعرفها جيداً لكنها تبدو في حركاتهم وأصواتهم ونظراتهم . كنت أجهل ماقد يفعلونه معي ، ربما لن يفعلوا شيئاً ، وربما لم يكن لاحساسي بالخوف أي أساس وان الزمن : يوماً ، يومين ، ثلاثة ، سوف يزيله ، لكنني لم أستطع وقتها التخلص منه . كنت أحس بخلاف بيني وبين اللصوص ، خلاف في العمر ، في الوضع ، وفي المشاغل ، وكذلك بيني وبين الانطوائيين وشبه الانطوائيين — كانوا يتحدثون ، لكنهم وحيدون — لكن الخلاف بيني وبين أولئك كان ، رغم تساوي السن ، أو بسببه ، استثنائياً ، يكاد يكون نوعياً ، قد لايكون طبيعياً ، لكنه ، على أي حال ، واضح وفظيع .

كنت أعرفهم بالسماع ، ليس أولئك ، بل آخرون ، مثلهم ، فقد سمعت والدي وكذلك أشخاصاً آخرين يتحدثون عنهم وقرأت عنهم في الصحف اليومية ، وكان باستطاعتي ، في زنزانة فيها ثلاثون

أو خمسون شخصاً وفي أي بلد ، أن أشير اليهم واحداً واحداً ، دون أن أتردد أو أخطىء ، خاصة اذا كانوا في مجموعة منفردة . فيهم شيء، لاأعرف ماهيته ، لكنني أعرفه بسهولة : الشعر ، شكل الفم ، الذي يكاد يكون كبيراً دائماً ، الشفاه الغليظة وغير المستحبة ، العيون الكروية والحيوية ، بنظراتها السريعة ، الأذرع والايدي ذات الخفة الحيوانية ، القبضات القاسية ، آه ماأقساها ، السيقان الطويلة ، والجسم الخالي من الشحم ، هنـاك من لهم شـكل آخر ، لكن مهمـا كان شكل الواحد منهم ، ففيهم شيء يسمح دائماً بمعرفتهم . وليس ذلك التباين وليد تلك اللحظة أو وليد أيام قليلة مضت ، فهو موجود دائماً ، منذ الطفولة ، منذ الخطوات الأولى ، منذ اللجلجات والألعاب الاولى . قليلون هم الذين يعرفون التباين القائم بين شخص تأدب في بيت تسوده النظافة وبعض النظام والمبادىء الأخلاقية — رغم أن هؤلاء ليسوا دائماً من الناس الأكثر ذكاء أو أنهم ، كما في حالتي ، أبناء لأب عمله من تلك الأعمال التي لاتقال بصوت عال، وآخر لم يملك مايسمى مأوى ، أو بيتاً منفصلاً أو غرفاً في بيت منفصل وانما غرفة في بيت حقير يتكوم فيها الأب والأم والابناء والصهر وأحد الأخوال أو الأقرباء ، وهي بلا نور ، ولاهواء ، بلا نظافة ولاترتيب ، بلا ارشادات ولا أي نوع من المبادىء ، سواء كانت أخلاقية ، أو من أية طبيعة أخرى ،

حيث لايكاد يصل الأب يوماً إلا سكران ، يصرخ ، يثير فضيحة ، يضرب الزوجة والاطفال وأحياناً الخال والصهر أو القريب ، غرفة لاتحتوي دائماً على مايؤكل ، او بالاحرى ، لايعرف متى تحتوي على مايؤكل وماذا يؤكل ؛ فالأب لايعمل أو لايريد أن يعمل والخال عاجز والقريب يأكل حيث يستطيع ان تمكن ، والصهر يشرب أيضاً أو لا يعمل أو لا يريد أن يعمل، فهو عامل يومي أو تاجر من الدرجة الدنيا : يلتقط الأوراق أو العظام أو براز الكلاب للمدابغ أو من يدري لأية شياطين ؛ الزوجة تغسل أو تشحذ ؛ والأطفال يأكلون مايقدمونه لهم عندما يستطيعون أن يقدموا لهم شيئاً أو مايطلبونه أو يقدمه لهم الجيران الذين لايستطيعون دائماً أن يقدموا شيئاً وان ارادوا فلا يستطيعون ؛ أحياناً يسرقون – فالجوع يجبرهم على ذلك – ينظرون ويشعرون بقذارة الحياة من فوقهم ومن حولهم لأعوام وأعوام لامتناهية ، فلا يستطيعون التفكير بشيء سوى سد الرمق ، ومن لايفكر إلا بسد رمقه ينتهي إلى أن يصبح وغداً ؛ الطعام أولاً ومن أجل الطعام يلجأ المرء إلى جميع الوسائل ؛ ينقذ البعض نفسه ، لكن في المدينة مئات وآلاف المجموعات العائلية من هذا النوع ويخرج من هذه المئات والآلاف مئات وآلاف الأطفال ومن هؤلاء الآلاف من الاطفال يخرج أولئك الرجال ، بضع مئات ليس أكثر ، لكنهم لامحالة خارجون . ان الضرب والجرح

والتكسير بالنسبة لهم عادة مكتسبة ، تصل حد أنها تبدو لهم طبيعية ، انها عادة ، ياللفظاعة ، تعني طريقة لكسب العيش ، كي يستطيعوا أن يأكلوا ، أن يشربوا ويلبسوا ، لايمكن أن يلاموا أبداً ليس ذنبهم أنهم اصبحوا على ما هم عليه أو كما هم ، لكنني كنت أخافهم ، كما يخاف حيوان دجن حيواناً نشأ في حالة وحشية .

كانت عيناي تنغلقان من النعاس ، فاستلقيت إلى الخلف وتمددت على الدكة ؛ نمت ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات على الخشب القاسي ، واستيقظت ، عندما هزني شخص ، وكان أحد الانطوائيين ، الذي كان جالساً إلى جانبي ، وكلمني :

ــ هه ــ همهمت نصف نائم .

ــ هل أنت أنيثيتو ايبيا ؟

ــ نعم ــ أجبته وأنا أستغرب أن أحداً كان يعرف اسمي هناك ، ثم نهضت .

أشار الانطوائي إلى القضبان وقال :

ــ لك غداء هناك .

ــ لي أنا ؟ ــ تمتمت بدهشة أكبر .

لوقال لي انهم جاؤوني ببطاقة ابحار لما كانت دهشتي أكبر .

ــ نعم،يبدو انه لك،اذ لايوجد شخص آخر يدعى أنيثيتو ايبيا.

نظرت إلى القضبان غير مصدق فرأيت غلاماً في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره وقد ابتند اليها وراح ينظر إلي مبتسماً. مرر «السفرطاس» من خلال القضبان ، بتأن بعد أن حناه قليلاً وصرخ منفعلاً بسبب تأخري :

– هيا ، أسرع .

هل كان ذلك الغداء لي فعلاً ؟ نهضت ببطء وتقدمت إلى حيث الغلام الصغير ، الذي رفع رأسه وابتسم من جديد ابتسامة تكشفت عن أسنان كبيرة ووسخة .

– هل أنت أنيثيتو ايبيا ؟

– نعم أنا – أكدت له .

نظرت اليه فاغر الفم وتناولت « السفرطاس » ، الذي بقي متدلياً إلى يدي دون أن أعلم ماأفعل به وعندما أدار الغلام جسمه وكاد يشرع في السير أو الجري خطر لي أن أسأله :

– من أرسله لي ؟

هز الصغير كتفيه . كان حافياً ، بالي الثياب ، لايرتدي قميصاً ، يقطع صدره العاري إسار ، يسند بنطالاً كبيراً عليه .

– لاأدري – قال وقد استغرب سؤالي – دفعوا ثمنه وقالوا لي اسمك فجئتك به ، منذ نصف ساعة وأنا أبحث عنك . اذا لم تأكله فانه سيبرد .

لم يرض ذلك فضولي :

– ألم تر الذي دفع ثمنه ؟

– بلى ، انه رجل وردي محفر الوجه .

وركض . انه إلاثاركون ! – بالتأكيد ، فهو الوحيد الذي كان يستطيع أن يقوم بذلك،اذ لاأحد في ذلك الميناء كان يعرف انني سجين أو يحتاج إلى معرفته ، ثم انه ليس لي أي واجب على أحد ، الا اذا اعتبرنا التبرع بدفع الغرامة واجباً ، وبما انه لم يستطع دفعها ، فقد قام بواجبه بتلك الطريقة . آه ، ماأكرم فلورينتيو ايرناندث ! تلك كانت المرة الوحيدة التي أرسل لي فيها شيئاً والأخيرة التي عرفت فيها عنه شيئاً ، فالعمل والنساء القطساوات ، كما كان يقول ، والفقر أو المرض كان يمنعه من تذكري ، أنا الذي ليس لي عليه أدنى واجب . (لاأعلم أين أنت الآن ،أيها الدهان المتواضع في الميناء ولا ان كنت ميتاً أم أنك مثلي أو أكثر مني شيخوخة ، ولكن مهما يكن ولتكن أينما كنت ومهما بلغ بك الكبر أو التخشب ، فأنا لن أنسى اسمك وصورتك ،

ولاشفتيك الغليظتين وجلدك الوردي ، ولا لسانك الضخم وفمك الرطب ، كما انني لن انسى غداءك) .

حين التفت لاحظت أن عيوناً كثيرة كانت تنظر إلي – البعض منها باندهاش والبعض الآخر بظرافة ، ولاأدري ان كان هناك أخرى ترمقني بحقد أو حسد – . اجتزت المسافة التي تفصلني عن مكاني وكلي احساس بأنني لاأحمل « سفرطاساً » كبيراً ، بل آخر ضخماً يعوقوني عن السير ، لأنه مملوء بالديوك الرومية ، بالفراريج ، بالدجاج ، أو بسيقان حيوانات بكاملها . وصلت إلى حافة الدكة وجلست دون أن أعلم ماذا أفعل ، وكنت منحني الرأس وبي بعض الارتباك . سمعت صوتاً :

– كل والا برد .

نظرت إلى مكلمي ، فكان الانطوائي الذي أيقظني . كان يبتسم ويشير إلى « السفرطاس » .

– كل – قال بالحاح .

ربما لاحظ ارتباكي .

انحنيت فوق « السفرطاس » ونزعت غطاءه : كاد يغمى علي ، فقد كانت تنبعث منه أشهى رائحة طعام شممتها في حياتي وتلمع فوق

المرق بعض قطرات الشحم الصفراء الشفافة . كان يحتوي على البطاطا وقطعة لحم وبصل وغصن من البقدونس وقطعة من ورق ملفوف ونصف جزرة ، بالإضافة إلى بعض حبات الأرز . وتدفق اللعاب من فمي كما كان يتدفق من فم إلاثأركون ، مما اضطرني أن أشد على شفتي وأبلعه كي لايخرج منه ، لم يكن عندي ماآكل بـه فنظرت إلى الانطوائي ، الذي نهض مقترباً من الجـدار وقلب صرة وعـاد إلي بملعقة وشوكة .

— لاأملك سكيناً — قال كمن يعتذر — لايسمحون لنا بها هنا .

شكرته على معروفه وشرعت بتناول الطعام بينما رحت أخرج الصحن الذي كان في الحلة ، لكنني توقفت ونظرت إلى الانطوائي .

— هل تريد ؟ — قلت له مشيراً إلى « السفرطاس » .

— شكراً ، لقد تناولت غدائي — أجاب بكبرياء عالية وربما ببعض الحياء .

لم أبغ النظر إلى جهة أخرى ، أكلت ، ببطء حيناً ، وبارتباك حيناً آخر . كان تحت الفسقية التي فيهـا الحلة فسقية أخرى فيهـا لحم مشوي وحساء وحمص وقليل من السلطة . لقد كان غداء بكل معنى الكلمة ، اذ رغم جوعي الشديد لم أستطع أن آتي عليه ، حتى

أن الدهشة والارتباك سيطرا علي . أخيراً أغلقت « السفرطاس » وأنهيت الغداء بعد أن تركت قليلاً من مسحوق البطاطا وقطعة لحم ، كانت من القساوة بحيث يستحيل تقطيعها بالأسنان واليدين .

نظرت باتجاه القضبان ، كان يمتد خلفها ، من اليمين إلى اليسار ، ممر يبدأ عند الباب ويمضي باتجاه داخل السجن ، وكان ، كما رأيت ، مزدحماً : حراس وأطفال وسجناء وسادة بثياب أنيقة وكلب أو كلبان ، يروحون ويغدون ، يحملون صرراً وسلالاً وأوراقاً والكلبان يشمان بقايا الطعام . رغم الضجة التي كانت تنتج عن الأحاديث والأصوات في الزنزانة التي كنت فيها ، فقد كان باستطاعة المرء ، اذا أصاخ السمع ، أن يسمع ضجة الزنزانات الأخرى : شخص ينادي شخصاً آخر فيجيبه هذا الشخص أو يروح ويغدو ، كانوا بشكل عام من الاطفال الصغار ، البالي الثياب ، الذين يبدو أنهم يقومون بدور السعاة . يرتفع فجأة صوت جهور : « رقيب الحرس » ، أو يسمع أحد ما يصفر صفيراً حاداً . وبينما كنت أنظر ، راحت تنبعث أغنية من إحدى زوايا الزنزانة ، كانت تُغَنّى بصوت منخفض وترنم بعمق وحدة ، ثم بصوت مرتفع ، صوت غطى على بقية الأصوات عند مطلع بيت المقطوعة ، لايلبث أن تغطي عليه الأصوات الأخرى ، التي كانت تلفه وتختلط به وتمتصه إلى أن يعود ويرتفع من جديد وكأنه قادم من

مكان قصي . سمعت في بداية المقطوعة التالية . نغمات تشبه نغمات معزف يدوي في ليل شارع مقفر داخل بيت مغلق . كانت كلماتها وأفكارها بسيطة ، إلى حد أنها بدت عادية ، لكن النغمة والعاطفة اللتين غنيت بهما أضفتا عليها معنى مذهلاً . استدرت برأسي : كان الفتيان مستلقين بأجسامهم وقد حنوا رؤوسهم وجمعوها كأنهم حول دائرة وهم يغنون . نظـرت إلى وجوههـم ، التي طـرأ عليهـا تحول ، كأن شيئاً ، انبثق منهم فجأة ، سيطر عليهم ، شيء غير متوقع في تلك الوجوه التي لاتعكس إلا الإحساسات العضلية . هل كان حزناً ؟ هل كان ذكرى أيامهم أم لياليهم الحرة ؟ أم أن ذلك جاء أرواحهم بشيء لا يمت لهم بصلة وانه منح لهم لتلك اللحظة فقط ، فلطف أفعالهم الانعكاسية الأساسية ، لهنيهة ؟ لم أكن أستطيع قوله ، حتى ولو مازلت أعرفه ، لكنه أربكني كما يرتبك من يرى ملمح جمال خفي في وجه قبيح ، أو كما يرتبك من يرى في رجل مهزوم شيئاً يوحي بتمايز ما خفي .

كان الصمت قد ساد الزنزانة وراحت الأغنية تنتشر بحدة كبيرة دون أن تفقد أياً من نغماتها .

بينما كنت أصغي ، اكتشفت شخصاً لم يكن في الزنزانة من قبل . لم أره عندما دخلت ولا أثناء وجودي فيها قبل وصول غدائي ، ربما

وصل أثناء نومي . كان في حدود الثلاثين أو الأربعين من العمر ، أسمر ، رشيقاً ، حليقاً تماماً ، رقيقاً جداً ، يرتدي بدلة زرقاء حسنة الصباغ ويضع قبة وربطة عنق وصدرية وكانت قبعته القشية ، لاتتكشف عن أية لطخة . كان يبدو غريباً ، جلس إلى حافة الدكة ، على حافتها تماماً ، وكأنه لايفكر بالبقاء هناك زمناً طويلاً وينتظر الشخص الذي يحتاجه ، بين لحظة وأخرى أو أن تعلن الدقيقة التي سيغادر فيها المكان ، الذي يعتقد ، كما كان واضحاً ، انه انتقالي . ويدل مظهره على انه في قاعة انتظار في محطة قطار . وهذا موقف غير معقول في زنزانة ، إلا أن هناك أشخاصاً يدخلونها وهم على ثقة من أنهم لن يبقوا فيها أكثر من نصف ساعة أو ساعة كحد أقصى . انهم يثقون بأصدقائهم ومحاميهم وقضيتهم ، وأموالهم وينسون أن الزنزانة هي الزنزانة والقضية هي القضية . وانه يمكن أن يطلق سراحهم خلال ساعتين أو خلال شهرين أو سنتين ، لكن هذا يحدث فقط لمن ليس لهم أصدقاء ولامحامين ولاأمل ولاإيمان إطلاقاً بسرعة الأنظمة القضائية . كان يضع رجلاً فوق أخرى ، فظهر جوربه الحريري الأسود الشفاف الرائع . قد يكون مهرب تبوغ أو جوارب أو وسكي . بدا عليه الاضطراب ، لماذا لم يأتوا حتى الآن لإخراجه ؟ مدّ يده فجأة إلى جيب صدريته الأيسر وأخرج شيئاً لم يلبث أن نظر اليه : كانت ساعة ذهبية . ضغط المعبئة فقفز الغطاء ،

الذي نشر عند انفتاحه بريقاً ذهبياً أضاء الزنزانة بكاملها . نظر إلى الساعة ـ ضغط الغطاء الذي أحدث صوتاً جافاً وأعادها إلى جيبه .

انقطعت الأغنية لبرهة قصيرة،لثانية أو لأقل من الثانية ثم ناست مثل موجة ارتطمت بعائق لم يوقفها وانما غير اتجاهها . تغيرت النغمة ، خفت حدتها وعاطفتها وتوقفت فجأة . نظر الانطوائي إلي وهز رأسه بما ينم أن شيئاً حدث أو سيحدث لكنه يؤلمه . لم يلحظ الرجل شيئاً ، فقد كان غارقاً تماماً فيما ينتظره وتابع النظر إلى القضبان بأمل أن يرى بين لحظة وأخرى محاميه وضابط الحرس ومعه أمر اخلاء السبيل له . حدثت حركة في زاوية الغناء : اندفع بعض الفتيان باتجاه يسار الدكة وآخرون باتجاه يمينها واثنان باتجاه القضبان وراحا ينظران من خلالها إلى الخارج ، كأنهما يبحثان عن شخص ما . ثم عادا ووقفا أمامنا . تلاشى عنهم سحر الغناء وعادت إلى وجوههم جهامة القلق من جديد : وقعت عيونهم على ساعة ذهبية . لم يرفع الرجل الانطوائي بصره عن البدلة الزرقاء والجوارب الحريرية ، أنا أيضاً كنت أنظر اليه وأشعر بالقلق . ماذا سيحدث ؟ تقدم الفتيان اللذان كانا قرب القضبان إلى الأمام وكذلك الذين ركضوا نحو اليمين ونحو اليسار من حافة الدكة : لقد انغلقت الدائرة . رموه فجأة إلى الخلف فأطلق شيئاً شبيهاً بالدمدمة الحيوانية وفي الوقت نفسه رفع ساقيه وراح يرفس بضيق واختناق .

لقد رمى ثمانية أو عشرة فتيان بأنفسهم فوقه وثبتوه لثانية واحدة. فظهر الرجل بعد تلك الثانية مرفوعاً يدور في الهواء ، مثل دمية ، وقد أمسكه أحدهم من ذراعه بقسوة ولم يفلته إلا بعد أن جعله يفتل فتلتين أو ثلاثاً بعنف أقسى ، سقط بعدها على الأرض مثل كيس وفقد كل هدوئه الرائع وتخرّب شعره الذي طارت عنه القبعة وانفتحت صدريته وراح يلهث دائخاً . . . حدث كل شيء بخفة ، لايستطيع معها أحد منا ، نحن الذين حضرنا المشهد ، أن يقول كيف حدث ذلك ولامن هم الذين شاركوا فيه ، فهم ، رغم كل شيء ، متشابهون بحركاتهم ولباسهم ووجوههم ونظراتهم مما يجعل من الصعب تحديد هوياتهم ، خاصة في لحظة مثل تلك اللحظة . لم يكن هناك انسان واحد واقفاً عندما نهض الرجل. جميعهم كانوا مستلقين أو جالسين وجميعنا كنا ننظر اليه لنرى رد فعله . رمق الوجوه بنظرة سريعة ومرتبكة ، لكن واحداً منها لم يفده شيئاً . لم يتكلم : فماذا كان يستطيع أن يقول ولمن ؟ ركض نحو القضبان وأمسك بها ثم أطلق صرخات محزونة :

— رقيب الحرس ! يارقيب الحرس !

عند الصيحة الرابعة أو الخامسة ظهر شرطي .

— ماذا هناك ؟ — سأل بكثير من الهدوء .

— سرقوا مني ساعتي — هتف الرجل بكثير من الانفعال .

لقد أدهش الخَبَرُ الشرطي مثلما أدهشني الغداء تمام .

ـ ساعتك ؟ ـ استفسر .

ـ نعم . ساعتي الذهبية . ـ أكد الرجل .

نظر الشرطي السمين والوديع إلى داخل الزنزانة وكأنه يطلب منا أن نكون شاهدين على ذلك الهراء الكبير . اذ لوقال له الرجل أنهم سرقوا منه جاموساً ، لما أصيب بالدهشة أكثر .

ـ هل أنت متأكد ؟ ـ سأله وهو يمعن النظر .

ـ كيف لا ! ـ صاح الرجل وقد اغتاظ لعدم ثقة الشرطي وهدوئه ـ لقد اشتريتها في كريستوبال وكانت هنا في جيب الصدرية ، أمسكوني من الخلف . كانوا عدة أشخاص ، وانتزعوها مني بسلسالها وبالكامل .

ـ السلسال . كان من الذهب أيضاً ؟ ـ سأل الشرطي وهو مايزال ملفعاً بالذهول .

ـ كلا . كان مطلياً بطبقة ذهبية ، ليس أكثر ، لكن الساعة ذهبية .

تنفس الشرطي بعمق .

ـ أنت في هذه الزنزانة ومعك ساعة ذهبية ، في جيبك ؟

حرك الرجل يديه وأجاب :

ـطبعاً ، في جيبي ، انها لي .

كاد يفقد السيطرة على أعصابه .

عاد الشرطي لينظر إلى داخل الزنزانة ، لكن تلك النظرة كانت تنطوي على هدف آخر : فهو لم يكن يبحث عن شاهدين ، بل عن مذنبين ، لكن أحداً لم يرد له نظرته ، فالجميع أو الجميع تقريباً طأطؤوا رؤوسهم . الا انه كان يعرف عمن يبحث بعينيه .

ـ حسناً ـ تمتم بينما راح يبتعد وقال وكأنه ينتقد ـ : سويعة ذهبية في الرقم واحد !

بقي الرجل ممسكاً بالقضبان دون أن ينظر إلى الخلف ، حيث كانت تبدّل المواضع . تقدّم عدد من السجناء من القضبان وكان بينهم اللصوص الأربعة ، متحمّسين جميعاً وهم ينظرون إلى رجل قبعة القش نظرة اشفاق وإعجاب . اقترب بعض الأطفال السعاة في الخارج والتصقوا بالقضبان .

عاد الشرطيّ برفقة عريف الحرس وأربعة من رفاقه . اتجه الرقيب الأسمر المربوع القصير العنق نحو الرجل :

ـ هل أنت صاحب الساعة ؟

أجاب الرجل بصوت ناعم :

ـ بلى ، أنا .

لقد هدأ قليلاً .

ـ هل تعرف الذي سرقها منك ؟

تردّد الرجل ، لكنه قال :

ـ لا ، لا أعرفه . أمسكوني من الخلف ، وكانوا عدّة ، أغمضوا لي عينيّ .

عاد العريف وأمعن فيه النظر .

ـ ألا تشكّ بأحد ؟ إذا كنت تشكّ بأحد ، كائناً من كان ، فقل من هو ولا تخف .

نظر الرجل إلى داخل الزنزانة حيث لايوجد أحد ، لقد التصقوا جميعاً بالقضبان .

ـ لست أدري ـ أجاب .

التفت العريف إلى الشرطة وأمر :

ــ افتحوا الباب .

فتح حامل المفاتيح الباب .

ــ الجميع إلى الخارج . قفوا صفاً واحداً . لاأحد يتحرّك .

خرجنا ووقفنا في صفّ طويل . وقف رجل الساعة أمامنا وراح ينظر إلينا واحداً واحداً ، لكنه لم يصل إلى نتيجة : قد يكونوا جميعاً ، لكن لايعتمل أن يكونوا جميعاً .

دخل الشرطيّ الذي كان قد استجاب للنداء وزميل له مع العريف إلى الزنزانة قلّبوا وفتّشوا كل ما وجدوه من صرر وثياب وأثمال ولما لم يجدوا شيئاً خرجوا .

ــ لنر ، فتّشوهم واحداً واحداً ــ أمر العريف الشرطة بينما وقف مع الرجل يراقب العملية .

فتّشونا من أسفلنا إلى أعلانا من أعلانا إلى أسفلنا دون رحمة ؛ قلّبوا جيوبنا بل وأجسامنا أيضاً .

ــ افتح ساقيك ، أكثر قليلاً ، ارفع ذراعيك ، فكّ الزنّار ، والآن اقفز .

مرّت الأيدي الغريبة مرّة أخرى على الآباط والخصور والأعناق والأفخاذ والزنانير والسيقان ، على كلّ شيء .

ــ اخلع نعليك ، انتهى ، قف جانباً .

الوحيدون الذين تكلّموا أثناء عملية التفتيش تلك كانوا اللصوص الأربعة :

ــ حذار ، لاتضغط .

ــ هل تعتقد أن هذا يتسع لساعة :

كانوا أكثر ثقة بأنفسهم من الجميع ، والغريب أنهم لم يجعلوهم يخلعون نعالهم .

ــ لاشيء ــ أعلنت الشرطة وقد أتعبها الانحناء والاستواء .

استدار العريف إلى الرجل :

ــ لايوجد شيء ، ياسيّد .

لم يدر المسكين بماذا يجيبه .

سأله العريف :

ــ هل سمعتني :

ــ نعم ، ياحضرة العريف .

لكنه قال بعد ثانية وبابتسامة مفتعلة :

ــ ألا يحتمل أن يكونوا قد هرّبوها وأرسلوها إلى زنزانة أخرى :

أمال العريف رأسه المستديرة إلى الخلف وأطلق قهقهة طويلة :

ـ أتريدني أن أفتش الزنزانات جميعها ؟ ـ سأل وهو مايزال يضحك ـ لا ياسيّد ، إذا ضاع هنا شيء ، لاأقول ساعة وإنما فقط ملعقة فكأنها ضاعت في قاع خليج بالبارايسو : لن يجدها أحد وإذا ألححنا في إيجادها فهذا يتطلّب منا أن نفتش المدينة بيتاً بيتاً ، ومع ذلك فالملعقة ستبتعد دائماً .

اقترب من الرجل ، وقال له بعد أن وضع يده على كتفه :

ـ عندما تسجن في المرّة الثانية ، إذا كنت مصاباً بهذا الداء ، لاتفكّر بأن تأتي معك بساعة ذهبية ولا فضية ولا فولاذية ، لانيكل ولا تنك ولاخشب ، بعها ، اهدها ، ارهنها، ارمها ، لكن لاتأت بها إلى هنا ، أو خبّئها بشكل لاتعرف أنت نفسك مكانها ، وإلا فعليها السلام : لأنهم سيسرقونها منك .

ثم صاح وهو يلتفت إلى السجناء :

ـ إلى الداخل أيها اللصوص !

كان في صوته شيء من السخرية .

عدنا فدخلنا واحتلّ كل منّا مكانه ، وحده الرجل صاحب الساعة بقي واقفاً لفترة طويلة أمام القضبان . لم أعرف ما به، لكن به شيئاً فقد كان يلاحظ عليه أنه بعيد عن كلّ شيء ويشعر بازدراء عميق

تجاه الزنزانة وقاطنيها. تجاه الجميع وكل فرد فيها ، ولم أدر إن كان السبب هو أنه يعتقد أنهم ليسوا أهلاً له أم لأن شعوره بالبراءة أو بالادانة يختلف عن شعورنا نحن الآخرين . الذين تقبّلنا ــ لسبب أو لآخر ــ حالة كان لايريد أن يقبلها ، ربما ليس لأنه يعتقد أنه لايستحقها وإنما لأن قبولها يتخطّى إرادته ، رغم أنه يستحقها ، ولاشكّ أن الذي حدث قد جرح وضعه النفسي وهذا ماكان يسهم في ابتعاده عن الآخرين . غادر القضبان وراح يسير أمامها ويداه في جيبي بنطاله وصدريته مفتوحة ــ على الحال التي تركها الذين هاجموه ــ قبعته كانت على قفا عنقه . كان يرمق الفناء بنظرات متكررة تكاد تكون يائسة . لم ينبس ببنت شفة أو يقترب من أحد ، كما أن أحداً لم يقترب منه أو ينبس معه ببنت شفة . يبدو أن الجميع لاحظوا وضعه واحترموه أو أنهم لم يعيروه انتباهاً . وعندما تعب من السير جلس إلى الدكة وقضى بقيّة نهاره على تلك الحال . يغيّر وضعية هذه الساق أو تلك ، كاشفاً عن جوربيه الحريريّين الأسودين . اشتعلت مصابيح الزنزانة ، المرتفعة جداً والملتصقة بالسقف أيضاً ، عندئذ وحيث لاحظ أن الليل قد حلّ ، بدأ يسير من جديد ، صارت نظراته إلى الفناء مضطربة . عندما حلّ الظلام أخيراً اقترب شرطيّ من القضبان وصاح بصوت عال :

ــ فرانسيسكو لونا .

— حاضر — أجاب الرجل متوقفاً .

اقترب من القضبان .

— جاؤوك بثياب النوم والطعام — أبلغه الشرطي .

لم يجبه الرجل فقد كان أسوأ نبأ يأتونه به فسراحه لن يطلق اليوم . لم يَستَأ الشرطيّ الذي كان بدوره يعرف سرّ صمت الرجل وذهب يعود بعد لحظة ومعه صبيّان ساعيان ، يحمل واحد منهما ثياب النوم والآخر « السفرطاس » . رفض الرجل الطعام .

— خذها — قال للصبيّ — لاأريد أن آكل .

أخذ الثياب وألقى بها بعنف في المكان الذي كان يجلس فيه ، وكأنه أيضاً لايريدها أو أن استلامها يزعجه . عاود السير فلم ينشر الفراش واللحاف لينام إلا في ساعة متأخرة ، ربما بعد منتصف الليل ، عندما انتصر التعب على أمله وكبريائه . لقد كان وجهه الحليق مفعماً بالمرارة والكآبة .

— ١٢ —

هكذا ، وكما أشرق النهار للجميع ، فقد اقترب الليل ، حاملاً معه مايحمله دائماً : الفرح والألم ، المفاجآت والرتابة ، الأمراض والراحة :

العمل والنوم ، القلق أو الموت ، ومع ذلك حمل لرجال تلك الزنزانات
ولجميع رجال الزنزانات في العالم ، شيئاً مختلفاً : لافرح ، لا مفاجآت ،
لاعمل ، وحتى لا راحة ولانوم بالنسبة للكثيرين . قد يعمل أحد مافي
النهار لصالح السجين : الزوجة ، الأخ ، الأم ، الأب ، الصديق
ويمكن أن تحرّك القضية ، أن يقدّم المحامي بياناً أو أن يملي القاضي
حكماً أو أن يطلب السجين كي يدلي بافادته . أما في الليل فلا شيء
من هذا يحدث . فالمحاكم تغلق والقاضي ينصرف حاملاً أوراقه ،
المحامي يرتاح والأقرباء أو الصديق أو الزوجة ، الذين لايستطيعون
أن يفرضوا على القاضي أو المحامي العمل ليلاً ، ينصرفون بدورهم .
الانتظار أمر ضروريّ لكن السجين هو أقلّ الناس قدرة على ذلك ،
لذا يترك الليل يمرّ دون أن يستطيع عمل شيء .

شيئاً فشيئاً راح الهدوء يخيّم على السجن . اختفى السعاة والسادة
العظام وأوراقهم ولم يبق سوى السجناء والشرطة والكلاب . بدا كأن
كل رجل قد لاذ بنفسه ، بذكرياته ، بمرارته ، بنومه ومشاريعه ،
أما المعتدون ، الذين هم عمّال الليل ، فقد خرسوا وناموا بعد أن
أعيتهم العطالة في تلك الساعات .

لكن الأضواء لم تطفأ وصياح الحرّاس ، الذين طلبهم العريف

الذي كان أوّل الصالحين وبملء حنجرته : كان يدوّي في الممرات ، لتأتيه الأجوبة المدويّة : اثنان ، ثلاثة ، أربعة !

أعارني الانطوائيّ ملحفة استطعت أن أغطي بها ساقيّ وأنام ، ولم أستيقظ إلا عندما حانت ساعة التبديل بالنسبة للحارس الذي كان أمام قضبان الزنزانة . كان رقمه أربعة وانفجر صوته مثل قنبلة على الجدران :

— أربعة !

ابتسم للذين أيقظهم صياحه ورموه بنظرة كدرة وتمتموا .

كان الليل يمضي . سألني الانطوائيّ قبل أن أنام عن سبب توقيفي ، وروى لي لماذا أوقفوه . كان رجلاً يميل إلى البدانة ، عاديّ الطول ، أسمر ، يرتدي بدلة زرقاء ولا يضع ربطة عنق وقبّته مفتوحة ، شعره أجعد ويسقط أحياناً فوق جبينه . كان عاملاً نصف ميكانيكي ، ونصف بائع غاز ، عنده مشغل في أحد أنحاء المدينة . لم يكن يظهر على يديه السمراوين أنهما يدا عامل . جرمه كان غرامياً : لقد اغتصب فتاة ، لكن ليست أية فتاة وفي طريق مقفرة أو غابة ، وإنما فتاة معروفة ، في السادسة عشر من عمرها وفي بيتها نفسه . — المشكلة أنني متزوّج — قال وهو ينظر إليّ بعينيه الداكنتين ، المليئتين بالنور — متزوّج وأحب

زوجتي كثيراً ، ياللورطة التي أدخلت نفسي فيها . ستسألني لماذا فعلت ذلك : مجرّد بهيمية .

سكت ونظر باتجاه القضبان ، ثمّ أضاف :

— في كلّ يوم تأتيني وتترك لي الفطور والغداء ، لقد أحضرت لي محامياً أيضاً .

وبما أنه لاحظ أنني لا أعلم عمّن يتكلّم فقد وضّح قائلاً :

— أتكلّم عن زوجتي . عندي منها ولدان : ومع ذلك لم تشكُ ولم تبك ولم توجّه لي كلمة واحدة فيها عتاب أو ألم . ياللورطتي ! تنتابني أحياناً رغبة بأن أرمي نفسي فوق القضبان وأطرق رأسي وأُخرج لا أعرف ماذا .

لم أكن قد مررت بأية تجربة غرامية ، لذلك بدت لي قصة الانطوائيّ مضحرة . لم أفهم كيف يستطيع رجل متزوّج ويحب زوجته ، أن يدخل في متاهة مثل تلك .

— ليس هناك طريقة لاصلاح القضية — تابع . — فأنا لن أنفصل عن زوجتي وأولادي مهما كلّفني الأمر ، لكن ليست هذه هي القضية ، إذ لا أحد يجبرني على هجرهم . ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أعيد للفتاة ما انتزعته منها أو بالأحرى ماورّطتني هي بانتزاعه بالقوة .

المشكلة هي أنني . . . جار والديها قبل أن تولد ، ولا أدري لماذا اعتادت أن تودّني ، أكثر مما تودّ والدها بكثير منذ طفولتها . كبرت وكبرت وما تزال تودّني ، تقبّلني ، تعانقني وتخنقني بقبلاتها وعناقاتها وتمدّ يديها إلى كل مكان في جسمي . كانت الأم تضحك والأب أيضاً ، جميعنا كنّا نضحك . كان جميلاً أن يرى المرء شدّة تعلّق تلك الطفلة بي ، حتّى أنه لم يكن هناك طفل أو طفلة يستطيع الاقتراب مني بحضورها . وذات يوم خطر لي أن أتزوّج وكانت في الثانية عشر من عمرها ، وهنا تفجّر الوضع : بقيت عدة شهور لاتكلّمني وإذا صادفتني هربت . عندئذ فهمت . . . ثم صارت تأتي لتراني واستمرت تداعبني . هل تفهم ؟ وكانت زوجتي تضحك وأمها تضحك وكذلك أبوها . فقط أنا وهي ماعدنا نضحك . . إلى أن . . . يقول المحامي أنه إذا استطاع أن يخرجني بسنتين سجناً فحظّي من السماء . مارأيك ؟

– واحد ! ، اثنان ، ! ثلاثة ! أربعة !

– واحد ! إثنان ! ثلاثة ! أربعة !

فهمت ، في اليوم التالي ، ومن خلال نظرات الانزعاج الّتي رمقني بها ، إنني لم أصغ إليه ، كما كان ينتظر ، كل سجين يفترض أن حالته هي الأهم ، وهو في ذلك على حقّ ، فالأمر يتعلّق بحرّيته

أو بسجنه ، ببراءته أو بادانته ، ويكاد يتعلّق بحياته أو بموته ، وأحياناً بشرفه أو بعاره ، برفاهيّته أو بدماره العائلي ، فكل شيء جوهريّ لايبدّل ولا ينقل تماماً مثل بعض الوثائق ، ولكن إذا كان الجميع على حقّ في تقديرهم لحالتهم ، هذا التقدير الذي يجب احترامه مثلما يحترم ألم المريض ، فانه لايمكن الادعاء أيضاً أن الجرم المرتكب ، إذا كان هناك جرم هو الأهم والأكثر خطورة في السجن كلّه ، كلا ، وإذا ظنّوا ذلك فهذا شأنهم ، لكنني لا أعتقد أن هذا صحيح وأنني نعس .

أعدت له ملحفته وشكرته ثمّ وقفت إلى جانب القضبان ، كان النهار في بدايته . شعرت بالجفاء تجاه ذلك الرجل فجأة وكأنه موجة . لماذا كان ينظر إليّ بوجه العاتب ؟ هل أنا مذنب إذا كانت جريمته قذرة ، ولا تهمّني وإذا كان النعاس قد أخذني بينما كان يقصّها عليّ ؟ إذا كان يحب زوجته وأولاده فلماذا لم يرفس الفتاة في إليتها أو يرفس نفسه حين كان ما يزال عنده متّسع من الوقت ؟ بدا لي غبياً في ندمه وتأسفاته وكذلك في الكراهية التي أصبح يضمرها لتلك الفتاة . ماعلاقتي بالموضوع : ليذهب إلى الشيطان .

لم أكلّمه بعد ذلك . لقد فرّقت الفتاة بيننا . نقلت عند الضحى مع أشخاص آخرين إل زنزانة أخرى لأسباب أجهل طبيعتها . هكذا

انفصلت عن رفاقي ، الذين لم أرهم بعدئذ إلاّ مرّة واحدة أمام القاضي ، الذي جعلنا نُدلي بتصريحات جديدة وجمعنا ، نحن السجناء ، بصاحب حانوت المجوهرات وبعامل عنده مصاب بقصر البصر . خلط بين السكرتير وأحد الموقوفين ، ليتعرّف علينا . انفصلت أيضاً عن الانطوائيّ الذي تذكّرته بتوق بعد أن انقضت نوبة الجفاء ، في الليل ، حيث نمت من غير غطاء . لا شكّ أن رفاقي الجدد في الزنزانة ارتكبوا جرائم أشد خطورة من جريمة الانطوائيّ النادم على فعلته ، لكن أحداً منهم لم يفكر بتقديم ملحفة لي ، أتغطّى بها ، ربما لم يكن لديهم واحدة فائضة .

وهكذا تحمّلت تلك الحالة أياماً عديدة ، عشرة ، خمسة عشر وبي شعور بأن هناك من يحاصرني ، من يقطع عليّ الامكانات ويدفعني باتجاه شيء غامض . إلى من ألجأ ؟ فقد كان الناس في تلك الزنزانة يتحرّكون من هنا إلى هناك ، يخرج بعضهم ويدخل بعض آخر ويعود آخرون ، لا شيء ثابت ، كلّ شيء كان مضطرباً .

أخيراً وذات يوم ، وبعد أن نمت ليالي عديدة على الأرض دون أن يكون عندي صحيفة أتغطّى بها ، بلت في ثيابي من البرد وشعرت أن ساعتي قد حانت : استيقظت على ألم في رأسي وفي المساء انتابتني قشعريرة شبيهة بتلك التي تصيب من يتسمّم ببخار الزئبق . كانت

آلام البرد تسري في ظهري . قاومت حتّى سقطت أرضاً وأغمي عليّ . نادى السجناء الحرّاس والحرّاس العريف والعريف الطبيب ثمّ نقلت إلى العيادة : كنت أحدّث نفسي وأريد الهرب ، وكانت درجة حرارتي أربعين ، حشرجاتٌ في الرئة اليسرى ، النبض كان مضطّرباً جداً ، محاجم ، كمادات ، خاصّة ، الكمادات الساخنة ، الساخنة جداً ، حتّى واو أحرقته ، نعم اتركني ، لاتلمسني ، أريد أن تأتي أمّي إليّ ، نعم أمّي ، آه يا أمّي ، دثّريني جيداً ، أنا بارد ، أعطني ماء ،ماءبارداً، أنا عطشان ، قلت لك لا تلمسني ، من أنت حتّى تلمسني ـ: أمّي ! من فضلك ، ساعدني على تثبيته ، يكاد يسقط عن السرير . ماء . . . كيف حاله : سيّئة ياله من فتى مسكين . أرجوكم نادوا أمّي .

ـ ١٣ ـ

عندما استيقظت في صباح أحد الأيام ، بعد ثلاثة شهور قضيتها في الجبال أحسست أن شيئاً مقلقاً لم أعرف ماهيته ، قد حدث أو أنه كان على وشك أن يحدث . مرّت لحظة طويلة لم أسمع فيها الأصوات ولا وقع الخطوات ، بل ولا حتّى الضجيج الذي اعتدته وكان يصل في مثل تلك الساعة من المطبخ أو من مستودع المعدات .

(لقد ألفتُ الرياح ، رغم أنني كنت أخافها دائماً ، خاصة أثناء

الليل ، عندما لا أراها ، ففي النهار ،وبالاضافة إلى الاحساس بها كنت أظنّ أنني أراها ، فعلاً كنت أراها ، أرى كيف أن كلّ شيء ينحني تحت ثقلها وكيف كان الناس ينكمشون وهم يتقدّمون بعكس اتجاهها ، دون أن يعلم أحد منهم ما إذا كانت هي التي تكمشهم أم أنهم ينكمشون من تلقاء ذاتهم حين يسرقون منها جسمهم . كانت تهزّهم بعنف وكأنها تريد أن تنتزع منهم القبّعات والأدثرة ، السراويل والسجائر والكبريت والأوراق التي يحملونها في ستراتهم وحين كانت ترفع يدها عنهم كان عليهم أن يبذلوا جهداً كي لا يسقطوا على وجوههم ، أما إذا كانوا يسيرون مع اتجاهها ، أي والريح في قفاهم ، كما يقولون ، فقد كانت تصيبهم نوبات من الضحك ، كأن واحداًصديقاً ، صديقاً عملاقاً فكاهياً يمسكهم من مؤخّرة سراويلهم من رقابهم ويجبرهم على السير انحداراً وبخطوات كبيرة ، شبيهة بالجري . كانت تهبّ من المرتفعات باتجاه وادي الريبّو ده لاس كويباس فيشعرون برغبة بالالتفات والصراخ ، كمن يصرخ بصديق ، نصف مازح ونصف جاد : اتركني ، ياديّوث ! إلا أنه لم يكن هناك من يصرخون به ،الشيء الذي كان يزيد من ضحكهم . إنها الريح وهل من أحد يصرخ بالريح وكيف ؟ كانت خطوط الهاتف والبرق تئزّ وفي الوقت نفسه ترقص ، ولا ترقص وتئزّ فحسب وإنما كانت تتمطّى إلى حد لايصدق في بعض اللحظات حين كان أزيزها

يصبح أكثر حدّة ويطول هبوبها . كما كانت تتلوّى وكأن أحداً ثقيلاً جلس عليها . كنت أقول وأنا أرى من خلف صخرة التجأت إليها أنها وصلت إلى أقصى حدود طواعيتها : سوف تنقطّع . لكنها لاتنقطع وتتابع رقصها وأزيزها حتى تهب ريح شديدة أخرى فتسمّرها من جديد . رأيت أيضاً وبشكل غير قابل للتفسير كيف كانت ترفع البغال المحمّلة بألواح الزنك أو بالأجسام الكبيرة ، في الهواء عبر طرق المناجم ، لتطيح بها وتسقطها على رؤوسها وأذيالها ، حتى أسفل التل ، فتتدحرج مئات الأمتار وتتكسّر فوق الحجارة . كان هذا يحدث نهاراً ، أمّا في الليل ، نعم في الليل ، فقد كان الأمر مختلفاً : أنت لاتراها وإنما تحسّ بها فقط والاحساس بها دون رؤيتها يبعث في النفس الخوف ، إذ يبدو أن الإنسان يخشى ما لايراه، مايعرف أو يعتقد أنه لايستطيع أن يراه ، وإذا شعر به إضافة إلى أنه لايراه ازداد خوفه وتعمّق . أفكر الآن أننا عشنا وقتذاك هناك على صلة بالريح ، وكأننا برفقة أسد ، اعتدنا رؤيته ، لكننا كنا نخافه دائماً ، ليلاً ونهاراً ، خاصة في الليل ، عندما لم يكن باستطاعتنا أن نراه في الظلام وكان بدوره لايستطيع أن يرى أحداً فيدور حول الخيام أو البيوت الثلاثة أو الأربعة الموجودة هناك ، يتحسّس الأبواب ، يدفع النوافذ ، يدمدم في الفجوات ، يعوي في المداخن والممرات . كانت الخيام تتلقى سياطاً مفاجئة تقلبها ،

أو تهزّها مثل كلب مبلّل ، يد خفية قوية ، ربما قويّة جداً ، كانت تفك الحبال وتحاول أن ترفع القماش من أسفله المثقل بالحجارة الكبيرة . كنّا ننام أحياناً وكلّنا خوف من أن تدخل الريح وتسحقنا أو أن تحمل الخيام وتتركنا نياماً تحت سماء الجبل الباردة . حين كانت تتوقّف الريح عند منتصف الليل ولاتعود في الصباح كان يبدو على الرجال والحيوانات والبيوت بل وحتّى الجبال أنهم ينتصبون ويتنفسون الراحة ، فيبدون مشرقين وقد دخلوا في راحة شبيهة بتلك التي يعيشها سكان مكان ساطه قاطع طريق بهجماته زمناً طويلاً ثمّ مات أخيراً بفضل الله أو اختفى. كانت الصخور والأرض ، حين تهب نهاراً ، تبدو مصقولة فلا تظهر ورقة أو خرقة أو أية فضالة أخرى في مكان ، أما التراب والغضار الذي كان يتجمّع في الوعر بين الصخور فيختفي وكأنّه شُرِقَ ولم يتبعثر . كانت أغصان الأعشاب التي تنمو هنا وهناك بين الحجارة تستسلم لرقصة مجنونة شبيهة برقصة خطوط البرق والهاتف ، لكن باتجاه آخر ، تنحني مرّة وتنتصب أخرى باحترام منكرر لانهاية له . أما النساء النادرات الموجودات هناك فكانت مصادفتهنّ خارج البيت في يوم ريحه قويّة نادرة مثل مصادفة بجعة أو جمل) .

فكرت بعد لحظة وبعد أن عملت أذناي الممكن والمستحيل لتسمع ضجة ما ، إنه ربما كان الوقت مايزال مبكراً جداً وأن الساعة هي

الخامسة أو السادسة ، بمعنى أن هناك ساعة أو أكثر حتى تستيقظ الأصوات والضجة والخطوات ، وبما أنني لم أكن أحمل ساعة ولاأستطيع أن أقدّر من الداخل كثافة النور الحقيقية ، فقد قررت أن أتخلّى عن الموضوع . ليس الصمت ، على الأغلب ، هو الذي جعل قلبي يحدثني بأن شيئاً كان يحدث أو حدث . أو أنه على وشك أن يحدث ، فهناك شيء آخر : القسم العلوي من الخيمة ، الذي كان في الحالة العادية يرتفع فوقنا ونحن مستلقين ، متراً وربما متراً ونصف ، أصبح على ارتفاع يقل عن النصف ، فلو رفعت يدي لربما استطعت أن ألمسه . ماتراه يمكن أن يكون : ألقيت برأسي إلى الخلف ونظرت إلى النصف الآخر من القسم العلوي ، أيضاً كان هناك شيء ثقيل يقعّره ، غمرني بالحيرة . ما الذي ألقوه أو ما الذي يمكن أن يكون قد سقط فوق الخيمة ، التي كانت في الهواء الطلق تحت السماء المكشوفة ؟ لم أعرف . مكثت بلا حراك لازماً الصمت ، أشعر أنني إذا تحركّت أو تكلّمت ستقطع حركتي أو صوتي ، مهما كانت خفيفة ، تلك السكينة الخرساء الثقيلة .

كنت مستلقياً على ظهري وباستطاعتي ، إذا نظرت جانباً إلى الأرض أن أرى صفيحة الكالامين مغطاة ، كما في كل الصباحات ، بعرمة من الرماد ، الذي لايتخرّب في مثل تلك الساعة إلا من جوانب العرمة ، أما في الوسط حيث يكون اللهب في أوج تأجّجه ، فالرماد

كان على حاله والأوراق تحافظ على شكلها رمادية هنا ، داكنة هناك ، بانتظام مضطرب غير أكيد ، ذلك النظام الذي اضطرت النار وهي تستهلك الخشب ، وربما دون إرادة منها ، أن تحترمه ، وكأنه غريب على النار وعلى نفسه . ومع ذلك فان تلك الأوراق وذاك النظام لم يكن ليدوم كثيراً ، إذ يكفي أن يلمس المرء صفيحة الكالامين بقليل من القسوة كي تتهشّم الأوراق فوراً ، وكأنها تخضع ، بصمت ، لأمر يستحيل عليها عصيانه وتختفي دون أن تترك مكانها أي شيء سوى ذلك الغبار المتبقي على الجوانب . حدث هذا منذ بداية آذار أو بعدها بقليل ، لست متأكداً تماماً منه ، حين شعر سكان الخيمة أن درجة الحرارة قد هبطت كثيراً في الليل ، اعتادوا بعد العشاء أن يوقدوا النار الطيبة فوق صفيحة الكالامين ، مستخدمين قطع الخشب التي كانوا يأتون بها تحت أدثرتهم عند عودتهم من العمل . لإشعال النار كانوا يقرّبون عود الثقاب من النشارة ويضعون لوح الكالامين ، في نقطة تنفخ فيها الريح بقوة ولم يكن من الصعب العثور عليها ، إذ يكفي أن توضع في أحد جوانب الخيمة الخارجية حتى تتأجج النار بفعل استفزازات الريح ، بشكل مفاجيء وطائش . عندما كانت تتوقّف الشرارات والدخان بعد ألا يتبقى من الحطب والخشب إلا عرمة الجمر ، كنا نحمل الصفيحة من جوانبها بين أربعة رجال وندخلها إلى الخيمة ؛

كان الجو يتحول في الداخل بعد لحظات إلى ما يشبه الفرن فنخلع معاطفنا وأدثرتنا بل وحتى ستراتنا ونجلس على الأرض بثياب النوم حول تلك الوردة الحمراء ، التي تبدو كأنها تنبثق من العدم ونشرب المتة أو القهوة ، نتحدث أو نلزم الصمت وندخن بكثرة . وما إن كانت النار تبدأ بالخمود حتى نستفيد من الدفء المتبقي ونتعرى لندخل تحت الملاحف . كان اللهب الأخير الشديد الزرقة ، يتلاقى مع أول شخير .

– ١٤ –

كان مشهداً وعملاً للرجال .

وصلنا في المساء . توقف القطار ولهثت القاطرة برئاتها المليئة بالهباب ، حتى همدت . بدا سائق القاطرة والوقاد وكأنهما ابنان لتلك القاطرة أكثر مما هما ابنان لأميهما ؛ إلى هذا الحد سودهما الفحم ولمعهما الزيت . صاحا وأشارا :

– هيا ، ياشباب ، أسرعوا ، أسرعوا !

نصفهما كان خارج القاطرة ، ذلك النصف الذي لاشيء فيه أبيض إلا بياض العيون ، التي بدت قريبة ، قريبة جداً ، أقرب من

وجهيهما ، حتّى ليخال للمرء أنها ليست منهما وإنما لشخصين آخرين . لم يكن بمقدورهما المكوث هناك زمناً طويلاً : فالقطار مثقل بالأحمال والطريق شديدة الانحدار وتشدّه بقوّة هائلة . يمكن أن تنفصل عربة والعربة التي تنفصل لاشكّ ضائعة ، اذ لا شيء ولا أحد يستطيع أن يدركها أو يقف في وجهها ، الاّ النهر وواديه ، اللذان يواجهان كلّ شيء .

— هيّا ، هيّا ، أسرعوا !

وفجأة صدر عن القاطرة مايشبه الطرق بالحذاء ، وكأنّ اللهاث اللا إرادي قد أثارها . اندفعنا نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلاً من العربات ، التي قدمنا فيها من مندوثا ، إلى الأرض :

— من هنا ! خذوا الطعام أولاً ، فهذا خير لنا . هل هناك مايزن أكثر من كيس بطاطا ؟ كيس آخر ، أليس كذلك . خذ . صندوق : شعريّة . صندوق آخر : سكر . انتبهوا إلى هذا أنه ممزّق والرز يسقط منه . لابدّ أن هذا قهوة . والآن علينا بالمعدّات . لاتقف أيها السيد ، هكذا فاغر الفم : هات كتفك ، إنه خفيف . أين أضع هذا ؟ ضعه حيث يمكن ، هاها هاها . من أين خرجت بزيارة الوزير ؟ هيّا ، أيها الشبان ، أسرعوا . اللعنة ، طارت اصبعي ! لا تضعف : فالجروح

تشفى هنا سريعاً ، لأن الوسخ يغطّيها ويجفّفها . الدلاء ، الرفوش ، الفؤوس ، الديناميت ، الصواعق ، الفتائل . ماذا أيضاً ؟ ماهذه الأحمال ؟ آه ، إنها الخيام . حذار ، خذوها . خالص . ياللهول !

لهثت القاطرة بقوّة أكبر وأطلقت صفرة هزّت الأرض ثم انطلقت .

لم ننته بعد ، مازلنا في البداية . علينا أن نحمل هذا إلى هناك ، نعم إلى هناك ، إلى حيث ذلك الحجر الكبير ، هيّا ، أيها الشبان ، فالليل هنا يهبط مبكراً جداً والقمم هنا مفرطة الارتفاع . تلك هي قمة تولوس ، مارأيك ؟ لا أعرف كم متراً يبلغ ارتفاعها . يوجد قرب القمة علم ، وضعه شخص ما هناك ، صعد ولم يهبط . لماذا تنظر كثيراً إلى اصبعك ؟ هل تخاف أن تنكمش بفعل الرضة ؟ أعتقد أنني خسرتها . زمن قصير في تشيلي ، زمن طويل في الزنزانة . احمل هذا على كتفك ، ولن تؤلمك اصبعك ، اتركه يسقط فقط ، إنه بطاطا . أرني ، أرني ؛ جيد . ماذا حدث أيها الشباب ! لاتصرخ بي . عفواً . ظننتك أطرش . هيه ، أنت ياملتحي ، امسك من هناك ، اترك الغليون ، ياسيد . هل أنت إيطالي ؟ خنزير بائس . قد تفيدك لحيتك هنا كواق فالبرد هنا أشد من القطب . حسناً ، الخيام . خذ ، امسك .

تناولنا الربطة الأولى بين خمسة رجال ، رفعناها بصعوبة ونحن نتبادل النظرات :

– أين سنضعها ؟

– يكفي ، هنا .

– ولكن الحجارة كثيرة .

– ليس هماً ؛ نركبها أولاً ثم نرفع الحجارة . امسك هنا . هكذا ، شدّ إلى هناك ، وأنت شد بهذا الاتجاه . حسناً ، الدعامة . لنرفع . لحظة ، خالص . لاتفلتوا . الدعامة الأخرى . جاهزون . الأوتاد . لايوجد . لايوجد ؟ . لقد ضاع عملنا هباءً «٢٤» . لا ، إنها هنا . هل مازالت تؤلمك أصبعك ؟

لم يكن لدي وقت للاجابة . كانت في البداية شبيهة بضربة سوط كتّاني ثقيل ، ضربة سوط لفت كل شيء ، لفت الجميع . كانت الخيام نصف مركّبة حين ارتدت وانشرقت : نظرنا بذهول إلى الاتجاه نفسه . لم يكن هناك مايمكن رؤيته : إنها الريح . دوّى صياح أقوى وأكثر حدّة .

– هيا ، أيها الشباب ، شدوا العزم !

---

(٢٤) Entonces nos jodimos : جملة تستعمل في الكلام والحديث للاستغراب معناها المباشر سيء ومعناها البعيد هو الذي ثبتناه في النص . (المترجم)

وبدأت المعركة . عندما هبّت الريح للمرة الثانية ألهبت أيدي الرجال ، فقد سحبت منهم الحبال بعنف عندما أطاحت بالخيام ، وهم الذين كانوا يمسكون بها دون اكتراث ، أما الآخرون فقد طمرتهم الخيام التي راحوا يحبون تحتها بحثا عن مخرج . انفجروا بالضحك ؛ لأن ذلك لم يكن سوى لعبة ، لعبة بين الإنسان والريح ، لكن إنشراحهم لم يدم إلا فترة تركيب الخيام ، التي أطاحت بها الهبة الثانية من جديد .

ــ اللعنة على هذه الريح ! أمسكوا بها جيداً ، لاتفلتوها . هكذا تماماً . ماذا تظن هذه الريح السحاقية ! سمّر أنت الأوتاد . هاهو الوتد . اسرعوا ، أيها الشبان ، أحضروا الحجارة ، لا ، أكبر ، اربطوها بقوة إلى أن تصرّ عظامكم . هكذا ، أيها الشبان . حذار ، لقد جاءت .

أطاحت الريح بثلاث خيام ، لكن الذين استطاعوا تركيب الخيام الثلاث الأخرى ، انكبوا عليها بحنق :

ــ تشبثوا !

كانت الأوامر تدوّي :

ــ ابق ثابتاً هناك ! والآن ، الجميع في وقت واحد !

عاركنا ولهثنا وتحرّكنا وكأننا نلاكم خصماً سريع الحركة .

كانت الريح تهب في تلك الأثناء ، بقوّة أكبر ، لكنها كانت ، ولحسن الحظ ، متقطعة ، الشيء الذي سمح لنا بين الهبة والأخرى بتثبيت الخيام وما ان أنتهينا حتى كان الظلام قد خيّم .

رقدنا على الفور ، لم يكن يوجد مكان نذهب إليه لتناول القهوة أو للتحدّث ولا ما يستحق أن يخرج المرء لأجله من الخيمة أو من بناء الخشب وصفائح الكالامين ، المخصص للطعام ، فالذي يفتح الباب ويخرج كأنه يصطدم بجدار هائل ، جدار من ظلمة وصمت سميك ، عال وأسود . إذا خرست الريح لانسمع إلاّ هدير النهر وإلا لاشيء سوى صوت الريح ، وكان كمن لايسمع شيئاً ؛ فكان الرجال يعودون ويدخلون وهم يرتعدون ويضحكون :

— أقسم لكم بجدتي أنه لاشيء يرى .

فقط بعد لحظة انتظار واحدة ولأسباب لاتتجاوز الحاجات التي لايمكن تأجيلها كانوا يتحمّسون ويتقدّمون خطوات قليلة ومتردّدة ، كان يوجد حجارة وصخور ، مرتفعة ومنخفضة ولا شيء غير ذلك وكانوا يتعثّرون ويصطدمون بكل الحجارة وبكل الصخور وتدخل أقدامهم بكل الصواعد والنوازل ، وما أن يقضوا حاجاتهم حتى

يعودوا جرياً . والريح تعبث بثيابهم ، تنتزع منهم قبّعاتهم وتسقط شعرهم فوق عيونهم ، تلفّ معاطفهم وأدثرتهم حول رقابهم ، تتحسّسهم وتشدّ بهم ، يشعرون في الظلمة أنها كانت تتسرّب إلى أحشائهم ، عبر سراويلهم الداخلية وتبلّل لهم بنطلوناتهم إذا خطر لهم أن يواجهوها فيشعرون بالخذلان وبالغيظ ، فيهربون .

كان هناك ، وكما في كل مكان ، ليال مقمرة ، لكن هذا لايعني انعدام الريح والحجارة والصخور والصواعد والنوازل ، ثم ما الفائدة التي تجنيها من النور ؟ ترى الحجارة والصخور ؟ شيء شاعريّ تماماً . أقرب البيوت إلينا كان على مسافة كيلو مترين وينام فيها أناس مجهولون يحيط بهم الصمت والظلمة والريح والصخور ، مثلنا ، ينامون باكراً ولا يغادرون إلى الخارج ، بعد هبوط الليل ، إلا إذا كانت مثانيهم ملعونة ، وإلا فانهم لايخرجون ولا حتى بالشد . فجأة يسمع ما يشبه صوت انفجار رعد بعيد أو ماهو أقرب إلى صوت سوط كبير : سور من الحجر ، جرف صخريّ ينفجر وينهار . كان البيت الآخر يقع على بعد أربع كيلو مترات ولايوجد فيه سوى شرطة مكافحة التهريب ، شرطة مكافحة التهريب ؟ شكراً جزيلاً . خير لنا أن نذهب للنوم .

— ١٥ —

— من أين أنت ياروبرتو ؟

— من بونوس أيرس ؛ أنا غاوتشو «٢٥» ، افهم معناه كما توضّحه لغتي : الأرض صغيرة بالنسبة لي وكان بامكانها أن تكون أكبر ؛ لا الأفعى تلدغني ولا الشمس تحرق جبهتي .

— سلام ، مارتين فييّرو ده تشاكاريتا «٢٦» .

— لا ، هيه ، لا ، بل من كاباليبيتو .

— وأنت ، ياأنيثيتو ؟

— أيضاً ساحليّ .

— وأنت ، ياخاثينتو ؟

— من لا ألومنيا ده دونيا غودينا .

— ماذا قلت ؟

— من لا ألومنيا ده دونيا غودينا .

---

(٢٥) El Gauchc : الغاوتشو : اسم وصفه يطلق على أبناء السهوب الأرجنتينية وهم خلاسيون مشهورون بفروسيتهم متمرسون على رعاية القطعان والتجوال . (المترجم)

(٢٦) Martin Flerro : مارتين فيرو : كتاب شعري من أهم الكتب التي وضعت عن الغاوتشو وهو مؤلف من فصلين : الذهاب (١٨٧٢) والإياب (١٨٧٩) وضعه الشاعر الأرجنتيني خوسيه ارناندث .

— ومن أين أتيت بهذا الاسم ؟

— إنها بلدة في مقاطعة تراغوثا .

— وأنت ياأنطونيو ؟

— تشلّي ، تشوابا ؛ أراوكانيّ خالص .

— يبدو عليك ذلك .

— وأنت ، ياماتشيته ؟

— من الخراء نفسه .

— أيضاً يبدو عليك ذلك .

كان الفجر بارداً وقاسياً والمنظر ضيقاً وواسعاً في الوقت نفسه ، ضيقاً في اتجاه وواسعاً في اتجاهين : في الوادي وعلى امتداد عدة كيلو مترات لم يكن يوجد أيّ حاجز أمام العيون ، فالحواجز كانت على حواف الوادي ، الذي ينحدر محصوراً بين الجبال العملاقة ، التي كان بعضها أسود وبعضها الآخر رمادياً ، وضارباً إلى الحمرة ، بنفسجياً وبنيّاً ، داكناً أو أبيض — إنه الثلج ، لا ليس ثلجاً ، إنه جليد — يقف مانعاً أمام كل شيء ، ماعدا النور والريح والظل ، الذي لاشيء يقف في وجهه . أيضاً كان المشهد واسعاً في الأعلى ، في الجبال ، هناك بعيداً عن مجرى النهر ، بمواجهة السماء العالية التي كانت تبدو أكثر علواً مما هي في أيّ مكان آخر وكأن الجبال تزيدها علوّاً .

– هيّا ، أيها الشبّان ، لقد حان الوقت ، إلى الأعلى .

– الآن ؟

– طبعاً الآن : فالليل قصير على الذين يعملون .

– فعلاً والنهار طويل .

– أين نستطيع الاغتسال ؟

– اغتسال ؟

– اغتسال ، نعم ، اغتسال .

– وماذا ستغسل ؟

– يارجل ، أيدينا ووجوهنا !

– لكن ماء النهر بارد مثل الثلج .

– اغتسال . . .

– ألم تأت إلى هنا من قبل ؟

– يبدو لا .

– إن ماء النهر يسلخ الوجه ويقطع الجلد مثل الزجاج ويشقق الشفاه ويجلمد الشعر وييبسه ، كأنه يصقّعه . أعتقد أيضاً أن الحواجب تسقط .

ـ ياللمستقبل ! أتصوّر أنني أشحذ في جادة مايو : أحسنوا على رجل كان في الجبال . . .

ـ بصراحة ، أنا لا أعرف ماذا جاء أبناء الساحل يفعلون هنا .

ـ إن للحاجة وجه المارق .

ـ انس الماء وتعال نتناول الافطار ، إنهم يقرعون الجرس .

ـ هيّا .

زمرة مكوّنة من خمسة رجال وخمسة في ستة :ثلاثون ، وهو كذلك ، خمس زمر وليس ستّ . فعلاً . يجب أولاً نقل المواد . هاهي العربة . ونحمّل صفائح الكالامين والدعامات والأوتاد والمسامير والفتائل والديناميت والعدات ، والخرطوش ، لاتترك في عمرك خرطوش ديناميت في العراء ، أثناء الليل أبداً إذ قد ينفجر إذا لمسته في اليوم التالي ، يقولون إنه يتجمّد وأن البرد يفجّره تماماً مثل الحرارة . وعندئذ لن يعيد أحد إليك أصابعك . عبوات الديناميت ، ابريق الماء . أنت ستعمل معه ؛ إنه عامل منجم . آه ، نعم آه ، نعم «٢٧» . من أين خرج هذا الأمريكي الشمالي ، الغرينغو «٢٨» ! إنه المقاول .

---

(٢٧) باللغة الانكليزية . (المترجم)

(٢٨) El Gringo : الغرينغو : أجنبي وخاصة انكليزي . وفي أمريكا اللاتينية تطلق على الأمريكي الشمالي . (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— سيحضر القطار الخبز كل يوم من بوينته ديل انكا .

— نعم ، من الفندق . سيحضر اللحم أيضاً .

— ماز ل عندنا بطاطا .

— انظر ، يا ابن بلدي : يجب أن تكون الحفرة بعمق متر وعرض ستين سنتيمتراً على الأقل .

— طبعاً ، طبعاً ، لكن المرء لايستطيع أن يصنع الحفرة كما يريد هو وإنما كما تريد الصخور .

— تضع فيها الديناميت .

— صحيح ، ولكنها ستخرج عندئذ كما يريد الديناميت .

— أنت لاتمنحني أية تسهيلات !

— كيف لا ! منحتك سهولة أن تقول لي أن الحفرة يجب أن تكون متراً بستين سنتيمتراً . هل يبدو لك ذلك قليلاً ؟

— ما أظرفك !

— كنت أكثر ظرافة .

— وعليك أن تترك أمام كل حفرة دعامة من هذه الدعامات . ثمانية بثمانية .

— الدعامات متداخلة ومعشّقة .

ـ ثم يأتي الهيكل وبعده تماماً صفائح الكالامين .

- بووم !

ـ دوّى الإنفجار الأوّل ، ألم تسمع ؟

ـ بومبوم ، بومبوم ، بوم !

ـ إنه صدى الجبال .

ـ سيصل الدويّ إلى تشيلي .

ـ أي ، تشيلي !

ـ آه ، أيتها السماء ، السماء ، السيماء ، ياسيماء العراء . لو انتزعت لك الدعامة لسقط معسكرك أرضاً .

ـ مضى علينا هنا شهر .

ـ قد يحالفنا الحظ ونبقى شهرين آخرين .

ـ إذا بدأ الثلج بالسقوط سيكون علينا أن نشد الرحال إلى مكان آخر.

ـ بدأ العراك المرعب .

ـ آه ، نعم ، آه ، نعم معك حق : الخبز رديء ، الخبز رديء جداً ، لايوجد لحم ، لاتوجد بطاطا لكنني لا أستطيع أن أعمل شيئاً .

ـ لكن ، امنحنا إذناً كي نذهب إلى بوينته ديل انكا بحثاً عن اللحم والخبز . لايوجد عندنا مانأكله ، ويستحيل العمل دون طعام .

ــ اَه ، نعم ، آه ، نعم : أيضاً أنا جائع ، هيّا ، أيها التشيلي ، خذ العربة واتنا بخبز ولحم وبطاطا ، فالغرينغو جائع جداً . أنا لاأريد اضراباً . اذهب إلى بوينته ديل انكا . هي ذي النقود .

ــ اصبعي تحسّنت ، لكن ظفري سقط ، لابد أن الظفر الآخر ينبت تحت الوسخ . لم أشعر به .

ــ أنت رجل ، أليس كذلك ؟

ــ يقولون أن الطبّاخ لواطيّ . هل تعلمون ذلك ؟

ــ ليس معقولاً !

ــ بلى ويقولون أيضاً أن الماتشيته كاد يقتله ذات ليلة ، عندما ذهب ليقدم له طعاماً أكثر مشترطاً عليه أن يتركه يدخل خيمته .

ــ ١٦ ــ

استندت إلى مرفقي ورفعت جسدي ، مددت ذراعي ولمست قماش الخيمة . فوقه شيء ، لكنه ليس ثقيلاً ، على العكس ، ماإن دفعته إلى الأعلى حتى تدحرج على القماش ، الذي استعاد ارتفاعه السابق ، لكنه كان أثقل مما يستطيع تحمّله . نظرت إلى زملائي ، كانوا نياماً أو متناومين . قذفت اللحاف إلى الخلف ، أدرت جسمي

وتناولت ثيابي ، ارتديتها وانتعلت حذائي ثم سرت باتجاه فتحة الخيمة . كان الطقس بارداً ، فانتابتني رعشة . فتحت ونظرت : لقد سقط الثلج .

لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يسقط فيها الثلج في العالم ، لكنها المرة الأولى التي رأيت فيها الثلج وأرى نفسي محاطاً بالثلج والحتمية ليس الثلج هو الذي أذهلني وإنما إحساسي بالوحشة الذي نتج عنه ، لم تكن وحشة الثلج ولا الصخور ، لا النهر ولا الجبال ، بل وحشة نفسي بين الثلج والصخور والنهر والجبال ؛ عزلتي وتقلّص شخصيتي إلى الحد الأدنى المدهش . بدا لي أن العلاقات التي كانت تربطني حتّى تلك اللحظة مع المنظر أو المكان الذي أنا فيه أو كنت فيه ، أياً كان، إنما هي علاقات اللون والحركة والاحتكاك والفضاء والزمن ، التي كانت تختفي وتتركني مهجوراً وسط بياض لاحدود له ولا معالم ، كل شيء فيه يبتعد أو ينعزل بدوره . الثلج يحيط بكل شيء ، بما في ذلك الخيمة ومستعد لحصارنا وتجميدنا وتقليص حركاتنا ، إنه يرقب خطواتنا ، يترك فيها آثاراً ويحدد اتجاهاتها . فعلاً إن الليل يحيّد المرء ويجعله يختفي في الظلمة ، لكن الثلج أسوأ منه ، فهو يظهره ، ويحدّده وكأنه يسلّمه إلى قوى أشدّ هولاً من قوى ظلمة الليل .

كل شيء اختفى : الحجارة الصغيرة التي ألفناها قليلاً ، (على الأقل كنّا نعرف أنها موجودة هناك) . والصخور والدروب التي

كانت تجتاز سفوح الجبال إلى المناجم أو النهر أو الخطوط الحديدية ، أو إلى تشيلي . أين أذهب اذن ولا شيء سوى الثلج ، مددت يدي إلى الوراء وطقطقت بأصابعي . قلت :

— ياشباب . . . .

كان صوتاً خافتاً وكأن شيئاً قد ضغط على حنجرتي .

— ماذا حدث ؟ — همهموا .

— تعالوا وروا .

شيء غريب كان في صوتي ، فقد حضر الجميع على الفور .

— ماذا حدث ؟

— انظروا .

ساد صمت ، ثمّ :

— إلى متى كان سيستمر : جاء الثلج وانتهى العمل .

ارتدوا ثيابهم بينما كانوا يتمتمون مستائين ، يلعنون الثلج ويرمونه في كل الاتجاهات التي يمكن تصوّرها ولايمكن .

بعد خمسة أيام من الثلجة الأولى حين كادت تختفي سقط الثلج ثانية حتى أصبح من المستحيل أن يجد المرء شيئاً : لا المعدات ولا المواد ، لا الحفر ولا الدعامات ؛ ثلج قذر وبرد شديد .

ـ إلى أين ستذهب الآن ؟

ـ أعتقد إلى تشيلي .

ـ وأنت ؟

ـ إلى مندوثا : سأشتري ثياباً وأعود لأقضي الشتاء في لاس لنياس . يريد المراقب مني أن أبقى .

ـ وأنت ، أيها الإسبانيّ ؟

ـ لا أعلم . تداخلني أيضاً رغبة الذهاب إلى تشيلي ، لكن يجب أن أذهب أولاً إلى مندوثا في طلب زوجتي .

ـ خذ مغلّفك ، فيه تصفية حسابك . عده ووقّع .

ـ شكراً ، إنه قليل ، لكن شيئاً أفضل من لا شيء .

ـ وداعاً ، أيها الفتيان ، وداعاً .

كاد الثلج يغطي فم النفق الكبير وكانت الريح تلفه في الجو وتعمي به آخر السائرين في الجبال .

- ١٧ -

لو نظرت إلى الخلف لوجدت أن الثلج يريد الاقتراب منّا . هو لايستطيع ذلك ، لأنه ملتصق بالأرض ، لكن لونه حرّ ويشع نوراً يبدو أنه يقترب منا ويريد أن يحاصرنا ويلفّنا . لايرضى أن يتخلّى عنّا ويتركنا نرحل . لا أعلم إذا كنت وجدت نفسك ذات مرّة في مكان يحيطك فيه الثلج على امتداد كيلومترات وكيلومترات ، حيث تكون أنت ، أو أنت ورفاقك ، إن كان معك رفاق ، الشيء الوحيد الداكن ، الشيء الوحيد القائم وسط البياض . عندما يجد المرء نفسه هكذا ويستطيع أن ينظر ويرى الفضاء والثلج يحيطان به سيلاحظ أن الأبيض لون قاسٍ وعدواني . كم يرتاح المرء إذا رأى في البعيد ، فوق قمة ، لوناً مختلفاً ، كأن يكون أسود ، مثلاً ، أو قرمزياً أو أزرق ! ترتاح العيون في ذلك اللون ، تغفو فيه قبل أن تعود إلى بياض الثلج ، البياض الذي يلاحقك ، يرهقك ، يغلق عليك الطرق ويغيّر معالمها ، يخفي الاشارات ، إضافة إلى أنه يدخل إلى نفسك خوف الوحشة والموت.

أخاف الثلج ، لكنه يستهويني عن بعد ، طبعاً ، وأحياناً عن قرب ، رغم أنني لا أحبّه . التقيت به مرّتين أو ثلاث في الجبال . كنت وحدي وكان وحده طوال ساعات ، الآثار ضاعت وامّحت والإشارات

انطمرت ، والطرقات تاهت . لاتنظر إلى البعيد : يجب أن تنظر النقطة التي ستضع فيها قدمك وفي النقطة التالية ، والأخرى ثم الأخرى . نعم ، لا تنظر إلى البعيد : قد يكون رفاقك في البعيد ويوجد مخيّم ونار سعيدة ونور ونشاط وأصوات ودفء وضحك وكأس من الشاي وسرير ، وربما امرأة أيضاً ، لكنها ليست لك . فأنت شيطان بائس ، إلا أنها امرأة وتستطيع ، على الأقل ، أن تنظر إليها ، فقط تنظر إليها ، ولا تفكّر أن هذا قليل . فالنساء نادرات في الجبال وأندر منهنّ تلك اللواتي يمكن أن يكنّ لك . أقول لك ، لاتنظر إلى البعيد ، لاتفكر بما يمكن أن يوجد في مكان آخر : فهنا يوجد ماهو أهمّ من كلّ ذلك : أهم من النساء اللواتي يستطيع المرء أحياناً الاستغناء عنهنّ ، أما هذا الشيء فلا يمكن الاستغناء عنه إلا للأبد : إنها الحياة طبعاً .

ومع ذلك فهذا سهل لولا السلطات . النفق عريض ويمكن اجتيازه خلال ساعة ، لكن لا ياسيد . قف هناك ، وتظهر السلطة : أرني أوراقك . تشيلي ؟ أرجنتيني ؟ أرني دفتر خدمة العلم ، أرني جواز سفرك . أرني متاعك . ولولا قليل لطلبوا منك أن تريهم شيئاً آخر . أما إذا كنت وسخاً ، سمل الثياب ، لأنك لم توفّق في العمل أو لأنك تريد أن تكون سمل الثياب ووسخاً ، فتلك هي الطامة . وإذا لم يكن حظك من السماء حملوك إلى الدورية أو أوقفوك هناك ساعتين أو يومين

أو خمسة عشر يوماً . كان في لاس كويباس عريف ، ابن لست أدري من ، اقترب من الزنزانة وفتح الباب :

ـ هيّا ، ليخرج كل من يعرف القراءة والكتابة .

وخرج ثلاثة أو أربعة وهم يختالون .

ـ حسناً ، ليأخذ كل واحد منكم رفشاً ويمش .

وأجبروهم على فتح الطريق في الثلج بين القسم والمحطة . دهسته سيارة . لاشك هو الآن في الجحيم يشق بفرطوسه طريقاً في النار .

في الليل كانوا يوصدون الأبواب ويضعون فيها السلاسل والأقفال . لماذا ؟ لأن شرطي مكافحة التهريب يستطيع في النهار أن يرى الخارج والداخل . وفي الليل لايستطيع لأنه غير موجود ، لذلك تراه يضع السلاسل والأقفال . في الجانب الآخر يفعل الشرطيّ الشيء نفسه : « الحرية ، ارث الشجاع » هذا مايقوله نشيد تشيلي الوطني ، أما نشيد الأرجنتين فيقول « حرية ، حرية ، حرية » . حرية ، نعم ، لكن لنضع الأقفال للأبواب التي هم خلفها .

لننظر ، أيها الشبان ، للمرة الأخيرة ، فالثلج يبتعد ومع ابتعاده يصعد ، وكأنه يعلو كي ينظر إلينا ويراقبنا . ما يزال يرفض حتّى الآن أن يفقدنا .

ـ هل تسمعون ؟ هدير النهر أصبح مسموعاً وتظهر شجرة الحور الأولى . إننا في تشيلي .

القسم الثالث



— ١ —

رغم كل هذا ، فان طفولتي لم تكن كريهة ، لم تكن كذلك وكانت مليئة بالأحداث الشيقة ، رغم قساوتها أحياناً . فالبيت كان نظيفاً دائماً ، لأن والدتي كانت عاملة عجيبة ، كما لم أعرف الجوع والقذارة إلا حين وجدت نفسي قد فقدت أيدي والدي واستسلمت ليدي ، ورغم انني ابن لص ، الكائن الأكثر كراهية في المجتمع ، الأكثر مقتاً من القاتل ، الذي يخافونه فقط . عشت مع أخوتي حياة مماثلة ظاهرياً لحياة أبناء العائلات المحترمة ، الذين عرفتهم في المدارس أو الأحياء التي سكنتا بيوتها في هذه المدينة أو تلك .

كان الأطفال الذين وددتهم في الطفولة وفي بداية المراهقة يجهلون تماماً أن زميلهم في المقعد أو جارهم ، الذي تفوق عليهم أحياناً في الدروس وأخرى تأخر عنهم ، الذي ، على كل الأحوال ، يقدرونه ، أو على الأقل يشاركونه ألعابه ، ويتبادلون معه الدوامات والطابات ، أقلام الرصاص والحبر ، صور النساء المقتطعة عن علب الكبريت أو المنتزعة من علب سجائر آبائهم أو علبهم الخاصة ، كان ابن لص . لاأدري الانطباعات التي كانت سترتسم على وجوههم لوعرفوا الحقيقة ، لاشك انها ستكون انطباعات استغراب ، لأنه لاشيء في لباسي وسلوكي

ولا في سرائري يدل على انني ابن شخص غير محترم اجتماعياً . لم أشعر قط من هذه الناحية انني أدنى منهم مقاماً : فآباؤهم ، عمال ومستخدمون ، أطباء وتجار ، صناعيون وحمالون ، كائنين ماكانوا ، كانوا يمتازون على والدي بميزة واحدة فقط ، هي انهم لايسجنون الا اذا ارتكبوا جرماً ما ، وهذا احتمال لايعفون منه ، والامان الذي لم يتمتع به والدي إلا في الأماكن التي كان فيها مجهولاً ، أما في الاماكن الأخرى فقد كان باستطاعة أي شرطي مهما كان بائساً أن يوقفه ، اذا رغب بذلك ؛ لا لسبب الا لأنه يعرف من يكون ، أما فيما عدا هذا ، فكانوا سواسية ، أي آباء ، مع فارق أن والدي ، لم يعرف مثل العامل أو المستخدم ، الطبيب أو المهندس ، الإحالة إلى المعاش ولاالأمراض المهنية ، ولا مثل الصناعي أو التاجر ، الإفلاس أو ندرة المواد الأولية (رغم انني لاأدري اذا كان السجن ، بالنسبة للصوص ، خطراً أو مرضاً مهنياً) . لم أكن فخوزاً بذلك ، إلا انني لم أشعر بالحزن أيضاً : انه والدي وكنت أعبده ، وربما عبدته ، باللاوعي ، لأنه لص ، وليس لأن عمله كان يشدني — على العكس فقد آلمني أحياناً — ولا لأنه كذلك وانما للنتائج التي كانت تترتب عن العمل .

أما بالنسبة لي ولزملائي أو جيراني ، فلم يكن بيننا في الظاهر أية فوارق ذات قيمة : كان تحكمني وتحكمهم القوانين نفسها .

فكونهم أبناء أناس مستقيمين لم يمنحهم ، لافي الحاضر ولا في المستقبل ، أي امتياز ، كما انني لم أتمتع به لأني ابن لص . عرفت وعاشرت أبناء عمال ومستخدمين ومهنيين أصبحوا ، بين ليلة وضحاها ، بلا أب أو بلا أم ، فاضطروا أن يهجروا المدرسة ويتخذوا لأنفسهم مهنة أو عملاً ، أياً كان ، يكسبون به قوت يومهم ، تاركين للقدر غدهم وما بعد غدهم. ربما لم يعانوا من القلق الخفي الذي كنا نعاني منه أبناء اللصوص ــ نحن أيضاً لم نعان منه كثيراً ــ أو من أن ينكشف أمرهم ، لكنهم ، لاشك كانوا يعانون من قلق من نوع آخر ، فليس جميع الآباء معصومين ؛ فمثلاً يمكن أن يكون قلقهم ناتجاً عن كونهم أبناء مهاجرين أو سكيرين أو قوادين ، ومع ذلك كانوا يفضلونني بشيء ما ، لم ألحظه في الحقيقة أبداً ، على العكس فقد كنت أشعر أحياناً أن التفوق يميل لصالحي ، لماذا ؟ ربما كان نوعاً من الدفاع اللاشعوري ، ومهما يكن فقد كنا متساوين كأطفال ولم أشعر قط أنني أدنى منهم . ولولا ذلك لكانت طفولتي صعبة لاتطاق .

كما انني لم أكن محاطاً بأناس قذرين أو سفهاء أو سكيرين أو من ذوي العادات السيئة ؛ رغم أنني أحسست بقاتل أو بقاتلين يتنفسان إلى جانبي ،كانا ذات مرة في بيتي ، دون أن يكون لهما علاقة بوالدي أو بنشاطاته الاقتصادية . جاءاه برسالة من مدينة بعيدة أو من احدى

زوايا الزنزانات : أشخاص كانوا يعيشون أحياناً تحت ظل هؤلاء أو أولئك اللصوص وهؤلاء وأولئك القادة السياسيين ، أو أصحاب بيوت القمار أو الدعارة . كانوا في معظمهم قتلة ، ارتكبوا جرائمهم خطأً أو حماقة ، هذا مايجعلهم في منتهى الخطورة . حين ظهر أحدهم في بيتنا ، شعرنا بشيء غريب : بقي مايقارب الساعتين ينتظر والدنا جالساً على الكرسي دون أن يخطر له قط أن يمازحنا أو يكلمنا رغم أننا مررنا أمامه مرة أخرى ، ولاشك أن أي شخص طبيعي كان سيقوم بذلك دون عناء ، خاصة عندما يرى ثلاثة أو أربعة أطفال يمرون أمامه ، وينظرون اليه بإلحاح . وعندما مل الانتظار وقرر الرحيل رأيناه يذهب بشيء من الارتياح الخفي : لم نرتح ليديه الغليظتين الحمراوين اللتين حافظ عليهما ثابتتين بين ساقيه نصف المفتوحتين . ــ عرف انه كان ينتظرني ــ قال والدي ــ لذلك تأخرت .

لم يبغ رؤيته : لقد قتل رفيقاً له . ترك المقتول ، الذي كان يدعى ريكاردو ،أرملة وابنةصغيرة . كانا يومها فيمحطةريتيرو وجاء القطار الدوليوانسحبافارغيالأيدي. ومع ذلكفقداقترب أحدالمسافرين منالشرطي المناوب و أخبره أن محفظته قد فقدت وفيها بضعة مئات من البيسوات . لم يستطع أن يحدد تماماً المكان الذي سرقت فيه مع انه أكد انها كانت في جيبه قبل محطتين أو ثلاث . ظن برجل طويل ، ناحل ، يرتدي

الأسود واقترب منه كثيراً في المشي . لم يقدم تفصيلات أكثر دقة من هذه . لم يشاهد أحد أي نشال آخر في تلك المحطة وكان ريكاردو طويلاً ونحيلاً ويرتدي الأسود . أنكر ريكاردو ذلك : فالمحفظة الوحيدة التي حصل عليها في ذلك النهار كان فيها ثمانية عشر بيسو ، ليس أكثر ، تسعة منها دخلت جيب زميله في العمل ، لأن اللصوص على عكس جميع الشركاء الآخرين ، يتقاسمون أرباحهم بالتساوي . هذا هو كل شيء .

رسم التانو بينتي أونو اشارة الصليب : كيف استطاع ريكاردو أن يسطو على محفظة دون أن يلحظه ؟ «لايمكن»،احتج وعندما لمحوا له أنه من الممكن أن ريكاردو قد حصل على محفظة وحده واحتفظ بكل ما فيها لنفسه احتج وقال : « لايمكن » ، « ألم ينفصل عنكم ؟ » . « بلى ، حدث ذلك لثانية واحدة حين سار المفتش باتجاه مكان تواجدنا ، صعد إلى العربة من باب وهبط من باب آخر ، دون توقف » . « قام بذلك في تلك اللحظة ، » . « ولكن كيف ؟ وحيداً ؟ » ان لريكاردو يدين ماهرتين ويستطيع أن يسرق دون مساعدة من أحد . » اقتنع بأن ماحصل كان كذلك . وهكذا تلقى ريكاردو سالاس ، إلمنتانيرو ، « طعنة خنجر في كليته وبقي عدة ساعات يحتضر في أحد شوارع حي باليرمو المقفرة . لقد حمل الطمع والخوف من سخرية الآخر ، الرجل على

قتل من انتشله من وضعه كعامل مياوم في مذابح لنيرس وجعل منه لصاً .

عرفا بعضهما حين كان التانو يقضي معه حكماً بالسجن في زنزانة واحدة . أرسل له ريكاردو حين أطلق سراحه ، زوجته ، التي زارته وحملت إليه ثياباً وسجائر وقهوة ومتة وسكراً . ظن المنثانيرو أنه اسدى عملاً طيباً لجزار الخنازير حين رقاه ورفعه إلى مرتبة لص . لكن ، الريفي كان جباناً وبليداً أيضاً ، فقد رفض أن يقترب من أحد ويأخذ منه نقوده بشكل نظيف ، كما كان يفعل آخرون أقل منه قوة . كان دوره يقتصر على تحضير الضحية ، يوقفها ، يلمورها ، يشتمها ويشدد عليها الخناق وكان يقوم بذلك بشكل جيد ، كانت الضحية تلتفت إليه ، تصرخ به ، تشتمه بل وتضربه أيضاً ، لكن التانو لم يكن يتحسس من الشتائم أو يتأثر بالضرب . ومع ذلك لم يجرؤ قط أن يمد يده إلى جيب غريب . شجعه ريكاردو مؤكداً له ان العملية لاتحتاج إلا للإقدام : فالذي يسرق محفظة يسرق مئة ،وسيساعده على القيام بدوره ، لكن لاياصاح . كان معجباً بزميله ، الرشيق والجريء ، الذي يبدو انه لم يكن يخاف شيئاً أو أحداً ، إلا أنه لم يعزم .

لكنه بالمقابل لم يحتج إلى تشجيع أحد كي يقتله فعاش بعدئذ على الصدقات تقريباً . لم يرض أحد أن يأخذه على عاتقه فاستخدموه خادماً لهم أو

مراسلاً ، يمنحونه من حين لآخر بقشيشاً . كان بعضهم يقول : « ستكون نهايته شرطياً ».وفي الحقيقة كان يبدو انه ليس له مكان في العالم . عرف الحقيقة بعد قتله لريكاردو : فالذي سرق تلك المحفظة كان ارنتو سوثا ، البارغوائي ، الذي جاء في القطار نفسه وكان نحيلاً وطويلاً ويرتدي الأسود ولم تكن شرطة بونوس أيرس تعرفه . لم يثأر التانو للمنثانيرو ، إذ كان قد شبع موتاً ولاشيء يستطيع أن يعيده اليه الحياة

هذا واحد منهم . أما الآخر ، وكان قاتلاً أيضاً ، وقاتلاً لزميله ، فكان أقل اثارة للاشمئزاز : قتل دفاعاً عن النفس،وذكرى جريمته كانت ندبة جرح شوهت فمه وجعلته يربي شارباً أوبراتياً ،وكانت برهاناً على أن المقتول لم يكن عاجزاً . كان والدي يتجنب رفقة السوء . غير المحببة ولاحتى بين اللصوص ، ولا يحبذ أن يزوره في بيته رفاقه الذين كانت بينه وبينهم علاقات اجتماعية عابرة ، وهذا مالم يكن رفاقه يمارسونه بدورهم ، ربما بحكمة، فبالكاد قامت بيننا وبينهم علاقات متينة .

ومع ذلك كنا نستقبل بعض الزيارات . دخل ، ذات يوم ، أخي خواو إلى البيت وهو يومىء ويصرخ وينطق بكلمات مبتورة ، سألته والدتي :

– ماذا حدث ؟

– ماما ، في الشارع . . . . – لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك .

– أين ؟

– هناك عند زاوية المخزن .

– طيب ، وماذا حدث ؟

– يوجد رجل غريب .

كانت والدتي تكره الرجال الغرباء : إن بائع الفحم ، البقال ، الدهان ، بل والشرطي بلباسه الموحد ، ورجل الاطفاء رجال طبيعيون جديرون بالاحترام . تعرف من يكون ، ماذا يعملون ، ماذا يريدون منك . لكن الامر يختلف حين يتعلق برجال غرباء : فأنت لاتعرف من يكونون ، ولاماذا يعملون أو يريدون ، ويمكن أن تتوقع منهم أسوأ الأشياء .

– ماالغريب فيه ؟

وبدل أن يجيب خواو قام بتصرفات مدهشة وغريبة : فتح ذراعيه وكأنه يريد الإحاطة بشيء تصعب الإحاطة به ونفخ خديه وأطلق إعصاراً من الهواء كما قفز قفزة صغيرة . انفجرنا أنا وأخوته بالضحك ، فقد لاحظنا أنه لايستطيع أن يترجم انفعاله إلى كلمات ، أو على الاقل يحتاج إلى الكثير منها كي يعبر عنه .

ـ تكلم .

لم يستطع خواو أن يتكلم . هرعنا نحن الباقين إلى الباب فلحق بنا كالإعصار . وصرخ كمن يخاف وقوع شيء رهيب اذا فتح الباب :

ـ لاتفتحوا !

دوى صوت والدتي الذي وضع حداً للشغب :

ـ تعالوا إلى هنا .

تراجعنا مكسوفين .

ـ ألا تعرف من يكون ذلك الرجل ؟

أجاب خواو وعيناه براقتان :

ـ لاأعرف ياماما ، انه رجل غريب .

ـ لكن ماالغريب فيه !

ـ ال . . . ال . . . كيف أعبر لك ؟ لست أدري ياأمي ، اذهبي وانظري اليه بنفسك ، أرجوك .

بدا كأنه يوشك على الانفجار بالبكاء . مكثنا بلا حراك :

ـ انتظروا لحظة .

وتقدمت في الدهليز وأظهرت استعداداً لفتح الباب والنظر منه

إلى ذلك الرجل الذي أحدث كل ذلك الذهول عند ابنها ؛ لكنها ، كما بدا ، تذكرت أن الأمر يتعلق برجل غريب فندمت : فتحت باب احدى غرف النوم واقتربت من النافذة ، شقت دفتها ونظرت . نظرت مطولاً ثم التفتت الينا أخيراً ؛ نظرنا ، نحن الأولاد الأربعة إلى وجهها لنرى الانطباع الذي ارتسم عليه ، فرأينا عينيها تمتلئان بالدموع التي انسكبت على خديها باتجاه فمها . انفجرت بالبكاء .

ـ اسكت ! ـ قالت لي منتحبة ، مما زاد من حده بكائي ـ لاتبك ولاتخف . انظر .

نظرنا ، واحداً تلو آخر أو اثنين اثنين ، إلى زاوية المخزن : رأينا هناك شخصاً كأنه صنع من مادة بنية اللون ، وغطس من رأسه وحتى أخمص قدميه في سائل من هذا اللون ، ويوشك أن يتفكك تحت شمس حرارتها في الظل أربعون درجة ، كان ينظر إلى بيتنا .

ـ من يكون ، ياماما ؟

ـ انه بلرو ، المولاتو (٢٩) ـ تنهدت والدتي وهي تجفف آخر دموعها .

ـ ومن يكون بلرو ، المولاتو ، ياماما ؟

---

(٢٩) El Mulato : المولاتو : الخلاسي . (المترجم)

ـ آه من الصعب أن أشرح لكم أمره. لكنه لاشك يبحث عن اينثيتو . ياخواو ، اذهب إلى الزاوية ، واقترب منه واسأله من يريد وعم اذا كان باستطاعتك أن تساعده . اذا قال لك انه يبحث عن انيثيتو ، فقل له انك تعرفه وستقوده إل بيته . هيا .

كاد خواو يرفض المهمة . فألح :

ـ ولكن ، من يكون ، ياماما ؟

ـ انه صديق والدك . الذي سيغتبط كثيراً برؤيته .

ـ صديق ؟ ـ ألح خواو بشيء من عدم الثقة .

تبرع أثيكييل للذهاب ، لكن والدتي أصرت :

ـ لا ، خواو هو الذي سيذهب .

أجبر خواو على ترديد مايجب أن يقوله ، ثم فتح الباب وخرج مباشرة باتجاه الرجل ، الذي أظهرت وقفته انه عازم على البقاء هناك ولو كلفه الأمر التضحية بكل الوقت اللازم لذلك وعدة دقائق أكثر . حين رأى بـاب البيت ينفتح والطفل نفسـه الذي رآه يدخل قبـل دقائق ، يخرج ، تسمر ورمقه بنظرة . خواو لم يدنو منه مباشرة ، بل توقف على بعد عدة خطوات منه فبدا انه يتأمله على هواه ، ثم التفت إلى البيت ، كمن نسي شيئاً ودار نصف دورة أجبرت الرجل

على الدوران حول نفسه ، اقترب منه وكلمه . انحنى الرجل المجهول وكأنه لم يسمع أولم يفهم ؛ فكرر الطفل عليه ماقاله له بعد أن التفت ثانية إلى البيت .

وافقه الرجل بحركة من رأسه وقال شيئاً لم يسمعه الطفل أو لم يفهمه بدوره فكرر عليه الرجل قوله أيضاً . اتفقا وتقدما باتجاه البيت ، الطفل في المقدمة والرجل في الخلف ، كان الأخير ينساب في هواء كانون ثـــاني بونوس أيرس الســـاخن أكثر مما يسير . التفت اليه خواو مرتين أو ثلاث وكأنه يخشى أن يسلك الرجل طريقاً آخر ويضيع - ربما خاف أيضاً أن يتبخر - وفي خطواته رغبة بالجري إلى البيت ليصرخ فرحاً أو خوفاً .

حينما بدا الرجل انه يدخل طافياً أكثر مما يدخل مجتازاً العتبة ، شعرنا ، نحن الأخوة الثلاثة الصغار ، بعدم الثقة يسقط على رأس خواو ؛ ماهو الغريب في ذلك الرجل ؟ لقد بدا للوهلة الأولى انه الرجل الأكثر طبيعية وسوية بين جميع الذين كانوا يدوسون شوارع الحي والمدينة في تلك اللحظات . ماذا رأى خواو فيه ؟ لم نحزر . فعلاً كان خلاسياً : أجعد الشعر ، مستدير الوجه ، منفتح الأسارير ، أسود العينين اللتين في بياضهما صفرة بسيطة ، غليظ الشفتين ، أبيض الأسنان . لكن لاشك

يصعب تحديد عمره : فقد يكون في الثلاثين أوفي الخمسين من عمره .
كان نحيلاً ، رشيقاً ، ضيق المنكبين طويلاً . كما لم يكن في لون بشرته
أي شيء غير عادي ، فهو لون الخلاسي العام . ترى في أية لحظة
شرود ، أو في أي حلم فاجأت نظرات أخينا خواو ذلك الرجل ؟
ماذا أصاب عقله وعينيه عندما نظر اليه ؟ هذا مالم نتوصل إلى معرفته
أبداً . كان لباسه غريباً بالفعل ، هذا اذا كان بالامكان أن يسمى وقتذاك
لباساً ، فالقبعة ، التي رفعها بتهذيب حين دخوله ، لاتدخل في أية
قائمة جرد ولاحتى في افريقيا الوسطى . لاشك انها تحملت شهوراً من
المطر الغزير ومئة يوم أو مئة عام من الشمس التي لاترحم والتي جعلت
منها قماشاً لاشكل له . لم ندرك قفاها من وجهها ، فقد كانت هي ذاتها
من جميع الجهات ولاشيء سوى الشريطة التي كانت بطول سنتيمترين
أو ثلاثة ، والتي فقدت شكلها ومالت على الجانب المهترىء تماماً ،
يدل على أن صاحبها يعتبر ذلك الجانب ، انه الخارجي ، لأنه وضعها
فيه . أما بقية ثيابه : السترة ، البنطلون ، الحذاء والقميص فلا شك
كان لها العمر نفسه والقصة نفسها . ومع ذلك فقد خيب الرجل أملنا ،
على الأقل حتى تلك اللحظة ، فلا شيء في قامته ولا هيئته غريب وكذلك
حركاته ، التي بدا انه يقوم بها دون تصنع ولا تعارض مع قانون
الجاذبية ، بل وظله نفسه ، ذلك الظل الذي يكاد يكون بائساً وبائساً

جداً ، ورغم أن كل ذلك كان ملفتاً للنظر لكنه لم يكن غريباً كما توقعنـــا من كلمات خواو وانفعـــاله . لاشك أن خيبة الأمل تلك كانت ستصبح عاراً دائماً على أخينا خواو لولا أن الوافد الجديد الذي تقدم من والدتي ، التي نظرت اليه بطيبة ، قال بصوت مهموس وناعم وهو يمد إليها يده الطويلة السمراء :

ـ أنا سعيد تمام السعادة لرؤيتك ، ياسيدة روساليا (٣٠) .

وقعنا على الفور في نوع من الذهول : ان ذلك الرجل ، الذي بدا صوته يزحف ليدخل في الآذان ، كان يتكلم بلغة كنا ننتظر ، نحن الأخوة الاربعة ، سماعها منذ زمن طويل .

ـ هل هؤلاء الأطفال أولاد سيدي أنيثيتو ؟

كنا دائماً نتوق لسماع اللغة البرتغالية ، لكن ليست لغة والدي البرتغالية ، المتقطعة والمتعثرة ، وأقل توقاً كنا للغة خواو ، الذي كان يزعم أنه يتكلمها ، والتي لم تكن أكثر من لغة فكاهية ، كنا نتوق لسماع لغة برازيلية ، مثل لغة الخلاسي ، التي تتخللها كلمات أسبانية تبدو إلى جانبها غريبة .

---

(٣٠) ان جميع مايقوله بدو المولاتو مكتوب باللغة البرتغالية . (المترجم)

عندما كانوا يتحدثون عن الجنسيات في بيتنا كان القول بأن خواو برازيلي يثير هيجاناً كبيراً . كيف يمكن أن يكون كذلك ؟ ماهو شكل البرازيليين ؟ لم نكن قد رأينا قط أحداً منهم كما لم نحظ بأن يكون أحد زملاء المدرسة أو الجيران كذلك . كان البرازيلي بالنسبة لنا شيئاً خرافياً . كانت والدتي تحدثنا عن الزنوج وعاداتهم ورقصاتهم ومأكولاتهم ورائحتهم الخاصة ، لكنها لم تحدثنا أبداً عن البيض ولم نكن نظن أن هناك برازيليين بهذا اللون . فحديث والدتنا كان يوحي بأن الزنوج يهيمنون على الحيـــاة في البرازيل ، لذلك كنا نظن أن جميع البرازيليين كانوا زنوجاً وراقصين ،وخواو لم يكن زنجياً ولا راقصاًولا يتكلم البرازيلية وليس له أية رائحة خاصة ، فمن أي نوع من البرازيليين كان ؟ ومع ذلك كنا نناديه بالبرازيلي وبرهن على ذلك عندما توجه نحو الشمال بعد وفاة والدتي وتوقيف والدي وادانته ، مثلي ، أنا الذي سمعت والدتي تحكي لنا أجمل الحكايا عن تشيلي ، حين توجهت إلى الشمال الشرقي ، باتجاه الجبال الشاهقة ، التي تمتد خلفها الوديان التي شهدت ولادتها وانتزعها منها أنيثيتو ايبيا لتسير في طريق وعرة وخطرة ، وهاهو يبرز أمامنا ، دون أي جهد منا ، برازيلي لم يولد فقط في البرازيل ، مثل خواو ، وانما أيضاً عاش هناك حتى ذلك الوقت .

ــ هذا هو خواو ، الذي ولد هناك . في ذلك الوقت . . .

في ذلك الوقت ، . . . منذ ثمانية عشر عاماً تعرفتِ والدتي على الخلاسي بدرو ، الذي جاء ليقول لها انّ زوجها لم يكن كوبياً ولاتاجراً ولا مقامراً وانما لصاً وانه سجين :

– اسألي ، ياسيدة هناك عن الغاييغو .

– ومن هو الغاييغو ؟

– زوجك .

ومضى هفهافاً ، سريعاً وتركها تعيش أكثر ساعات حياتها سواداً . وهاهو ذا هناك الآن ، بعد ثمانية عشر عاماً ، أكبر بثمانية عشر عاماً وأكثر انزلاقاً بثمانية عشر عاماً ، وهو يبتسم للسيدة روساليا ولأطفالها الذين يبتسمون إلى جانبه . كان الخلاسي بدرو ، أو بدرو الخلاسي ، بالنسبة لنا احتفالاً دام أياماً لاتنتهي ، لم يغادر فيها بيتنا ولا شارعنا ولاحينا لأكثر من ساعتين ، إلى أن جاءت اللحظة التي ودعناه فيها في المرفأ بعد أن وعدناه بزيارته في ريو (٣١) .

مع مرور الأيام عرفنا أن بدرو الخلاسي لم يسرق في حياته كلها منديلاً ولا قبعة ، لكنه كان يعيش من السرقة ، لكن من سرقة الآخرين . لقد كان هذا الرجل البريء والهياب في بعض النواحي والبارد والكسول

(٣١) Río : اختصار لـ ريوده جانيرو (المترجم)

معجباً ومحباً للصوص يشعر بحب واعجاب باللصوص لايطفئهما شيء ولا أحد ، لاالسجن ولا الفقر ولا العقوبات . لم يكن أهلا للسرقة ، لكنه يحبذها ، يزود اللصوص بالمعلومات التي يحصل عليها . أصبحت الشرطة ، بعد سنوات ، تتحمله ، فهو شخصية من الحياة الاجرامية ، وكبقية الشخصيات ، لايمكن الاستغناء عنها ، هكذا ولله بالله . لايفيد استنطاقه : فقد كان يجهل كل شيء ، مع العلم انهم يعلمون أن الخلاسي بدرو يعرف أكثر من الشرطة بمجموعها ومن نقابة اللصوص مجتمعة . كابد من بعض الأحكام لأنه كان يغطي على اللصوص . لكن السجن لم يزده إلا اعجاباً ومحبة باللصوص . جميع النشالين الذين كانوا يدخلون إلى البرازيل ويخرجون منها يعرفون من هو بدرو وما يمكن أن يتوقعوا منه وبدرو كان يعلم بالذي يصل وبالذي يرحل ، وماذا يفعل وماذا سيفعل وماذا فعل . كان بعض المحامين المختصين بمثل هذه الجرائم ، يعتبرونه أفضل الزبائن ، فهو يدفع بسخاء وبتواتر ، طبعاً ، مادام الموقوف سيحصل على حريته .

بحث والدي عنه عندما وصل، وأخبره بدرو ، الذي كان يعرف مع من يتعامل ، فالجميع كانوا يحدثونه عن الجميع . وهو الذي كان لاينسى أحـــداً ، بكل ماكان يهمه ، وتلقى من فم والدي معلومات عن هذا الشيء وذاك وعن الشخص وذاك . كان يعرف اختصاص

أنيثيتو : المجوهرات ، وان كانت قليلة والنقود بمبالغ محترمة .. يجب الوضوح وعدم العنف : الهدوء والأمن والنظافة والراحة . كما أضاف أحد التجار . حسناً ، هناك دكان مجوهرات وصندوق نقود ، الباب هكذا ، وقفله بهذا الشكل ، بناية جديدة ، بجانبها محل للملابس وبجانب آخر صالون حلاقة ، وفوقها دكان خياطة ، ومقابلها مقهى ، تفتح في الساعة كذا وتغلق في الساعة كذا ، بلجيكيون . ماذا أكثر ؟ فندق جديد : تجار ، فنانو أوبرا ، ملاكو قرى ، حارس ليلي ، مدخلان ، أقفال بالطرق ، نوافذ ذات قضبان ، أبواب ذات كوات . كانوا يهتمون أيضاً بأشخاص يتجرون بالمجوهرات المسروقة والذين كانوا بشكل عام ، أكثر دهاء ولصوصية من اللصوص أنفسهم : لقد اكتشفوا ان التجارة أقل خطورة وربحها يساوي ربح السرقة ..

كان اللص يخطيء أحياناً في ضربته ويضطر للهرب أو انه يقع سجيناً وكان في كل الأحوال يخبر بدرو بالعوائق التي تصادفه وبما يعتقد انه ضروري لانقاذه . كثيراً ما كانت القضية التي يفشل فيها هؤلاء وأولئك أو التي لايجرؤ أحد على التصدي لها ، تلقى اهتماماً دولياً : في مدريد ، مثلاً ، أو في بالبارايسو ، في هافانا أو في مرسيليا كانوا يعلمون أن في ريوده جانيرو هذه الصفقة ، أو تلك ، وكان يحدث أن يتحمس بعض المكارين ، الذين يعيشون على بعد آلاف الكيلو مترات ، يذهبون

يُضربوا ضربتهم ، فيوفقون ويهربون أو يفشلون ويقعون في الأسر . وُفق والدي في صفقة صغيرة وفشل في أخرى كبيرة ، وكان بدرو ، وقتذاك ، عكازه وعصاه ، تماماً كما كان وسيكون بالنسبة لصفقات أخرى كثيرة ، لايكون له فيها أحياناً ، أية مصلحة أخرى غير القضية نفسها .

أما الآن فليس للموضوع علاقة بذلك . مع أن بدرو كان يعرف الكثير عن بونوس أيرس ، فسفره لم يكن مصلحياً :

ـ منذ كنت طفلاً صغيراً كنت أتمنى أن أتعرف على بونوس أيرس ولم أستطع ذلك ، ليس لقلة المال ، لاياسيدتي روساليا ، فرفاقي كانوا يوفرون لي ، في معظم الأحيان ، أكثر من حاجتي . وانما لأن عملي لم يتح لي الوقت . كان علي أن أنتظر هذا وأرعى ذاك ، أساعد فلاناً وأخفي علاناً . أخيراً ، أصبح عندي في العام الفائت وقت حر ، ولم يعد عندي ماأقوم به ، لكن الشباب لم يسمحوا لي بالخروج من البرازيل : لأن القانون الجزائي الجديد أخافهم ، فهو يقضي بالنفي إلى أكره،وبالأشغال الشاقة لسنوات كثيرة والهواء الاصفر. ومع ذلك فالمسألة هي مسألة عادة ، كما هو الحال هنا ، حيث يرسلون الناس إلى سييرا تشيكا وتييرا ده فويغو وأنت تعرفين جيداً أن هذين المنفيين مليئان بالناس . جهزت عدة السفر وكدت أبحر ، لكنهم منعوني ،

لماذا ؟ لانك لاتستطيع الخروج من البرازيل ، لأنك صعلوك ظريف ، خبير كبير ، مكنّار وارتباطك بنا شديد . لن تذهب إلى بونوس أيرس ، فالطقس هناك بارد جداً . كلمت الرئيس ، فقال لي الشيء نفسه : يا كابوكلو (٣٢) بدرو ، هــل صحيح أنــك تريد الذهاب ؟ هل تريد أن تتركنا ؟ يالك من ناكر للجميل . ماذا ينقصك هنا ؟ كانوا دائماً يكررون علي الاسطوانة نفسها . أبحرت عنوة . نزلت من الباخرة عنوة . قدمت نقوداً للشرطة : لايابدرو ، لم يبق علينا الا أن نقبل نقوداً من الأصدقاء . ليس لك حق في ذلك . ماذا تريدون مني اذن ؟ أن تبقى معنا . نقسم لك بالمسيح ان ريوده جانيرو بحاجة اليك . لكنني مضطر للذهاب إلى بونوس أيرس ، انظروا بطاقة سفري ! دعك من هذا نحن ندفع لك ثمنها . أخيراً ، قال لي أحد الاصدقاء : ياسيد بدرو ، كنت أعتقد دائماً انك فتى ذكي ،وأرى أنني كنت مخدوعاً . فلماذا تريد أن تذهب في الباخرة بحراً ، طالما نستطيع أن تسافر براً أو نهراً . يالك من خلاسي حيوان . وهكذا سافرت براً ونهراً ، فمرضت وانتهيت في المستشفى ، أوشكت على الموت وسرقت مني النقود التي لم أتعب في الحصول عليها . كيف كنت سأتابع سفري ؟ سيراً ؟ سباحة ؟

---

(٣٢) Caboclo : كابوكلو : اسم وصفة مشتقان من اسم منطقة في للبرازيل وتأتي هنا بمعنى السيد . (المترجم)

لم يكن باستطاعتي العودة فقد كنت بعيداً عن ريوده جانيرو وبي رغبة كبيرة للتعرف على بونوس أيرس وأنا لا أعرف المقامرة ، ثم كيف أقامر ولانقودي عندي ؟ وممن أطلبها ؟ فالجميع شرفاء . لم يبق أمامي سوى مخرج واحد : اعمل ، اعمل يابدرو وعوّض عن جميع أعوامك الماضية ! ولكن ماذا أعمل وأنا لاأتقن عملاً ، ولاحتى السرقة . وهنا فتح الله بصيرتي : فالسفن لاتتحرك وحدها ، وهذا مايبرر وجود البحارة ، لكن لم يكن هناك سفن وكنت بعيداً جداً عنها وعلي كي أصل اليها أن أسير كثيراً وأن أجتاز أنهاراً ومستنقعات . . . ورغم ذلك انطلقت بالاتجاه المطلوب . والآن لاأعرف كم شهراً قضيت في السفر سيراً على قدمي وفي الباخرة ، أدخل في الطين ، تلدغني الحشرات ، تلاحقني الشرطة في البر وحرس البواخر في البحر وأعمل وقاداً ، حمالاً ، بحاراً . ولكنني وصلت ، ياسيدة روساليا وأنا في غاية السعادة .

استُقبل استقبال الابن وعومل معاملة البكر ، اشتروا له الثياب وأعطوه النقود وبقي هناك ، معنا . نحن الذين شدتنا شفتاه الغليظتان ويداه الطويلتان . وكان ذلك الخلاسي كائناً ظريفاً : حملنا إلى حيث كنا نرغب وروى لنا مغامراته في الأنهار والغابات والمستنقعات ، ومع النمور والأفاعي والطيور الغريبة . لصوص كثيرون كانوا قد رووا له تاريخ حياتهم فرواه لنا بدوره : كان بينهم شخصيات تكاد

تكون اسطورية . اذ أن بابرو كان يذكرهم باحترام ويلقب بعضهم بالكولونيلات ، أفراد من أقصى الأصقاع ، أولئك الذين قاموا بسرقات مذهلة وخيالية وآخرون ، غريبو الأطوار ، مبدعون لأنظمة خاصة تتلاءم مع أمزجتهم ، هنا متكبرون يعيشون وحيدين وهناك متبجحون ، يتنقلون بين الفنادق الكبيرة وغرف الدرجة الاولى في البواخر وبين الزنزانات الافرادية في السجون : هؤلاء يحبون الأناقة ، وينفقون أموالهم على الملابس والخواتم والعطور وأولئك مجانين ومبذرون ، عندهم خيول للسباقات وزوجات جميلات . أخيراً هناك من لايعرفهم أحد ، لا اللصوص ولاالشرطة ، يظهرون ويختفون مثل النجوم النائية دون أن يخلفوا أي أثر لخطواتهم وأيديهم الا ضحيتين أو ثلاثاً يشدون الخيل وعشرة أو عشرين شرطياً يجدفون ويتصببون عرقاً .

كنا نصغي اليه لساعات . ليس لأننا كنا نفضل حكايات اللصوص وانما لأنها ببساطة حكايات . لم نكن ، أنا وأخوتي ، نشعر بميل إلى عمل واللدنا ، لكننا أيضاً لم نشعر بالميل إلى القرصنة ، وهذا مالم يمنعنا من الاعجاب بحكايات القراصنة . ليس سهلاً أن يصبح المرء لصاً وكنا نعتبر أنه يتطلب شروطاً لايسهل توفرها . كما لم يكن يوجد داع لنصبح لصوصاً ولاشك قد لانصبح . ولاأحد يمكن أن يجبرنا عليه . ان فكرة أن أبناء اللصوص سيصبحون لصوصاً حتماً غير منطقية تماماً

مثل فكرة أن أبناء الأطباء سيصبحون حتماً أطباء . ليس غريباً أن ابن بائع الأثاث بائع أثاث وابن الاسكافي اسكافياً . لكن هناك اختلافاً بين صنعة أو مهنة تمارس خارج البيت ، في ورشة جماعية ، أو مكتب أو مكان ملائم أو غير ملائم وبين تلك التي تمارس في البيت نفسه : فابن الاسكافي أو مجلد الكتب ، عندما يعمل الأب في البيت ، سينشأ منذ صغره وسط مواد وأدوات ومعدات ولوازم صنعة الأب . وسواء شاء الابن أم أبى سيتعلمها ولو بشكل متوسط . بمعنى انه سيعرف كيف يحضر هذا ويصنع ذاك ودرجة حرارة الغراء الضرورية مثلاً أو كيف يجب أن يطرق النعل الرقيق ، لكن عندما يقوم الأب بنشاطاته الاقتصادية خارج البيت ، ولنأخذ مثلاً الطبيب أو المهندس أو اللص ، فان الأمر يختلف . دون أن نأخذ بالحسبان أن هذه المهن أو الصنعات أو النشاطات الاقتصادية جميعها حرة ، رغم انها متباينة . إنها تتطلب شيئاً من المهارة والاستعداد المسبق الخاص ، الشيء الذي لايحدث في مهنة التجليد أو الاسكافة ، اللتين هما بشكل أساسي وعام أعمال يدوية .

لذلك ليس باستطاعة أي كان أن يصبح لصاً لمجرد انه يريد ذلك . تماماً كما لايمكن لأي كان أن يصبح مهندساً أو موسيقياً أو رساماً لمجرد انه يملك الرغبة وهكذا وكما يوجد من يفشل في دراساته

الهندسية ويضطر لأن يرضى بأن يصبح مهندساً زراعياً مثلاً أو طبيب أسنان . فهناك من يفشل في أن يكون لصاً ويضطر لأن يقنع بأن يكون أي شيء آخر متواضعاً ، يغطي على اللصوص مثلاً ، كما هو حال بدرو الخلاسي أو الذي يبتاع أو يبيع المسروقات أو العكس ، شرطياً أو مخبراً ، رغم ان حالات اللصوص الذين ينقلبون ليصبحوا شرطة ليست نادرة مثل حالات الشرطة الذين ينقلبون إلى لصوص ، فالحقيقة انهم في كلا النشاطين لايتجاوزون كونهم هواة بؤساء ، فالشرطي الحق لايمكن أن يصبح أبداً لصاً حقيقياً ، تماماً كما لايمكن للص الحقيقي أن يصبح شرطياً حقيقياً . فمن رأى مهندساً مختصاً بالجسور ينتهي إلى تبجين المسامير أو جراحاً مختصاً بالجهاز الهضمي العلوي صار بعد كل حساب ، رئيساً عظيماً في الاحصاء .

وحين تعب بدرو الخلاسي من بونوس أيرس ، صافح جميع أصدقائه ، باستثناء أولئك السجناء الذين اضطر إلى الاقتناع بتحيتهم بالصوت وحركات ذراعيه ويديه عبر الشبك الكثيف أو القضبان الغليظة . اتجه إلى الشمال ، كان عليه أن يعود إلى البرازيل . إلى ريو . أبحر ، ذات يوم . بينما كان الهواء الشمالي يكنس بونوس أيرس وهو يحمل من النقود أكثر مما كان يملك حين خرج من ريو بكثير ، إضافة إلى بطاقة سفر من الدرجة الثانية . وعده أصدقاؤه ، وكان والدي

واحداً منهم وكان يحبه ويحترمه كثيراً ، بالذهاب ذات مرة إلى البرازيل لزيارته ، رغم أن فكرة النفي إلى أكره والهواء الاصفر كانت تبعث فيهم القشعريرة الفظيعة . لحسن الحظ انهم كانوا يملكون من الوقت مايسمح لهم بالتفكير واتخاذ القرار .

— ٢ —

بعد هذا أو قبله ، وصل آخرون ، رغم انهم ليسوا كثرة ، فقد بدا على البعض منهم وكأنه نشر لتوه وعلى البعض الآخر انه على وشك أن يموت . على الأقل واحد منهم وصل على حين غرة ، كما يصل اللصوص والعملاء الرحالون عادة ، فاستقبل استقبال أكثر الناس أهمية في العالم ولاقى من الرعاية مايجعل المرء يتصور أن صحة ورفاهية وسعادة الكثيرين في كامل المدينة تتعلق بوجوده وصحته . كان نحيلاً ، أصفر ، كبيراً وشفافاً ومتدلي الاذنين ، لم يكلمنا ، أو بالكاد كلمنا ، أعني نحن أطفال البيت . وكأنه ليس لديه مايقوله أو انه لايستطيع أن يقول لنا شيئاً ، وربما كأنه لايملك الوقت كي يفعل ذلك قبل موته . عندما وصل قالت لنا والدتي ان علينا ألا نقترب منه ولانكلمه ، لأنه وصل مريضاً وكان مرضه شديداً وأضافت كي تخيفنا انه خطير . ماالذي به ؟ من يدري . قد تكون كوليرا كما يمكن أن يكون هواء

أصغر . أخرج أخوانا الكبيران : خواو واثكييل من غرفتهما ونقلا إلى أخرى أصغر ومزعجة . ولم يكتفيا بأنهما لم ينبسا ببنت شفة بل اعتبرا ذلك مصدر تسلية لهما . لأن أي تغيير كان يبدو لهما مغامرة . جهز الرجل بكل شيء جديد : السرير . الفراش ، الملاحف ، الأحفة ، لقد تدبر والدي كل شيء وجهزاه خلال دقائق قليلة واستطاع ألفردو ، الذي كان يدعي كذلك ، أن ينام . ونام وكأنه لن يستيقظ بعدئذ — هذا ماخطر لنا . على الأقل — لأن حالته ، كانت فعلاً مذهلة ، اذ بدا أن هواء الغرفة والبيت والمدينة بل والجمهورية لايكفي رئتيه ، اللتين عملتا بكل ماأوتيتا من قوة ، فأجبرتاه على أن يفتح فمه . لأن فتحتي أنفه غير كافيتين . كانت عيناه المفتوحتان على مداهما تنظران بثبات ، وكان شاربه الطويل والأسود والرقيق يضفي على فمه نصف المفتوح تعبيراً غامضاً . أما يداه الشاحبتان والنحيلتان ، اللتان وضعهما باغماء فوق الملاحف فقد بدتا غير قادرتين على الاتيان بأية حركة مفيدة . قدم طبيب وفحصه . تكلم مع والدي وكتب وصفة ثم قبض وذهب . .

— ولكن ، ماذا به ، ياماما ؟

قامت والدتي بحركة غامضة وكأنها تريد أن تفهمنا أنه سيان كان هذا أو ذاك ، فهو سيموت على كل الأحوال .

— ومن يكون ، ياماما ؟

— صديق والدك .

صديق والدك . . . انها عبارة تقول كل شيء ولاتقول شيئاً : أي انها كانت تحيطنا بشرط واحد من شروط الرجل ، لكنها لاتحيطنا بشيء عن الرجل نفسه . وهي بذلك كانت توضح لنا كل شيء دون أن توضح شيئاً . استطعنا في العديد من بيوت الزملاء والجيران أن نرى ونتعرف على أصدقاء تلك البيوت اضافة إلى الناس الذين كانوا يعيشون معهم من أقرباء وغيرهم . واستطعنا أيضاً أن نحصل على مختلف المعلومات بخصوصهم : أسمائهم ، أين كانوا يعيشون ، فهم يعيشون دائماً في مكان محدد ، غالباً مايكون المدينة ونادراً مايكون الريف ، ولاأحد أبداً كان يعيش في المحافظات . ماذا يعملون ومم يعيشون ، هل هم متزوجون ، هل هم غرباء ، أرامل ؟ الخ . بينما لم نكن نعرف عن أصدقاء والدي — لماذا سأتكلم عن أصدقاء والدتي ؟ اذا كانت لاتملك أي صديق — سوى انهم اصدقاؤه وأحياناً كنا نحصل على أسمائهم ، ليس الا . أين كانوا يعيشون ؟ يبدو أنهم أنفسهم لم يكونوا يعرفون ذلك ولا أحد آخر كان يعرف : في بلد ما ، في بلدة ما ، في مركز محافظة ما ، ليس أكثر . أما اذا كانوا يعيشون في المدينة ذاتها ، في بونوس أيرس ، منلبوثا ، روساريو ، قرطبة فاننا لم نعرف عناوينهم

أبداً أو نادراً ماعرفناها . كان يبدو أن والدي الوحيد الذي لايستطيع أولا يريد أو لايعلم كيف يعطي معلومات أكثر عن أصدقائه والوحيد الذي يجوز له امتلاك مثل تلك الصداقات الاستثنائية . كيف ومتى تعرّف عليهم ؟ أين ؟ ماالعلاقة التي تربط بينهم ؟ هل سافروا ذات مرّة معاً ، عملوا معاً ، سجنوا معاً ؟ ربما .

توّصلنا الى معرفة أشياء قليلة عن بعضهم ، والفضل في ذلك كان يعود أحياناً اليهم وأحياناً أخرى إلى والدي ؛ لكن القاعدة كانت أن نعرف عنهم قليلاً أو لا شيء . لم نعرف في البداية عن ألفردو سوى انه كان يدعي كذلك وانه مريض : مريض وألفردو ، ألفردو ومريض ، الكلمتان اللتان بقيتا مترادفتين لبعض الوقت في البيت : «أنت موجود، ياألفردو» . لم يكن ألفردو من جهته يقول شيئاً ولا حتى انه مريض ، رغم انه لم يكن ضرورياً أن يقول هذا . ومما زاد في الطين بلّة أن والدي سافر واختفى ، ـــ تماماً كما كان يختفي أصدقاؤه ـــ فذهب معه الأمل الوحيد الذي كان عندنا لمعرفة شيء عن ألفردو .

لكن اذا كان محظوراً علينا أن نوّجه اليه الكلمة ، فانه لم يكن محظور علينا أن ننظر اليه ونظرنا اليه ، بمعنى انه كان الوحيد الذي نظرنا اليه أنا وثالث اخوتي دانييل لزمن طويل . كان علينا ألا نخرج من البيت ولا حتى الى الباب طالما أن أخوينا الكبيرين في المدرسة ، خاصة عندما

كانت والدتي تغيب عن البيت . وبما أننا كنا نعرف البيت أكثر من أبوينا ومن جيوبنا ، اذ طفناه وتفحصناه بجهاته الثلاث بل وأعتقد الأربع فلا بدّ أن ألفردو تحمّل نظراتنا الرهيبة أياماً كثيرة ، أقول الرهيبة لأنها لم تكن قادرة على المواربة ، كنّا ننظر اليه بالعيون التي كانت لنا في ذلك السن بالنسبة لرجل كان يبدو أنه سيموت بين لحظة وأخرى ، أي بعيون خالية من أي خداع .وإذا كانت نظراتنا لم تقتله فهذا يعود ولاشك إلى المقاومة الهائلة التي تَمتّعَ بها . هكذا بدأنا نراه في الأيام الأولى وهو ينكمش ويتقلّص ويضمحل . في كل يوم كنا نجده أكثر تقلصاً حتّى داخلنا شعور بأنه سيصغر فجأة ذات يوم حتّى يتلاشى ، فقد غارت عيناه وتحوّل جبينه إلى عظم خالص ، واستطالت وجنتاه وانكمشت شفتاه حتّى أصبحت أسنانه مكشوفة وانفتح فمه المظلم أكثر بفعل صعوبة التنفس . ما المرض الذي كان يعاني منه ؟ إنه لغز ، مثل قدومه وإقامته ومصيره . راح يغور في المخدة والفراش ويضمحل تحت الملاحف ، حتّى يداه صغرتا ورسغاه ضمرا بشكل مذهل . مرّت أيام كنا فيها على ثقة حين نطل من باب غرفته أننا لن نجد في الفراش إلا الفراغ الذي أحدثه رأسه في المخدة .

لكن لم يحدث هذا : لقد قاوم الرجل ، وأسوأ ما في الأمر أنه كان يلاحظ أننا نترصد ونرقب مرضه واضمحلاله التدريجي من دونه .

كنا نلاحظ أحياناً أنه يرمقنا من خلال أجفانه شبه المغلقة : بنظرة تبدو أنها تنفذ إلى داخلنا ، طبعاً لم تكن نظرة حنق ولا نفور بل نظرة شيء آخر : هل انتبه من نظراتنا إلى حالته ؟ ربما ، أو ربما فكّر أنه ما دام يرى ذينك الطفلين الصامتين والجاثيين يقف كل منهما إلى أحد جانبي الباب لن يكون في خطر شديد . مرّت عدة أيام لم يقل فيها ولا حتّى مرحبا ولا : اذهبا ، أيها الطفلان الدخيلان ، إنكما تهيّجان أعصابي . لاشيء : بدا مستعداً للموت دون أن يبادلنا كلمة واحدة .

عندما كانت والدتي توقفنا في السرير كي تلبسنا ثيابنا وتغسلنا ، كنّا نسألها وقبل أي شيء :

— كيف حال المريض ؟

— سيئة ، ياولديّ ، لاتزعجاه .

لم نكن نزعجه ، بمعنى أننا لم نكن نكلّمه أو ندخل إلى غرفته ، فقط كنّا ننظر إليه ، وحين يبدو على وجهه ما يثير الفضول : شحوب زائد ، شحوب كبير ، نأتي بأحد إخويّ الكبيرين لينظر بدوره إليه ، وكأننا اكتشفنا شيئاً خارقاً .

— انظر إليه — يبدو أننا كنّا نقول — ألا تلاحظ أنه اليوم أكثر موتاً من الأمس ؟

يذهب أخوانا مندهشين . فهما لم يرياه لحظة بلحظة مثلنا .

سألت والدتي المريض ذات يوم إذا كان يرغب بأن تغلق له الباب :

— يمكن لهؤلاء الأطفال أن يزعجوك . إنهم ينظرون كثيراً .

حرّك ألفردو يديه بعنف نافياً ذلك .

— كلاّ . ياسيدة . رجاء — قال . ولو استطاع لأردف دون شك — : لو أغلقت الباب لاختنقت — إلى هذا الحد بدا له الهواء كثيفاً .

باعجاب كبير منا كانت والدتي تعتني به اعتناء زائداً . لماذا ؟ كنا نعلم أنها لم تتعرّف إليه إلا لحظة وصوله إلى بيتنا . هل كان شخصاً مهماً إلى حد أنه يستحق كل ذلك الإعتناء ؟ كنّا نجهل هذا . أين أصابه ذلك المرض ؟ كان لغزاً . كنّا ، أنا ودانييل ننظر إليه طويلاً وأيدينا في جيوبنا أو أصابعنا في فمنا حتى راحة الكف . نظرنا إليه مدة ، بدت لنا طويلة ، كأنها سنتان أو ثلاث ، ولكن ربما لم تتجاوز الشهرين أو الثلاثة ، رأينا خلالها كيف راح ذلك الرجل ينمو من جديد ويستعيد بنيته وجسمه ولونه وشكله ومظاهره : كانت والدتي تقدم أو تحضّر له الدواء في ساعات ثابتة : شراب أبيض كثيف ، أو مستحلبات ، شرابات أخرى ، شبيهة بالعسل الذهبي ، يسكب من قنان ذات لون

داكن وفم عريض ، ثم سائل خفيف أو حبوب وردية أو أقراص ورقائق وجميع أنواع العلاج النادر في ذلك العهد . بالكاد ماكان يأكل بعض المرق والحليب والماثامورا (٣٣) الذي تحسّن بفضله وكأن معجزة قد حدثت .

حدث ذات يوم استنفار ، لقد تكلّم المريض : جاء شخص مجهول غير منتظر ، طرق الباب وسأل عما إذا كان أنيثيتو ايبيا يعيش هناك وهل هو موجود . أجابه أخي الأكبر ببرودة واضطراب ، لأن الرجل رفض البوح باسمه وحالته لم ترق للفتى ، إنه يعيش هناك ، لكنه غير موجود . كان ذلك صحيحاً ، إلا أن الرجل سأل بصوت فظ متى سيعود ، أين يحتمل أن يكون ، متى ذهب ، منذ متى يعيش هناك ، أسئلة أدخلت الشك في نفس خواو وسمعها ألفردو بوضوح لقرب غرفته . عندما مرّ خواو أمام غرفة المريض بعد أن ودّع السائل وأغلق الباب ، ناداه ألفردو مومئاً بيده فاقترب منه الطفل واقتربنا جميعاً .

— من هذا ؟ — سأله بقلق باد .

— لاأعرفه — كان الجواب .

---

(٣٣) Mazamurra : ماثامورا : طعام يعتمد تحضيره في الاساس على الذرة المسلوقة . (المترجم)

ـ ماهي ملامحه ؟

كان الجواب صعباً . إذ لاشك أن ألفردو كان يشير إلى تقاسيم المجهول والإنطباع الذي تركته .

ـ ألم ترتب ؟ ـ سأل المريض وهو يبذل جهداً .

هزّ خواو كتفيه . فقد بدت له الأسئلة غامضة .

ـ وأمّك ؟

ـ خرجت منذ برهة . لا أحد هنا غيرنا .

ـ ألم تعرفوا شيئاً عن أنيشيتو ؟

ـ لاشيء .

هذا هو أوّل حديث لألفردو مع أحد من أهل البيت . ساد صمت .

ـ ما أسمك ؟

ـ خواو .

ـ برازيلي ؟ ـ قال ألفردو ناظراً إلى السقف ، وهو يحاول أن يسحب نفسه إلى رأس السرير وكأنه يريد أن ينتصب .

ـ نعم .

حرّك ألفردو رأسه للطفل .

ــ انظر ، ياخواو ــ قال ــ هل تستطيع أن تنظر إلى الشارع دون أن يراك أحد في الخارج ؟

ــ نعم عبر دفّة النافذة .

ــ حسناً . انظر إلى الرجل إن كان هناك وماذا يفعل .

عاد خواو بخبر مفاده أن الرجل يقف في الزاوية وينظر إلى البيت .

بدا ألفردو وكأنه تلقى ضربة على معدته فشحب لون وجهه وعاد إليه ضيق التنفس وانتصب مســتنداً إلى قضيبي رأس السرير . رأينا عينيه تجحظان وكأنه ارتعب وارتعبنا جميعاً دون أن نشعر بما كان يشعر به ذلك الرجل . كان خواو ، الذي وقف إلى جانب السرير ينظر إليه وكأنه يسأله عمّا جرى له .

ــ اعمل شيئاً ، ياخواو ــ تمتم المريض بصوت يصيب بالذهول ، بدا أنه يتوسّل إليه أن ينقذه من خطر داهم . حسبنا ولعدة ثوان أنه سينتصب ، سينهض ، سيهرب إلى أحد الأماكن . إلى هذا الحد أصابه الرعب .

ــ وماذا أستطيع أن أفعل ، ياسيد ؟ ــ سأله خواو .

ــ ماذا تستطيع أن تفعل ! ألا تعلم؟ ــ سأله المريض بما يشبه الصراخ .

ــ كلاّ ــ أجاب الطفل ببساطة .

استوى المريض في الفراش أكثر ونظر إلى خواو بحدة وكأنه يقول له بنظرته كل ما كان يفكّر به ويشعر وكل ماكان يريد أن يشعر به الطفل ويفكر . هل فهم شقيقنا ؟ ربما . لكن بين بين . فقد مضى إلى النافذة من جديد ورجع بالخبر نفسه : ما يزال الرجل هناك ، ينظر إلى البيت . أخذت المريض رجفة فبدأ يرتعد بعنف .

ـ أعطني ثيابي ـ تمتم .

أذهلت تلك الجملة خواو فلم يستطع أن يعطيه شيئاً . بدا على ألفردو أنه يريد النهوض . آه لو استطعنا أن نفهم أو نلم بما كان يشعر به ذلك الرجل ! لم نكن نعرف من يكون ولا من أين جاء وذعره أذهلنا وأخافنا . توضّح لنا بعد ذلك بزمن قليل ما حدث حين تحدّثنا عن ألفردو : ربما كان ذلك الرجل المريض قد خرج أو هرب من أحد السجون ويخاف أن يكون المجهول شرطياً يقتفي أثره في ذلك البيت ، الذي ربما اختاره المريض من بين بيوت قليلة ليأتي إليه ويصارع فيه المرض .

اقتحم اثكيبيل غرفة المريض قائلاً :

ـ ماما تتحدّث مع الرجل !

منحنا ذلك راحة كبيرة ، رغم أنه لم يكن يعني شيئاً ، لكن حضور

والدتنا كان يشكل مساعدة . سكن ألفردو قليلاً . تابع خواو واثكييل ، اللذان كانا قادرين على النظر من دفة النافذة المفتوحة قليلاً دون الحاجة إلى الصعود على الكرسي ، مجريات الحديث بين والدتي والمجهول : كان الرجل يتصرّف بهدوء ويتكلّم بطريقة كأنها سريّة . نفت والدتي بحركة من رأسها ثم عادت وأكّدت فابتسم الرجل وسار مع والدتي التي تقدمت باتجاه البيت ، بعض الخطوات واستعدّ لعبور الشارع . توقّف الرجل عند طرف الرصيف ، ودعها وودّعته بابتسامة . انتهى كل شيء .

حين دخلت والدتي غرفة المريض ، كان ألفردو ، الذي علم من خلال خواو واثكييل بالمجرى الحسن الذي سارت فيه الأحداث ، قد عاد ليتنفس بشكل طبيعيّ .

سألها :

— من كان ؟

— غومرثيندو ، القرطبي ، جاء ليعرف أين أنيثيتو ومتى يصل .

بدا أن ألفردو لم يسمعها ، وكأنه أصبح سيان عنده ، بعد أن زال الخطر ، أن يكون القرطبي غومرثيندو أو الأميرال توغو .

جاء والدي بعد أن أصبح باستطاعة ألفردو أن يستوي في السرير

ويتناول الطعام بنفسه . بعد أيام طرقت باب البيت سيدة أدهشت الجميع حين سألت اثكييل ، الذي خرج على الطرقات ، عمّ إذا كان انيشيتو يعيش هناك والتجأ عنده شخص يدعى ألفردو . فتح اثكييل الباب تماماً كي تدخل السيدة التي تقدمت في الدهليز . كانت ترتدي بدلة رقيقة ، قاتمة اللون وفضفاضة ، مؤلفة من تنورة وبلوزة تصل إلى أسفل الخصر بقليل وتضع على رأسها شفاً قاتماً وتعلّق إلى يدها حقيبة جلدية . كانت التنورة تغطيها حتى قدميها . تبيّن أنها لاتعرف والدي شخصياً . فهي قد حيتها تحية مقتضبة ، دون أن تخلو من بعض المجاملة . من تراها كانت ؟ زوجة ألفردو ؟ أخته ؟ صديقته ؟ لاأحد عرف شيئاً في تلك اللحظة . كما أن السيدة لم تقل شيئاً أو تأتي لما يدل على أنها زوجه ، أخته ، أو صديقته ، أو عمّته : لم تبدر منها تحية عاطفية ولا بكاء أو صياح يتناسب مع الغياب الطويل والمرض الصعب .

— هل هي زوجتك ؟

— بلى ، زوجتي — أجاب وهو يهزّ رأسه .

— متزوّج منها ؟

— للأسف . تحوّلت إلى جلاّدة له . لم تكن تدري حين تزوّجا أنه لص (تماماً كما حدث معك) . لكن كان يسعدها وجود المال معه

باستمرار وتقديمه الهدايا لعائلتنا وخاصة لأمها التي كانت تعتقد أنها شخصية بارزة لأن زوجها كان عقيداً في المدفعية ومات بعد أن تآكله الكحول والدين . وحين علمت بالأمر أثارت فضيحة رهيبة وأسوأ مافي الموضوع هو أن أصدقاء ألفردو هم الذين أحاطوها بذلك وبرهنوا عليه . أرادوا لها أن تنفصل عنه ، لكن خاب ظنّهم : صحيح أنها صرخت ، وبكت لكنها لم تتركه لحظة واحدة طليقاً ، بل على العكس شدّدت عليه الخناق وأصبحت تنظر إليه هي وأمّها وعائلتها وكأنهم سادة وهو عبد عندهم . وإذا وقع سجيناً ، ونادراً ما يقع ، لأنه يعتني بنفسه أكثر مما يعتني بورقة نقدية من فئة الألف (خوفاً من زوجته وعائلتها) . فإنه لايعطي عنوان بيته ولا يبوح بأنه متزوّج ولا ممّن ، وعليه أن يتدبّر أمره بنفسه في مسائل الطعام واللباس وجميع الأمور ، وهي غير قادرة حتّى ولا على تعيين محام له ، وتقضي العمر تعيبه في واقعه،وفي الخديعة التي كانت ضحيتها والعار الذي أوقعها وعائلتها بزواجه منها . . . ! لو كان زواجها مني للويت عنقها .

ــ وهو ؟

ــ إنه شاب طيّب ، لكنه رجل بائس أيضاً ، إذ يترك هذه المسخة تسيطر عليه ويصدق كل ما تقوله له ، والأسوأ من ذلك أنه يعتبر شرفاً له زواجه من بنت رجل لم يأت في عمره بعمل واحد ملحوظ

سوى أنه انتزع رأيه لا أعرف من أي عدو كان وقتئذ نائماً،الشيء الذي خوله بعدئذ أن يتقاضى معاشاً من الدولة لسنوات كثيرة ، وليس هذا كل شيء : فقد علّمت هذه المرأة بناتها ، وهما اثنتان ، أن تنظرا لوالدهما كما تنظر هي له : إنسان شقيّ ليس عنده ما يشرف إلا أنه يسرق كي يعيل عائلة تافهة بكاملها .

— وكيف جاءت لتراه ؟

— ولماذا تعتقدين أنها جاءت ؟ طبعاً ولاشك لأنها بقيت بلا نقود .

وبين يوم وآخر اختفى ألفردو كما جاء تماماً . رأيناه ذات يوم يتحرّك ، يجهز ، واقفاً يتحرّك يعدّ أمراً : ظهر رقيقاً ، أبيض، مرناً، قوياً ، يرتدي بدلة قاتمة اللون وينتعل جزمة لامعة ، كثيرة الصرير ، ويضع قبة عالية وربطة عنق حريرية عريضة ، تغطي كامل فتحة الصدرية . عندما أطللت ، أنا وأخي دانييل عليه ، في اليوم التالي ، رأينا السرير فارغاً والغرفة خالية : لم يعد ألفردو موجوداً . إنه كائن طيفي آخر ظهر واختفى .

لاأعرف إذا كان هناك في المدن البعيدة ، في تلك المدن والأماكن التي كان يرتادها والدي في أسفاره ، أناس مثلنا ، أو بالأحرى مثل والديّ ، مستعدون لاستقباله أو أنهم استقبلوه ، حين وقع ذات مرّة مريضاً ، أو أنهم ساعدوه عندما وقع في يدي أحد رجال الشرطة . ربما ، أتمنى ذلك .

— ٣ —

أما أنا فلم أملك إلى جانبي أحداً : يبدو أن عائلة والدتي قد اندثرت. كانت في الأصل من مكان ما على شاطىء تشيلي الأوسط ، تلك المناطق التي لا يصلها من العالم إلا ضجيجه المنطفىء والمتأخر . حيث تتكوّن العائلات وتندثر ، تظهر وتختفي بصمت ، مثل الأشجار والغابات ، تختفي ولا يبقى منها أحياناً إلا البيت نصف الخرب ، الذي وُلِدَ فيه أعضاؤها الأساسيون ، عاشوا وماتوا . الأبناء يرحلون والآباء يموتون ، ربما بقي منهم فليون أو ابن عمّ أو ابن ابن عمّ أو عرّاب أو حفيد وهو ، لكبر سنه ، لايذكر حتّى العام الذي مات فيه آخر أقربائه .

— لا روساليا ؟ — سيسأل وقد أمال رأسه ونظر إلى الشمس بعينيه اللتين عشاهما الماء الأزرق الناضج — أليست ابنه المرحوم ابلاريو غونثالث ؟

كانت والدتي تتكلّم عن أقربائها بشكل يدل على أنهم قضوا نحبهم منذ البداية : مات والداها قبلها بسنوات كثيرة ، أما أخوتها فاثنان منهما كانا شبه اسطوريين وماتا أيضاً أو اختفيا ، والثالث كان أكثر موتاً فقد كان يقيم في أعماق أحد الأديرة .

لم يكن عندي في تشيلي من أوجّه له وجهي . لم أكن أعني شيئاً

لأحد ، ولا أحد كان ينتظرني أو يعرفني وعليّ أن أتقبل ما يرميني به الحظ أو أن أرفضه ، فهامشي ضيّق ولا أملك مستقبلاً معلوماً وأجهل ما سأؤول إليه ان استطعت أن أؤول إلى شيء . كنت أجهل كل شيء وعندي بعض الميول لكن دون اتجاه أو شيء أو أحد يوجّهني أو يساعدني . كنت أحيا لأنني حي ، وأعمل الممكن - تدفعني إليه أعضـائي - لأدافع عن وضعي ، ليس خوفـاً من الموت وإنما من المعاناة ، أعرف أن جميع الناس كانوا يفعلون ذلك أو أنني لم ألاحظ شيئاً آخر ، انتبهت ، نعم انتبهت إلى أنه ليس من السهل أن يموت الإنسان ، إلا في حادث معين ، وإنه يكفي جهد صغير أن يأكل شيئاً ، أن يتلفّع بشيء ، أن يستنشق شيئاً كي يستمر في العيش قليلاً . ومن هو الذي لايستطيع ذلك ؟ فالعالم كله كان يفعل هذا ، بعضهم بشكل فضفاض أو بائس أكثر من غيرهم ، محافظين على بقائهم جميعاً ومتمتّعين به . فالوجود كان رخيصاً والإنسان قاسياً ، قاسياً ، أحياناً بشكل محزن .

هبطت درجات ذلك السلم الحجري ، ولكن ببطء ودون استعجال مني وكأن قدميّ كانتا تجدان في كل واحدة منها شيئاً خاصاً ووصلت إلى الرمال . عدت ونظرت من هناك ؛ إلى اليمين كان ينتصب تمثال سان بدرو بالحجم الطبيعي ، فوق ريف صخري ، كان دثاره كبير الثنايا، صلعته صلعة حواري ، غريبة بيضاء ، بالمقارنة مع بقية الجسم ،

كاليدين والوجه – لأنه لم يظهر منه شيء آخر سوى طرف القدمين – وكانت رمادية اللون مائلة إلى الخضرة ، الدثار كان بدوره يتكشف هنا وهناك عن بقع ضاربة للبياض . لماذا هذا اللون ومن أين جاء ؟ كان هناك نورس يقف على رأس القديس ويقوم ببعض الألعاب وعلى بعد أمتار منه يقف آخر على طرف سارية ، يفترض أن لها هدفاً وطنياً .

تابعت النظر ، كان الرجلان يوحيان بأنهما ولدا على ذلك الشاطيء الملي‌ءبرؤوس سمك المنشار وأمعاء الأسماك والزعانف الزرقاء وقطع من مجسات الجبّار وهيكل هذا الطائر البحري أو ذاك التي تفوح منها رائحة زيت البكلاء ، تزيّنه أيضاً طيور القطرس الوقور . لكنهما لم يكونا صيّادين ، فالصياد يُعْرَف بسهولة من قبعته الحائلة اللون والتي لا شكل لها ومن قدميه الحافيتين وصدرياته المذهلة – الأكبر دائماً من أية صدريات أخرى والتي لاشبه لها بأخرى ولا هي طبيعية مثل صدريات التونيين – والكنزات الصوفية المتعددة . ومع ذلك لم توحي ثيابهما بشيء عن عملهما المحتمل ، فجاكيت ضاربة إلى الخضرة ولامعة وذات بطانة وحشوة ظاهرة في الداخل والخارج وجيوب هي أقرب إلى التمزّقات وبنطال منتش ممزّق من كل صوب لايمكن أن تعطي أي مؤشر عن الطريقة التي يكسبان بها عيشهما . ومع ذلك هناك شيء يمكن أن يكون المرء واثقاً منه : ان ايراداتهما لاتصل حداً من الوفرة يزعجهما .

نظرا إلي بدورهما ، الاول ثم الثاني ، نظرة تفحص ، الأول في النظر إلي كان يسير في الجانب المطل على الشارع والذي اخترقتني نظرته مثل سهم : كانت نظرة نورس لص ، انطلقت من سطح العين وليس من المخ ، وكنت على ثقة من أن صورتي لم تصل من نظرته الأولى إلى أكثر من ميليمتر واحد في عمق جهازه البصري الخارجي ، كانت بالنسبة له مجرد انعكاس ضوئي ، احساساً خالياً من أي معنى شخصي : لم يخرج معي بنتيجة : نظر إلي كما ينظر العصفور للعصفور والسمكة للسمكة ، ولم ينظر إلي ككائن حي مثله ، يقتات بمثل مايقتات به ويمكن أن يكون صديقاً أو عدواً ، ولكنه دائماً عدو حتى يثبت العكس . ربما كانت تلك نظرة رجال المجارير ، المليئة بالضوء ، والسطحية في الوقت نفسه ، لاترى ولا تشعر إلا بالدم وبالعنف وبالعزيمة وبالهدف الآني . أشاح بنظره ومر عرضاً، فجاء دور الرجل الآخر فنظر إلي نظرة معدلة لنظرة الأول ، نظر إلي كما يجب أن ينظر انسان لآخر ، يتعرفه ويثمنه منذ البداية كانسان ، وكانت بدورها مليئة بالنور ، لكنه كان نور ما وراء العين المجردة وابتسم في الوقت نفسه ابتسامة لم تكن ضرورية ، فلا شيء كان يستدعي الابتسامة ، لكن ربما كانت ابتسامة فائضة ، عنده الكثير منها ، النظرة الاولى اخترقتني والأخرى تعرفتني . تابعت النظر إليهما : ماذا كان ينظران

وماذا يلتقطان ثم ماذا يخبئان وماذا يزدريان ؟ كان الموج متواصلاً ، وهو كذلك منذ قرون خلت ، يرتطم ، يسوط بعنف رمال الشاطىء الغليظة المغسولة على الشاطىء والرمال الناعمة والوسخة قرب الشارع . لم تكن نظيفة سوى تلك التي كان يغسلها الموج ، أما الأخرى فلم يغسلها أحد ولايبدو أن أحداً اهتم بها أو تأملها ؛ بعيداً على الشاطىء ؛ وبعيداً عن الامواج كانت تتكوم القمامة . كان الماء أحياناً يصل أقدام الرجلين — لماذا سأتكلم عن أحذيتهما — اللذين كان عليهما أن يخطوا عدة خطوات باتجاه الشارع هرباً منه ، ليس خوفاً من أن يبتل الحذاء بل خوفاً من أن تبتل الأقدام .

نظرت إلى الرمل ، كانت بعض حباته غليظة مثل ثمرة الخرنوب وضاربة إلى الخضرة أو الصفرة . ماذا يمكن أن يكون هناك ويستحق أن يلتقط ؟ انحنى أحد الرجلين والتقط شيئاً ، نظر إليه بامعان ، لكنه كان ولاشك غير الذي كان يأمله اذ ألقى به جانباً . يبدو انه كان صغيراً وربما بحجم حبات الرمل تلك ، لأنني لم ألاحظ المكان الذي سقط فيه ، كما لم أسمع له صوتاً ولم ألحظ أي جسم . سرت بعض الخطوات لكن في الاتجاه الذي اتخذه الرجلان كي لايظنا أنني ألاحقهما ، بل في الاتجاه المعاكس ، وقد حنيت رأسي ورحت أنظر بانتباه ، حتى اذا كان هناك شيء يمكن العثور عليه ، لابد سأعثر علية ؛ لم أجد شيئاً ،

فلا شيء غير الرمال الرطبة . لم يكن للرجلين ، رغم مظهرهما ، وجها مجنونين وكانا يبحثان عن شيء ويلتقطان شيئاً .

انتصبت في اللحظة التي دارا فيها ، فاستطاعا أن يرياني منحنياً ورمقاني بنظرة أطول ، شعرت على أثرها بالخجل وبقيت في مكاني بلا حراك . تقدما ببطء ، كأنهما سائران في صحراء ، ينظران إلى الارض باستمرار وبتركيز شديد ، مكنني من مراقبتهما كما يحلو لي : كان أحدهما ، صاحب نظرة الطير ، يملك لحية طويلة بكثافة . فهي لم تحلق منذ عشرة أيام أو أكثر ، تثير الخجل ، وتبدو قاسية كأنها أسلاك ، ربما كانت بقساوة شعره ، الذي بدا انها امتداد له ، وأقصر منه لكنها لم تكن أقل نفشاً ، كان شعره يكاد يغطي كامل أذنيه وبما انه لم يجد مكاناً يسترسل عليه فقد قرر أن ينسدل على وجهه ، وعلى العكس مما كان يفضل صاحب الرأس الذي ينتمي إليه فقد شكل لحية لاتجعل منه انساناً سعيداً لكنه لايستطيع أن يستغني عنها هكذا ولله بالله. اقترب الرجل فحرفت نظري : لم أبغ أن ألتقي بعينيه . لكنني رغماً عني التقيت بهما ، ليس بالمصادفة وانما لأن نظرته كانت نفاذة إلى حد انني لم أستطع أن أقاوم فكرة انه ينظر إلي فنظرت إليه بدوري . بدا من جديد أنه ينفذ إلي . « ماذا تريد ، من أنت ، ماذا تفعل هنا ؟ » هذا مابدا أن النظرة كانت تسألني وتضيف بصوت خافت وبشكل

جانبي : « لماذا لاتذهب ، أيها الأحمق الثالث » ثم عبر . لم ينظر إلي الرجل الآخر ، ربما نسيني ، أو لم ينتبه إلى أنني هناك ، أو يعرف انني هناك ولم يهتم بالموضوع أكثر : كنت شخصاً آخر على الشاطىء . رغم ذلك شعرت بخيبة أمل وخجل ، ذلك أنني انتظرت ابتسامة أخرى . لم يكن باستطاعتي أن أتقدم لأنني سأدخل في الماء، ولا أن أتحرك على امتداد الشاطىء ، بالاتجاه الآخر ولا باتجاههما ، لأن هذا يعني أنني أقوم بما يقومان به ، ثم لماذا : لم يبق أمامي سوى أن أصعد الدرج وأخرج إلى الشارع ، لكن لماذا سأذهب ؟ فالفرصة عامة ولاأحد يستطيع أن يطالب بملكيتها إلا الصيادون ، الذين كانوا يتبادلون الأحاديث حول الزوارق ، يفتحون جوف السمك بسكاكينهم ويضحكون لنكتة أو يلزمون الصمت لفترة طويلة دون أن يعيروا الرجلين أو يعيراني أي انتباه ، ثم لاأعلم لماذا شعرت اضافة إلى ذلك أن علي ألا أذهب ، فثمة شيء هناك سيخرج ، لاأعرف ماهيته ، لكنه شيء ، ثم إلى أين أذهب ؟

لكن أن أبقى هناك واقفاً بلا حراك ، فهذا أسوأ مايمكن أن أفعله . كان علي أن أتحرك باتجاه ما وأن أدخل في الماء اذا تطلب الأمر . ابتعد الرجلان من جديد فانتهزت الفرصة لألقي بنظرة أخرى على الرمل . عن أية شياطين كانا يبحثان وأية أباليس كانا يلتقطان ؟

رأيت فجأة شيئاً يلمع : كان مطموراً قليلاً بحبات الرمل الغليظة ، انحنيت والتقطته ثم تفحصته: كان قطعة معدنية بطول خمسة سنتيمترات وسماكة ثلاثة ، لامعة ، تميل إلى الخفة ، ناعمة في جانب ، خشنة في جانب آخر ،قاتمة في الجوانب الأخرى . ماتراها كانت ؟ لم يكن عندي فكرة عنها ، لكنها لم تكن ذهباً ولافضة . هذا الذي لاتصعب معرفته . لكنها أيضاً لم تكن رصاصاً ولا نيكلاً ، ربما كانت نحاساً أو برونزاً ، لكن من النوع المصنع . يبدو انها كانت جزءاً من قطعة أخرى أكبر أو أطول ، انترعت منها بعنف ، فقد كانت تظهر تخدشات في أطرافها . شددت عليها باحدى يدي وانتظرت . صار عندي شيء .

دار الرجلان عند طرف الشاطىء وبدأ ارحلة جديدة . مكثت هناك أشد بقبضتي على القطعة المعدنية ، متردداً فيما يجب أن أفعله، هل أسأل الرجلين عم كانا يبحثان أم أقدم لهما ماوجدته ، اذا كانا يبحثان عنه ، أم أستمر في البحث فأجمع بعض القطع الأخرى وأستفسر من أحد ما ، ربما من بعض الصيادين ، عن ماهيتها ، وعما اذا كانت لها قيمة تجارية ؟ لاشك أن المعدن يملك دائماً قيمة ، لكن أحياناً لاتكون له اية قيمة ومنها تلك التي لايعرف فيها المرء إن كان في يده فلزة ذهب أو بعض حبات القصدير . جميع التصرفات كانت مربكة ، بعضها

أكثر من الآخر . لكن تذكري لنظرة أحد الرجلين جعلني أعزم على الكلام معه ، ماذا أقول له ؟ اقترب ، أصبح على بعد خطوات مني ، فاقتربت عندئذ منه مبتسماً ، مددت له ذراعي وفتحت اليد التي كانت فيها القطعة المعدنية . فكرت أن أقول له شيئاً ، أن أقول مثلاً : هل هذا هو ماتبحثان عنه ، لكن لم تخرج من بين شفتي أية كلمة . فقط قمت بحركة .

توقف الرجل وابتسم ابتسامة لم ألحظ فيها الطيبة التي كانت في الاولى : فهذه تنطوي على بعض السخرية ، السخرية الناعمة تماماً ، لكن ليس إلى الحد الذي لم ألحظها فيه . شعرت بندم شديد ورغبة باغلاق يدي والهرب أو برمي تلك القطعة المعدنية الملعونة في وجهه . لكن يبدو أن الرجل انتبه إلى مايخامرني فبدل تعبير الابتسامة . كان أسود الشارب ، مرتفع الجبهة ، نحيلاً يميل إلى الطول ، ظهره مقوس قليلاً .

ـــ هل وجدت قطعة ؟ ـــ سأل بين المندهش والمسرور ـــ آه ، ماأكبرها !

أخذها ونظر اليها ، ثم التفت إلى الرجل الآخر ، الذي لم يقف بل تابع طريقه وترك رفيقه معي . ـــ اسمع ، ياكريستيان ـــ قال له ـــ انظر هذه القطعة التي وجدها الصغير .

لم يعر المدعو كريستيان الموضوع أدنى انتباه ، وكأن أحداً لم يكلمه ولا كلمة واحدة . تابع سيره على الشاطىء حاني الرأس . حين نظرت إليه من الخلف رأيت وعلى مسافة صغيرة بعض الرقع القائمة على كفله تكاد تسقط وكانت مختلفة في لونها عن لون البنطلون ، الذي لم يعد له لون محدد . أعاد لي الرجل قطعة المعدن ، لكن وبما انني لم أدر ماأنا فاعل بها وأجهل استخدامها والفائدة التي يمكن أن تؤديها ، اذا كان يمكن أن تؤدي فائدة ، فقد قلت له :

ـ انها لك . أليست ما كنتما تبحثان عنه ؟

نظر إلي باستغراب .

ـ ألا تعرف ماهي ؟

ـ لا . ماهي ؟

ابتسم .

ـ اذا كنت لاتعرف ماهي فلماذا التقطتها اذن ؟

هززت كتفي .

ـ لاأدري .

ابتسم من جديد .

ـ هل التقطتها لأنها . . .

وغمزني غمزة ذكية ، فشعرت أنني لاأستطيع الكذب عليه .

ــ هل يتعقبك الأسد ؟

سألني اذا كنت جائعاً وأحس أنني محاصر . الشيء الذي كان من الوضوح ماجعلني أرى انه من غير المجدي أن أجيبه .

قال لي وقد عاد ووضع قطعة المعدن في يدي وأغلقها :

ــ إنها معدن ولها قيمة ، سيدفعون لك بها سعراً جيداً .

أجبته :

ــ صحيح انها معدن ولكن ماهو ؟

جاء دوره بهز كتفيه .

ــ لاأدري ــ قال مبتسماً من جديد ــ لكن ما أهمية ذلك ؟ اذا كان هناك من يشتريها ؟ احتفظ بها وابحث عن غيرها وسنذهب بعد ذلك لنبيعها .

عاد الرجل الآخر ، وهو يمشي ببطء أكثر ، حاني الرأس كعادته دائماً وكان يرمق المكان الذي كنا فيه . بدا لي أنه يأمل أن يكون زميله قد تخلص من الدخيل حين يصل إلى جانبي وألا يضطر للكلام معي . شعرت بالضيق منه ولاأدري لماذا وجدت أن ذلك الاسم لاينسجم كثيراً مع شخص بالي الثياب ووسخ مثاله . لم أكن أحسن مظهراً

مثله ولاأكثر نظافة . لكن اسمي كان أكثر تواضعاً . كنت أفكر أنه كي يدعي المرء كريستيان يجب أن يكون دائماً حسن الهندام وألا يكون جائعاً . أصبح بمحاذاتنا . نظر إلي شذراً . تماماً كما تنظر الكلاب عادة حين تستعد لالتهام الفريسة التي كلفها الحصول عليها كثيراً . هل مازلت هنا أيها الأبله : انضم إليه زميله وتابعا سيرهما . لكن ليس قبل أن يقول لي رجل الابتسامة . وبابتسامة طيبة أخرى :

– تابع البحث ، فبثلاث أو أربع قطع كهذه تستطيع أن تكفي يومك .

اذن البحث والعثور على القطع المعدنية على ذلك الشاطىء كان شكلاً من أشكال الحصول على الخبز . من له مصلحة بذلك ؟ من يدري ، فهناك أناس لهم مصلحة بأشياء غريبة ، يشترون ، يبيعون ، يبادلون ، صفقات غامضة ، مداخلات تجارية معقّدة ، صناعات مقلقة . وماذا يهم هذا أو ذاك إذا كان هناك من يحتاجه أو من يشتريه ؟ لم يكذب ذلك الرجل . ثم ماذا يستطيع المرء أن يجد هناك غير القطع المعدنية أو الخشبية ؟ انحنيت وبدأت البحث من جديد .

وجدت قطعاً أخرى ، بعضها كان أصغر وبعضها الآخر كان أكبر ، تفحّصتها بعناية وكأنني سأجد في كل واحدة منها سرّ هوّيتها

ومصيرها ، ما أنت ؟ ماهي فائدتك ؟ وفي كل مرّة كنا نتقاطع كان الرجل ذو الإبتسامة يومىء ألي ّ ايماءة تعني : كيف هي الأمور : فأريه يدي التي امتلأت بالقطع التي انزرعت في راحة كفيّ ، فيجيبني بحركة اعجاب . أصبح لديّ ، عند منتصف النهار ، ما يكفي ، وبما أنه لم يعد باستطاعة يديّ أن تتسعا لها وضعتها في جيبي . تعبت أخيراً فاقتربت من الدرج وجلست على إحدى درجاته ، وتابعت من هناك النظر إلى الرجلين اللذين ما زالا يتابعان رحلاتهما على طول الشاطىء . تراجع الصيادون وصعد بعضهم إلى الربوة الشيء الذي كان يضطرهم أن يمروا بجانبي عبر الدرج وقد علّقوا إلى أيديهم أسماكاً سمينة وضاربة للزرقة ودخل البعض الآخر منهم البيوت البائسة التي ارتفعت على ضفة الفرضة .

كان اليوم الأول لاطلاق سراحي وكنت أتضوّر جوعاً ولا أمل لي غير تلك القطع المعدنية . هل صحيح أن لها قيمة ؟ هل لأحد مصلحة بها ؟ ألم يكن يمزح حين قال أنه يوجد من يشتريها ؟ وإذا كان صحيحاً ، فكم سيدفعون لي بها ؟ هل ستغطي كامل حاجتي ، أي الطعام والنوم ؟ شعرت بالفرح حين فكرت أن الأمر كذلك . وجدت نفسي مجبراً على ضبط أعصابي خلال عدة ثوان ، كي لا أقفز إلى الرمل وأمارس رقصاً لا معنى له . لا . إن رئتي لم تكن بخير ، رغم أنني لم أسعل طوال

الصباح ولم أتنخع تلك القطع السميكة ، التي تظهر فيها أحياناً خطوط من الدم . لا شيء كان يؤكد لي أنني تحررت منها : وإذا كان هذا غير أكيد ، فماذا أفعل ؟ آه ، حتّام سأبقى رهين الانشغال بحاجتي للطعام والمنام ؟ كان البحر شديد الزرقة وزرقته متلائلة ، كان وحيداً تماماً ، لا زوارق فيه ، ليس غير الطيور والشارع لا يكاد يمر فيه أحد ، السماء ساطعة والشمس في كبدها . كانت لحظة راحة والطقسُ حاراً قليلاً ، بدأت أشعر بجلدي بحكّني هنا وهناك. كنت بحاجة ماسة لحمّام بارد ، طبعاً في البحر . وإلا فأين ؟ ولكن رئتي . تلك كانت جميعها معوقات . ورغم ذلك كان عليّ ألاّ أتحرّك من هناك : فمستقبلي القريب كان بين يدي رجل الابتسامة والشارب الأسود ، فهو يعرف كل شيء : الذي يشترى والمكان الذي يعيش فيه المشتري وكم يدفع ويعرف أيضاً أنني جائع ، وهذا صحيح : كنت جائعاً ؛ سرت كثيراً على طول الشارع وعرضه ، أنحني وأستوي ، أنظر . أقلّب ، أهشم جسم الأمواج . لو كنت في السجن ، في تلك الساعة ، لكنت أكلت ، فهم يتناولون الغداء هناك في وقت مبكر . ضروريّ أن يكون المرء منظماً ، سجيناً منظماً ، نظام وحرية ، نظام وتقدّم ، نظام وعمل ، نم باكراً ، انهض باكراً ، ثماني ساعات عمل ، ثماني ساعات تدريب وثماني ساعات استراحة فقط . لحسن الحظ أنه لاتوجد ساعات أخرى .

كنت أتذكر أحياناً قطعة السمك المقلية ، التي تناولتها قبل إلقاء القبض عليّ ، ليس لأنها كانت لذيذة — فهي لم تكن كذلك ، لماذا أخدع نفسي ؟ — بل لأن تذكرها كان يبعث عندي إحساساً بالحرية ، حرية الفقر والجوع والقلق أيضاً ، لكنها كانت ، على كل حال ، خيراً من سجن بنظام وحرّاس وفاصوليا ، بأزرار وقطع خيش . نعم كنت أتذكر قطعة السمك وكان باستطاعتي وقتذاك أن أتناول قطعة مماثلة . لابدّ أنني سأحصل ذات مرّة على قطعة نقود — من فئة العشرين سنتابو ، فقط ، وهذا ليس كثيراً — وعندئذ لن يكون هناك شيء ولا أحد يوقفني . .

أخيراً قرر الرجلان انهاء عملهما فتوقّفا عند طرف الفرضة . نظرت إليهما ونظرا إليّ أيضاً ، وكلماني وهما يخرجان بعد ذلك ، من جيوبهما ، من بقية جيب ما زال بالامكان أن يخبّأ فيه شيء ، حصيلة بحثهما فتفحّصاه وقدّرا وزنه وقيمته . عادا ونظرا إليّ ، كلماني من جديد وانطلقا يسيران باتجاه الدرج ، حيث كنت أجلس وهو المكان الوحيد للخروج من الفرضة . رأيتهما يقتربان وكلّما اقتربا أكثر كنت أشعر أنهما يدخلان في حياتي وأدخل في حياتهما ، كيف ؟ لم أكن أعرف . على كل الأحوال كنت وحيداً ومريضاً وجائعاً وليس لي خيار ، ما عداهما لم يكن هناك إلا البحر الأزرق والبارد . كانا يتبادلان

جملاً متقطعة . رأيت رجل الابتسامة ، الذي كان يسير في المقدمة ، يمشي بطلاقة ، ويبتسم بمودة بل وربما برقة . وهو يلتفت إلى رجل اللحية النامية ، الذي لم يكن يبتسم بالمقابل ولا يتكلّم ويبدو أنه لم يكن يبتسم لأحد . كان يحني رأسه ويسبر . توقّفا أمام الدرج . قال الرجل النحيل :

ــ كيف هي النتيجة ؟

أخرجت القطع المعدنية وأبرزتها له فانحنى ونظر إليها :

ــ عظيم ــ علّق ــ أعتقد أنك ربحت غداءك وسيفيض عنك بعض النقود لنزواتك ، إن كان عندك نزوات . ليس الأمر سيئاً بالنسبة للمرة الأولى ، أليس كذلك ؟

كان صحيحاً . نظر رجلُ النظرة القاسية إلى يدي وقال :

ــ طبعاً ، طبعاً .

كان صوته غير أليف وغير مريح ، كان نعيقاً . أطلق بعد هاتين الكلمتين نحنحة عميقة : إنه نورس نطّاط حقيقيّ .

ــ هيّا ــ أضاف رجل الابتسامة ــ فقد اقتربت ساعة الغداء وعلينا أن نصل إلى جانب المرفأ . لنمض . نهضت أيضاً ، دون أن أعرف لماذا ، وحين انتصبت لم أدر ماذا أفعل ولا ماذا أقول . نظرت إليه .

ـ نعم ـ قال مجيباً على سؤالي القديم ـ مبتسماً .

لم أكن أعرف ماذا كنت سأفعل لو لم يوجّه لي تلك الدعوة .

صعدنا الدرجات وخرجنا إلى الشارع . كانت الحافلات تدور وكذلك بعض العربات والأحصنة المحمّلة بالبضائع وهذا المار وذاك . كان البحر ما يزال وحيداً والسماء صافية .

ـ ٤ ـ

ـ إنه اسبانيّ ، وكان في شبابه عاملاً فوضوياً ـ روى لي رجل الابتسامة ـ وكان ما يزال كذلك حين وصل إلى تشيلي . عرّفني عليه صديق ، كان بدوره فوضوياً ، على شاطىء كنّا ندهن فيه بعض الشاليهات ، جاء إليه ليقضي بضعة أيام ، اسمه خوسيه ، دون بيبّه بدأ في تلك المرّة ، وبعد أن أكل وشرب بعض الكؤوس ، يغني ويرقص الخوتا ، ثمّ أصبح فجائعياً وأراد أن يكسر كل ما كان يجده ، كان يقول : التكسير عمل ابداعيّ ، إنه مثلٌ فوضويّ . التقيت به هنا وقال لي أن أذهب لرؤيته . ذهبت ، جمع مالاً ، أو بالأحرى كان قد جمعه ، وفتح دكاناً للخرداوات والمقايضات ، يشتري ويبيع كل شيء ، خاصة الأشياء المعدنية ، المعدات والمواسير والمفاتيح وقطع الحديد والرصاص والبرونز ؛ لكنه تاجر غريب : فجأة يأخذه الحنين ؛

كما يقول . ويغلق دكان مقايضاته ويتوه على وجهه : كان أول من وجد قطعة معدنية في الفرضة ، ولم يقل شيئاً عن ماهيتها . وأعتقد أنه لايعرف . قال لي :

- اسمع ، أنت لاتحب العمل كثيراً .

- لا ، يادون بيبّه ، أنا لا أحبه أبداً ، لماذا النكران ؟

هكذا أجبته وقال لي :

- أنا سعيد لأنك لاتنكره ، معك كامل الحق ، العمل عبودية .

- يقول البعض انه فضيلة تدمّر الصحة ؛ ولكنني لا أقول ذلك لأنني ضعيف . لا أبداً . بل لأنني رجل رقيق،فعضلاتي وأعصابي هي عضلات وأعصاب رجل ولد ليكون مليونيراً ، ومع ذلك عليّ أن أدهن وأمعجن السقوف والأبواب والنوافذ والجدران لأكسب عيشي . اذهب إلى هناك بالسلم . تعال بالسلم إلى هنا ؛ زيّت الحوخات . حرّك الدهان ، أضف زيت التربنتين ، أين الطباشير ؟ ضاعت الخرقة. هذا يحتاج للتيمبل وذاك للزيت والباقي للكلس . الإسبيداج موجود هنا . إنه يعطي البياض الأفضل ، لكنه سام ، رصاص خالص يدخل رئتيك، قلبك وبطنك ، أنت دائماً مشبع بالدهان ، مثل قرد ، وتتصبب دهاناً من أعلاك إلى أسفلك . في الشتاء ، في أعلى السلم ، الوعاء المليء

بالدهان بيد والفرشاة باليد الأخرى ، في وسط الشارع الصقيع يتقطّر من الأسطحة . اليدان قاسيتان والأنف يسيل منه نشاء خالص ، لماذا سأحكي له أكثر . . حينئذ قال لي :

ــ انظر ، هناك قطعة أخرى ، يبدو أنه توجد قطع كثيرة أخرى ، التقطها وهاتها . فالبحر يقذفها إلى شاطىء فرضة الميمبريّو . لايطلب منك إلا أن تنحني وتلتقطها لتكسب ثمن صحن من الفاصولياء .

قدّم لي قطعة معدنية .

ــ ماهذه ؟

ــ وما أهمية ذلك عندك ؟ أنا نفسي لا أعرف . لكن لابدّ أنها تساوي شيئاً .

ــ ومن أين تخرج ؟

ــ من يدري . . . لا أعتقد أن في قاع البحر نبتة تنتج المعادن ، لكنها تخرج من مكان ما ، من باخرة غرقت في الخليج وتفككّت فتساقط كل شيء فيها . تحملها الأمواج إلى الشاطىء ، لا أعرف كيف ولا لماذا . . ويمكن أن تكون خارجة من تلك المزبلة الموجودة بعد الميمبريّو . فتش عنها وسأدفع لك سعراً جيداً . سيطلبها انسان ما ذات يوم .

ــ حقاً ماذا يهمني ؟ لم أجرؤ أن أسأله كم سيدفع لي ، لكنه عمل

الحساب جيداً ، مثل أيّ رأسمالي ، يدفع لي بشكل يكون فيه يوم العمل يساوي دائماً يوم طعام ونوم وغيرهما ، شيء بائس ، صحيح مثل جميع المهن ، لكنه يقدّم لي ما أحتاجه ، وأنا لا أفكّر بالعمل حتى أقتنع تماماً أن الأمواج لن تأتي بغرام واحد إلى الشاطىء . البحر كبير وخليج بالبارايسو عميق . ما أكثر السفن المقبورة هناك وفيها بضائع ومواد بملايين البيسوات ! بَهْ ! لو كانت جميعها مليئة بذلك المعدن . . . لاستطعنا أن نعيش آلاف السنين ، بلا عمل . . . ما رأيك ، يا كريستيان !

لم يجبه كريستيان ، فقد كان يدخّن عقب سيجارة ويظهر أنه ينظر من خلال أهدابه المطبقة ، إلى ساقيه الممدتين ورسغيه العاريتين وطرف حذائه الممزّق . ومع ذلك كان موقفه ينمّ عن أنه لا يرى سوءاً منظوراً في أن يعيش آلاف السنين دون عمل أو بعمل معتدل ومستقل . لماذا ، لأجل ماذا يحرق المرء أعصابه إذا كانت الأشياء التي يحتاجها للعيش قليلة وحين يموت يكون سيان عنده أن يملك في جيبه أو في مكان آخر ألف بيسو أكثر أو ألف بيسو أقل ؟

ــ نعم ، يبدو أنك مقتنع بذلك. هذا هو الشبه الوحيد بيننا يا كريستيان : حبّنا القليل للعمل ، أنت لأنك لم تعمل أبداً وأنا ، ربما لأنني عملت أكثر من اللازم ، رغم أنه قد لايكون التعبير الدقيق : فهو ليس حبّاً قليلاً للعمل وإنما حبّه حكيم . ان الغرامات المعدنية التي أخرجها

من بين رمال فرضة المميمبريّو لن تجعلني أصبح غنيّاً . لن أصبح بعد الآن غنياً ولا بشكل من الأشكال . أستطيع أن أكسب أكثر إذا عملت دهّاناً ، لكن ليس كثيراً ، إذ بالكاد سأغطي حاجاتي لشراء بنطلون وجاكيت مستعملين وزيادة قليلة في الطعام . أنتهي من فترة العمل حنقاً منهكاً : يجب تحمّل ربّ العمل والمعلّم والمقاول ، دون أن نأخذ بالحسبان الصانع الذي يتحمّلنا جميعاً . كلّها ثلاثة أشهر ربيع وثلاثة أخرى صيف . ماأقل ما يدوم الطقس الحسن ! حسناً ، هذا كي يعمل الإنسان أكثر من طاقته . وأنت ، كما أرى ، دهان أيضاً . من أين جئت بهذه البقع ؟

— اشتغلت مع المعلّم اميليو .

— اميليو داثا ؟

— نعم ، أعتقد أن هذه هي كنيته .

— أعرفه : انه شغوف بالأدب ، يا للغرابة ، لأننا نحن الدهانين نهوى الغناء الجميل أكثر ، أعني الموسيقى ، أو بالأحرى الأوبرا ، وخاصةً توسكا وبوهيم . من حيث يتخرّج الدهانون . نعم ان اميليو داثا شاب طيّب ، تزوّج وأصبح عنده أطفال كثر . يكتب شعراً مقفّى ، فامكاناته لاتسمح له بأكثر .

وفجأة سكت وغرق في التفكير وكأنه يصغي إلى شيء يهمه أكثر من كل ماكان يتحدّث عنه .

ـ فرغت الجعبة . ـ تمتم كريستيان .

ابتسم ألفونسو ايتشبيريّا بهدوء . بما يشبه البرودة وهزّ كتفيه . بدا أن جميع الأشياء فقدت عنده أهميتها .

كنّا نجلس حول الطاولة التي تناولنا غداءنا عليها وشربنا ، نحن الثلاثة ، زجاجة نبيذ غير مختومة . توقّف ألفونسو ايتشبيريّا عندما غادرنا فرضة الميمبريّو وقال ممسكاً بيدي وموقفاً خطوات رفيقه بايماءة .

ـ لا أظن أن هذه هي المرّة الأولى ولا الأخيرة التي نرى فيها بعضنا ونجتمع وأسوأ ما في الأمر أنني أعتقد أننا سنصبح أصدقاء وربما رفاقاً . اذن علينا في هذه الحال ، أن نتعارف . إلا إذا كان هناك رأي مناقض . فأنا لا أحب أن أتواجد أو أتحدّث مع أناس أجهل أسماءهم ويجهلون أسمي : انها عادة برجوازية ، ربما كانت عادة برجوازية ، لكنني لم أستطع التخلّص منها .

مدّ لي يده التي صافحتها وأضاف :

ـ ألفونسو ايتشبيّريّا في خدمتك .

التفت إلى رفيقه ، الذي كان ينظر إليه باستغراب وقدّمه إليّ :

— كريستيان أرديلس .

مددت يدي للرجل الذي مدّ يده بدوره ، دون أن ينبس أحدنا بكلمة واحدة . كانت مصافحة باردة ، وكأنه غير متحمّس أبداً لها أو انها عمل لم يعتده . أضاف ألفونسو ايتشبيريـّا :

— بما أننا تعارفنا كفرسان ، رغم أنه من الممكن ألا نكون أكثر من رجال بؤساء — أتمنى أن يكون هذا مرحلياً — فعليّ أن أقول لك انني أحمل لقباً ، وبما أنه لي باستطاعتي أن أقوله لك . كريستيان سيقول لك ذات مرّة لقبه إذا خطر له ذلك وستقول لنا لقبك إذا كنت تحمل لقباً وخطر لك ذلك . اللقب مسألة خاصة وليست عامّة ، يمكن كتمانه أو البوح به ، حسب رغبة الإنسان . لسنا من رجال الشرطة الذين يحبون أن يعرفوا ألقاب العالم كلّه . يلقبونني بالفيلسوف ، ليس لأنني كذلك فعلاً وانما لأنني أصاب أحياناً برغبة رهيبة بالكلام . أحسّ كأن وكر نمل في شفتيّ وبأسلاك في عضلات فكّي وفمي وهنا أضطر ، كي ينقضي كل شيء ، أن أتكلّم وأتكلّم فعلاً ، أنت تعرف ان الناس تعتقد أن الذي يتكلّم كثيراً ذكيّ ، وهذا خطأ ، لكن الناس يعيشون على الأخطاء ، وبما أنني أتكلّم دائماً عن الشيء نفسه ، عن الإنسان وقدره ، فانهم يدعونني فيلسوفاً .

أشار إلى رفيقه :

ــ قليلاً مانتحدث مع كريستيان ، فهو قليل الكلام ويتحمّلني . إنه جاهل كبير ولايوجد عنده إلا موضوعان يتحدّث عنهما : الشرطة والسرقة .

كان كريستيان يسير منحني الرأس . أضاف الفيلسوف :

ــ لاتستغرب أنه لايثور . يعرف أنني حيوان متفوّق ويحترمني ، ليس لأنني أقوى منه ــ فهو يستطيع أن يطيح بي بنفخة واحدة ــ وإنما لأنني أستطيع أن أتكلّم ، ساعات بطولها ، حول أمور لايكاد يفهمها أو انه لايفهمها اطلاقاً . إنه يصغي إليّ ، ويتحمّلني ، كما قلت ، رغم أنه من المحتمل أنه لايفهم ما أقول . وهو أحياناً لا يصغي إليّ أبداً . عانينا كثيراً حتّى أصبحنا أصدقاء ، لكننا توصلنا إلى ذلك . هو يحتاج للطعام وأنا كذلك ، هو منبوذ اجتماعياً وأنا رجل غير مبال . نتشاجر أحياناً حتّى لنكاد نلجأ إلى الأيدي . لكننا لا نتجاوز هذا .

ربت على كتف كريستيان بحنان وتابع :

ــ ان الطعام ، ليس أي طعام ، مثل الكلأ والشعير الذي هو الفرح الحقيقي بالنسبة للحيوانات ، وانما الطعام الساخن ــ اسمح لي أن أبصق فقد سال لعابي ــ نعم الطعام الساخن يوحّد بين الكثيرين . كثيرون هم الذين يعتقدون أن ما يربطهم بالآخرين انما هي روابط حب الأم

والأبناء والاخوة : ترهات : انهم مرتبطون بالطعام . بالبطون . الحيوانات لاتجتمع على الطعام ولا على الشراب ، طبعاً ، باستثناء الحيوانات الداجنة أحياناً ، أما الحيوانات المفترسة فلا شيء من هذا يحدث لها اطلاقاً . على عكس الكائنات البشرية ، التي كلما ازدادت إلفتها ازداد تناولها للطعام الساخن . انظر إلى الخيول : ليس لديها مشكلات ميتافيزيقية ويكاد يستوي عندها أن تكون في العراء أو تحت سقف أو شجرة حتى تتحدث بلياقة أكثر . انها سعيدة . ستقول لي ، لا ، ليست سعيدة : انها لاتتناول طعاماً ساخناً . انها تأكل الكلأ أو الشعير البارد والنيء وتحتاج إلى الكثير منه كي تشبع . صحيح ، انها ليست سعيدة ، لكن الإنسان أيضاً ليس كذلك ، رغم أنه يأكل الطعام الساخن .

عاد وبصق ثم تابع :

-- هل خطر لك أن تفكر ماذا حدث للانسان حين اكتشف أن باستطاعته أن يطبخ الأغذية ويتناولها ساخنة ؟ لقد وقّع على نفسه أحكاماً بالعبودية الأبدية . انتهت حياة الهواء الطلق والأسفار الكبيرة ، الفضاء والحرية . كان عليه أن يحافظ على بعض النار ويبحث عن مكان يستطيع أن يبقي عليها فيه . أيضاً كان يجب أن يبقى شخص ، الزوجة أو الأولاد ، ليهتم بطبخ الغذاء وبالتالي عليه أن يمكث هناك . ومن جهة

أخرى كان عليه أن يجلب المواد الغذائية من أماكن توافرها ، وهي أحياناً أماكن بعيدة جداً وهكذا أوجد الدولاب ، الدولاب الذي لاينتهي . الريح عدوّة للنار تنشرها أو تبدّدها وكذلك المطر يطفئها ، لذلك بحث لنفسه عن تجويف بين الصخور أو تحتها . ولكن توجد مناطق لاتتوفّر فيها الصخور فترتّب عليه أن يصنع الكهوف وحيث لم يكن يوجد صخور ولايمكن ، لسبب أو لآخر صنع الكهوف ، بنى سقفاً : أربع عصي وبعض الأغصان المورقة أو غير المورقة ، حسناً ، مع القيام بذلك كان الإنسان يضع الحبل حول رقبته ويجرّ معه زوجته ، التي أصبحت ، مذ ذاك ، عبدة المطبخ ، وبما أنهم اعتادوا تناول الطعام المطبوخ لا النيّء فقد راحت تتساقط أسنانهم ورغم ذلك فانّهم يفضلون ذلك كله على تناول البطاطا أو اللحم النّيء ؛ وهم على حق بذلك : هل جرّبت أن تتناول ، مرّة واحدة ، بيجريّاً أو بطاطة نيّئة ؟

قمنا ، بينما كنا نتحدّث ، بالرحلة نفسها التي قمت بها قبل ساعتين أو ثلاث ، لكن بالإتجاه المعاكس ، كنا في طريق العودة إلى المدينة . توقّفنا في مكان يشبه الساحة ، خال من الأشجار وأوسع مساحة ، حيث توجد خطوط تغيير ومحطة حافلات كهربائية وتصب فيها عدة شوارع ويبدأ الشارع الواسع الذي يؤدي إلى القرضةاليمبريّو . وهناك مدّ ايتشبيسّريّا يده لكريستيان وقال :

ـ ضع كنوزك هنا .

رمق كريستيان الصامت دائماً رفيقه بنظرة وأخرج من جيبه الممزّق جميع القطع المعدنية التي جمعها على الشاطىء وسلّمها له :

ـ سنعود حالاً ، إلى اللقاء .

تابعنا سيرنا وتراجع كريستيان عدة خطوات ليجلس على حافة الشارع ، المليئة بروث وبول الخيول . توقّفنا على بعد كيلومتر أو كيلو متر ونصف أمام باب عريض يؤدي إلى متجرين مختلفين ، أحدهما في الطابق الأول على مستوى الشارع والآخر في القبو ، يقود إليه درج من الآجر . كان المحل مضاء بمصباح ضعيف . رنّ صوت في ذلك الكهف :

ـ أهلاً بالفيلسوف ! هل جئت ببضاعتك ؟

رأينا هناك رجلاً ، ناشز العظام ، متموّج الشعر ، أبيض البشرة ، شاحب اللون ، أسود الشارب والحاجبين المزبئرين وصافي العينين . كان يرتدي جاكيتاً أبيض وسخة قليلاً وممزقة وكانت قبة قميصه تنفتح عن شعر صدر مجعّد .

أخذ جميع قطع المعدن ، ذلك أن ايتشبيّريّا أضاف إليها قطعي أيضاً ووزنها في ميزان المتجر قائلاً :

ـ سبعة بيسوات بالتمام والكمال . . صباح سعيد .

بدا لي من نبرته العالية والواضحة النهايات والتي تملأ الفم والخالية من أيّ تردّد أنه أراغوني . أخرج البيسوات السبعة من درج في أسفل الطاولة وألقى بها على الخشب الباهت المتشقّق واحداً واحداً متعمّداً أن يجعلها تصدر رنيناً ، ثمّ دفعها باتجاه ايتشبيرّيّا فأخذت شكل صفّ هنديّ ، كانت سبعة . تناولها الفيلسوف واحداً واحداً والاسباني ملازم الصمت ، يتأمل المناورة . رفع ايتشبيرّيّا رأسه وابتسم :

ـ حسناً ، يادون بيبّه ، شكراً كثيراً وإلى لقاء قريب .

ـ إلى اللقاء قريباً ـ أجابه دون بيبّه وقد أسند يديه إلى طاولة العرض ملقياً بجسده إلى الأمام .

خرجنا .

ـ دون إرادة منك ـ قال الفيلسوف وقد أصبحنا في الشارع ـ دون إرادة مني وبعكس إرادتك ضممتك إلى العقل الاجتماعي فيلسوف ـ كريستيان .

ـ لست أفهم ـ قلت له .

ـ طبعاً ـ وضّح ـ ضممت معادنك إلى معادننا والآن لا أعرف قيمة معادنك .

أجبته هازّاً كتفيّ :

ـ لن نتشاجر لأجل القسمة .

أراني البيسوات السبعة التي كان يشد عليها بيده الطويلة والقليلة النظافة وقال :

ـ ومما يجعل السيل يبلغ الزبى أننا أمام رقم صعب : سبعة . ماذا تعطينا السبعة مقسمة على ثلاثة ؟ لنرى مستواي في الرياضيات العليا . بيسوان لكل واحد تصبح معنا ستة ، فيبقى واحد على ثلاثة ، ثلاثون سنتيم ، أي بيسوان وثلاثون سنتيماً لكل واحد ويبقى معنا عشرة سنتيمات ، نسميها رأسمال احتياطي . لنعد إلى حيث كريستيان .

كان كريستيان ما يزال يجلس في المكان نفسه ، إلى جانب غمر البول . لاشك كان بمقدوره أن يمكث هناك جالساً عاماً أو عامين . نهض وتقدّم منا .

ـ هل نذهب إلى البوربنير (٣٤) :

لا أحد أجاب ، فقد كان سيّان أن يكون المستقبل أو الحاضر .

كان البوربنير مطعماً متواضع الأسعار ، يقوم بالإشراف عليه

(٣٤) ElPorvenir : بوربنير : المستقبل وهو اسم المطعم . (المترجم)

صاحبه بالذات وكان رجلاً قصيراً . متورّم الوجه المليّ بالبقع الضاربة إلى الحمرة التي توحي بأنها على وشك أن تنفجر عن نبيذ أحمر ، عيناه صغيرتان وسوداوان تنظران دون أن تقولا شيئاً وكان يرتدي جاكيتاً أبيض قصيراً ، لكنه لا يرتدي قميصاً خارجياً بل قميصاً داخلياً من الصوف السميك والأزرار الصغيرة اللامعة ، يساعده في عمله فتى عادي الطول ، نحيل ، بارز العضلات ، له وجه ملاكم لم يؤاته الحظ أو أن حنكه كان طريّاً وكان يرتدي بدوره جاكيتاً وقميصاً واسعاً ، بلا أكمام . مرّر خرقة لم تكن نظيفة تماماً على مشمّع المائدة ووضع عليها ملحاً وشطّة وقارورة مكسورة الفوهة تحتوي إلى وسطها شيئاً يريدون أن يمرروه على أنه زيت .

— ماذا تريدون ؟ — سأل بصوت غير محبّب .

بدا وكأنه يسأل أين نريد أن نتلقّى الصفعة .

تبيّن أن الصوت قد أغاظ الفيلسوف :

— هل تشاجرت ، ذات مرّة ، مع كيد ديناماركا ؟ — سأل بشكل غير منتظر .

— بلى — أجاب الفتى بدهشة وكأنه يتخذ وضعية الدفاع — مرتين .

بدا انه لم ينس مصارعاته .

-- وكيف كان الحال ؟ . . عاد الفيلسوف وسأله وهو يقوم بذراعيه بحركات من يصارع .

– هزمني في المرتين ، لكن خارج الحلبة – أجاب الفتى بنزاهة .

بدا الفيلسوف راضياً فقال :

– كيد ديناماركا صديقي وكان يدعى مانويل أليغريا . مات بالسكتة القلبية . لقد كان فتى طيباً .

ثم قال بعد أن غير نبرة صوته :

– حسناً ، أحضر لنا طلبنا المعتاد : فاصولياء مع شواء وخبز وزجاجة نبيذ .

كانا زبونين معروفين ، ولاحاجة تقريباً ، كما بدا لي ، أن يسألهما عما يريدان : فدائماً كانا يتناولان الشيء نفسه . لم يكن يوجد مايمكن أن يقدم ليؤكل باستثناء الفاصولياء والشواء والخبز والنبيذ وهذه البصلة العادية أو تلك المخللة . كان صحن الفاصولياء وافراً ولذيذاً لكن الشواء لم يكن نموذجياً لابالنسبة للكمية ولا النوعية ، فهو نوع من النعل أكثر من أي شيء آخر ، يصلح لتمرين الاسنان ومع ذلك فقد تلقيناه وابتلعناه بكل مراسيم النظام . الخبز لم يكن قليلاً أما النبيذ الحامض والكثيف

واللاذع المذاق قليلاً فكان لذيذاً . تناولنا طعامنا بصمت . مثل العمال في عطلة الاسبوع ، وبقينا هناك لنستريح .

رغم انني كنت مسروراً – لأنها وجبتي الأولى بعد اطلاق سراحي – فلم أكن مرتاحاً وشعرت انني لاأستطيع أن أبقى زمناً طويلاً مع أولئك الرجلين دون أن أوضح بعض الأمور : كان عملهما معروفاً. كنت أعرف ماذا يشتغلان ومن يكونان ولكن لم يكن عملي معروفاً ولامن أكون ، ورجل لايعرف أحد عمله ولا من أين خرج أو من يكون هو رجل لاأحد يعرف عنه شيئاً وعليه أن يقول شيئاً . لم أكن أخاف قول ذلك : وكل ماكان يشغلني هو اختيار اللحظة . بدا لي ان الفيلسوف كان يفكر في الشيء نفسه ، اذ قال بعد ابتلاعه لآخر لقمة وشربه لآخر جرعة نبيذ :

– حسناً ، الغداء لم يكن سيئاً وكان من الممكن أن يكون أسوأ أو أفضل . هذا صحيح ، يجب ألا يكون المرء متشدداً – . والآن هات وقص علينا شيئاً . فلا شك أن عندك ماتقصه علينا . ان رجلاً شاباً مثلك يظهر في فرصة ، مثل فرصة الميمبرير ويتقبل أول شيء يقدم له أو يجده ، وكأنه لايجد أولايستطيع أن يجد في العالم غيره ، وهو بالإضافة إلى هذا نحيل ، له وجه مريض وجائع ؛ لابد أن عنده ، بل ويتحتم أن يكون عنده شيء يقوله .

نظر إليّ وعندما رأى أنني لاأعرف كيف أبدأ، أراد أن يساعدني.

ــ لاتخف من كلماتي ــ قال ــ نحن أيضاً لن نخاف من كلماتك وإذا اردت ألا تحكي فلا تحك .

نظرت اليه نظرة من يتقبل كل شيء .

ــ هل جئت من المستشفى ؟ ــ سألني .

كان سؤالاً مصيباً . حاولت أن أجيب بالطريقة نفسها .

ــ من مستشفى السجن .

التفتت اليّ كريستيان برأسه ونظر الي بثبات : أخيراً هناك لفت انتباهه . انزلق جسم ايتشبيريا في الكرسي ومدد ساقيه وكأنه يستعد لسماع حكاية مشوقة .

ــ من السجن ؟ ــ سأل وقام بحركة من أصابع يده اليمنى بدت فيها هذه الاصابع المنتشرة أنها تجري منفصلة وبسرعة نحو الخنصر الواحدة بعد الأخرى .

ــ كلا ــ أكدت له .

رويت له جميع مغامراتي ، في البداية بتلكؤ ثم بهدوء أكثر . حنى كريستيان رأسه وتابع النظر إلى رأس حذائه بعد أن أصغى الي في البداية باهتمام وهو يسترق النظر إلي بين الفينة والأخرى : لم تكن

القصة تهمه كثيراً على العكس من ايتشبيريا ، الذي كان يصغي وهو مشدود إلي ويبتسم من حين إلى آخر ، وكأنه يشجعني .

— على كل حال — قال عندما انتهيت — مامن شيء بين صحنين إلا المرض .

أشار إلى كريستيان وأضاف :

— كنت قد قلت لك ان كريستيان قليل الكلام ، لايحب الكلام ولا يتقنه ، كما انه ليس عنده أشياء كثيرة يقولها . لكنه سيستطيع أن يروي لك ، — حين تصبح صديقاً له — حكايات أهم من حكايتك عن السجن وفروع الشرطة ، وأقسام المعتقلين والتحقيقات والزنزانات : لقد قضى أعواماً في السجن ، أعواماً وليس أياماً ولاشهوراً ، بل أعواماً بكاملها . ترعرع واضمحل في الزنزانات ، هزل وسمن ، عري واكتسى ، حفي وانتعل . وملأ القمل والجرب والسيلان جسمه والدمل والبواسير اربتيه ، حيث أدخلوه ركلا برؤوس الأقدام وأخرجوه لبطاً ، حطموا أضلاعه ، مزقوا شفتيه ، وشققوا أذنيه وورموا خصيتيه ، لم يتركوا شيئاً لم يفعلوه معه . شهور وشهور وأعوام وأعوام من المخافر والسجون . ان قصتك اذا ماقورنت بالقصص التي يمكن أن يحكيها لك ، انما هي قصة زقاق بسيطة .

نظرت إلى كريستيان بعد أن انتهى ايتشبيريا من كلامه : كان رأسه غاثراً بين كتفيه ووجهه شاحباً ، وشريان صغير يرتعد في وجنته بالقرب من عينه نصف المغمضة . شعرت أنه لوكان أحد يتكلم عني بالطريقة التي تكلم بها ايتشبيريا عنه لما استطعت السيطرة على دموعي أو غضبي ، أو الكلمات على الأقل ؛ لكن لم يبدو عليه ظاهرياً أن ذكر حياته قد أثار عنده أي شيء ملحوظ . غير الشحوب وذاك الشريان الذي كان ينتفض في وجهه قرب عينه ، وتحت شعر لحيته القاسية .

— ٥ —

أصبح عندي شيء آكله ومكان أنام فيه بشكل بائس أو أكثر بؤساً من أي وقت مضى ، غير انني لم أملك الخيار . أستطيع ، وكذلك جميع الناس ، ألا أقتنع ، لكنني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من أكل ماأستطيع أكله والنوم حيث أستطيع أن أنام . والتحدث مع من أستطيع أن أتحدث معه والتقاط ماأستطيع التقاطه . لاتريده ؟ اتركه اذن . قاسٍ تركه ويبدو أنه كلما قلت قيمة الشيء المملوك أو كلما كان أكثر بؤساً أصبح التخلي عنه أقسى . لم يكن عندي أكثر من ذلك كما لايمكن أن يصبح عندي أكثر منه وقتئذ .

كنت أعلم بمـــا يجري الى جانبي وعـــلى بعد خطوات مني

وربما أبعد من ذلك . كنت أرى وأشعر بكل شيء ، الألوان ، الأصوات ، رائحة الريح والأشخاص، ملامح الكائنات والأشياء ، جميعها كانت تتوحد في ، تكبر وتجعلني أكبر ، لماذا ؟ لم أكن أعلم ، ولكن كل شيء يمكث ولاشيء يذهب ، الدموع ، الضحكات ، الكلمات القاسية والكلمات الرقيقة ، الايماءة الهادئة والايماءة العنيفة ، رأفة البعض وغضب أو ازدراء البعض الآخر ، تلك النظرة وهذه الابتسامة — ولكن كان علي أن أبقى حيث كنت وأنتظر ، وماذا أنتظر ؟ في الحقيقة لاشيء ، أو على الأقل لاشيء محدد : أن أنتظر فقط ، ربما أنتظر مرور الزمن . الناس جميعاً ينتظرون ، أوربما الجميع ، ينتظرون هذا الشيء أو ذاك ، التافه والجليل، الحقيقي والمزيف، الصغير والكبير، ماسيأتي أوما لاسيأتي، مايمكن أن يأتي أو مالايمكن أن يأتي، مايستحقون ومالايستحقون، يعيشون بالانتظار ويموتون به ، وأحياناً لايأتي شيء مما ينتظرون ، لايصل إلا الموت ، الذي هو غير منتظر أبداً ، وكما يقولون . لاأحد قال وهو يموت : « لا ، ليس هذا ماكنت أنتظره . » لا ، لاأحد استقبله ولزم الصمت ، وهو مقتنع به . حقاً انه يوجد من لاينتظر ، وآخرون ينتظرون بانتظارهم ، بشكل وسطي ، بمعنى انهم لايثقون تماماً بالمستقبل ، ويضحون بشيء من ذاتهم ، كي يأتي الشيء أو يحدث فيما بعد ، يشتغلون ، يعرقون ، يسهرون ، يناضلون ، بل والبعض يكذبون ويسرقون ويقتلون ملطخين بذلك ماينتظرونه أو يستقبلونه .

من ناحيتي ، لم أكن أشعر بشيء يدفعني إلى عمل هذا أو ذاك ، واذا كنت أعمل فلأني بحاجة إلى الطعام ، واذا كنت آكل فذلك لأنه ضروري لي ، طالما أنا حي . انها الحاجة ، هذا هو كل شيء . لم أكن أنتظر شيئاً ، ولم يكن هناك من سيأتي الي ، فأمي ماتت وأخوتي مشتتون ووالدي يقضي حكماً بالسجن لعدد من السنوات غير معقول ، وقد لايخرج إلا ميتاً وربما مات ، وقد يلتقي أخ بأخيه في زقاق من زقاقات الميناء ، في أحد المخافر ، في عربة قطار للشحن وربما في فندق . ومع ذلك لم يكن ذلك الانتظار ، في تلك اللحظة ، ولامجرد أمل . لم يكن عندي آمال ، وانما حاجات — امنحوني شيئاً آكله ومكاناً أنام فيه وألجأ اليه واتبقوا لأنفسكم الآمال . كانت حاجات قليلة لكنها ماسة وكأن الأشخاص الذين يحيطون بي الحاجات نفسها أو فقط واحدة وأخرى أكثر : الطعام ، ليس الفاخر ، اللباس ، ليس الأنيق ، النوم ، لكن ليس المرفه وانما بالطريقة الممكنة . المهم ألا أجوع ، ألا أبرد ، ألا ينظر الناس الي لأن حذائي ممزق وشعري طويل وبنطلوني مهترىء ولحيتي طويلة ، ومع ذلك لم يكن سهلاً تحقيق ذلك : العمل صحيح لكنه غير متوفر أحياناً ، كما أن هناك أناساً يعملون لكنهم دائماً جياع ، أناساً يعملون لكن ثيابهم رثة دائماً ، أناس يعملون لكنهم ينامون على الأرض دائماً ، أو على أسرة فردية وفرش مليئة بالبق

والبراغيث ، ثمانية في غرفة واحدة ، ثلاثة في سرير واحد : المسلول والمصاب بالسيلان والمصروع واللواطي والمصاب بالأكزيما . في أزمنة أخرى كان كل شيء يبدو لي أكثر بساطة ، نعم كل شيء أكثر بساطة عندما يتوفر للانسان مايحتاج أو عندما يعرف أين يحصل عليه ويستطيع أن يحصل عليه دون أن يعترضه أحد .

لن أبقى هنا للأبد . فالانسان لايستقر في مكان ، سيذهب ، وسيذهب أحياناً كي لايعود . ستتوقف رئتي ذات مرة أيضاً عن الألم والادماء وسأستطيع أن أذهب وأذهب وأذهب ؛ يبدو هذا أمراً ، شعاراً ، رغبة ، وهماً ، بل ومن الممكن أن يكون أملاً . الذي يود الذهاب ، لايحتاج شيئاً ، لاشيء سوى الفرصة لتحقيقه .

ـ المهم أن يتغطى المرء جيداً ، طعام ساخن ، رجل حار ، وثياب حارة .

ـ وامرأة حارة .

ـ أيضاً ليس هذا شيئاً سيئاً .

أمال الفيلسوف رأسه إلى الخلف وفتح فمه وأطلق قهقهة .

ـ حياة الانسان بكاملها تدور حول ماهو حار . الانسان يخاف

ماهو بارد : الطعام البارد ، المرأة الباردة ، المطر البارد ، الثياب الباردة . تغطى جيداً ، ياأنيثيتو .

كان الفراش خالياً من الأهداب وغير محدد اللون ، وكان لكثرة الثقوب فيه ، غير متماسك ، ففيه منها أكثر مما يحتمل وقد يحدث أن يلتقي في بعض الأماكن ثقبان أو أكثر فيتحول في النهاية إلى ثقب خالص . أراد الفيلسوف أن يغطيني به فأدخل طرفه تحت فراش القش الذي لاتصل سماكته سماكة الورقة النقدية وقد وضع على الأرض الخشبية فوق أوراق صحف يومية . قبعت : لقد كان فراشاً ليس فيه شيء من الوثارة ولا الراحة وكان على ارتفاع ثلاثة سنتمترات عن الأرض وله رائحة قش وتراب ورجل غريب ، بلا ملاحف ،بلا غمد ، وسادته تبدو محشوة بالبطاطا وبطانته رقيقة جداً ، لكنه كان فراشاً ، فراشاً في غرفة دائرية ، بلا نافذة وتكاد تكون بلا سقف ولاسماء ملساء ، ليس فيها غير الدعائم وبعض الجدران العارية المصنوعة من الطين والقش والمدهونة بالكلس بشكل سيء ، ليس لها أفاريز ، لماذا الأفاريز ؟ وكانت أرضها مصنوعة من الألواح المتشققة والمتآكلة ، لكنها كانت غرفة ، مكاناً محمياً من الريح والبرد . كانت الجدران وعند المستوى الذي تصل اليه الاسرة الفردية بارتفاعها عن الأرض عادة ، مليئة بالبصاق ومن جميع الألوان ورغم ذلك كان اللون الأخضر ، لون الأمل ، هو المسيطر ،

بعضه كان يلمع وكأنه يريد الانفصال عن الجدار بالطريقة نفسها التي ينفصل بها الدهان السيء ، في ذلك السرير ، الموجود داخل تلك الغرفة ، مكثت ، لاأكاد أكون مستلقياً ، ونمت مثل حجر .

بين الحلم واليقظة سمعت قهقهات ايتشيبريا وهذه الدمدمة أو تلك من كريستيان : موسيقا سماوية . استيقظت عند منتصف الليل : شعرت بنقصان بالهواء وبضغط على حنجرتي ، تلملمت وجلست : كدت أسعل ، حين تذكرت رئتي الجريحة والقطع المصبوغة بالدم التي كنت أبصقها . سعلت ، ملأت فمي قطعة . لم أكن قد قذفت أية قطعة في النهار . ماذا أفعل ؟ لم أكن أحمل منديلاً وليس هناك مبصقة ولامبولة ، كما أنني لم أبغ التخلي عنها دون رؤيتها : هل تتخللها بقع الدم أم لا ؟ بدا لي غير لائق أن أقذف بها على الأرض أو على الجدار ، كما فعل سكان تلك الغرفة السابقين ، شيء مقرف : إضافة إلى انني ضيف ويجب أن أتصرف بلباقة . اذاً يجب أن أنهض ، فغداً أراها في أرض الدار ، لكن يداً أوقفتني وتمتم صوت ايتشيبريا :

— في ورقة .

بصقتها في قطعة من صحيفة يومية انتزعتها من تحت الفراش ثم وضعتها جانباً . استلقيت من جديد . كانت قدماي دافئتين ، ولم أشعر بالبرد رغم انني كنت نائماً شبه عار . لقد كان ايتشبيريا على حق :

ــ المهم أن تتغطى جيداً : طعام ساخن ، فراش حار ، رجل حار .

ــ وامرأة حارة .

كان كريستيان يبتسم كما يمكن لهر جبلي أن يبتسم .

ـ ٦ ـ

لم يكن البصاق يحتوي على الدم . حملته إلى فناء الدار ورميت به بين بعض القاذورات ، شعرت بالاطمئنان . من الممكن أن تتحسن رئتي . قمت وتنفست بعمق ، بعمق شديد ، حتى شعرت أن جدران قفصي الصدري قد آلمتني . من هنا ، من فناء الدار بالطبع ، كان يظهر البحر والميناء والبواخر وكان الشاطىء يتجه نحو الشمال وينعطف ببطء نحو الجنوب وكأنه ضمن سديم رائق . كان على المرء هناك أن يأخذ المـــاء بيديه في العـــراء ، وهو بالقميص الداخلي أو نصف عار مبعداً مابين ساقيه ــ لم يكن هناك مغسلة ولاابريق ــ ويغتسل من صنبور يسمح بمرور خيط رفيع وقوي من الماء في النهار والليل . ماء بارد وصابون خشن ، بقية صغيرة منه ، تفلت من اليدين في كل لحظة وتسقط على حصى فناء الدار التي لجبت بينها قطع الشعر والبطاطا وحبات الفاصولياء وقطع الورق وكتل شعر انثوي والمخاط وهذه وتلك الخرقة ، لايوجد منشفة : ينفض المرء يديه ويمررهما على رأسه ، مستخدماً شعره منشفة

ثم ينشف بهماماتبلل ونادراًمايكون كثيراً . سمعتمنذ الصباحالباكر جداً كيف كان الناس يغتسلون هناك، يتمضمضون وينظفون أنوفهم بعنف، دون أية مساعدة أخرى غير المساعدة الطبيعية ، يسعلون ويبصقون ، يصيحون ويطلقون اللعنات كلما سقطت قطعة الصابون ، التي لايوجد مكان توضع فيه ، على المعكرونة والشعر وقشور الثمار .

ـ لماذا سأحكي لك كم يكلف الاغتسال في الشتاء هنا ! ـ هتف الفيلسوف الذي كان يغسل رقبته بالصابون بخوف ـ ننظر نظرة عابرة إلى الصنبور ونفكر بالصابون ، وحتى اليوم التالي حيث ننظر اليه مرة أخرى . أليس كذلك ، ياكريستيان ؟ أنت أيضاً لست سمكة قرش بالنسبة للماء .

كان كريستيان ينتظر دوره بقميصه ، القميص الذي كأنه خزق بمشرط . كان الفناء يحتوي على صف من الغرف ، بين الثماني والعشر غرف ، محشورة ضمن ممر بافريز . وكان يرتفع في عمق الفناء ، في الوسط ، شيء شبيه بالصندوق وله باب : انه المرحاض ، وكان عبارة عن حفرة عميقة وسوداء، ينبعث منها بخار لزج ، يكاد يكون ملموساً وكانت رائحته غريبة ، رائحة مموهة . وصلنا إلى ذلك البيت متسلقين التلة ، بحدود الساعة الحادية عشر ليلاً . بعد تناول العشاء

في « المستقبل » واستراحة طويلة على مقاعد ساحة كانت بالقرب من الميناء .

ـ لاشك انه لايوجد لديك مكان تنام فيه ـ قال ايتشبيريا ـ تعال معنا .

اعترضت مؤكداً أن باستطاعتي الذهاب إلى أحد الخانات .

ـ لا ، ستأتي معنا ـ أصر ـ لماذا ستصرف نقودك ؟ اضافة إلى انني أعتقد أنه لم يبق معلق سنتيم واحد . ألم أقل لك أنك تشتغل يوماً لتعيش يوماً واحداً فقط ! الرأسمالية هي أكثر من يدرك هذا .

كان على بعض الحق : كان معي مايكفي للفراش لكن لم يكن معي شيء للبطانية .

ـ المأوى الذي ندعوك اليه ليس مريحاً تماماً ـ أوضح ـ انهفراش على الأرض ، فراش بلا صوف ، مفرش بلا سجف ولحاف مثل ورق البصل . هذا هو كل مانملك . وأسوأ من ذلك أن لايملك المرء شيئاً . ليس عندنا ملاحف فهي في التنظيف .

قبلت دون قلق . شيء فظيع أن ينام المرء ، دون مقدمات ، في سرير واحد مع رجل عرفه في الساعة ذاتها ـ لم يكن في تلك الحالة رجلاً واحداً بل اثنين ـ لكنني قبلت الدعوة دون أن أشعر بأي ارتياب :

شعرت وأنا أراهما يعيشان . أثناء النهار ، الواحد صامت والآخر بليغ ، أن باستطاعتي أن أثق بهما ، أثق ، طبعاً ، بمعنى ما وإلى حد معين . لم ينبسا ، طوال النهار وعلى عكس العادة العامة ، بكلمة واحدة حول العلاقة بين الرجل والمرأة ، لاطيبة ولاسيئة . بدا لي أنهما متحرران من الهوس الجنسي .متحرران ، على الأقل ، كلامياً ، وهذا ليس قليلاً بل يمكن أن يكون كثيراً ، أقول ليس قليلاً لأن الذي يعاني من هوس ما يصعب عليه أن يتحاشى الكلام عنه خلال ثماني أو عشر ساعات . كنت أمقت وأخاف أولئك الذين يدور موضوع حديثهم واهتمامهم حول الأعضاء التناسلية عند الرجل والمرأة ، هذا الحديث الذي كانت كلماته وعباراته وملاحظاته ونكاته تتكرر إلى ما لانهاية دون تنوع كبير ولا ظرافة : أخذتها هكذا ، كنت بهذه الوضعية ، قلت لها : هنا ، خذي هذه الوضعية ونظر هو اليها وقال : لاأستطيع ، ها ، ها ، ها ، مارأيك . . . .

كان المرء يضحك أحياناً ، ضحكة خالية من الفرح والذكاء ، ويشعر ، إلى حد ما ، أن ماكانوا يتحدثون عنه ينطوي على شيء لايذكر أبداً تفوق قيمته الكلمات والعبارات والنكات والملاحظات ، الذي لم تكن الضحكات تلامسه ، كأنه غريب عنها . يستطيع المرء أن يتكلم عن الاعضاء نفسها ، أن يسميها بمسمياتها اللامتناهية ، بل

وأن يصفها أحياناً ويضحك منها ، لكنه لا يستطيع بالمقابل أن يتكلّم عن ذاك ؛ أو ربما لم يتكلّم عن ذلك لأن الكلام عنه كان صعباً جداً ، فقد كان يتطلّب كلمات أخرى ، تعابير أخرى ، بل وربما شفاهاً أخرى ، أفواهاً أخرى ، لم أكن ، من جهتي ، أستطيع أن أتكلّم كثيراً عن هذا ولا عن ذاك . فقط كنت أستطيع أن أردّد ما سمعته وكان كثيراً ، لكنه يسبب لي بعض الحياء ، فالموضوع يدور دائماً حول العاهرات ، والضالين ، اللواطيين أو المهووسين ، الذين كانوا يعيشون متحدّثين عن الجنس ، وبشكل رئيسيّ عن جنسهم . لم يكن يهمّني ذلك ويبدو لي عادة سيّئة ، هوساً ، شيئاً غامضاً أيضاً أكثر من أي شيء آخر . ولا يستطيع المرء أن يفكّر به بوضوح أو أن يتحدّث عنه بطلاقة . تكاد تجربتي تكون معدومة : أكّد لي صديق من مندوثا منذ شهرين أن هناك امرأة كانت تنظر إليّ وأنها لم تفعل ذلك دون غاية ، وأنها لم تنظر إليّ لمجرّد النظر ، لا ، فقد كانت نظرتها تنطوي على مصلحة واضحة وأنني كنت غبيّاً حين لم أنتبه إليها ولم أستغلّها ، كانت متزوّجة من شخص ما وكانت تقف في المساءات التي نمرّ فيها أمام بيتها ، في الباب وتنظر إليّ . كان بيتاً فقيراً ، فناؤه كبير . لا بد كانت تشغل غرفة فيه .

ـــ ولماذا ستنظر إليّ ؟

ـ قلت لك ، ياغبيّ ، انها تريد منك شيئاً .

تريد مني شيئاً ؟ لكن كان عندها زوج ، ثمّ لماذا ستحبّني أنا بالذات ؟ كنت أضحك بارتباك . كانت سمراء ، نحيلة عليها مسحة حزن ، أو ربما لم يكن حزناً ، وإنما تواضعاً ، وداعة ، وكانت عالية الجبهة ، سوداء الشعر ، بسيطة .

ـ انها تركية (٣٥) ـ قال لي صديقي .

ـ لاشكّ أن زوجها بدوره تركيّ .

ـ وماذا يهم ؟ كلّمها .

ـ وماذا أقول لها ؟

ـ مثلاً ، كيف حالك ؟

ـ وماذا أكثر ؟

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ أحبّ أن أراك !

ـ لكنني لا أعرفها وهي في بيتها !

---

(٣٥) Turco (A) : توركو ، في الأصل الانسان أو الشيء التركي ، لكن الكلمة في أمريكا اللاتينية تطلق على السوريين واللبنانيين والفلسطينيين بشكل خاص وعلى العرب بشكل عام وهذا يعود إلى أن الهجرة إلى تلك البلاد حدثت في فترة الاحتلال التركي لهذه الأقطار . (المترجم)

ـ أنت غبيّ !

كانت المرأة تنظر إليّ وأرد على نظرتها . وجدت أنها صغيرة أكثر من اللازم ، الشيء الذي كان يسبّب لي بعض التخوّف . كنت أتمنّى لو أنها أكبر ، كأن تكون بعمر أمّي مثلاً . لو كانت كذلك لاقتربت منها دون تخوّف ، لا لأسألها لماذا كانت تنظر إليّ وانما لأتحدث إليها عن أشياء أخرى ، أشياء أخرى غامضة .

ـ لو كانت تنظر إليّ ـ كان صديقي يقول ـ لاقتربت منها ولعرفت بماذا أتحدث إليها . لا تكن أحمق .

أخيراً وفي يوم لم يكن معي فيه صديق ، حييّتها ، ردّت علي المرأة التعبة بشيء من الدهشة ودون حماس كبير ، يبدو انها لم تتوقّع تلك التحية ، ومع ذلك لم أجرؤ على الاقتراب منها . كان صديقي سبب تخوّفي : كان يتحدّث عن ذلك ويصوّر لي نظرات تلك المرأة واقترابي الممكن منها انه خطر بل قريب من الجريمة . اضافة إلى أن فكرة الزواج التركي كانت تلجمني باللاشعور . صادفتها في سفري من مندوثا إلى تشيلي ، وكانت واقفة أيضاً وبالقرب من أحد الأبواب في محطة بونته دل انكا المقفرة . ومع أنه كان قد مضى زمن لم أرها فيه فانني لم أشعر بأيّ نوع من الخوف عندما اقتربت منها : لم يعد

صديقي معي . ورأيتها تنظر إليّ من جديد باهتمام خاص وكأنها تميّزني عن بقية الرجال . هي التي بادرت بالكلام :

ــ ماذا تفعل هنا ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟

كانت ، تقريباً الكلمات ذاتها التي نصحني صديقي بقولها لها في منلوثا . كلّمتني وكأن الواحد منا يعرف الآخر منذ سنوات ؛ لم ألحظ أي شيء غريب في نبرة صوتها ، ولا أيّ شيء مما كان يتوقّع صديقي . كانت حقيبتي معلّقة إلى يدي اليمنى وقد اتسخت بروث الخيل . كان يوم شمس وريح .

ــ أنا ذاهب إلى تشيلي .

فقد قفزت من العربة المحمّلة بالحيوانات ، والتي سافرت فيها متخفياً لفترة طويلة من الليل . كنت متخدّراً تعباً لكن ليس للحد الذي يجعلني لا أستطيع السير اليوم بكامله وثلاثة أيام أخرى . ابتسمت ونظرت إليّ من جديد . هكذا كان تقويمها عن قرب أكثر مما عن بعد .

ــ وأنت ، ماذا تفعلين هنا؟

إنها إحدى عبارات صديقي .

كانت الريح تحرّك خصلة من شعرها الجعد فوق جبهتها فشعرت عندئذ بميل كبير إليها . كانت الكائن البشري الوحيد الذي يعرفني

في ذلك المكان المقفر إضافة إلى أنها الوحيدة التي تنظر إليّ وتبتسم . لكنه كان ميلاً لا ينطوي على اتجاه خاص ، فهو مثل نظرتها ، ميل مسافر في الهواء أو مثلي ، مسافر في قطار شحن ، مسافر ، يسافر متخفّياً.

- زوجي يعمل هنا .

لم يكن في المحطة أي شخص آخر سواها . فالوقت باكر ولم يبد أن وصول قطار محمّل بالحيوانات كان يهمّ أحداً .

من يكون زوجها ؟ تمنّيت أن أتعرّف إليه . لكن أصدقائي نادوني . تبادلنا الإبتسامة للمرّة الأخيرة ومضيت .

- ٧ -

أصبح النهار غائماً تقريباً وكان الطقس في الصباح بارداً ؛ فالربيع لم يكن ليختفي هكذا وبأية طريقة . خرجنا بعد أن اغتسلنا وارتدينا ملابسنا ، تاركين الباب مفتوحاً . رمق ايتشبيسّريتّا السماء وكأنه يتفحّصها ، أو يحاول أن يكتشف نواياها ، وقال :

- سيتكشّف الجو عند الظهيرة .

لم يكن يوجد ما ينصحنا بقفل باب الغرفة . فالبيت كان في الحد الواقع بين المدينة والوحشة ، ذلك أن الوحشة تبدأ وتنتهي هناك ، تنتشر

عبر التلال أو تأتي منها ، تغوص في الشعاب أو تتبلّل في الأنهار ، التي كانت تجري هنا وهناك ، بين الأشجار والصخور والمساحات الرملية . كان على من يريد الوصول إلى هناك من السهل أن يسير مايقارب الساعة عبر شوارع وأزقّة وسفوح مغطاة بالبيوت البائسة وأكواخ التنك . في اليوم الأول وصلت وأنا ألهث . أقرب غرفة ، أقرب مجموعة غرف كانت على مسافة لا تقل عن الأربعمئة أو الخمسمئة متراً وما من أحد ، مالم يكن نشّالاً بائساً ، أو عضّته الحاجة ، يذهب إلى ذلك المكان ليسرق البطانية الرقيقة ، التي نتغطّى بها ، والتي كانت الشيء الوحيد الذي له قيمة تجارية محددة في الغرفة . فهي لم تكن تحتوي إلاّ على ما يمكن أن يسمى البناء نفسه ، باستثناء الفراش وطاولة محطمة كأنها من ورق جدران لاتكاد تقترب منها حتى تهتز وكأنها مسممة بالزئبق ، وهي لايمكن بيعها لأحد ، إلا كحطب للنار ، كما أن العزلة التي كانت تلف البيت تجعل من الصعب أن يدخل أحد أو يهرب دون أن يرى ويتلقى حجراً قاسياً أو ماهو أسوأ منه . ومن جهة أخرى دائماً كان يبقى في الغرف عامل عاطل عن العمل أو مريض وفي فناء البيت امرأة تنشر ثياباً ، تغسل أو تفلّي القمل من طفلها . كما أنه كان من غير المجدي أقفال الباب وهذا مالاحظته في اليوم التالي : فهو بلا مغلاق ولا مفتاح ولا قفل . ليس فيه إلا الثقب . ربما لأنهم سرقوا المغلاق .

حيّتنا في لحظة المغادرة ، امرأة كانت تنشر الثياب في الفناء وقالت :

ــ هل أنتم ذاهبون الآن ، ياجيران : ألا تريدون أن تتناولوا فنجاناً صغيراً من القهوة ؟

بدا لي ذلك مثل تغريد عصفور أو ملاك ، إذا كانت العصافير أو الملائكة تستطيع أن تقدم في الصباح أو في أية ساعة ، فنجاناً صغيراً من القهوة ، ليس فنجاناً ، إذ لو كان كذلك لفقد ظرافته ، وإنما فنجان صغير . كم كانت دهشتي كبيرة حين لم يجب كريستان بينما ايتشبيّريّا ، الشريك ، صاحب الصوت الغريد الذي يملك جواباً لكل شيء ، فهو الذي تكلّم وقال بابتسامة من تلك التي يبدو أنها تُهدى من تحت الشارب :

ــ نقبله إذا قبلت منا ثمنه .

احتجّت المرأة وهي تبتسم أيضاً وكانت تنشر ملحفة بيضاء كابتسامتها تماماً :

ــ لا ، ياجار ، لا شيء من هذا ، ليس لذلك قيمة . دعوني أنشر هذا الثوب الصغير وسأقدم لكم فنجان القهوة حالاً .

أصبح الآن فنجاناً ، فالثوب الصغير كبّره . تقدّم الفيلسوف ليساعدها ، بينما رحنا ننظر ، أنا وكريستيان ، نحن اللذين لم يكن

عندنا ما نعمله : كانت المرأة تخدع في النظرة الأولى ، مثل المرأة التركية تقريباً ، مثل امرأة مندوثا . ولا أعرف بأي شيء كانت تشبهها ، هل باللون ، أم بالثياب المتواضعة ، بالقامة أم بالشعر . لكن كان باستطاعتي أن أرى هذه عن قرب وهي تعمل وتتحرك بينما كنت أرى الأخرى واقفة إلى جانب الباب بلا حراك دائماً ، تنظر : كان جسد هذه نحيلاً ، لكنه لم يكن تالفاً ، كان عضليّ ، جميل القوام ، تحت تنّورتها السوداء كان يبرز وركان ممتلئان وكان واضحاً أن إليتها وردفيها لاتتحرك بتبعية مطلقة لبقية حركات الجسد ، وليس لحسابها هي ومجازفتها الخاصة . كان صدرها صغيراً .

نظرت إلى كريستيان الذي اعتقدت أنه كان يتمتع مثلي ، لكن كريستيان كان ينظر إلى البحر ، يبدو أن المرأة لم تكن تلفت انتباهه .

دخلنا الغرفة بعد أن انتهت المرأة وايتشبيريتّا من نشر الثياب . كانت ملاصقة لغرفتنا ويشمّ فيها المرء الرائحة الّتي تشم في الغرف الّتي ينام فيها الأطفال الصغار المشابهة لجوهرهم ، رائحة مركبة من حليب وثياب رطبة وبراز ، تنشّقته بعمق . كانت رائحة مأوى. كان هناك طفلان على أحد الأسرة ، واحد جالس والآخر مستلق ، الأول في الثانية من عمره تقريباً والثاني لايكاد يبلغ الشهور . كان الأول كبير العينين المفتوحتين ، نظر إلينا بينما كان يأكل قطعة كبيرة من الخبز ،

وهو أشعث الشعر ، بالقميص الداخلي ، أسمر الوجه برّاقه ، تَبعْثُرُ وجهه خصلة شعر قاتم من جهة إلى أخرى . لم يبد أي خوف ، بل على العكس ، حيّانا بحركة من يده . أما الآخر فقد كان مستلقياً على ظهره ، شبه عار ، لم يعرنا أدنى انتباه : كان ينظر إلى السقف ويحرّك ساقيه بقسوة وكأنه قد كلّف بالقيام بذلك ، بينما راح يطلق صيحات فرح صغيرة .

ـ مرحباً ، ياسيد خاثينتو ـ حيّا ايتشبيّريّا الكبير منهما ـ هل الخبز لذيذ ؟

لم يجبه الطفل : لقمة كبيرة منعته ، لكنه حرك رأسه موافقاً : إنه لذيذ .

ـ اجلسوا ، من فضلكم ـ قالت المرأة ممرّرة خرقة على الطاولة المليئة بلبّ الخبز والمرشوشة ببعض قطرات الحليب ـ لحظة واحدة وسأخدمكم .

راقبتني بسرعة وهي تنظف الطاولة : تلك كانت المرة الأولى التي تراني فيها وربما أرادت أن تعرف أي نوع من الرجال أنا . قمت بدوري بالشيء نفسه ونظرت إلى خدّها الأيسر المصقول والأسمر الذي تلتف فوقه خصلة شعر سوداء .

نظرتها الأولى كانت للتعرف ، أي نظرة فضول ، أما الثانية فنظرة مباغتة وشيء آخر لم أستطع أن أحدد ماهيته ، لكنها ذكّرتني بنظرة امرأة مندوثا ، نظرة يبدو من بعيد أنها تحمل مصلحة مختلفة عما تحمل عن قرب (لكنك لست فتى مليحاً لا عن قرب ولا عن بعد ولا عن أي شيء من هذا القبيل : فأنت نحيل ضامر ، غائر العينين ، عريض الجبهة ، قاس وأشعث الشعر ، وأنت فعلاً طويل ، لكنك أرفل وتسير منحني الرأس مقوّس الظهر : وكأنك تبحث عن شيء في الأرض ، لكنك لا تبحث عن شيء أضعته أو تأمل أن تجده ، إضافة إلى أن ثيابك لا تفيدك في شيء ، على العكس تماماً، انها تزعزع ثقتك بجسمك، ورؤيتك عن بعد أو عن قرب توحي بأن ما ينقصك كي تكون غصن بقدونس هي الرائحة فقط . لذلك يجب ألا تتوهّم ، ياسيد أنيثيتو . أنا لا أتوهّم ياايتشبيّريـّا . ان مايحدث هو أنك تلفت الإنتباه بسبب الفارق القائم بين جسمك وتقاسيم وجهك ونظرتك ، وجه طفل ونظرة حمامة ، والذي لابد أنه يفاجىء النساء ، وبالأحرى الناس جميعاً بما فيهم أنا . . ما زال أمامك وقت طويل لتجذب النساء ، هذا إذا استطعت ذات مرّة أن تجذبهن . أنا لا أنوي اجتذابهن وانما سألتك لماذا تنظر إليّ بعض النسوة بهذا الشكل . يبدو أنه للسبب نفسه الذي أقوله لك وربما لأنهن يتمتعن بروح أمومية متطورة . انهن لاينظرن

إليّ أية نظرة لطيفة أبداً : أصبحت كبيراً وشاربي يخيفهن أيضاً . يجب على الشياطين البؤساء من أمثالي ألا يكون لهم شارب ، لكنني لو حلقته لساء الأمر أكثر : فشفتي العليا أشد هولاً من الشارب . هيّا ، أعطني قليلاً من النبيذ مرّة أخرى) .

كانت الغرفة ، إذا ما قورنت بغرفتنا ، أنيقة ، فهي أرحب وفيها سريران جديدان بحالة جيدة وألحفة جديدة تماماً ووسائد ذات أغمدة وملاحف نظيفة ! وهنا وهناك خزانتا بلور من الخيزران ، فيها ألواح غطيت بالمشمع وطاولة وثلاث أو أربع كراس واسكملة بين السريرين ، إضافة إلى سلة غسيل كبيرة ولوح كوي محمل على حمالتين . كان الأثاث متواضعاً ومعتنى به ، لكنه كامل . يفترض أن يترك الزوجان الغرفة عندما يأتي الولد الثالث ، لأنها ستضيق بهم . كان يوجد إلى جانب الطاولة على الأرض وداخل موقد من التنك ابريق شاي يغلي ويهدد بالفوران ، في ابريق من الحديد المطلي كان يوجد قليل من الحليب .

حرّكت المرأة النار ووضعت بعض الفناجين والصحون الصغيرة وقطعاً من الخبز وصحناً من الزبدة على الطاولة . كان فطوراً كاملاً ؛ فطوراً لم أره ولم أتناوله منذ أمد بعيد . جلست إلى الطاولة مستحياً وراغباً في الوقت نفسه . شعرت أنني سعيد : فالمكان فيه استقبال وحرارة

ومودّة ورائحة أطفال . ثوان وقدّمت لنا المرأة بيديها النحيلتين القهوة والحليب وحمّصت لنا بعض قطع الخبز ووضعت فوقها طبقة من الزبدة ثمّ وضعتها في صحن وسط الطاولة وحثّتنا :

ــ جاهز : كلوا قبل أن تبرد ، من هنا ، يادون ألفونسو :

بدا ايتشبيريا ، الذي بادر وقبل الدعوة ، متردداً ومرتبكاً ، فاحمر وجهه وحنى رأسه . أمسك كريستيان بزمام المبادرة دون استعجال ، لكن دون توقف . قلدته ببساطة . كانت المرأة تنظر إلى ألفونسو .

ــ هيا ، يادون ألفونسو ، تفضل ، ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟

ظننت أن صديقي قد ينفجر بالبكاء ، فقد بدا شديد الندم ، لكنه قام أخيراً برد فعل وقال بينما كان يجلس أمام الطاولة وبصوت متهدج قليلاً :

ــ والمعلم خاثينتو هل هو بخير ؟

ــ بخير تماماً ــ أكدت المرأة التي كانت تقف قرب الطاولة ــ مكان عمله بعيد ويذهب باكراً جداً . في السادسة يهبط التل .

ــ انه رجل نشيط جداً ــ أكد الفيلسوف دون حماس كبير .

وافقت المرأة :

ـ صحيح ، لكن لولم يكن في الحمارات نبيذ كثير ، لعمل أقل.

نظر ايتشبيريا إلى المرأة :

ـ هل مازال يحب النبيذ الأحمر ؟

ـ الشيء الوحيد الذي يحبه : مامن ليلة يأتي إلا في جسمه زجاجتان على الأقل وزجاجتان ليستا شيئاً بالنسبة له ، انهما رشفة لاتكاد تبل طرف شاربه .

استظرفت الأمر .

ـ وكم زجاجة يحتاج اذن كي يشعر بالاكتفاء ؟ ـ سألتها .

ـ حتى الآن لاأحد يعرف ولاهو نفسه يعرف ـ أجابت المرأة مبتسمة . ـ فهو عندما يبدأ بالشرب ومعه في جيبه نقود ولديه من الوقت متسع ، لايشرب الكؤوس أنصافاً أبداً وانما مترعة دائماً ، مهما كان حجمها . انه لايشرب الكؤوس أنصافاً إلا عندما يريد أن يشرب قليلاً ، زجاجتين ، أو بعد أن يكون قد شرب كثيراً ووصل النبيذ ، كما يقول ، حتى التفاحة ، فلا يستطيع الانحناء ، ليس خوفاً من السقوط وإنما من أن يخرج النبيذ من أنفه .

ضحكنا .

ـــ وأغرب من هذا ـــ أضافت المرأة التي بدا أنها تتكلم مستمتعة بالموضوع ـــ إن النبيذ لايؤثر فيه ، فهو يسكره ، لكنه لايمرضه . أعتقد أنه لوشرب ماء كما يشرب نبيذاً دفعة واحدة ، لمرض . الشيء الذي لايحصل له مع النبيذ . أشخاص آخرون يتقيأون ، يؤلمهم رأسهم ، يستيقظون على تقلبات في معداتهم ، تنغص قلوبهم وتربك نبضهم ، لكن هو . . . . فلا يأتي للنوم أحياناً ، يسكر إلى حد لايستطيع معه الوصول إلى البيت ، فيبقى حيث هو مستيقظاً أو نائماً ، ربما جالساً ، لكنه في اليوم التالي يكون في عمله في الساعة المحددة . دون ألم . دون انزعاج ، جدياً تماماً ، مع انه لايزال متوتراً بفعل النبيذ ويعمل جاداً بالمطرقة والمنشار .

تعرفت على المعلم خاثينتو بعد أيام قليلة : رجل ضخم ، طويل ، عظيم الظهر ، عالي الصدر ، له شارب ، طويل الساقين ، واثق الخطوة ، نظر إلي شزراً ولم يحيني أو ينبس معي بكلمة واحدة رغم انه رآني أخرج من غرفة مجاورة لغرفته . بدا رجلاً صموتاً . ليال بعد ذلك وعندما كان كريستيان يحاول أن يرفو قميصه ، الذي يمسك به بيد ويمسك الإبرة والخيط باليد الأخرى على ضوء شمعة بينما جلس الفيلسوف إلى جانبه يقرأ قطعة من صحيفة يومية قديمة صدرت منذ أشهر أو منذ سنة ـــ كان قد أخرجها من تحت الفراش ـــ في حين كنت أسند رأسي

إلى احدى يدي في محاولة مني لأخمن ماتقوله صفحات مجلة ، ربما كانت أكثر قدماً من الصحيفة التي يقرؤها الفيلسوف ، شعرنا أن المعلم خانثينتو وصل إلى غرفته ، لكنه غير صامت كما هي عادته ، بل على العكس تماماً . فقد كان يتكلم ويغني بعض الأشعار التي تتحدث عن ميناء بالبارايسو : « ايه ، ياميناء بالبارايسو / أيتها النوافذ والممرات ، / / حيث يبحر البحار / مع الحمالين . » .

استقبلت أغنيته بصمت مدهش ؛ رددها فتلقى انذاراً .

ـــ نم ، ياسكران ، لاتثر الضجة فالأولاد نائمون .

لكن النجار تابع ترنيم بقية الأغنية بصوته المبحوح سعيداً . وبدأ يسير من هنا إلى هناك ، ثم ضحك وشعرنا بارتطام ، ضربة فظيعة وساد صمت جديد عظيم بدل أن نسمع بكاء الاطفال أو دمدمة المرأة ، وكأن المعلم خانثينتو قد سحق وقتل العائلة جميعها بسقوطه . لم يكن هذا صعباً على الاطلاق . سمعنا بعد ثانية أحداً يلهث ، أصغينا ، صاحت المرأة :

ـــ أيها السكران الشيطان ! أنت لاتكتفي بالوصول على هذه الحال بل تريد أيضاً أن ترتكب حماقات . . .

كان الفيلسوف قد ترك القراءة وراح يصغي بانتباه ، كذلك

كريستيان الذي كان يصغي ويرفرف أجفانه أمام النور ، بينما يقوم بمناورات لطيفة ليتمكن من جمع طرفي المزق ، كان متدثراً بجاكيته فقط ، جلده الأبيض كان مغطى بما يشبه اللسعات . سمعت طرقات على الجدار وصوت المرأة من جديد :

ـ ياجار . . .

لاأحد أجاب أو تحرك ، لم نعرف إلى من كانت تتوجه . ألحت المرأة بعذوبة أكبر :

ـ ياجارنا ألفونسو . . .

ـ ماذا حدث ، ياسيدة ؟ ـ سأل ايتشبيريا بعذوبة مماثلة بينما كان ينهض .

أجابت المرأة المحزونة :

ـ تعال وساعدني على رفع هذا السكران ، فأنا لاأستطيع تحريكه .

ترك صديقي قطعة الصحيفة جانباً وخرج إلى الفناء . ظننت أن كريستيان سيرافقه ، لكنه لم يحرك ساكناً ، فاهتمامه كان منصباً على بقايا قميصه . تابع الرفو . استويت، لكنه رفع رأسه وأوقفني بإيماءة منه ، وقال ، في الوقت نفسه ، بصوت منخفض :

ـ لاتذهب .

توقفت ، وقد ملأتني الدهشة :

ـ لماذا ؟ ـ سألته .

أجاب :

ـ دعه وحيداً .

ـ لكن ، هل يستطيع بمفرده ؟

وهنا أتى بحركة أدهشتني أكثر ، وكانت تدل على شيء يصعب فهمه للوهلة الاولى :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

وعندئذ همس مشيراً إلى الغرفة المجاورة :

ـ انها محط اعجابه .

ـ محط اعجابه ؟

ـ بلى .

أعتقد أنه كان فاغر الفم .

ـ محط إعجابه . مااللذي كان محط اعجابه ؟

ابتسم كريستيان ووضع اصبعه على فمه وطلب مني أن أسكت : فسكت وأصغينا . فتح ايتشبيريا باب الغرفة المجاورة وسأل :

ـ ماذا حدث ، ياجارة ؟

أجابت المرأة بالصوت المحزون نفسه :

ـ دخل الرجل ، يادون ألفونسو : وسقط ولا أستطيع أن أحركه.

لم يكن ذلك غريباً : النجار كان يزن كثيراً وأعتقدت أن صديقي نفسه لن يستطيع رفعه .

كان السكران قد سقط بين السريرين ثم تحرك وبقي محصوراً بينهما ، لذلك كان عليه أن يجعله يدور ليتم رفعه بعدئذ . الصعوبة تكمن في القيام بالحركة الأولى ، لكن ايتشبيريا ، الذي لم يكن قوياً ويملك بالمقابل موهبة الابتكار ، اقترح :

ـ لنسحب السرير .

أحسسنا بالسرير يدور ، أنّ طفل ثم سمعنا لهاثاً . فقد أمسك الفيلسوف الرجل من مكان ما وأداره أو سحبه .

ـ ساعديني ، أمسكي به من هناك ، من قدميه ، هكذا .

سمع صوت الصرير من جديد وشعرنا بأنين مضاعف ، صر شريط السرير تحت ثقل المعلم خاثينتو الرائع . لف الصمت ، بعد ذلك ، كل شيء . كان صمتاً دام عدداً من الثواني . نظرت إلى كريستيان ، الذي كان مايزال يرفو ويصغي . سمعنا في الحال وقع خطى ايتشبيريا ،

فتح الفيلسوف باب غرفتنا ، دخل وجلس من جديد إلى جانب الشمعة وأخذ ، مرة أخرى قطعة الصحيفة اليومية ، لكنه لم يستطع القراءة ، فقد أفقده الجهد والانفعال هدوءه، تنهد بعمق وترك الصحيفة ونهض ليسير بصمت تام ولوقت طويل في الغرفة .

(— قليل الحياء كريستيان على حق : انها تعجبني ، لكنها تعجبني كالريح أو كالقمر ، لماذا ؟ لالشيء ، إلا لكي أحس بها أو أنظر إليها ، فهي لن تكون لي قط ولن يخطر لي أبداً أن أوحي لها بشيء . جاءا إلى هذه الغرفة ، حين كنت أعيش وحيداً في غرفتي ، منذ مايقارب سنوات . أمضيا في هذه الغرفة شهر العسل وأنجبت فيها ولديها . كنت شاهداً على كل شيء ، لكن سمعاً ، وهذا أسوأ أشكال الشهود أحياناً . سمعت تأوهات الحب عندهما وتأوهات الألم .

(كنت في تلك الليلة نائماً ولاأعرف كم كانت الساعة عندما استيقظت على ضجيج رهيب : صراخ ، قهقهات ، نباح كلاب ، مواء قطط ، خوار ثيران ، قرق ، ، جئير وكل مايمكن أن يصدر عن حنجرة الانسان أو الحيوان أو مايمكن أن تقلده . أحسست أنهم يفتحون باب الغرفة فأخذتني الدهشة : كانت غير مشغولة في الصباح حين غادرت الغرفة . لقد جاؤوا بالاثاث أثناء غيابي وصاحب البيت لم يقل لي شيئاً . يعتاد الانسان أن يعيش في بيوت الايجار إلى جوار

اناس غير عاديين : لصوص ، شرطة ، عمال ، شحاذين . قطاع طرق ، تجار ، من كل ماهب ودب ، أناس يبدلون أماكنهم بأخرى أكثر مما يبدلون ثيابهم الداخلية ، لكن عليهم أن يعيشوا في مكان ما ، أليس كذلك ؟ انهم موجودون ويحتاجون إلى كل مايحتاج اليه الآخرون تماماً .

(فتحوا الباب ، كما قلت لك ، ودخل الصارخون ، المواؤون ، الخوارون ،الجآرون ، سمعت أصوات رجال ، صياحات وضحكات نسوة كن يضحكن ويصرخن وكأن هناك من يرفع تنوراتهن ويخيفهن ، ويرغبن به في الوقت ذاته . أية شياطين هذه : فهمت بعد لحظة ماكان يحدث : هناك شخص كان يردد صيحة واحدة بصوت منخفض الطبقة وكأن هناك من يكافئه على ذلك : عاش العروسان . لم أصدق في البداية أن الأمر يتعلق بعروسين ، أي بشخصين تزوجا منذ قليل . افترضت أن الأمر يتعلق بزوجين ، هذا صحيح ، زوج وزوجة ، متزوجان حتى الآن وأن موضوع العروسين انما كان مزحة ، زوجان فتيان أو غير فتيين ، جاءا ليعيشا هناك يرافقهما الأصدقاء إلى المسكن الجديد .

(انتظرت أن يهدأ ذلك ، لأنام بعدئذ ، يجب أن يكون المرء متسامحاً مع فرح الآخرين ، طبعاً إلى حد معين . لكن شيئاً لم يهدأ ،

صحيح أن الأشياء سكنت ، الضجة وحدها سكنت ، فالذين كانوا يصرخون ، يعوون ، يجأرون ، يقرقون ، ويخورون ذهبوا ، لكن المعلم خانيتو وزوجته : زوجته الصغيرة الجديدة ، التي كانت له وحدها ، بقيا : أنت رأيت المعلم خانيتو : نادراً مايتكلم ولايغني الا عندما يكون سكران ، حسناً لقد تكلم في تلك الليلة أقل من أية ليلة أخرى ، فالليلة لم تكن ليلة كلام . لاشيء سابق بينهما ، لاشيء مما يفترض أنه سيحدث أو سيقال في مثل تلك الظروف : فقد انقض على المرأة كما ينقض على زجاجة النبيذ : كانت رحلة، لا هو حاول أن يواري ولاهي ، كما لم يحاولا أن يمرا دون أن يلفتا الانتباه ؛ بدا انهما اعتقدا أنهما كانا وحيدين في ذلك البيت ، بل وربما في التل والمدينة .

(فكرت أن أنهض وأمضي لأتجول هناك وأترطب ، لكنني فكرت بعد ذلك : صه ، سأنام في الحال. كيف لا ؛ كان النوم مستحيلاً ، ليس لأنني داعر أو فضولي ، لاشيء من هذا أبداً ، فالذي حدث هو أن شغف تلك المرأة كان خارقاً،غير مألوف أبداً خاصة في امرأةمثل امرأةتلك الليلة،عذراء،لم يمض على فض بكارتها وقت . انتزعت مني النوم وكأنها أزاحته بيدها . لم أسمع قط بشيء مماثل ولو أن أحداً حدثني به ماكنت لأصدق . كان يبعث في نفسي الخوف تقريباً وأقسم

أنني لم أتمنّ في لحظة من اللحظات أن أكون مكان النجار : نام في الحال ـ ربما أنه حين جاء ، كان قد شرب احتفالاً بعرسه ـ فأيقظته متشاكية ، ملاطفة ومقبلة : دمدم ، لكنه استيقظ ، عاد ونام فأيقظته من جديد ، فعاد ودمدم وأعتقد انه هددها بالصفع ، لكنها أصرت . لماذا أكرر عليك ماكانت تقوله ! سأكون مهزأة . بقيت الليل بطوله مستيقظة وكذلك أنا ، بينما كان المعلم خاثينتو نائماً وهو يشخر ، يزنخر ويدمدم وكانت مستيقظة ، تهدل له ، تداعبه وتقول له كلمات ، ابتسمت لها عندما عرفت الذي وجهتها له .

(لاأعرف ، حتى هذه اللحظة ، ان كان عفوياً ماحدث أم أن أحداً ، أمها ، صديقتها أو أختها قد نصحها به . لكن ، مايمكنني قوله هو أنه ، لسوء حظي وطيب حظ المعلم خانثينتو ، أو العكس ، لم يدم ذلك طويلاً . فقد نهض مبكراً جداً في اليوم التالي واغتسل وأعد فطوره وذهب إلى العمل ، ذهب دون أن يودعها ، ربما كانت نائمة . كنت أسمع كل شيء ، كل شيء ، وبقيت أسمع ذلك عدداً من الليالي ، لاأعرف عددها ، لحسن الحظ لم تكن كثيرة ، لكنها كافية .

(صعقت عندما رأيت المرأة في اليوم التالي : أنت تعرفها : انها ريشة ، نحيلة ، رشيقة ، شبقة ولها وجه لاشيء خارق فيه ، الا العينان اللتان تضجان بنور يشع من الأعماق تماماً . تلك اذن هي الوحش الجنسي

الضاري : لم تنتبه إلى شيء، أي أنها لم تنتبه إلى أن أحد استطاع أن يسمعها.
وفي الليلة التالية وصلت مبكراً ودون ضجة . ـ حافظت على ولعها .
كان المعلم خاثينتو يضحك من تحت شاربه : ها ، ها ، ها ، ـ ماذا يريد رجل مثله أكثر من امرأة مثل تلك ؟ ـ لكنه كان يضحك وحيداً حتى لحظة الشعور بالرضى والتعب حيث يغرقه النوم في الظلمات ، توقظه فيستجيب ، رغم أنه يقوم بذلك مدمدماً : كان قد عمل النهار بطوله ـ انه نجار ورشة ـ واقفاً أو متعلقاً إلى سقالة ، اضافة إلى أنه لاشك كان يتناول زجاجتي نبيذ ، كما يفعل حتى الآن قبل مجيئه إلى البيت ، ثم يستلقي ويتسلى معها لحظة ، ومع انه مايزال شاباً فانه كان يتحول ، في الساعة الحاديةعشرة ، إلى حجر ، حجر كانت المرأة توفق أحياناً في ايقاظها واثارتها ، لكنها بعد الليلة الاولى بعدة ليال عندما وصل سكران لم تستطع ولا حتى أن تجعله يدمدم .

(رجته ، هددته ، توسلت اليه ، هدلت له ، لكن دون جدوى : فالمعلم خاثينتو لم يعد سوى شخير فظيع ، شخير كان يهز جدران الغرفة. هناك انتهى كل شيء : منذ تلك الليلة راح شغفها ينطفىء مثل نار لايوجد من يصليها ، على العكس ، كان هناك من يطفؤها . أطفأته الخمرة وكان لايشتعل إلا من حين لآخر عندما كان يدفع بشيء من ذاته . لكن النار لم تعد هي نفسها . كنت أصغي وأشعر أحياناً بالسعادة

لانطفائه وبالحزن أحياناً أخرى . كان ينتهي شيء يجعلني أعاني ، وكان أيضاً شيئاً يجعلني أشعر بالمتعة ، ليس بطريقة سيئة وانما بطريقة أخرى لاأعرف كيف أفسره لك : تلك العاطفة التي لم يكن لي بها علاقة ــ فأنا لم أكن أكثر من مستمع ــ كانت تمنحني احساساً عظيماً بالحياة ، لم يكن احساساً جسدياً دنيئاً فقط ، لا ، فقد كان فيها ، أي في المرأة ، شيء غض بشكل عميق تماماً وسط شيء ملتهب، شيء نقي وسط شيء شديد الظلمة ، سبب لي اختفاؤه حزناً كبيراً ، كانت مثل نهاية رواية ينتهي الأمر بقارئها إلى المشاركة في حياتها ومشاعرها .

(كنت أفكر ، في بعض الليالي ، وأنا وحيد في غرفتي : حبذا لو كانت لي امرأة مثل تلك المرأة ؛ حنون ، رقيقة ، كل شيء فيها ملتهب . وكنت أفكر أيضاً : لماذا ؟ لابد انني سأتصرف مثل المعلم خاثينتو ، وربما أسوأ ، فأنا مريض وضعيف وقد تأتي اللحظة التي أقف فيها أمام قبلاتها وهديلها وحنانها لأجيب بدمدمة أو ربما بتهديد . . . لاتصدق كريستيان رغم أنه يقول لك أن تلك المرأة تعجبني أو صدقه وسطياً ، انها تعجبني كذكرى ، كذكرى لشيء ضائع ، ذكرى جمال أو قدرة جمالية اختفت . وأسوأ من ذلك أن المعلم خاثينتو لم ينتبه إلى أن المرأة قد اختفت مع عاطفتها ، فهو لم يقل كلمة واحدة تدل على ذلك كأنها لم تكن موجودة . قد لاتتذكر هي أيضاً . أنا الوحيد الذي يتذكر كل شيء .) .

— ٨ —

هبطنا التل ببطء . الانحدار يجبر الناس على أن تسير بسرعة ، رغم أنه ليس الانحدار وحده هو الذي يدفعهم ، فهناك أيضاً العمل والمعاش ، الطعام أو الزوجة ، أحد الاطفال المرضى ، الثياب التي تكاد تضيع في بيت الرهن ، المال الذي يذهب ليطلبه وهذا الشيء الآخر وذاك البعيد ، يملك الانسان هذا وينقصه ذاك والذي يملكه أقل بكثير مما لا يملك . والانسان يعمل مابوسعه : يشتغل ويكسب قليلاً ، وليس كثيراً إلى الحد الذي يسمح له أن يغطي صرفياته ، لذلك على المرأة أن تعمل وكذلك الطفل الأكبر اذا كان عمره كافياً وأحياناً قبل هذا ، هي تغسل ، تخيط وهو يبيع صحفاً ، يلمع أحذية ، ينفخ زجاجات في معمل الزجاج ، ويحمل ويترل في مستودع ، فهناك دائماً من يملك عملاً لطفل وهو دائماً أيضاً يدفع له أقل وهذا يشكل باستمرار رأسمال صناعي أو تجاري ، بعضهم يشحذ وآخرون يسرقون ، وهكذا يمضي عائشـــاً أو هو يموت . أمـــا نحن فكنّا نضحك من الانحدار ، لأننا لانملك امرأة ولا أولاداً ولا ثياباً مرهونة — فالثياب القليلة التي كانت عندنا كنّا نرتديها — ولايوجد من يقرضنا ولا حتّى خمسة سنتيمات ، انها ميّزة ، ميّزة تسمح لنا بأن نسير خطوة خطوة ،

أن نتوقّف ساعة نشاء ، أن ننتظر ونضحك،أن نتحدّث ونجلس هنا أو هناك . كنّا نسير رتلاً إذا كان الرصيف عريضاً والواحد خلف الآخر إذا كان ضيقاً وأثنين في الأمام وواحداً في الخلف أو واحداً في الأمام واثنين في الخلف إذا كان عادياً ، فشوارع التلال لاتخضع لأيّ قانون أو حساب تنظيميّ ، فقد رسمت وتشكلّت بشكل تستهلك فيه أقل مجهود ممكن في الصعود ، لأن الموضوع هو موضوع الصعود وليس قطعها سيراً ، كما هو الحال في شوارع السهل ، أما فيما عدا ذلك فالكثير منها لا لزوم له ، إذ بالنادر ما تمر سيارة هناك لأن الانحدار يمنع ذلك . الانحدار يعارض ، وليس غير حمّال وجواد أو بائع جوّال وحمار يمر من هناك . البيوت تقلّص الأرصفة . كان كريستيان يسير دائماً على رصيف محاز للبيوت ـــ التي كان بعضها لايتجاوز كونه أكواخاً وبعضها الآخر أقفاصاً : إن الوصول إلى بعضها كان يتطلّب تسلّق ثلاثة أو أربعة أمتار من الأدراج الشديدة الانحدار ـــ كان يرمقها متفحّصاً وكأنه سيجد في كل واحد منها شيئاً خارقاً ويتوقّف أمام بعضها مما يضطر الفيلسوف لأن ينبهه .

ـــ امش ، ياكريستيان ، لاتتوقّف ، ليس لك أي شيء هنا .

يعتقد المرء أحياناً انه يملك كلّ شيء وهو لايملك أي شيء

كان الشارع لنا ، وكذلك كانت تبدو المدينة والبحر أيضاً .

يبدو للمرء أحياناً انه يملك كلّ شيء وهو لايملك أيّ شيء : الفضاء ، الهواء ، السماء ، الماء ، النور ، وليس إلا لأنه يملك الوقت : الوقت الذي يملكه هو الذي يمنحه الإحساس بامتلاك كلّ شيء ، فالذي لاوقت عنده لاشيء ملكه . والمتعجّل لايتمتّع بشيء ، والذي يسير مسرعاً ، مستعجلاً ، لايملك الا ّ ضيقه وسرعته وعجلته . لاتضق ذرعاً أيها الرجل ، سر ببطء واشعر ، وإذا كنت لاتريد السير فاستلق على الأرض ، اجلس ، انظر ، اشعر . ليس ضرورياً أن تفكر إلا إذا فكّرت بما لايجبرك على النهوض والسير بسرعة ؛ نسيت هذا ، يجب أن أفعل ذاك ، إلى اللقاء ، المدير بانتظاري ، سيأتي البائع حالاً ، ربّ العمل يحتاجني ، هاهي الحافلة قادمة .

كان البحر أمامنا في الأسفل ، على هامش المدينة وحياتها التي لاترتاح ولاتملك الوقت وكان يبدو مرتاحاً ، غير مسرع ولا متعجّل وفعلاً كان غير متعجّل ومع ذلك ترى السماء تنعكس فيه وريح البرّ تجري فيه لتباغت المدينة من وراء ظهرها ، صاعدة التلال من الجنوب والريح الشمالية تهاجمها من جانبها المفتوح والريح الغربية التي لاتعرف التكيّف تهاجمها من الأمام وتلقي بأمواجها الهائلة على أرصفتها .

ربما كان صعباً توضيح المسألة وأصعب منه فهمها ، لكنها هكذا كانت وهكذا هي : أعطني الوقت لأنظر وابق أنت لتحصي بضائعك ،

أعطني الوقت لأشعر وتابع أنت خطابك ، أعطني الوقت وتابع أنت قراءة أخبار الصحيفة ، أعطني الوقت لأتمتع بالسماء ، بالبحر والريح وتابع بيع أجبانك أو معلّباتك ، أعطني الوقت لأحيا ومت وأنت تحصي بضاعتك وتقنع البلهاء بطيبة برنامج حكومتك ، وتقرأ صحيفتك وتروّج لمنتجاتك التي هي أرخص دائماً مما تدفع لهم ومما تبيعها به . وإذا منحتني الفضاء ، إضافة إلى الوقت ، أو على الأقل لم تنتزعه مني ، فهذا أفضل : بهذا أستطيع أن أنظر إلى البعيد أكثر ، أن أسير أبعد مما كنت أفكر : أشعر بوجود تلك الأشجار وتلك الصخور . أما البحر والسماء والريح فأنت لن تستطيع أن تنتزعها منّي أو أن تجتزّها ، تستطيع أن تتقاضى مني أجرة النظر إليها وأن تضع العراقيل لتحول دون تمتعي بها ، لكننا دائماً سنجد الطريقة التي نسخر بها منك . الإنسان ينخس بالانسان ، الشيء الذي لا يفعل الثور مع الثور : امش بسرعة ، لاتماطل ، فالزبون ينتظر ، بع ذاك ، والانسان عندما ينخس بالآخرين انما ينخس بنفسه .

نذهب إلى البحر والبحر لايتحرّك من مكانه ، انه ينتظرنا ، وهو هناك منذ آلاف السنين أو أقلّ قليلاً ، يرتطم بالصخور نفسها أو بشبيهاتها ، يحمل دائماً الرمال الناعمة أو الثخينة ، الصفراء أو القاتمة ، نفسها ، ويأتي بها ، منه نعيش ، مثل الطيور والأسماك والبحارة :

يكفينا نحن بضع غرامات من المعدن ، ليس أكثر من بضع غرامات تكفيها قبضة من الأسماك والصيادون والبحارة زورق ، حزمة من الطحالب ، سلة من البحريات ومرافىء بعيدة .

هو ذا الغراب البحري يرتعد فوق العوّامة ، وقد فتح جناحيه الأسودين ، وكأنه يقف على ذيله : انه مبيّض الزوارق والسفن والعوّامات وقوارب الشرم ، يبدو انه على وشك أن يغمى عليه برداً وتضوراً ، رغم أنه أكل عدّة كيلو غرامات من السمك ـ السردين والبيجرّي والأسقمري والبلم والروبالوس والطريغلا ـ إنه جائع دائماً ويطير بسرعة ، بسرعة كبيرة ، كما يستطيع أن يطير انسان بلا زمن . على الصخور وبعيداً منه يقف طائر القطرس ، الجديّ تماماً ، بمنقاره الطويل الذي يتوسّط صدره ، وكيس سردينه ، كأنه راهب شحّاذ ، حزيناً وكئيباً ، لكن كيسه مليّ وهو سعيد بذلك . يصطاد ليلاً ونهاراً ، في كل ساعة أثناء الطيران وأثناء الغطس ولايوجد في المحيط أسماك تكفي حوصلته ؛ وأبو رمح ، المتسوّل ، الذي ليس له تواجد ثابت ، فهو ليس على العوّامات ولا على الصخور ، دائم الطيران ، يرصد من الجوّ ، يصطاد عبوراً ، يترك نفسه يسقط وقد طوى جناحيه ، على الفريسة ، الروبال «٣٦» ، أو الكورفين «٣٧»

---

(٣٦) Rohalo : روبال : نوع من السمك . (المترجم)

(٣٧) Corvina : الكوربين نوع من السمك أيضاً . (المترجم)

ويموت أحياناً عندما يصطدم بصخرة مغمورة . لكن سمكة بيجري جيدة تستحق طرقة رأس أو موتاً ؛ والنوارس البيضاء والرمادية وذات الأحجام المختلفة تطير على سطح البحر تلاحق السمك في مسيرته . تأخذه باحتقار ودون جهد ، بما يشبه الأناقة ، لكنها ليست أنيقة . يأكل من كل شيء ، حتى الجثث وحوصلتها مثل وعاء قاذورات وأخيراً النورس النطّاط ، ملك الشاطىء والخليج . الشبح المرعب للبط والغراب البحري والنوارس والقطرس وأبي رمح والكهويل ، الطفيليّ الذي يعيش مما تحصل عليه الطيور الأخرى بجهدها الشخصي . انظر إليه : انه يلاحق أبي رمح الذي أخذ قطعة حبّار وينقره حتى يفلت القطعة ، يبلعها ويستعد لعدوان آخر .

فجأة يبدو لي أننا لانسير على رصيف في أحد شوارع بالبارايسو وانما وسط مجّرى ماء . ربما كان الزمن ، الزمن الذي يتقدم من خلالنا ، أم أننا نحن الذين نمر عبر الزمن ؟ ويغور ذات يوم فيما سيشكل حياتنا الماضية ، الحياة التي لم نستطع أن نختارها ولا أن نشيدها حسب هذه الرغبات أو تلك المخططات ؛ فنحن لا نملكها . أية رغبات وأية مخطّطات ؟ لا أحد منحنا رغبات خاصة ولا مخططات محددة وثابتة . الجميع يعيشون مما جاءهم به الزمن . سيأتي يوم ننظر فيه إلى الوراء ونرى أن كل ما عشناه عجينة بلا نظام ولا انسجام . دون عمق

ولا جمال ، وبالكاد يوجد بسمة ، نور ، بعض الكلمات ، اسم أحد ما وربما أغنية صغيرة هنا وهناك . ماذا نستطيع أن نفعل ؟ لا نستطيع أن نغيّر شيئاً من ذلك الزمن ولا من تلك الحياة . سيبقيان للابد زمناً وحياة عقيمين . وهما كذلك وسيبقيان بالنسبة للجميع . ماذا سيرى النجار في شيخوخته عندما ينظر إلى ماضيه ، إلى ذلك الماضي العقيم ؟ ماذا سيرى التاجر . المقاول ، أمين الصندوق ، المدير ، المومس ، شرطي المكافحة . الجميع وكل واحد بواحد ؟ أبواب ونوافذ ، جدران ، صناديق شمع ، أكياس بطاطا ، عمّال يصلون يلعنون في الصباح ويذهبون وهم يشتمون في المساء ، أكوام من الأوراق النقدية والعملة الأجنبية ، مُستَخدَمون ببنطلوناتهم البالية وأنوفهم المليئة بالبثور ، رجال مجهولون وبنطلوناتهم في أيديهم وكلهم رغبات وجراثيم سيلان ، سجون ورجال سكارى . جرحى أو متهمون بالقتل ، بالاغتصاب أو بالسرقة والمليونير بملايينه ورغماً عنها والصناعيّ بصناعته رغماً عنها والتاجر بتجارته ورغماً عنها ، الجميع بماض مؤلف من مسائل وأعمال بائسة لا كبر فيها ولا فرح ولا فضاء . ما العمل ؟ لانستطيع أن نعمل شيئاً ، لن يستطيعوا أن يعملوا شيئاً . ماذا يمكن أن يعمل المرء ضد زمن عقيم ؟ ومع ذلك سيأتي يوم تبدو لنا فيه هذه اللحظة ، اللحظة التي نبحر فيها في نهر الزمن واحدة من أفضل لحظات حياتنا . لحظة نظيفة ،

هادئة ، بلا رغبات ، بلا أبواب ، بلا نوافذ ولا جدران ، بلا صناديق شمع ولا أكياس بطاطا (سألت نفسي أحياناً : ماذا يمكن أن أفعل لو أنني صرت تاجراً وظهرت في مخزني عجوز شمطاء دامعة لتطلب مني أن أبيعها شمعة ؟) لحظة بلا نقود ولا أوراق نقدية لا خاصة ولا غريبة ، بلا عُمّال لعتانين . بلا مستخدمين ، بلا جراثيم سيلان ، بلا سكارى ولا شتائم .

كنت أشعر أحياناً أن شيئاً شبيهاً بالفقاعات يخرج من ذلك المجرى . ربما كانت تنطلق وتصعد عندما كنت أدوس في القاع ملامسة جلد ساقيّ وخاصرتيّ وتصل حتّى ضميري : تلك هي ذكرى حياتي الماضية ، ذكرى أخوتي وأمّي وأبي بشكل خاص ، ذكرى طفولتي . كأن لبعضها ما يشبه الطعم اللذيذ وكانت تتلاشى بسرعة ؛ وكان لبعضها الآخر طعم مرّ ، كأنه الندم ، كأنه ذكرى شيء تخليت عن ممارسته ، ومع ذلك فجميعها كانت تتلاشى في النهاية . وكنت أتابع سيري . ماذا كان باستطاعتي أن أفعل ؟ أخواي ؛ الثاني والرابع ، بقيا في بونوس أيرس ولابدّ أنهما يعتنيان بوالدي قدر المستطاع ، وأنا أودّ أن أعود ذات مرّة ، لا أعرف متى ، هذا إذا عدت ذات مرّة .

كنت ألاحظ وأنا أتقدم أن شخصاً ، أحياناً رجالاً وأحياناً نساء وأخرى أطفالاً ، كانوا يسيرون بالارتياح نفسه ، بالخفة نفسها التي

كانت لنا وكأن شيئاً لا يمسكهم أو يعوقهم عن الذهاب إلى هنا أو إلى هناك . يظهرون وكأنهم محاطون بجو ينتمي إليهم . لايستطيع الآخرون اختراقه ، لا يستطيعون هم اختراقه أيضاً . يتحركون فيه بالخفة نفسها التي كنت أتحرك بها في التيار الهادي والصافي . لا شك كانوا يملكون الوقت أو أنهم تحرروا للحظة من ضيقهم الشخصي ، لكنني رأيت أيضاً آخرين يسيرون وكأنهم أُخذوا من كل جهة ، بما في ذلك أمثالهم ، ملتصقين بهم ، بالبيوت ، بالأعمدة ، بالأبواب ، بالقمامة ، بالعربات . وكان يلاحظ عليهم أنهم مضغوطون ، جهمون ، تابعون ، غارقون وكأنهم ضاعوا في جوّ عام دبق كالغراء ، زنخ كالقطران ، حيث يبدو أنهم يتنفسون في الوقت نفسه ، الهواء نفسه . متى ستتحرر . متى سيحررونك ، متى تستطيع أن ترفع رأسك ، أن تتخلّص من هذا الجو ، أن تنظر إلى السماء إلى البحر ، إلى النور ؟ (اتركني مرتاحاً . ماهمّك أن أسير بهذا الشكل أو بذاك ؟ هل طلبت منك شيئاً ؟) .

كانت الفرضة ، باستثناء ذلك ، دائماً كما هي ، بصياديها ونوارسها ، بزوارقها وحجارتها الغليظة وقطارسها ، التي كانت تصدر أصوات مطارق بشكل مفاجىء ، والرجل الذي كان يحوك أو يصلح شباكه القرميدية بصمت وينظر إلينا شزراً ، بشكل عابر ، ليتابع عمله وكأنه يحيك نفسه ومشاعره وتفكيره وذكرياته مع الشبكة :

لن يستطيع بعد الآن أن يتخلّص من الشبكة . كان الصيادون يعرفون كريستيان والفيلسوف ، يعرفون كريستيان أكثر من ايتشبيرّيا ، فكريستيان كان شخصية في ذلك المحيط ، حقاً إنه كان شخصية بائسة ، لكنه كان كذلك في النهاية.والشخصيات غالباً ما تكون حزينة . اقترب منّا في ذلك الصباح أحد الصيادين الذين نزلوا من زورقهم للتو وحيّانا : كان رجلاً قصيراً ، ربع القامة ، صلباً ، كأنه قطعة واحدة ، بلا مفاصل ، أسمر ، داكن اللون ، شعره جاسيء وقصير ، أذناه صغيرتان ، شاربه خفيف . تكلّم بخشونة :

-- ماذا حدث ، أيها الشياطين ! صباح الخير .

توقّفنا . كان يلاحظ أن وجهه وذراعاه وساقاه قاسية ومفتولة وسميكة الجلد .

-- صباح الخير ، ياذئب -- أجابه ايتشبيرّيا -- كيف الحال ؟

-- نجدف هناك وأنتم كيف الحال عندكم ؟

-- ليس سيئاً في مجمله اننا نمرّر الوقت .

ضم الذئب ذراعيه فوق صدره ، وفرك الواحدة بالأخرى وتركهما هناك . ثم ضحك ساخراً :

-- هيه ، يقول نمرّر الوقت ، قل انّنا نموت . . كيف تتحملون هذه الحياة ؟

-- كما تتحمّلها أنت -- أجابه الفيلسوف .

كان بنطلونه مشمراً إلى مافوق ركبتيه . رسم بأصبعه الغليظة خطاً على الرمل ونظر إليّ وسأل :

-- وهذا الصغير ؟

أشار إليّ بذقنه . كان سؤاله ونظرته تفتيشيين وكانت عيناه حمراوين .

-- خرج لتوه من السجن -- أجابه ايتشبيّريّا .

رفع الذئب احدى ذراعيه عن صدره وفتل أصابع يده :

-- صديق الأشياء الغريبة ؟

وأطلق قهقهة .

-- لا ، دفع نتيجة عمله ، اتّهموه بالسطو على دكان للمجوهرات . أنت تعرف موضوع الحافلات .

-- آه ، بلى .

نظر إلي مجدداً . مربكة كانت نظرة عينيه الصغيرتين .

-- حقّاً ؟

أجبته :

ــ حقّاً .

بدا نصف مقتنع .

ــ أسألك حذراً ... لقد ضجرت من زيارات الشرطة . كريستيان وايتشبيتّريتّا معروفان ، وما من مشكلة . أما عندما يعلمون بظهور وجه جديد هنا ــ ولا أدري كيف يعلمون ــ فانهم يأتون ويحققون معي أو يرسلون في طلبي : من يكون ؟ ماذا يعمل ؟ لماذا هو موجود هناك ؟ من أين جاء ؟ إلى أين يذهب ؟

توقّف ونظر إليّ مرّة أخرى :

ــ الصبيّ شاب ــ قال وهو ينظر إلى ايتشبيتّريتّا ــ كم عمرك ؟

أجبته :

ــ سبعة عشر عاماً .

ــ تبدو أكبر من ذلك . هل علّموك ما تقوم به . أعني في السجن ؟

لم أعرف ماذا كان يعني بقوله ، فلزمت الصمت .

ألحّ :

ــ هل تتقن عملاً ؟

فأجبته :

ــ أنا دهّان وقد عملت في بالبارايسو .

قبل الجواب . لكنه عاد وسأل :

ــ هل تحب ألا تعمل أكثر ؟

ــ لا ، لكنني مريض .

ــ مريض ؟ وماذا بك ؟

ــ أصبت بالتهاب رئوي في السجن ، عندي رئة مصابة .

لازم الصمت لحظة ثم قال :

ــ صحيح ، ملاحظ أنك لست كما يجب : وجهك شاحب .

هزّ رأسه وأخرج علبة سجائره من مكان ما .

ــ انها رطبة قليلاً . انها سجائر صيّاد سمك ــ قال ــ لكن يمكن أن تُدَخّنَ ــ هل تريدون ؟

شكره ايتشبيرّيّا دون أن يقبلها لأنه قليل التدخين ، أما كريستيان وأنا فقد قبلنا كل واحد سيجارة .

ــ أيها المشؤوم ــ هتف الذئب وهو يبتسم وينظر إلى كريستيان

الذي كان ينفث الدخان من فتحتي أنفه الصغيرتين -- كم مضى على معرفتي بك ؟

أجابه كريستيان بجفاف :

-- لا أدري ، لكن عندما كنت صغيراً كنت أنت هكذا مثل الآن .

ضحك الذئب بعذوبة :

- نعم ، هذا صحيح - أكد وهو ينظر إلى كريستيان بعين ويغمز بالأخرى - لكنك شخت بسرعة لأن السجن يؤثر كثيراً على الانسان ، أمّا البحر فانه يصقله .

عاد ونظر إليّ ، بدا أنه غير مقتنع :

-- هكذا اذن ، أنت مريض : ألست هارباً من الشرطة ؟

أكدت له أنني لست مطلوباً وانما طليق ولا أحد يبحث عني والأسوأ من هذا أنه لا يوجد من هو بحاجتي .

-- الشرطة مقيتة جداً -- استأنف الذئب ملقياً بعقب سيجارته على الأرض وساحقاً اياه بقدمه الحافية -- يظنون أنني شغوف بحماية اللصوص والقراصنة . اتذهب الشرطة واللصوص والقراصنة جميعاً إلى الشيطان ! قتلوا إلترBوالينا هنا أمام عيني ، بالرصاص . كان قد جاء بقاربه المليء بالكشمير الانكليزي وأراد أن يدافع عن نفسه بمطواته .

هنا أيضاً ألقوا القبض على التشاتو : عشر سنوات بتهمة القرصنة ، مازال عنده ست سنوات . وهذا وذاك بل ورفاق لي أغرتهم الزوارق المحملة بالبضائع . ليس لي علاقة بهم . أصادفهم أحياناً ليلاً وهم يجدفون خلسة دون أن أراهم . لكن الفرضة ليست مكاناً ملائماً للتخفي عن النسور .

عاد ونظر إليّ :

- العمل هو الأفضل - قال - ، رغم قلّة المردود . هل تحب أن تكون صياداً ؟

ابتسمت دون أن أدري بماذا أجيب ، كنت أود أن أقول له نعم وأن أقبل ، لكنني ولا شك لم أكن قادراً على القيام بذلك العمل .

- نحتاج صبياً في أحد الزوارق .

سمعنا صوت كريستيان فجأة :

- اسمع ، ياذئب - قال بجفاف - أنت أكثر مقتاً من الشرطة . فالفتى قال لك أنه ليس نشّالاً وانه سجن بجريرة آخر وانه مريض لايستطيع العمل . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ لماذا تستمر بسؤاله عن هذا الشيء وذاك . هل أنت مريض أم أنك أكلت سرطاناً بحرياً فاسداً ؟

نظر الذئب إلى كريستيان مستغرباً ثمّ ضحك :

-- لاتغضب ، أيها المشؤوم -- قال -- لاتخرج السكين الآن ، فأنا لا أحب أن أخون الناس . لكنك تعلم أني أضطر لذلك أحياناً . لم أقل قط ما يضرّ أحداً وقد سجنت بسبب ذلك . كلّ يعرف ماذا يعمل ولماذا يعمل وكيف يعمل . أنا مختار الفرصة وهذا يتطلّب مني أن أكون ثقيلاً أحياناً . هل تريد عقباً آخر ؟

عاد ليقدّم لنا سجائره الرطبة .

-- شكراً .

يعتقد بعضهم أن من يكون قرصاناً أو لصاً ، يكون كل شيء ، ويملك كلّ شيء . وهذا مثل لو أنني اعتقدت أن من يكون صياداً يعني أنه كل شيء . هراء ! هناك آخرون يعتقدون أنه لا يوجد من يرى القراصنة واللصوص وان باستطاعة المرء أن يكون كذلك بكل ارتياح . كيف لا ؟ يظهر اللص أكثر من الشريف . أنا أرى القرصان في أكثر الليالي حلكة وفي البحر ومن مسافة ميلين وأستطيع أن أقول من هو وفي أيّ زورق يذهب . أعرف جميع زوارق بالباراييسو عن ظهر قلب . الرجل يجدف كما يمشي ، له تجديفه الخاص ، تماماً كما تكون له مشيته الخاصة به أيضاً . الشيء نفسه يحدث للزوارق ، فهي تملك حركاتها الخاصة بها والتي ليست لسواها : محمّلة في الميسرة ، مائلة

إلى الميمنة . معاكسة الريح أو دائرة بشكل دائري ، أي أن لها نزواتها التي أعرفها .

ـ اسمع ، ياذئب . نحن جاهزون ـ نادوه في تلك اللحظة من أحد الزوارق .

ـ. قادم ـ صرخ وقد التفت إليهم برأسه قليلاً ثم نحونا ـ- إلى اللقاء .

ذهب . كان ربع القامة . قاسياً ، أسمر يتحرّك بحرية محدودة ، حذراً ، تماماً مثل رجل زورق : لا يكاد وهو يمشي يحرّك ذراعيه ، اللتين كانتا تبدوان زعنفتي سباحة أكثر مما هما ذراعان أو أقل . توقف على بعد عدة خطوات .وصاح :

ـ- اسمعوا : سأنتظركم في ساعة الغداء ، عندي تون من النوع المطلوب .

لم نرد عليه ونظرنا إليه وهو يبتعد .

ـ انه يمشي مثل صبيّ شقي ـ علّق ابتشبيّريتّا ـ ياللذئب ! انه ملائكة عندما يكون كما هو الآن ، أما عندما يسكر فهو كالإعصار : يسترجع كل لحظة سرقها منه الزورق ، مامن شرطيّ يجرؤ على الاقتراب منه يوم يشرب وهو يشرب أسابيع بكاملها . يعمل وهو سكران :

يسقط في البحر ، يلهث مثل فقمة ويصعد إلى الزورق . يبدلون له ثيابه . يعطونه جرعة عرق ويتابع عمله دون أن يعطس . بالمصادفة ولد رجلاً : كان يجب أن يولد ذئباً .

تابع البحر قذفه للقطع المعدنية على الشاطىء دون انقطاع . كانت تكفينا ساعة واحدة كي نملأ جيوبنا . خاصة حين يكون المد عالياً حيث لم نكن نجد معادن فقط وانما كانت تظهر أيضاً سكاكين ، شوك طعام . ملاعق صغيرة ، أدوات معدنية ، وهذه ونلك الترهة وأحياناً نقود أو حلي صغيرة . لقد ساهمت المزابل القريبة في رخائنا .

عندما ذهبنا في ذلك اليوم سمعنا شخصاً ينادينا من الخلف التفتنا فكان الذئب . اقترب ، مغتاظاً ، يغمرنا بالشتائم :

ــ ألم أقل لكم ، أيها الأغبياء انتظروني على الغداء :

ــ عفواً ــ قال ايتشبيبّريتّا ــ ظنناها مزحة .

ــ لا ، لم تكن مزحة : كان توناً شبيهاً بالخروف وقد أعدته صاحبة البيت في الفرن وكان لذيذاً المرجة أن المرء يلعق شاربه معه . هيّا بنا إلى هناك .

عدنا . كان الذئب يعيش في الفرضة نفسها ، في بيت بائس يرتفع فوق الصخور . بحماية سان بدرو راعي الصيادين . ذهبنا إلى هناك

وجلسنا إلى طاولة موضوعة تحت سقف من صفائح زنك تآكلها المد والجزر . كانت غرف النوم — غرفتان — داخل هيكل البيت وكانت غرفة الطعام والمطبخ في الخارج أما الأرض فترابية . كان باستطاعتنا أن نرى من حيث جلسنا ، الأسرة وبعض الكراسي ومبولة كبيرة وكوميدينة .

راح ثلاثة أطفال يحومون حولنا وجميعهم قساة وسود لهم نظرات ثابتة وحركات واثقة .

-- انها العائلة -- قال الذئب مشيراً اليهم — الكبير رافقني ويعرف كيف يركّب شبكة . تعال . يادون روا ، سلّم على الأصدقاء . اسمه روثيينلو — وضّح — لكننا نناديه روا : فهو أسهل .

كان دون روا ، الذي يقارب الثانية عشرة من عمره ، قصيراً ، ربع القامة ، مثل والده . رأسه مثل قنفذة . داكن العينين أسنان فمه كبيرة جداً ومتباعدة ، يذكّر بفم سمكة قرش . كان حافياً يغطي ساقيه بنطلون ضيّق وبقية جسمه كنزةٌ حائلةُ اللون تماماً ، تكاد تصل إلى ركبتيه . عليه ملامح الأهمية ، التي تظهر على مبتدىء راح يتمكن من مهنته . لم يقدّم لنا الصغيرين الآخرين ، ولم يعبأا من جهتهما باصدقاء والدهما . صنع الكبير عربة من قضيبين صغيرين وبكرتي خيوط مقطوعتين من وسطهما تذهب من هنا إلى هناك يتبعها الأخ

الأصغر الذي كان يفتح عينيه على مداهما ، أمام المعجزة التي صنعها أخوه . كانوا أيضاً مثل جراء ذئب .

أحضرت السيدة ، وهي امرأة بدينة وشابة تحمل ضفائر كبيرة ولها وركان كبيران وثديان ضخمان ووجه قاس ، قصعة حديدية مطلية وتحتوي على سمكة تون يطفو فوقها زيت ذهبي . محاطة بقطع البصل والجزر وبعض حبات الفلفل وهذه السنة من الثوم المحمّر وتلك ترافق الترف . على الطاولة ملح وفلفل حار وخبز وقنينة مملوءة بالنبيذ الأحمر .

ـ تفضّلوا يا أصدقائي ـ جأر الذئب ـ كلوا دون أن تأخذكم الشفقة على أحد ، إذ نادراً ما يتوفّر هذا لأشخاص يكرسون أنفسهم لالتقاط القمامة من الشاطىء .

ضحك ضحكة غليظة وصبّ لنا نبيذاً . تراجعت الزوجة إلى المطبخ وكأنها لا تريد أن تشاهد ماكان سيحدث . بينما رحنا نحن نقلّد الذئب وننحني فوق القصعة والصحون . لم يكن ذاك غداء : كان سباقاً مع الزمن ، مع التون ، مع الفلفل الحار والخبز والنبيذ . أكلنا بصمت وكأننا نخاف أن يذهب نصف السمكة وشرائح البصل والجزر وحبات الفلفل وأسنان الثوم المحمّرة بالحديث . على كل الأحوال

كان الذئب قدوتنا في ذلك : فهو لم ينبس بكلمة واحدة ، فقط كان يلتهم ويطلق بعد كل لقمتين أو ثلاث بعض التجشؤات التي كانت تهزّ النبيذ في القنينة ، والذي كان ينخفض مستواه فيها بشكل يبعث على القلق . كان ينظر شزراً بعينيه الصغيرتين الملونتين ويأكل لاهثاً ، يبتلع توناً ، خبزاً ، قطع فلفل حار وأكواباً من النبيذ ويمتص كل حسكة تقع بين يديه .

شعرت أن وجهي يلتهب وكذلك أذنيّ وكأنّ الدم زاد من حرارته فجأة . كريستيان كان صامتاً كعادته ، أما ايتشبيسّريسّا المتحدث عادة فقد بدا وكأنه بلع لسانه . كان يجلس أمامي وينظر إليّ غامزاً بذكاء ، كأنه يريد أن يقول لي : يا أنيثيتو ، ليس لدينا دقيقة واحدة نضيعها ، أمامنا وقت طويل للتحدث ، لكن التون لن يدوم إلا قليلاً . ثمّ متى نستطيع نحن جامعو القاذورات في فرضة الميمبريسّو أن نحصل على قطعة أخرى ؟ لا تُضع الوقت ، يا أنيثيتو : انه في هذه الحال من تون وليس من ذهب ، وما عدا ذلك ، اذا تصرّفنا بوجل فالذئب سيأتي عليها جميعاً .

عندما انتهينا ، عندما انتهى الخبز والفلفل الحار والنبيذ بل وحتّى الملح تقريباً ، لم يكن قد تبقّى من تلك القطعة الجميلة من السمك إلا سلسلة من الحسك مضحكة ، غير صالحة للأكل . قال ايتشبيسّريسّا تاركاً الشوكة على الطاولة مرتمياً إلى الخلف :

– ربحنا منك التون .

ضحك الذئب من أعماقه ونهض ، ربت على بطنه ، أطلق جشأة أخيرة وقال :

– الآن وقد أكلتم ، هيا اذهبوا ، فأنا سأنام . إلى اللقاء .

ذهب إلى احدى غرف النوم . نهضنا . قلنا بعض كلمات الشكر لصاحبة البيت، التي لم تقل أن هذا الفم فمي وانما اكتفت بتحريك رأسها وكأنها توافق على شيء اقترح عليها ومضينا . كدنا لانستطيع السير ، وصلنا إلى مدخل الفرضة فقط ، حيث جلسنا على الجدار الحجريّ صامتين منتفخين . من بعيد وبفعل جمودنا ومظهر الرضى البادي علينا كان يمكن أن يخلط بيننا وبين صفّ من القطاريس ابتلعت لتوّها حشداً من سمك الأسقمري . بعد برهة طويلة تكلّم ايتشبيرّيا بارتياح :

– لاشيء يماثل الصداقة ، كما أنه لاشيء يماثل التون ، رغم أن ديمومته قصيرة جداً ، لكن من قال ان ما يدوم أكثر تكون قيمته أكبر ؟ آه ، لو أننا نجد كل يوم صديقاً مثل هذا وقطعة تون مثل تلك ، كم كانت ستصبح الحياة لطيفة !

ابتسم بطيبة وتابع :

-- ياله من تون ! انه سمك كريم وسخي ، كل شيء يتحوّل عنده إلى لحم ولا يضنّ بشيء . انه ليس مثل سمك النازلي ، الذي هو حسك خالص ولا مثل سمك الطريغلا ، سمك الشياطين البؤساء ، ليس هناك من سمك يمكن أن يقارن به قليلاً إلا الصلور الملون انه يوازي الكوريين السخي بدوره .

هذى لحظة وأصغينا إليه دون تعليق إلى أن سكت أخيراً وقد أنهكته عملية الهضم فغفا .

بدأت منذ ذلك اليوم أقترب من الزوارق ، لا لأنني كنت أنتظر غداء آخر -- فالغداءات الطيبة نادرة مثل الأصدقاء الطيبين ، هكذا كان يقول ايتشبيتّريتّا وانما لأن دعوة الذئب ، مختار الفرضة ، إليّ مرّة شجعتني على ذلك . الذئب من جهته لم يعد يكرر عليّ أسئلته أو يقدّم لي شيئاً ، لا عملاً في الزوارق ولا توناً في الفرن . كان ينظر إليّ ويحييني ويخصني بهذه الإبتسامة أو بتلك . كان مطمئناً : عرف أن الصبيّ ، كما كان يقول ، لا يجلب له الازعاجات .

كانت الزوارق تصل عادة في الساعة نفسها وينتظر الواحد منها الآخر فلا تندفع إلى الشاطىء إلا مجتمعة ، وكان الرجال يساعد بعضهم

بعضاً في حمل زوارقهم إلى الرمل لأن الشاطىء صعب عنيف ويتطلب من المجدفين أن يقدّروا بدقة كبيرة اللحظة التي يستطيعون فيها أن يتقدّموا ، فيقف رجل في المقدمة ويجلس آخر إلى المجدافين الأخيرين ، لأن الموجة الكبيرة التي لاترحم ولا تنتظر أبداً ، كانت تدفع الزورق بعنف،الشيء الذي يتطلّب من عامل المقدمة أن يقفز إلى الرمل دون أن يبالي بأنه سيبتل كثيراً أو قليلاً ،ويسحب الزورق بقوة وسرعة وإلا فان التيار السفليّ سيعيده من جديد إلى الداخل .

في أوقات المد العالي كنّا نساعدهم أحياناً ، ننتزع أحذيتنا ونشمّر عن سيقاننا ونضع تحت محور الزورق السفلي لفافات من الطحلب أو قطعاً من ألواح خشبية تسمح للزوارق بالإنزلاق بنعومة . وكنا نرى أسماك الاسقمري والطريغلا والنازلي والصلور والكوريين تقفز في قعر المراكب والحبار يمد مجسّاته هنا وهناك . كان الصيادون يمسكونها واحدة واحدة ويضربون تلك التي تقفز كثيراً على رأسها ضربة عصا تتركها بلا حراك ، ثمّ يربطونها بالقنب أزواجاً ويعلقونها في المقدمة إلى مجداف يكون طرفه إلى داخل الزورق . كانت تظهر بعض المدى القصيرة والحادة والدقيقة الرأس تدخل بعنف في فتحة الشرج باتجاه الخياشيم وتخرج من الجرح كتلة من الأحشاء تسقط في أيدي الصيادين

التي كانت تتسخ بالدم والدهن . كانت بعض الأسماك التي ما تزال حية تنكمش حين تشعر بالتمزق وتفتح خياشيمها إلى النهاية كأنها ستنفجر صارخة فتكشف عن غددها الحمراء وأسنانها .

كان الصيادون ، بشكل عام ، رجالاً عبوسين ، صموتين ، ذوي طابع غريب ، يرتدون بقايا ثياب : كنزات لايحصى عددها وصدريات ، صدريات كثيرة وجميعها كبيرة وغريبة على أجسامهم ولفاعات ممزّقة . كانوا يقضون الليل كاملاً في البحر ، ينامون للحظات قصيرة ، دون أن يتكلّموا وسط الظلام أو يتكلّمون بما لا غنى لهم عنه . في مقدّمة ومؤخرة الزورق كانت تتكدّس قطع جلد كثيفة الشعر ومزق قماش ، بطانيات أو ألحفة عتيقة ، أكياس وسيور من الخيش ، جاكيتات ممزّقة وأعداد وفيرة من الصدريات والكنزات الكثيرة التي كانت تبدو ملكاً للجميع دون تمييز . هنا قدر دائريّ له شكل اسطوانة : يستخدم لتسخين الماء والطعام ، انظر ؛ بداخله ابريق شاي ، صحن معدني ، ابريق ، ابريقان معدنيان مطليان ، كلاهما مستهلكان تماماً ، شوكة ، ملاعق صغيرة ، علبة من صفيح فيها بعض القهوة وقليل من السكر المخلوط بها : بهذا فأنت توفر الوقت ، تضع القهوة والسكر معاً ، هناك أيضاً قنينة فارغة ، قد يكون فيها ماء ، هه ، لابدّ أنها فارغة في مثل هذه الساعة ، لكنها لابدّ كانت تحتوي

على شيء منعش مساء البارحة وقت الابحار : نبيذ أو عرق ، الصيد أحياناً ممتاز وأحياناً عاديّ وأخرى سيّء . البحر ليس دائماً سخياً ، ويقبض في بعض المرات حصته . دائماً يوجد من يتقاضى جزية .

ساعة وصول الزوارق كان يظهر بعض الناس وكأنهم ينبتون من الرمل . إن الذي ينظر إلى المراكب وهي تترنّح بخطر في أعلى قمم الأمواج مثل القطارس ، ينسى النظر إلى الوراء أو إلى الجوانب فينبثق الرجال فجأة وكأنهم ينبعثون من الهواء : ربما كانوا يأتون من التل ، الذي يبعد خمسين متراً تقريباً عن الشاطىء . كانوا بشكل عام رجالاً مسنين، يساعدون في ربط المراكب وشقّ بطون الأسماك وحمل الحبال والشباك وكلاّبات الحبّار والمجدافات إلى البيوت البائسة . من المؤكد انهم صيادون متقاعدون أو مقعدون ، مصابون بالروماتيزم . كان يأتي أيضاً أطفال هم أبناء صيادين او غرباء عنهم ، يتحدثون ويتناقشون حول الصيد واسماء الأسماك : الشيق ، القاروس ، السنمور ؛ وإلى جانب الأطفال والشيوخ الذين كانوا يأخذون ما يعطونه لهم لقاء مساعدتهم ، من سمكة مفقوءة العين إلى بيجرّي هرسته أقدام الصيادين ؛ كان يأتي المشترون ، رجال يحملون سلالاً كبيرة وآخرون معهم حميرهم وبغالهم ، يعلقون السلال إلى حيواناتهم على كلا الجانبين وفيها الصلور الأحمر أو الأسود الكبير والكوريين الذي يبيعونه في

التلال والبيوت القريبة ، ونساء من القرية مسنات بشكل عام لايشترين إلا الأسماك الرخيصة : الطريغلا ، الاسقمري ، المنشار ، أو النازلي ، ويجادلن بالسعر وبالحجم .

ـ وتسمي هذه نازلي : انها ليست أكبر من سردينة . يجب أن يستخدم الانسان المنظار كي يراها . أعطني سمكة أكبر . لاتكن شقياً ، فيعاقبك الله .

لكن الصيادين ، الذين أضناهم النعاس والجوع ، كانت كلماتهم قليلة ، إلى جانب انهم لا يقولون أكثر من عبارتين حول الموضوع والثالثة يحتفظون بها لأنفسهم فلا يجدي الاصرار . في النهاية كان ضرورياً أن ينهوا الأمر .

ـ لاتساومي ، ياسيدة ؛ لسنا بلهاء .

كانت السوق لاتدوم إلا قليلاً ، نصف ساعة أو أكثر قليلاً ، فالمراكب كانت قليلة وحين يرحل البغالون والعجائز والأطفال والمشترون بالجملة والفضوليون ، تعود الفرضة إلى وحشتها وصمتها من جديد ، فلا يسمع إلا زعيق النوارس التي تتنازع بقايا الأسماك ، وارتطام الأمواج الخرساء على الشاطىء . رجل ، هو الفيلسوف ،

كان يجول هنا وعلى مقربة منه كريستيان وأنا هناك ، ورجل الشبكة مايزال ينسج كلماته التي لم تُقل وأفكاره التي لم يعبّر عنها ومشاعره غير المعروفة وكان ينسج الشبكة والبحر والسماء مجتمعة ، ورجل آخر ، مجهول – دائماً كان يظهر رجل مجهول – ينظر من الشارع إلى الشاطىء ، يداه في جيبيه الممزّقين ، شعره طويل ، لحيته نامية ، حذاؤه ممزّق . كأنه يسأل نفسه ، خائفاً ، ماذا سأفعل ؟ وكأنه أوّل من سأل نفسه هذا السؤال .

عش ، يا أخي . فماذا ستفعل غير ذلك .



القسم الرابع



- ١ -

لم أتوصل في تلك الأيام إلى معرفة مافي داخل كريستيان وربما لن أتوصل إلى معرفته أبداً . كنت أشعر وأنا أعيش بجانبه وحوله أنه محاط بجو غير نافذ بالنسبة للنظرة البسيطة والمقربة البسيطة . لم يكن يشع شيئاً يمكن أن يفهم بطريقة ذكية كما لم أعرف اذا كان يلامسه ماكان يشع عن الآخرين : الفيلسوف وغيره . عرفت عن ايتشبيريا في لحظة واحدة أكثر مما أستطيع أن أعرفه عن كريستيان نفسه خلال سنوات كثيرة . ايتشبيريا هو الرجل الوحيد الذي استطاع أن يقترب منه ، فقط أن يقترب منه .

ـ قاوم ، لكن مقاومته لم تضعفني ، فأنا لم أتوخ أن أنفذ اليه ، كنت أريد منه أن يراني ويسمعني أتكلم ، حتى ولولم يفهمني ، أردت أن أوقظ فيه الكلمة وأن يرى أي لون وأي طعم يمكن أن يكون في شفتيه . أنت تعرف أن له لون وطعم شيء صدىء . حاولت أن أعطيه دائماً ، بمعنى من المعاني ، بمعنى العلاقات العقلية والانسانية ، أكثر مما قد يستطيع أن يتلقى ، أحب أن أستنبط شيئاً من الآخرين ، رغم أن هذا الشيء لايستحق أن يملك عينين ولا أذنين . وأنا لاأفعل هذا بغطرسة أو فضول ، وإنما بشكل طبيعي : أحب أن أسبر الانسان . نجحت أخيراً في جعله يتكلم ويقول لي بلغته الأحادية المقاطع ـ وهذا

لايهجره إلا عندما يغضب ــ انه شيء من ذاته ، وليس مما يفكر ، فأنا أعتقد انه لم يتعلم التفكير حتى الآن . لست واثقاً أنه سمع وفهم كل ماقلته له منذ أن بدأت أتعامل معه ، وهذا لايهمني . عرفته رجلاً مشكلاً ومتعدناً إلى حـــد يصعب تقديره . لاأستطيع أن أعرفه لك بطريقة عملية ، فأنا لست عالم نفس ، رغم حاجتي الماسة اليه . حين دلني دون بيبه على « المنجم البحري » وذهبت للتعرف على المكان وجدته هناك ، كان مثلك ملقياً ، بل وأكثر من ذلك مقذوفاً ، قذفه التيار السفلي، لكنه كان يذهب من البر إلى البحر بعكس المعدن الذي يأتي من البحر إلى البر . انه نوع آخر من التيارات السفلية ، يخيف أكثر من الآخر . كان هناك، مثلك مع اختلاف أن مايحدث لك يمكن أن يكون عرضياً وآنياً بينما مايحدث له يبدو قطعياً ، لايتقن عملاً ، لايستطيع أن يسرق ، كما انه لايريد أن يغادر مدينته واذا أعطيته فرشاة، مطرقة أو مفتاحاً انكليزياً فانه لايدري ماذا يفعل بها ، فهو لايستطيع استخدامها، لأن عضلاته ثقيلة . رآني أدخل وأخرج خلال عدد من الأيام ، ألتقط معادن وأرحل ، وكنت في ذهابي وايابي أنظر إليه أتخيل ماكان يحدث له وكان يرد على نظراتي بتقاسيم جهمة وايماءات قاسية ، حتى انني ورغم قدرتي العقلية ــ الشيء الوحيد الذي أملكه إلى جانب قدرتي الكلامية طبعاً ــ لم أجرؤ على الاقتراب منه فاغتظت

من ذلك واقتربت منه أخيراً مستعداً لتلقي رفسة أو أي شيء آخر . لم أقدم له شيئاً ولم أسأله وانما قلت له فقط ان البحر يقذف معادن إلى الشاطيء ، وأن التقاطها سهل وهناك من يشتريها . لاتظن أنه هبط مسرعاً، هبط خطوة خطوة وبقي النهار كاملاً حتى قرر أن يلتقط قطعة واحدة ؛ لاأكذب عليك اذا قلت لك ان من الممكن أن عموده الفقري قد أحدث صوتاً وكأنه انكسر عندما انحنى . لقد صلبته الحياة إلى درجة أنها حولته إلى كائن غير حيواني ولانباتي ، ومن المؤسف أيضاً انه غير معدني : عليه أن يأكل ، يتنفس ويقوم بأشياء أخرى كثيرة ، جميعها محدودة ، لكنها ضرورية . هذا هو كريستيان . لاتظن أنه الوحيد ، لا ، هناك كثيرون مثله ، وجميعهم بحاجة للعيش ، أو بالأحرى يعيشون ويجب تقبلهم كما هم . نستطيع أن نزدريهم ، أن نعيش مفصولين عنهم ، لكننا لانستطيع أن نتجاهلهم ، يمكن أن نقتلهم ، لكن آخرين سيحلون محلهم ، انهم يولدون يومياً بالآلاف ، الشر لايكمن ، أحياناً، فيهم : بعضهم يولد هكذا وبعضهم الآخر يصبحون كذلك . شيء واحد ينقذهم وأحياناً لاشيء ينقذهم . لاتظن أنهم موجودون في وسطنا فقط : انهم يولدون في كل مكان ، ويصبح بعضهم شخصية هامة . هل ولد كريستيان كذلك أم أنه أصبح كذلك ؟ صعب أن نعرف ، ذلك ، لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يقوله وهو قد لايستطيع . أنت حالفك الحظ .

الحظ . . . قصصت على الفيلسوف ذلك الجزء من حياتي : عشت زمناً مع عائلتي في روساليو ، في بيت استأجره والدي من سيدة تحمل كنية أيطالية . كانت عجوزاً وأرملة ، ليس لها أولاد ولا أقارب ، سندها الوحيد هو ذلك البيت ، الذي كانت تؤجره وتحتفظ فيه بغرفة خشبية لنفسها ، مفصولة عن بقية البناء ، بناها زوجها المقاول ليستخدمها مقصورة للخدم ومستودعاً للمعدات . أمرت السيدة ، عندما مات زوجها باصلاحها . أضافت اليها مطبخاً وقناً كانت تربي فيه نصف دزينة من الدجاج وبعض البط ، سكنتها تقضي فيها آخر أيامها . كان البناء قائماً في عمق الحقل ، محاطة بالأشجار وبحديقة صغيرة اشتغلتها السيدة بيديها : فيها ابرة الراعي ، السذاب ، عطر الليل ، سيدة المساء ، دوارا شمس أو ثلاثة عبقة الرائحة وياسمين كابو ، وجميعها محاطة بسياج خشبي مدهون باللون الأبيض . لم يرتح والدي ، في البداية إلى فكرة أن يعيش معنا في البيت نفسه شخص غريب ، لكن الذي حدث هو أن السيدة كانت حكيمة فانتهى والدي إلى التسامح بوجودها . كنا نذهب ، أحياناً ، أنا وأخوتي ، لنلقي نظرة على السيدة وحديقتها وأشجارها ، التي تشرأب بينها بعض أشجار الدراقن ، التي كانت تنضج مبكراً . وكانت السيدة تقدم لنا بعض ثمارها وتتحدث الينا دون أن يخطر لها أن تسألنا شيئاً حولنا . لم تكن تملك خدماً ونادراً ما كان يذهب أحد لزيارتها . كانت تخرج أحياناً متزينة تماماً وتزور صديقاتها

القديمات أو جاراتها ، وتكلفنا برعاية الدار ، لم تجرؤ قط على زيارتنا ، كما أن والدتي ، الحكيمة أيضاً ، لم تدعها . كانت تمر تحيي وتنحبس في حديقتها ، بين الأشجار ، وتطهو طعامها بنفسها وبنفسها كانت تغسل ثيابها ، كانت ذات صحة جيدة وعليها سيماء الفرح . ذهبت ذات نهار صيفي ، نضج فيه الدراقن ، لألقي نظرة : كانت السيدة هناك في الحديقة ، وهي تحاول أن تقرأ صحيفة يومية . رأتني فدعتني للدخول. سألتني :

ـ هل تعرف القراءة ؟

أجبتها :

ـ نعم .

اعترفت لي قائلة :

ـ أنا أقرأ بصعوبة . انها تكلفني كثيراً . أتعب ويؤلمني رأسي . جميل أن يكون الانسان شاباً .

حنت رأسها وعدلت من وضع الصحيفة المتروكة فوق تنورتها ، تلقي عليها نظرة من فوق نظارتها .

تابعت :

ـ تصدر هذه الصحيفة رواية مسلسلة رائعة وهي رواية أسبانية .

كنت أصغي اليها وأنظر إلى غصن محمل بالدراق الذي حمره النضج .

سألتني :

— هل تريد أن تقطف بعضاً منها ؟ اقطف ، يوجد كثير منها . . .

قطفت اثنتين أو ثلاث وبينما كنت أتذوقها خطر لي أن أتبرع لها بقراءة القصة المسلسلة : كان نوعاً من رد الجميل للدراقن وضماناً في الوقت نفسه للحصول على أخرى في المستقبل ، فالصيف طويل والفاكهة ترتفع أسعارها يوماً بعد يوم .

— هل تريدين أن أقرأ عليك القصة ؟

لم أكن قد قرأت قط قصة كما لم أكن أعرف ماهيتها .

— ألاتزعجك القراءة ؟

— كلا — أجبتها وأنا أنظف يديّ بالمنديل — انها لاتزعجني أبداً.

— خذ ، اذن — قالت وهي تناولني الصحيفة .

اخذتها وقرأت دفعة واحدة كل ماكان فيها . بينما كنت أقرأ كانت السيدة تطلق صيحات وتعليقات لم أصغ إليها . انتهيت من القراءة وأعدت لها الصحيفة .

— شكراً — قالت — تقرأ جيداً ، لكن بسرعة ، يبدو أن ماتقرأه لايهمك .

تكرر في اليوم التالي ماحدث في الذي سبقه : أكلت الدراقن وقرأت لها القصة. وهكذا حدث أياماً متتالية واستمر وقتاً طويلاً بعد انتهاء الثمار . سيطر عليّ الفضول فلم أكتف بمعرفة ماحدث في الأجزاء التي قرأتها فأردت أن أعرف ماحدث في التي قبلها . سهلت لي السيدة الحصول على الاجزاء السابقة . كانت تقصها وتحتفظ بها . ولم يكن عندها تلك القصة فقط بل كان عندها كثير غيرها . وهكذا تعرفت في زمن قصير على عالم كنت أجهله حتى ذلك الوقت . ظهر بين الروايات المتسلسلة روايات من جميع الجنسيات : الاسبانية . الفرنسية . الايطالية . الانكليزية . الالمانية . البولونية . الروسية والسويدية . مدن وأنهار وبحيرات ، محيطات وبلاد ، عادات وعواطف وأزمنة ، أصبحت جميعها مألوفة عندي . في يوم كان والدي يتحدث عن مدريد ، قاطعته وقلت له شيئاً عن تلك المدينة ، ولاأعرف ماهو الآن .

— وكيف عرفت ذلك : — سألني مبتسماً .

— أعرف أشياء كثيرة عن مدريد — أجبته — وعن فاليشيا وطنك أيضاً .

— ولكن أين تعلمت ذلك ؟ — ألح — في المدرسة لايعلمون هذه الأشياء .

ـ قرأت بعض الروايات الأسبانية ـ أجبته .

ـ أين ؟

ـ أعارتني إياها صاحبة البيت . قرأت لها القصة التي نشرتها « لاكابيتال » . فأعارتني روايات أخرى .

ـ لذلك كانت علاماتك في المدرسة سيئة جداً . ـ تنهدت الأم .

لم يقل والدي شيئاً . تابعت القراءة ، قرأت كل الانواع ، الصحف والمجلات ، التقويمات والكتب ، فأصيب أخوتي بالعدوى مني وبدؤوا يقرؤون ، لكن ليس بالمواظبة نفسها . تدنت علاماتي المدرسية إلى درجة دنيا أخافت والديّ ، اللذين لم يمنعاني ، رغم ذلك ، عن القراءة : لم يكونا يعرفان اذا كانت القراءة بهذا الشكل من المبالغة مضرة أو مفيدة . خافا فقط على دراستي ، تلك الدراسة التي لن أنهيها أبداً ونصحاني أن أتحلى بالحكمة .

لكنني لم أقص أبداً لايتشبيريا نهاية علاقتي بتلك السيدة : ظهرت ذات يوم صورة والدي مع صور أخرى في الصحيفة التي اعتادت أن تقرأها ، كان هو بكل تأكيد ووصفته الصحيفة بأنه لص خطير وذكرت أسمه ولقبه وجميع سوابقه البوليسية . ولم يكن بالامكان عمل شيء : فالسيدة كانت تقرأ الصحيفة بانتباه وقد رأته بكل تأكيد .

الحقيقة انها لم تقل كلمة واحدة ، لكن والدي الذي كان يستحي من أفعاله قرر أن يترك البيت ، فذهب إلى السيدة كي يحيطها علماً بذلك . سألته :

— تريد أن تترك البيت ؟

— نعم ، ياسيدة — أجابها .

نظرت إليه بامعان وسألت :

— هل ماجاء في الصحيفة هو السبب ؟

لم يرد والدي عليها فقالت السيدة :

— اذا كان ماجاء في الصحيفة هو السبب ، ياسيد أنيثيتو ، فلاتذهب. أنا لايهمني ماتقوله الصحيفة وليس لي أي اعتراض عليك . . كل انسان يكسب عيشه بالطريقة التي يسهلها الله له . أنت رجل نزيه . ابق .

لكن والدي ، الذي لم تكن تلك الدعاية الصحفية لصالحه أبداً ، لم يكن يريد أن يغير مسكنه فقط ، بل أراد أيضاً أن يغير المدينة وأصر على ذلك . عندما ذهبت لوداع تلك السيدة عانقتني وذرفت بعض الدموع ، كما أهدتني للذكرى ثلاث روايات متسلسلة . حين اضطررت أن أغادر بيتي لأجوب العالم ، كانت الروايات ماتزال هناك .

— كنت محظوظاً وكذلك أنا : كان والدي فوضوياً ، ويقرأ كتباً ، وأي كتب ! لم يكن يفهم منها شيئاً تقريباً ، كتبا ، من مكتبة « سمبرة » . كان يتحدث عنها باستمرار ، يصطاد شيئاً منها ، فكرة ، فكرة صغيرة يجترها أسابيع بكاملها ولم يكن يتحدث بها لزوجته وأولاده الذين لم يكونوا يفهمون منها حرفاً واحداً،فحسب،وانما أيضاً لاصدقائه ورفاقه ، الذين لم يكونوا بامورهم فطنين . كانت عنده ملكة خطابية ، وكان يستخدم بعض الكلمات القليلة طبعاً . كان نجاراً ولم يملك الوقت كي يثقف نفسه ، لكنه كان يتدبر أمره بتلك الكلمات القليلة في إلقاء خطبه القصيرة. رافقته في اجتماعاته وأصغيت اليه كما لم يصغ اليه أحد ، رغم انني لم أفهم منه شيئاً يذكر . مع الزمن صرت أقرأ تلك الكتب، التي كانت جميعها كتب علوم اضافة إلى كتب أخرى وجدتها هنا وهناك : هويت القراءة وتشجعت على أن أفكر وحيداً . حققت مالم يستطع والدي تحقيقه : ان المنشار اللعين ، الذي يستخدم ثماني ساعات في النهار الواحد والمطرقة التي تستخدم ساعات مماثلة ليست أدوات تسمح للانسان أن يكرس نفسه للتفكير بأشياء مجردة : فهي تسحق يدك أو تقطع أصبعك . . .

« لكن كريستيان ، كريستيان ، ماذا ؟ لايعرف القراءة ولاالكتابة. كان والده يبيع زيت القطران وشموع الدهن وكان سكيراً وعنيفاً .

أنجب ثلاثة أولاد وترمل دون أن يتزوج ثانية ، لأن النساء اللواتي يملكن استعداداً للزواج من بائع جوال لمثل تلك البضاعة قليلات . ترعرع الأطفال كيفما استطاعوا . مات اثنان منهما جوعاً . كما أعتقد. وتحول كريستيان إلى لص : انها طريقة سيئة لانقاذ النفس ، هذا صحيح ، لكن لايستطيع الجميع أن يختاروا الأفضل . لقد اختاروا الأسوأ : انه لايملك القدرة العضلية ولا العقلية ، إلى جانب ضعف البصر . لسوء الحظ ، فما أن يخيم الليل حتى تتحول الارض بالنسبة له . إلى ارتعاشات ؛ تختلط العتمة عنده بالظل وتتحول مصادفات المحيط كل واحدة منها إلى مشكلة . لابد انك تدرك أن انساناً يعاني من هذا النوع من المشاكل لايمكن أن يكون لصاً . كما لايمكن أن يصطحب اللص الليلي معه دليلاً . حين كانوا لايباغتونه كانت الأمور تسير بشكل مقبول لكنهم دائماً كانوا يباغتونه تقريباً : كان يتعثر بالأثاث ، أو تسقط منه معداته على الأرض . عندئذ كان يهرب ويسقط على بعد عشرة أمتار متعثراً : انه يخلط بين الحفرة وبقعة الظل ، بل وبين بقعة الضوء وحجارة الرصيف المرتفعة ويسقط هناك وينهال عليه صاحب البيت وأبناؤه بل وزوجته وخادمه أيضاً صفعاً رهيباً . اذ لاأحد يتلقى من الضرب مايتلقاه لص يباغت في بيت لأن الاحساس بالملكية أقوى من الاحساس بالرحمة . وهذا ماحدث له مرات لاتحصى .

قضى سنوات في السجن وكان يصل إلى الفرع متخناً بالأورام والرضوض وبالجراح أيضاً . عرفته شرطة بالبارايسو جميعها ، ليست شرطة قسم التحقيقات وحدها كانت تعرفه وانما أيضاً عسس أكثر المناطق بعداً . كانوا يوقفونه حيث يجدونه حتى ولوكان لايقوم بأي عمل غير التنفس . أيضاً كان يتشاجر مع الشرطة لأنه عنيف وبما أن الاحساس بالسلطة عند الشرطة كان هائل النمو ويوازي تقريباً الإحساس بالملكية ، فـانه لم يكن يصـل إلى الفروع متخناً بالاورام والرضوض والجروح فحسب وإنما أيضاً كان يخرج بمثلها. أصبحت حياته مستحيلة . كان يتوه في سفوح وقمم التلال فلا يجبره على النزول إلى الأحياء الا الجوع ، ليبحث عن شيء يأكله فيلقون عليه القبض هناك ويرسلونه إلى المخافر . أشفق عليه أخيراً رقيب من عسس بلايا أنتشا ، عرف والده فلم يلق عليه القبض أبداً : كان يتظاهر انه لايراه . رآه في تلك المرة : يبدو أن صورة وتقاسيم كريستيان كانت مرعبة مما جعل الرقيب يقترب منه مذهولاً . وكان أكبر من كريستيان بكثير وطيب القلب ، استطاع كريستيان أن يقص له ماكان يحدث معه . تكلم الرقيب مع المسؤول الأعلى منه مرتبة والأعلى مع الأعلى ولا أعلم اذا تكلم هذا مع الأعلى واتفقوا على ألا يقبضوا عليه إلا بسبب وحددوا له مكان إقامته . يبدو أن كريستيان وعدهم ألا يسرق مرة أخرى وألا يغادر الحي .

« بعد ذلك بقليل تعرفت اليه ولا أعلم كم سأبقى معه، لكنني تعهدت ألا أتركه وأكثر من ذلك أنوي ضمنياً أن أعلمه العمل . سأذهب معه عندما أشعر بهمة كافية للعمل . فالعمل يبدأ والطقس الحسن سيأتي والهواء الجنوبي بدأ يهب قوياً . تستطيع أن تأتي معنا فنشكل ثلاثياً قاهراً . ولن يقترب منا حتى الذباب والفرشاة في أيدينا ».

— ٢ —

من يدري اذا كنا لانعيش دائماً إلا حول الأشخاص ، وحتى اولئك الذين يعيشون معنا سنوات وسنوات. ونعتقد ، بسبب المعاشرة النهارية والليلية المتكررة أيضاً ، أننا سنتوصل إلى معرفتهم بشكل حميمي ، نعرف عن بعضهم أشياء كثيرة وعن آخرين أشياء أقل ، ولكن مهما كانت درجة المعرفة التي نحصل عليها فاننا سنلاحظ أنهم يحتفظون دائماً بشيء لانستطيع أن ننفذ اليه وربما يستحيل عليهم تسليمه : وهي أشياء بذاتها ولذاتها ، ويمكن أن تكون قليلة أو يمكن أن تكون كثيرة : تلك النواة الخفية ، غير القابلة للتقسيم وتنكمش اذا لمست وتقتل اذا جرحت . لم أكن أملك أي أمل بالاقتراب من كريستيان ، فقد كنت مثله وحيداً ولاأملك جرأة الفيلسوف العقلية ، ومع ذلك فان ماعرفته عنه جعلني أشعر بقليل من العطف تجاهه .

أما ايتشيريا فلم يشكل بالنسبة لي ولابالنسبة لأي شخص آخر ، كما يبدو ، أية مشكلة ، رغم انه من المحتمل أن يكون كذلك بالنسبة لنفسه . بالطبع كان منفتحاً ، اجتماعياً ، ودوداً إضافة إلى أنه رجل يعمل بكل مايستطيع كي يعطي ، بمعنى العلاقات العقلية الانسانية ، أكثر مما يمكن أن يتلقى ، كما كان يقول لي . ان سلوكه مع كريستيان ومعي ، ذلك السلوك الذي لاحظت انه يسلكه مع جميع الناس الذين كان يعرفهم ، يدل على ذلك . كان الجميع يتقربون منه كصديق ولم يكن يكتم أحداً حقيقة . لم يكن يخفي شيئاً ؛ فلاشيء عنده يخسره ، لابضاعة ، لامالاً ، لامنصباً ولا مصالح . ومع ذلك لابد كان عنده نواته الخفية ، اذ ليس هناك من يخلو منها ، لكنها ليست نواة كبيرة وقاسية مثل نواة كريستيان ولا صغيرة وخفية كنواتي . كيف استطاع أن يكون جبلته بهذا الشكل ؟ لم يكن الشخص الأول الذي تعرفت اليه ، لكنه كان الأكثر كمالاً . هناك آخرون ظهروا لي انفتاحيين ودودين واجتماعيين . اذا نظرت اليهم بدا لي أنهم مثل سطح كل شيء فيه يظهر نظيفاً وصافياً ، مثل مرآة أو طاولة مسحج آلي ، لكن النظر لايكفني دائماً . لأننا اذا مررنا أيدينا فوق سطحه شعرنا بتركيبه الحقيقي : هنا اختلاف في المستوى ، نقوس ، وتجويف ، ماذا في هذا التجويف ؟ تجد اليد أحياناً أخرى أشياء أسوأ من هذه : شظية زجاج أو معدن غير

مرئية . تجرح مثل أكثر الإبر حدة . لم يكن كائناً رخواً ، رخواً تماماً ، وكان على استعداد في بعض المناسبات للشجار ، ليس جسدياً ، فهو رجل ضعيف . وانما عقلياً . تساعده في ذلك القوة التي يمكن أن يمتلكها في تلك اللحظة . ربما كان متردداً . غير حازم ولاجسور — كما كان يستطيع أن يتخلى عن علاقاته مع زوجة المعلم خاثينتو — لكن غياب هذا الحزم وهذه الشجاعة انما يدل على اعتراف ذاتي بغياب شروط تحقيق شيء كان يقدره ولايريد أن يراه مبدداً . كان هذا يبدو لي ذا قيمة . كنت أثق به وأكثر من ذلك هو أنني معجب به . ومع ذلك لم أكن أرضى أن أكون مثله . ربما لانني لاأستطيع أولاأريد .

أما أنا فأجهل الصورة التي يأخذها رفاقي عني . لاشك انها الصورة التي يتركها الشباب دائماً عند من هم أكبر سناً منهم : صورة انسان ماتزال امكانياته وقدراته مجهولة وغير ملحوظة . ورغم ذلك كنت اشعر — ربما أرغب أيضاً — انني لن أصل إلى حالة كريستيان — أصبح ذلك مستحيلاً — كما لن أبقى في حالة الفيلسوف. كنت ألاحظ عندي شيئاً غير موجود عندهما . قوة أو قلقاً لااتجاه ولا مصير له . لكنه يمنعني أن أقبل للأبد ماكانت المصادفة وحدها تريد أن تقدمه لي . ربما أنا مدين بذلك لوالدي . فالقوة نفسها تفيد أحياناً للعمل باتجاهات مختلفة ، فكل شيء يكمن في معرفة استخدامها . لم أكن أملك طموحات ،

اذ ليس باستطاعتي وقتذاك امتلاكها . لكنني كنت أملك حداً من حدود المقاومة للأشياء الغريبة عني . أقبل هذا ، وأرفض ذاك . إلى هذا الحد وصلت ، لم يكن شيئاً كثيراً ، لكنه كاف .

ومرت الأيام على هذا الشكل ، لم تكن كثيرة ، لكنها مرت . عادت الباخرة التي أبحر فيها صديقي ورحلت من جديد . لم يأت ، لم يكتب لي من مكان ، ولم أعاتبه : فهمت انه قد لايكون ذلك سهلاً بالنسبة له .

سألني الفيلسوف عن مشاريعي ، فقلت له انه ليس لدي مشروع محدد ، مالم يكن البحث عن عمل ذي مردود أفضل : فثيابي لم تعد ثياباً وكنت بحاجة إلى بعض الأشياء . شفيت وشعرت أنني قوي من جديد ، فرئتي يبدو انها تعمل جيداً ، فهي لم تكن تؤلمني ، كما لم أعد أقذف تلك القطع الدامية التي كانت ترعبني . دائماً كنت نحيلاً ، لكنني قوي ونشيط .

– لن تصدقوني – قال الفيلسوف ، ذات ليلة ، بينما كنا نتبادل الحديث حول الطاولة المترنحة الموجودة في غرفتنا – لن تصدقوني ، لكنني ، منذ أيام ، وأنا أشعر بالحاجة لأن أدهن جداراً ، وليس أي

جدار ، كأن يكون من طوب وكلس ، وإنما هو جدار كبير ، مجصص بشكل جيد ، أدهنه بدهان زيتي . أريد لوناً أزرق — أنتهى .

ثم تابع بعد أن لزمنا الصمت :

— يقول صديق لي : على الرجل أن يعمل يوماً واحداً بجد ويرتاح تسعة وعشرين يوماً راحة تامة . أنا أكثر جذرية : أعتقد أن على الانسان ألا يعمل الا عندما يشعر بالرغبة بالعمل وأنا أملك هذه الرغبة : لقد تعفنت تماماً .

ضحك .

في اليوم التالي لم يرافقنا إلى الفرضة . ظهر عند الظهيرة عندما كنا نوشك أنا وكريستيان من الانتهاء من جمع القاذورات ، كما كان يقول الذئب .

— يجب أن تدعواني للغداء — صرح — أتمنى ألا تنكرا عليّ ذلك . تذكرا أنني أنا الذي علمتكما هذه التجارة الرابحة .

أضاف :

— ليس بحوزتي سنتيم واحد . ذهابي للبحث عن عمل هو الذي سبب لي ذلك .

فعلاً بحث عن عمل . لكن ليس له وحده : قبل أحد المقاولين المشهورين أن يقدم له عملاً هو طلاء عدة بيوت في منتجع بعيد .

ـ فكرت فيكما ، أنتما الاثنان ـ قال ، عند الغداء ـ أنا معلم ماهر والمقاول واثق مني ويعطيني بعض النقود مقدماً . لكن عندما اصل إلى المنتجع وليس هنا ؛ فثقته لاتذهب إلى أبعد من ذلك ـ أضاف مبتسماً .

ثم قال :

ـ مارأيكما ؟

كريستيان لم يجب . كان ينظر إلى مكان آخر . أنا أيضاً لم أقل كلمة واحدة ، لكن ايتشبيريا كان يعلم أنني أذهب معه : أنا أيضاً كانت بي رغبة لأن أدهن ، لكن ليس جداراً ، وانما نافذة ، نافذة واسعة ، بالأبيض وليس بالأزرق : أدهنها بالزيت أولاً ثم أطليها مرة أو مرتين بالمثبت وأمعجنها وأنعمها حتى لاتستطيع راحة اليد أن تلحظ أية خشونة فيها مهما كانت ثم أمرر فوقها فرشاة أو فرشاتين أو ثلاثاً من اللون الأبيض ، فتزهو من بعيد وأعرف من الذي قام بطلائها .

لكن كريستيان لم يشعر بالشيء نفسه ، فالأبواب والنوافذ لاتبعث

عنده إلا الشعور بالضيق ولربما بالكراهية : كانت أشياء عليه أن يفتحها دون ارادة من الأشخاص الذين يقبعون خلفها وليس بطريقة جيدة وإنما بالاكراه أو بالكسر وبهذا يعرض نفسه لتلقي أو مصادفة أشياء أكثر كراهية من تلك التي كان يبحث عنها . اختفى في تلك الليلة . لاحظنا انه لايأتي معنا قبل أن نصل إلى البيت بمئتين وخمسين أو خمسمئة متراً . في الليل كان دائماً يسير خلفنا ، حاني الرأس ، يداه في جيبيه المائلتين ، مستسلماً لمهمة التكهن بالمكان الذي يضع فيه قدمه ، أكثر من مهمة الرؤيا ، فهو لم يكن يميز أرض الأرصفة جيدة أكانت أم عادية : درجات ، حفر ، تبدلات — فهي ترابية هنا ، مرصوفة هناك ، مزفتة هنالك ، تنخفض هنا ، ترتفع هناك ، ترتفع هنا قاعدة مصباح زيت قديم وهناك ينفتح فج . سأل ألفونسو :

— ماذا أفعل ؟

— لست أدري — أجبته — كنت أسمع خطواته بينما كنت قادماً وفجأة ماعدت أسمعها ولم أستغرب الأمر لأن الرصيف ترابي .

— لنعد — طلب مني .

عدنا القهقرى ، فتشنا عنه الشارع خطوة خطوة بأماكنه البور والمغلقة أحياناً بصفائح الكالامين العتيقة وزواياه الرطبة النتنة وأكواخه التي

كانت تطل على الفجوج ، والفجوج نفسها ، دخلنا ، أخيراً ، مطمئين. لم نجده في أي منها ، فالشارع ، إضافة إلى ذلك ، كان يتصل بشوارع أخرى وأزقة ودروب وسبل تقود إلى كل مكان . كان من المستحيل أن نجوبها جميعاً . لكننا انتهينا إلى أن طفنا جميع تلال بالبارايسو . قال الفيلسوف من جديد :

ـ لنعد .

ـ تراه عاد إلى الميناء : ـ لمحت .

ـ ربما ـ أجاب ـ لكن العثور عليه هناك أكثر صعوبة .

طفنا الشارع من جديد .

ـ لابد أنه شعر بنفسه مريضاً ـ أصررت .

هز ايتشبيريا رأسه :

ـ كان سيقول شيئاً .

سكت لحظة ثم سأل :

ـ ماذا تعتقد انه حدث ؟

هززت كتفي :

ـ لايخطر لي شيئاً . قد يكون قد ذهب ليقابل أحداً .

عاد واستبعد ذلك برأسه .

ـ لا ، ليس لديه من يذهب لرؤيته ، أو بالأحرى لديه ، لكنهم لايريدون رؤيته ؛ نعم ، اللصوص . ان الخروج مع كريستيان ، لاأقول الخروج للسرقة ، وانما فقط للتنزه ، أمر غير مستحب عندهم وهو يعرف ذلك جيداً . ان اللصوص يهربون ممن يقع سجيناً مرات كثيرة أو ممن يخطىء في عمليات كثيرة ، ويتصرفون مثل التجار مع زملائهم الذين يفلسون . لا . ان الذي حدث شيء آخر .

سكت فبدأ من جديد :

ـ ان الذي حدث شيء آخر ، لأن كريستيان لايريد أن يخرج من بالبارايسو ولايريد أن يعمل ولا أن يتعلم العمل ، ليس لأنه لايملك القوة وانما لأنه يظن أن ذلك يتطلب منه جهداً عقلياً هو لايريد أن يبذله أو يعتقد انه غير قادر عليه .

توقف . نظر إلي . كنا تحت عمود كهربائي : مصباح كهربائي كان يلقي بضوئه الباهت فوقنا . كان وجهه يعبر عن انشغال وحزن .

ـ ولكن ماذا يستطيع أن يعمل ! ـ صاح ـ ماذا يستطيع أن يعمل ؟ إنه على الحافة الأخيرة ، على العارضة الأخيرة من درج المجارير . ولاشيء آخر تحتها ، ولاحتّى الشحاذة . كريستيان لايستطيع أن يكون شحاذاً . لايستطيع أن يطلب شيئاً ، يفضل الموت جوعاً على ذلك .

عنده شيء . إنها القسوة ، الكبرياء ، شيء يشبه الكرامة . يمنعه من قبول شيء . يشعر انه غير قادر على قبوله دون أن يحط من قدره . أمام المفهوم الذي يملكه عن نفسه ، والذي لاعلاقة له بكونه لصاً ، أو كائناً اجتماعياً -- فهو لايفهم هذه الأشياء -- وانما له علاقة برجولته . اذ ان كريستيان يملك مفهوماً عن الرجولة ، عن نفسه ، أو ربما ليس إلا حالة من اللاوعي ، قد لاتكون ولاحتى مفهوماً -- ذلك أنه يبدو أن هذا يحتوي ذكاء ، أو على الأقل بصيرة -- انما انعكاس خالص لحيوانيته ، لكنه شيء وشيء له قيمة ، على الأقل بالنسبة لي . انه يكره الشفقة ، ربما لأنه يعرف ماهيتها أو لأنه يعتقد انها لاترفع من شأن الانسان وإنما تبقي على فقره . كثيراً مافكرت أن هناك أشخاصاً كثيرين في هذه البلاد ، وخاصة في درك الطبقات السفلى ، يعيش فيهم طبع أبناء البلاد الأصليين بشكل عنيف . لكن ليس طبع الأحرار منهم وانما طبع الذين فقدوا حريتهم ، أي انهم يحتفظون بموقف أولئك : انهم صموتون ، نفورون ، عاصون على العمل ، عاصون على الخضوع ، لايريدون أن يستسلموا ، ولماذا يستسلمون ؟ كي يتحولوا إلى عبيد . وهل يستحق منهم هذا مثل هذا العمل ؟ يوجد أناس يكرهونهم ، نعم يوجد أناس يكرهونهم لهذا السبب ، لأنهم لايستسلمون ، لأنهم لايخلبعونهم . علي أن أقول لك انني أحترمهم وأحترمهم لأنني لست

بحاجة إليهم . فأنا لست بحاجة كي يعملوا من أجلي ، كي يخدموني أو يطيعوني . يوجد آخرون يتذمرون منهم ، رغم انهم لايكرهونهم : ينسون أن الانسان الذي يسيطر على آخر بشكل من الاشكال ، لأنه أذكى ، لأنه أغنى ، لانه يملك سلطة ، لأنه أقوى ، عليه ألا ينتظر من الذي يشعر انه خاضع أن يصل أبداً إلى مستوياته . فهو سيصلها أو سيحاول أن يصلها عندما لايشعر انه خاضع أو عندما يرى أو يفهم أن الذي يسيطر عليه حتى عندما يكون ذلك دون ارادة منه — لأنه أذكى مثلاً — يريد أن ينهض به ليجعل منه انساناً سوياً وليس خادماً مطواعاً . يجب الاقتراب منهم ، تماماً كما يقترب الأب أو الأخ من ابنه أو أخيه الذي يحبه ، لكن أين هم السادة ، الحكام والأوغاد الذين هم على استعداد لأن ينسوا أموالهم ، سلطتهم ، أو قوتهم : دون أن نأخذ بالحسبان انهم ليسوا الأكثر ذكاء . . . عندما تكون هذه الخاصة ـ التمرد ، موجودة في شخص من وسط اجتماعي آخر ، في رجل لاأحد يستطيع أن يجبره على خدمة أحد أبداً ، فان الناس يحترمونها أما اذا كانت في فقراء بائسين ، فانهم يكرهونها . لايجوز أن يحمل هذه الطبيعة انسان يكون فقيراً بائساً : فالفقير البائس يجب أن يكون وديعاً ، طيعاً ، مطيعاً ، مجداً ، وبكلمة مختصرة يجب أن يكون شيطاناً تعيساً تماماً . لكنني لاأدري اذا كانت كان لهذه الظاهرة علاقة بالأرض ،

أعتقد ان لا : فهؤلاء الرجال موجودون في كل مكان . وكريستيان يعلم جيداً أنه لو أبدى خضوعاً في مخافر الشرطة ، لما ضربوه ، لكنه رفض أن يكون كذلك ، وفضل أن يتلقى ضربات العصي واللكمات على أن يرضى لنفسه أن يكون خادماً أو أحمق .

سكت ، تنهد وتابعنا المسير . عاد ليتكلم :

ـ نعم ، ماذا يستطيع أن يعمل ؟

لم أدر بماذا أجيبه . ماذا كان باستطاعة كريستيان أن يعمل ؟ أن يسرق فقط ؛ أي أن يحاول أن يسرق ويواجه بذلك كل مايترتب عن هذا . إنه يفضل هذا على أي شيء آخر . اضافة إلى أن كثيرين غيره كانوا يفعلون ذلك . هذا بالضبط مافعله واللدي ، هذا ماكان يفعله الفيلسوف ، وأولئك الذين كانوا يجتازون سلسلة الجبال ليلاً ، هؤلاء وأولئك وكثيرون غيرهم ، أبطال بلاعظمة ، بلا لباس موحد ، أبطال بثياب رثة لايحملون جوازات سفر .

تكلم الفيلسوف من جديد :

ـ كنت أعرف أن شيئاً سيحدث وتهيأت للعراك ، لكن خصمي يزيح الجسد ، يفضل نوعاً آخر من العراك أسوأ من الذي أقدمه له . هل رأيت شيئاً أكثر محالاً من هذا ؟

دافعت عن كريستيان :

– هو يعرف ذلك النوع الآخر من العراك ويفضله .

– انه أسوأ من الأسوأ .

– بالنسبة لك ، وليس بالنسبة له . ضع نفسك مكانه وسترى انه على حق .

– حسناً ، ربما كان صحيحاً .

لم يكن هناك شيء آخر نتكلم عنه ولم نتكلم . كان علينا أن ننتظر . ألفونسو كان يفكر بكريستيان ؛ وأنا تركت كريستيان وتذكرت والدي : خلال أعوام كثيرة كان يعرف كم من المجوهرات كان هناك ، كيف كانت ، وأين هي موجودة ، كيف سيدخل البيت وكيف سيخرج ، ماهي المسافة التي سيقطعها من باب البيت وحتى الأثاث الذي خبئت فيه.وأكثر من ذلك انه كان يحتفظ في علبة خاصة بالمفاتيح التي يجب أن يستخدمها في اللحظة التي يقرر أن يسرقها فيها . لكنه لم يكن يقدر بل كان ينتظر حتى اللحظة الأخيرة ، تلك اللحظة التي لايبقى أمامه فيها طريقة أخرى . كان يزور البيت بين فترة وأخرى ويجرب المفاتيح : لاشيء تغير والأقفال هي ذاتها . كان يعرف عادات صاحب المجوهرات ، ساعة استيقاظه ، ساعة نومه ، ساعة خروجه للتنزه

وساعة عودته إلى البيت . أسباني آخر ، كان لصاً أيضاً ، حكم عليه بالنفي إلى أوشوايا لسنوات كثيرة ، أسر له الخبر ، فدخل والدي البيت خادماً — وقد ساعده على ذلك كونه غاليثي — درس كل شيء دون أن يسرق شيئاً . كان من السهل عليه ذلك ، لكنه فضل الانتظار : فالمجوهرات لن تتحرك من مكانها . كانت بالنسبة اه احتياطاً وصاحبها رجل متقدم في السن ، قعود ومالك للبيت الذي يعيش فيه . وذات يوم حانت اللحظة : ماتت والدتي وبقي أنيثيتو ايبيا وحيداً مع أبنائه الأربعة . لم يعد باستطاعته أن يتحرك بحرية كما كان يفعل من قبل وعليه أن يكون حذراً : ان وقوعه سجيناً يعني هجر أولاده ، الذين لم يعد عنده من يسند أمرهم اليه . ذهب لكن صاحب المجوهرات مات في تلك الأيام نفسها . ربما في اليوم نفسه الذي ماتت فيه والدتي . كان الورثة يقيمون في البيت . فتح والدي الباب عنوة ودخل . صادفه أحد الورثة عند خروجه . توجد أشياء يظن الانسان انها تنقذه ، لكنها تقتله .

بقيت مع ايتشبيريا أمام الطاولة زمناً طويلاً جداً ، ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات ونحن ننتظر : كنت أقرأ مجلة قديمة وألفونسو يتأمل ويصغي ، كان ينهض فجأة ، يتوجه إلى الباب فيفتحه ويطل على فناء الدار ثم يعود .

ـ لاأنوي تغيير طبيعته ـ قال بعد عودته من احد مشاويره ـ كل ماأريده هو أن يعيش . لايهمني ماذا يفعل ولا ماذا يريد أن يفعل لو كان شخصاً آخر ، شخصاً أعرف أنه سينفذ مايريد أن يفعله . خيراً كان أم شراً ، أو يحاول أن يفعله ، أن يسرق ، أن ينظم اضراباً أو أن يكتشف الباسو نواويسته . كل شيء يحتاج إلى كفاءات ، كل شيء ، مهما اختلف مايفعله الواحد أو الآخر . لكنها غير متوفرة عند كريستيان ، وهذا هو الأسوأ ، واقل مايتوفر عنده يتعلق بما يريد أن يفعله ، كما أعتقد وبكل تأكيد ، انه يريد أن يفعله .

أصغيت اليه . والدي كان يملك كفاءات ، ومع ذلك . . . .

سكتنا واستلقيت منهمكاً من التوتر ، نمت . شعرت بعد ذلك أن الفيلسوف استلقى بدوره وهو يتنهد . عاودني النوم واستيقظت على صوت أحدهم يفتح الباب بحذر ، نعم بحذر لكنه لايصل حد عدم السماح للمفاصل باحداث بعض الصرير . انتصبنا في الفراش . ظهرت صورة رجل في فراغ الباب : انه كريستيان .

ورغم كل شيء ، سأل ألفونسو :

ـ هل هذا أنت ، ياكريستيان ؟

ســرب كريستيان الى مسامعنا تمتمة كان من الممكن أن

تعني أشياء مختلفة ، لكنها كانت كافية بالنسبة لنا : انه هو وهاهو هناك . استلقينا من جديد ولزمنا الصمت . لم يضف ايتشبيريا أي سؤال آخر . أغلق كريستيان الباب ، تقدم بتثاقل ، بحث عن الطاولة والكرسي وجلس . بقي هناك بلا كلام ولاحراك واستمر كذلك الليل كله ، دونأن يبرهن عن وجوده بأي شيء إلا بالبصاق الذي كان يقذف به بين الحين والآخر إلى الأرض .

طلع الفجر بطيئاً ، ومع ازدياد نور النهار الداخل إلى الغرفة كنت أرى كريستيان بشكل أفضل : كان يجلس إلى الطاولة وقد أدار ظهره الينا وأسند مرفقيه إلى سطحها ووجهه بين يديه ؛ بدا نائماً ، كان راقداً تماماً لكنه بقي يبصق بين الحين والآخر . لماذا كل ذلك ؟ لم يعتد أن يفعلذلك بهذا الشكل المتكرر : استندت إلىمرفقي ونظرت إلى الأرض : بين قدميه ذاتي النعل المتواضع بقعة داكنة وواسعة وحولها هنا وهناك أخرى أصغر وضاربة إلى البياض ، لكزت الفونسو بمرفقي ، فأدار رأسه ونظر إلي يسألني بحركة من رأسه عما حدث . اشرت إلى البقعة : ربما كان كريستيان جريحاً ، تلك كانت دماً . نظر ايتشبيريا باهتمام واستغراب ، تمتم ونهض حالاً ، ارتدى ثيابه بسرعة غير معتادة ، اتجه إلى الباب ففتحه واستدار نحو كريستيان ، وضع يده على كتفه وقال :

ـ اسمع .

ذعر كريستيان لكنه لم يرفع رأسه .

ـ ماذا ؟ ـ دمدم .

سأله ألفونسو :

ـ هل أنت جريح ؟

هز كريستيان كتفيه دون أن يعطي جواباً .

ألح ألفونسو :

ـ أجبني .

ـ ليس بي شيء ـ قال أخيراً .

ـ وهذا الدم ؟

هز كتفيه من جديد وقال :

ـ انه فمي .

ـ أليس بك شيء آخر ؟

ـ لاشيء .

تردد ايتشبيريا .

ـ ارفع رأسك ـ قال محاولاً أن يضفي على صوته نغمة استلطاف.

رفض كريستيان .

ــ دعني وشأني .

مد ايتشبيريا ذراعه ولمس بيده رأسه فهب كريستيان بحركة سريعة نصف واقف في الكرسي وصرخ بعنف :

ــ قلت لك ، دعني !

ثم عاد وجلس ببطء . لزم ألفونسو الصمت إلى جانب الطاولة : لقد رأى وجه كريستيان . في هذه الأثناء وبينما كان ألفونسو يحاول أن يقوم بأقل حركة ممكنة ، نهضت وخرجت إلى فناء الدار لأغتسل ، لحق ألفونسو بي بعد لحظة ، نظرت اليه فقال مجيباً :

ــ وجهه !! كأنهم رقصوا فوقه .

سكتّ فأضاف :

ــ علينا أن نفعل شيئاً لايخطر ببالي ماهو . لن يتركنا نلمسه ، ولانستطيع أن نتركه بهذه الحال .

خطر له بعد لحظات بينما كنا نغتسل :

ــ علينا أن نستعين بالسيدة اسبيرانثا .

كانت السيدة اسبيرانثا جارتنا ، زوجة المعلم خاثينتو . ذهب ألفونسو

وقابلها قبل أن يخرج إلى الميمبريو . أصغت اليه السيدة التي وقفت أمام باب غرفتها باهتمام وقالت :

ـ لاتهتم ياجار ، سأفعل ذلك بكل سرور . اذهب مطمئناً آتني بما تقوله .

كانت ، كما هي دائماً ، نظيفة ، ممتلئة ، سمراء ، حديثة الاغتسال وتسريح الشعر . كانت تضع مريولاً أبيض ، صغيراً يصل إلى منتصف تنورتها . انها امرأة كأنها خلقت لتكون هدية . ودعناها وقالت لنا :

ـ سأذهب قبل أن يستيقظ الأطفال .

انتظرنا . قرعت المرأة الباب لكنها لم تلق جواباً . وعندئذ فتحته وقالت :

ـ صباح الخير ، ياجار .

رن صوتها في تلك الغرفة ، عجيباً ، حلواً ، صافياً ، غير معتاد هناك . ومع ذلك فانها لم تلق جواباً . أصرت المرأة وقالت وهي تدخل الغرفة واثقة من نفسها :

ـ هل أستطيع ، ياجار ، أن أسدي لك خدمة ؟

أحرز صوتها عذوبة ساحرة . سمعنا مايشبه الزمجرة ثم انتحاباً حاداً وشيئاً يشبه التمتمة : بكى كريستيان . رد عليه في الغرفة المجاورة أحد أطفال السيدة اسبيرانثا باكياً . ذهبنا .

ـ لاشك ـ قال ألفونسو ، موفراً كل انتقاد ـ هذه هي المرة الأولى التي يكلم أحد كريستيان بهذه الطريقة .

عملنا أكثر من أي وقت مضى . عندما بعنا المعادن للون بيبه لفت الفيلسوف انتباهي قائلاً :

ـ أنا ذاهب إلى الغرفة لأحمل بعض الأشياء لكريستيان . تستطيع أن تنتظرني وإلا فانه بامكانك أن تتناول الغداء وحدك . خذ .

ناولني بعض النقود ، لكنني لم أرض أن أتناول الغداء وحدي ، انتظرته في المكان نفسه الذي كان ينتظرنا فيه كريستيان ، وحولي برك البول وأكوام روث الخيل . لم أبال بالروث ولا البول ، كنت أشعر اني برفقتي لألفونسو وحدها كنت أساعده في معركته ، وهذا ماكان يغبطني . عاد سريعاً وذهبنا إلى « البوربنيير » ، مطعم الدرجة الثالثة ، بنادله المهزوم وصاحبه ذي الوجه الراشح .

جلسنا وطلبنا الغداء .

ـ انه أكثر هدوءاً الآن ـ شرح لي ايتشبيريا ـ لكن عنده مايكفيه لعدة أيام .

صمت ثم تكلم من جديد :

ـ غريب ، تحدثت اليك ليلاً عن مشاجرة ، كانت ستقوم بيني وبين كريستيان ، حسناً ، انها مشاجرة بالمعنى المجازي ، وقلت لك ان كريستيان يتحاشاها باحثاً عن أخرى . لقد فشل في الأخرى ولم يبق أمامه إلاأن يجابهني ، أو بالأحرى ، عليه أن يجابه نفسه ، لأن مشاجرته الحقيقية مع نفسه وليست معي . لاأستطيع أن أكون سعيداً لأنهم ضربوه ، لكنني سعيد لانه فشل ، هذا الفشل لصالحي . . . على كل الأحوال علينا أن ننتظر .

انتظرنا . قال الفيلسوف أخيراً وليلاً بعد عدة أيام ونحن في غرفتنا :

ـ المقاول يلاحقني فأعطيته كلمة شرف بأننا سنذهب لتنفيذ ذلك العمل . اليوم خميس . مارأيكم في أن نذهب يوم السبت ؟ ونصل هناك يوم الاثنين أو الثلاثاء .

لم يلق جواباً من أحد وعندئذ سأل :

ـ مارأيك ياأنيثيتو ؟

ـ سنذهب حين تريد ذلك ـ أجبته .

استدار برأسه إلى كريستيان ، الذي أدار لنا ظهره وقال مجهداً نفسه :

- وأنت ، ياكريستيان ؟ .

تأخر قليلاً في الاجابة :

- لست أدري .

أضاف ألفونسو :

- على كل الأحوال سنذهب يوم السبت .

طلع يوم مكفهر . نهضنا ، أنا وألفونسو باكراً ، خرجنا إلى فناء الدار فاغتسلنا وعدنا إلى الغرفة من جديد : كان كريستيان قد استيقظ أيضاً . لزمنا الصمت نحن الثلاثة لبرهة . ألقى الفيلسوف نظرة في أرجاء الغرفة ، جمع الغطاء الذي حزمه ووضعه تحت ذراعه ، لم يكن حجمه كبيراً ، وخرجنا إلى الفناء من جديد ، الذي كان مقفراً . انطلقنا ، انطلقت أنا وألفونسو فقط ، لأن كريستيان بقي واقفاً في باب الغرفة ينظر بعيداً . نظرت اليه من طرف عيني : كانت عيناه كئيبتين ومازالتا مزرورقتين من الضرب وعلى وجهه علائم قلق قريب من الغم . نظرت اليه حين سرت . أردت أن التفت اليه مرة أخرى وأنظر بعد أن سرت عدة خطوات ، لكن ألفونسو نبهني :

- لاتنظر اليه ولاتتعجل .

هبطنا خطوة خطوة ، وكل خطوة كانت تؤلمنا أكثر من الأخرى . مرت لحظة اعتقدت خلالها أن الفيلسوف سيعود إلى كريستيان ، لكنه لم يفعل : ومع ذلك كان سينتهي كل ذلك قريباً : عشرون خطوة أخرى ونصل إلى النقطة التي ينحدر فيها الشارع وينعطف بقسوة . غاب هناك كريستيان والبيت عن نظرنا . أدركتنا الصرخة هناك .

– انتظراني !

كانت صرخة مبحوحة ، صرخة انسان يتمزق .

توقفنا . تقدم كريستيان نحونا .

وعندما انضم الينا ، استأنفنا المسيرة .

تمت



١٩٨٣/٥/٤٥٠٠





السلسلة الروائية

قد تكون الرواية هي الجنس الادبي الذي يستجيب لرغبات الانسان الفنية في عصر التصنيع المعمم . وهذا ماجعلها تتقدم ـ نوعا وكما ، انتاجا واستهلاكا ـ على بقية الاجناس الادبية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ان في العالم المصنع او في العالم غير المصنع. ففي اقل من نصف قرن تكونت الرواية العربية ونمت وبدات تنتج تحفا فنية ذات قيمة عالمية .

ولقد رات وزارة الثقافة والارشاد القومي ان تسهم في حركة تجديد الرواية العربية بسلسلة دورية تقدم في البداية ، كل ثلاثة اشهر رواية عالمية مترجمة ، وسوف تعمل كل ما بوسعها كي تسرع هذه الوتيرة بحيث تصبح روايتها يوما شهرية .

ورواية ابن لص هي الرواية الثالثة في هذه السلسلة لمؤلفها مانويل روخاس سبولبيدا من كبار مؤلفي الرواية بأمريكا اللاتينية.

والترجمة لا تقتصر على التمهيد للتاليف وحسب ، كما قد يظن البعض ، بل لها دور آخر هو الذي تتوخاه الوزارة من سلسلتها هذه ، نقصد اننا نقيم بالترجمة حوارا بيننا وبين العالم ، على القمة الاعلى اي القمة الانسانية .

وسوف تفسح الوزارة ، تحقيقا لهذا الغرض ، مكانا خاصا لرواية العالم الثالث . الرواية هي اولى روايات العالم الثالث في هذه السلسلة .

سعر النسخة

١٨ ل٠س٠ل

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨٣